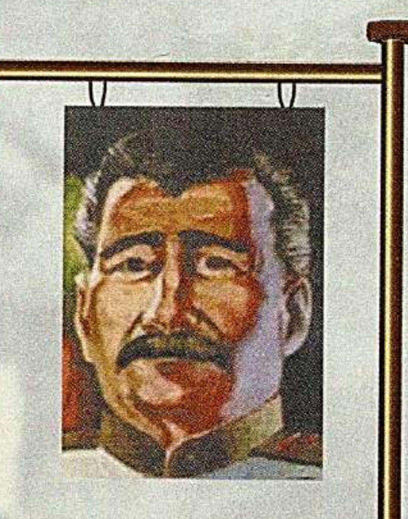
روايـة

جورج أورويل

1984



ترجمة: أنور الشامي

المركز الثقافي العربي

جورج اورويل

1984

الكتاب

1984

تأليف

جورج أورويل

ترجمة

أنور الشامي

الطبعة

الأولى، 2006

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-144-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

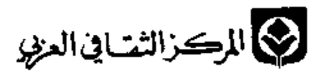
فاكس: 01343701 ـ 961+

جورج أورويل

1984

روايـة

ترجمة: أنور الشامي



الجزء الأول

الفصل الأول

كان يوماً بارداً من أيام نيسان بسمائه الصافية، وكانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد الظهر، عندما كان ونستون سميث، بذقنه المنكفئة على صدره اتقاء لريح بارد ينسل مسرعاً عبر الأبواب الزجاجية لمبنى النصر، ولم يحل اندفاعه السريع دون دخول دوامة من الريح المحملة بذرات الغبار.

كان الممر الذي يحذاه عابقًا بروائح الملفوف المسلوق والفرش المهترئ وعند نهاية هذا الممر علّقت صورة ملونة وذات حجم كبير لا يتناسب مع مثل ذلك الممر الضيق، وكانت تمثّل وجهاً ضخماً يربو عرضه على المتر، وهو وجه رجل في الخمسة الأربعين، ذو قسمات جميلة وإن كانت لا تخلو من خشونة وصرامة، ويبرز فيه شاربان أسودان كثّان. مشى ونستون باتجاه السلالم للصعود، فالمصعد نادراً ما كان يعمل، إما بسبب عطل وإما لانقطاع التيار الكهربائي معظم ساعات النهار، انسجاماً مع خطة توفير الطاقة استعداداً لفعاليات "أسبوع الكراهية". كانت الشقة التي يقصدها ونستون في الطابق السابع وكان عليه أن يصعد سلماً طويلاً، ولأنه في التاسعة والثلاثين من عمره ويشكو من دوالي فوق كاحله الأيمن، فقد راح يرتقي درجات السلم بخطى وئيدة متوقفاً للاستراحة عدة مرات. وعند كل منعطف من منعطفات السلم السبعة، وعند كل محطة من محطات المصعد وبمواجهة الباب، كانت

تنتصب صورة الوجه الضخم لتحدق في وجه كل قادم. إنها واحدة من تلك الصور المرسومة على نحو يجعل المرء يعتقد أن العينين تلاحقانه أينما تحرك. وكان يوجد أسفل تلك الصورة عبارة بارزة تقول: «الأخ الكبير يراقبك».

عندما دخل ونستون إلى الشقة سمع صوتاً يسرد قائمة أرقام تتعلق بإنتاج الحديد الخام، وكان الصوت ينبعث من لوحة معدنية مستطيلة الشكل تشبه مرآة معتمة معلّقة على الحائط الأيمن. أدار ونستون مفتاحاً فخفتت حدة الصوت قليلاً وإن ظل الكلام واضحاً كان بمقدور ونستون تخفيض صوت هذا الجهاز والذي كان يسمى «شاشة الرصد»، ولكن لم يكن بوسعه إيقاف تشغيله بشكل تام. انتقل ونستون نحو النافذة بجسمه النحيل الضئيل الذي زاد من ضآلته الزي الأزرق، وهو لباس الحزب، وكان شعره مائلاً للشقرة ووجهه شديد الاحمرار، أما بشرته فكانت مخشوشنة من أثر الصابون الرديء وشفرات الحلاقة غير الحادة وبرودة فصل الشتاء الذي كان قد شارف على نهايته.

وعلى الرغم من أن زجاج النافذة كان موصداً، فقد كان الجو خارجها يبدو بارداً، وفي الشارع كانت زوابع الرياح تثير الغبار والأوراق الممزقة فتتصاعد لأعلى في أشكال حلزونية. ورغم أن الشمس كانت ساطعة والسماء داكنة الزرقة فقد بدا كما لو أن كل الأشياء قد طمس لونها، ما خلا تلك الصور التي كانت معلقة في كل مكان. فمن كل زاوية كان ذلك الوجه ذو الشارب الأسود يطل محدقاً في وجه المارة. وعلى واجهة المنزل المقابل كانت تنتصب واحدة من تلك الصور المكتوب تحتها بأحرف بارزة عبارة «الأخ الكبير يراقبك»، وكانت العينان السوداوان تنفذان إلى أعماق ونستون. وفي الشارع كان ثمة ملصق آخر ممزق من إحدى زواياه وتظهر عليه تارة وتنحسر تارة أخرى عبارة إنجسوك (الاشتراكية الانجليزية)، وذلك بحسب هبات الرياح. وفي

الأفق البعيد كانت تُحوم طوافة بين السطوح تقترب تارة وتبتعد تارة فتبدو أشبه بخنفساء زرقاء، ثم تنطلق منعطفة في مسار آخر. ولم تكن هذه الطوافة غير دورية شرطة تتلصص على الناس عبر النوافذ، غير أن الطوافة لم تكن ترهب الناس كما ترهبهم شرطة الفكر.

كان الصوت المنبعث من شاشة الرصد ما يزال يكرر إحصائيات إنتاج الحديد الخام ويعيد نبأ تحقق أهداف الخطة الثلاثية التاسعة. وكان الجهاز يرسل ويستقبل في آن واحد، فبإمكانه التقاط كل صوت، يصدر عن ونستون، يتجاوز حد الهمسات الخافتة، فضلاً عن أنه يبقى مراقَباً بالصوت والصورة ما دام موجوداً في مدى رؤية هذه الشاشة المعدنية. ولم يكن هنالك بالطبع من طريقة لمعرفة ما إذا كنت في مرمى المراقبة أم لا في أية لحظة. أما كم مرة أو كيف يمكن أن تخترق شرطة الفكر حياتك الخاصة فهذا أمر لا يمكن التنبؤ به، وإن كان من المفروض أنها ترصد الناس جميعاً بلا انقطاع، إذ باستطاعة هذه الشرطة أن تدخل، متى شاءت، على خط أيّ كان. كان عليك أن تعيش، بحكم العادة التي تحولت إلى غريزة، مفترضاً أن كل صوت يصدر عنك مسموع وأن كل حركة مرصودة.

وقف ونستون مديراً ظهره لشاشة الرصد، فقد كان يظن أن هذا أسلم عاقبة بالرغم من أن أمر المرء يمكن أن ينكشف من ظهره أيضاً. وكان مركز عمله يبعد مسافة كيلومتر واحد عن وزارة الحقيقة، التي يرتفع مبناها ذو اللون الأبيض وسط منظر طبيعي كالح. وفكّر ونستون وفي نفسه شيء من التقزز والامتعاض، «أهذه هي لندن المدينة الرئيسية في القطاع الجوي رقم واحد؟ وثالث أكبر مقاطعات أوقيانيا سكاناً». لقد حاول جاهداً أن يسترجع بعضاً من ذكريات الطفولة محاولاً أن يتبيّن ما إذا كانت هذه هي صورة لندن في كل الأوقات؟ أتراها كانت بمثل هذه الطرقات المزدحمة و المنازل المتهالكة؟ أكانت على هذه الحال في القرن التاسع عشر، حيث تظهر على جوانبها دعائم من الخشب،

ونوافذها مرقعة بقطع من الكرتون وسقوفها من صفائح الحديد المطعّج، وأسوار حدائقها مهدّمة ونافرة في كل الاتجاهات؟ أكانت موجودة تلك الأماكن التي أحدث القصف فيها حفراً كبيرة تعبق بالغبار، وتبدو للعين أوراق الصفصاف مختلطة بأكوام النفايات، وقد ظهرت هناك مجموعة من الأكواخ الخشبية أشبه بأقفاص الدجاج؟ ولكن عبثاً حاول، فلم يكن باستطاعته أن يتذكر شيئاً عن ذلك الماضي: إذ لم يبق له من ذكريات الطفولة إلا صور غير واضحة المعالم.

كانت وزارة الحقيقة - مينيترو في اللغة الجديدة - تختلف اختلافاً بيّناً في مظهرها عن أي بناء آخر تقع عليه العين، فهي بناء هرمي ضخم من الأسمنت الأبيض اللامع، يرتفع عالياً يناطح السحاب، طبقة فوق طبقة، ثلاثمائة متر في السماء، ومن مكانه، كان باستطاعة ونستون أن يقرأ على الحائط الأبيض كتابة ذات أحرف كبيرة بارزة، هي شعار الحزب المؤلف من جمل ثلاث:

الحرب هي السلام

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة.

كانت وزارة الحقيقة تتألف، حسبما يقال، من ثلاثة آلاف غرفة فوق الأرض، فضلاً عن أقبية تابعة لها تحت الأرض. ولم يكن في لندن سوى ثلاث بنايات شبيهة بها من حيث المظهر والحجم، وهذه البنايات كانت تحجب ما حولها من منازل، ولذا كان من الممكن لمن يقف فوق سطح مبنى النصر أن يرى البنايات الأربع في آن واحد. وكان يشغل هذه البنايات أربع وزارات تشكّل الجهاز الحكومي، فوزارة الحقيقة تختص بشؤون الأخبار ووسائل اللهو والاحتفالات والتعليم والفنون الجميلة، ثم وزارة السلام التي تُعنى بشؤون الحروب، ثم وزارة الحب وهي المسؤولة عن حفظ النظام وتطبيق القانون، ثم أخيراً وزارة الوفرة وهي ترعى الشؤون الاقتصادية.

كانت وزارة الحب في الواقع مصدرا للرعب والخوف، فهي بناء بدون نوافذ على الإطلاق. لم يسبق لونستون أن دخل هذه الوزارة، بل لم يحدث أن اقترب منها حتى مسافة نصف الكيلومتر، إذ كان لا يسمح بدخولها إلا في مهمّة رسمية، وحتى هذا الدخول يكون عبر سياج من الأسلاك الشائكة والأبواب الحديدية مروراً بمرابض للمدافع والرشاشات المخيفة، كما أن الطرقات المؤدية إلى المبنى كانت دائماً مراقبة من قبل حرس ذوي وجوه كالحة يرتدون بزات سوداء ويحملون الهراوات المدببة.

استدار ونستون بعد أن رسم علامات التفاؤل التام على وجهه، وهو ما كان يُستحسن فعله عندما يواجه المرء شاشة الرصد، واجتاز الغرفة إلى المطبخ الصغير، إذ فاته تناول طعام الغداء في المطعم بسبب تأخره في الوزارة. وكان يعلم أن المنزل خالٍ من الطعام إلا من قطعة خبز سوداء كان تركها لتكون إفطاراً له في صباح الغد. تناول عن أحد الرفوف زجاجة تحتوي على سائل لا لون له وقد ألصق على الزجاجة ورقة كتب عليها «جن النصر». وكانت تنبعث من هذا الشراب رائحة مُمرضة أشبه برائحة الزيت كأنما هو كحول مستخرج من الأرز الصيني. ومع ذلك صبّ ونستون لنفسه بعضاً منه في كوب شاي ثم استجمع قواه وتجرّعه كما لو كان يتجرع دواء.

وفي الحال انقلب وجهه قرمزياً وسالت الدموع من عينيه، فقد كان الشراب شبيهاً بحامض الصوديوم، فضلاً عن أنه عندما ابتلعه شعر كما لو أنه ضُرب على مؤخرة رأسه بهراوة من المطاط. لكن بعد لحظات كانت حدة الألم الذي شعر به في جوفه قد خفّت، وأخذ الشعور بالراحة والانشراح يسري في جسده، وعندئذ مد يده إلى علبة السجائر وهي أيضاً تحمل اسم «سجائر النصر» واستل منها سيجارة، وما كاد يرفعها من العلبة حتى راح ما فيها من تبغ يتناثر على الأرض، فاستبدلها بأخرى كانت أحسن حالاً. ثم عاد إلى الغرفة فجلس إلى طاولة صغيرة كانت

إلى يسار شاشة الرصد وفتح درجاً كان بها فأخرج ماسكة قلم ومحبرة ودفتراً صغيراً ذا ورق سميك وخلفية حمراء وغلاف رخامي اللون.

ولسبب ما، كان الجهاز في غرفة الجلوس موضوعاً في مكان غير اعتيادي، فبدلاً من أن يوضع، كما جرت العادة، عند نهاية الجدار حيث يستطيع كشف الغرفة كلها، وُضعَ الجهاز في الجدار الأطول مقابل النافذة، الذي كان في جانب منه تقعُّر خفيف جلس فيه ونستون. ولعل هذا التقعّر قد قُصد به أن يكون مكاناً لخزانة الكتب. وهكذا بجلوسه في ذلك المكان وظهره مُسندٌ إلى الوراء، كان ونستون خارج مدى رؤية شاشة الرصد، مع أن الجهاز كان باستطاعته التقاط ما يصدر عن ونستون من أصوات. وقد كان تصميم الغرفة وجغرافيتها هو الذي أوحى له وألهمه جزئياً بذلك العمل الذي كان ينوي القيام به في تلك اللحظة.

ولكن هذا الإيحاء كان مصدره أيضاً ذاك الدفتر الذي أخرجه من درج المنضدة وقد كان دفتراً جميلاً للغاية، إذ كان ورقه الناعم ذو اللون الأبيض، والذي أكسبه القِدم شيئاً من الاصفرار، من نوع تم التوقف عن إنتاجه منذ أربعين عاماً على أقل تقدير، ومع ذلك كان بالإمكان التكهن بأن الدفتر أقدم من ذلك. وكان قد عثر عليه معروضاً في واجهة حانوت خردوات صغير في حي من الأحياء الفقيرة (لا يتذكر اسمه أو موقعه)، وما إن وقعت عليه عيناه حتى تملكته رغبة عارمة في امتلاكه. ورغم أنه لم يكن مسموحاً لأعضاء الحزب بالتردد على مثل هذه الحوانيت العادية الكائنة في الأسواق الحرة، كما كانت تسمى، فلم يكن هذا القانون يطبق بصرامة، لأنه كانت هنالك أشياء كثيرة، مثل أربطة الأحذية وشفرات الحلاقة، يتعذر على المرء الحصول عليها بغير هذه الطريقة. وكان ونستون وهو في طريقه إلى هذا الحانوت يتلفت ذات اليمين وذات الشمال وهو يتوجس خيفة، بل ولم يدلف إليه حتى اطمأن إلى أن أحداً لا يراقبه، ثم اشترى الدفتر بدولارين ونصف الدولار، دون أن يكون لديه هدف محدد من وراء شرائه، وتأبط الدفتر مخفياً إياه بعناية وحمله

إلى منزله كمن يحمل إثماً، إذ كانت مجرد حيازة مثل هذا الشيء مدعاة للشبهة حتى لو كان خلواً من أي كتابات.

والفكرة التي راودته حينذاك هي أن يستعمله كمفكرة، ولم يكن في ذلك ما يخالف القانون (ليس لأن ذلك مسموح به بل لأنه لم يكن هناك قانون في الأصل يحدّد ما هي المخالفات). ومع ذلك إذا ما افتضح أمره فإنه كان حتماً سيعاقب بالإعدام أو السجن لخمس وعشرين سنة في معتقل من معتقلات الأشغال الشاقة. وضع ونستون ريشة في ماسكة القلم ثم مصّها قليلاً ليخلّصها مما علق بها. كان القلم أداة زخرفية قديمة نادراً ما استعمله حتى في التوقيع. لقد حصل عليه بشكل سري وبصعوبة بالغة إذ كان يشعر أن ورقاً ناعماً أبيض اللون مثل هذا الورق يجب أن يكتب عليه بريشة حقيقية لا أن يخربش عليه بقلم جف مداده. كان ونستون في الواقع غير معتاد على الكتابة باليد إلا في حال تدوين بعض الملاحظات القليلة، لقد كان معتاداً على أن يملي كل شيء على «الآلة الكاتبة الناطقة»، وهذه بالطبع كان من غير الممكن أن يسجل عليها ما يروم تسجيله في مفكرته. ثبّت الريشة ثم غمسها في المحبرة، وبدا كما لو كان متردداً في أمر ما لبرهة واحدة، وسرت القشعريره في أوصاله، فمجرد أن يخط بيده على الورقة كان يمثل له قراراً حاسماً وخطيراً، وكتب بأحرف صغيرة غير مقروءة جيداً على صدر الصفحة: **4 نيسان 1984.**

ثم اعتدل في جلسته، وقد تملّكه شعور بالعجز التام. فقبل كل شيء لم يكن متأكداً أن العام كان 1984، فقد يكون الزمان قريباً من ذلك التاريخ، لأنه كان متأكداً أن عمره لم يتجاوز التاسعة والثلاثين، وكان يعتقد أنه من مواليد 1944 أو 1945، ومع ذلك كان من المستحيل في هذه الأيام تحديد أي تاريخ مضى عليه سنة أو سنتان.

بعد ذاك راح يتساءل: لمن يكتب هذه المذكرات؟ أيكتبها للمستقبل؟ أم للأجيال القادمة؟ وأطرق للحظة وهو يفكر في هذا التاريخ

المشكوك في صحته والذي دوّنه في صدر الصفحة الأولى، وسرعان ما امتدت يده ليتناول قاموس اللغة الجديدة وبحث باهتمام عن كلمة «التفكير المزدوج»، فلأول مرة يستشعر خطورة ما أقدم أو ما هو مقدم عليه، وتساءل في نفسه كيف يمكن أن يتسنى له الاتصال بالمستقبل؟ إن مثل هذا العمل مستحيل في حدّ ذاته، إذ إن المستقبل إما أن يكون شبيهاً بالحاضر وبالتالي لن يتجاوب معه، أو مغايراً له وحينئذ لن يكون لتكهناته التي يعيش من أجلها أي معنى.

مضت لحظات وهو يحدق في الورقة التي أمامه ببلادة. وكانت شاشة الرصد قد انتقلت لإذاعة موسيقى عسكرية صاخبة، وقد تولاه الفزع ليس لأنه فقد القدرة على التعبير عما تجيش به نفسه فحسب، بل لأنه نسي كلياً ما كان يحيك في صدره ويهيّئ له نفسه منذ أسابيع. لقد كان يظن أنه لن يحتاج إلى شيء آخر غير الشجاعة والإرادة، إذ الكتابة أمر يسير ولا تحتاج إلى كثير عناء، وما عليه إلا أن ينقل ما كان يجول بخاطره لسنوات من حوارات طويلة مع النفس إلى الورق، تلك الحوارات التي كانت تعتمل في رأسه وتسبب له القلق وعدم الارتياح. بيد أنه في هذه اللحظة بدا له كما لو أن ينابيع هذه الأفكار قد جفّت، بل لقد بدأ يشعر بألم الدوالي في ساقه اليمنى، ولم يجرؤ على حكها خوفاً من أن تلتهب كالسابق. كانت الثواني تمضي بسرعة، ولكنه لم يكن يعي من حوله غير الصفحة البيضاء التي أمامه، والألم الذي في كاحله، وصوت الموسيقى الصاخبة وشعور خفيف بالدوار بتأثير شراب الجن.

وفجأة وجد نفسه يكتب، وقد تملكته حالة من الرعب. لم يكن يدرك تماماً ما كان يفعله. كان خط يده الشبيه بخط الأطفال يميل في تعرجات إلى أعلى وإلى أسفل وقد انفصلت الأحرف الأولى والنقط وعلامات الوقف عن الكلمات، وقد كتب ما يلي:

«الرابع من نيسان 1984، ذهبت إلى إحدى دور السينما وكانت جميع الأفلام التي تعرض أفلاماً حربية، وكان الفيلم الذي يلقى إقبالاً هو

ذلك الذي في مشهد منه سفينة ضخمة تتعرض وهي محملة باللاجئين لقصف بالقنابل في مكان ما من البحر الأبيض المتوسط، وقد سُرَّ المتفرجون بمنظر رجل ضخم يحاول النجاة بنفسه ويبتعد عن السفينة الغارقة فيما تلاحقه إحدى الطوافات. في بادئ الأمر بدا وكأنه سلحفاة تسبح في الماء بصعوبة، إلى أن أمطره رماة الطوافة بطلقات ملأت جسمه بالثقوب فاصطبغ البحر من حوله بالأحمر القاني، ثم غرق فجأة كما لو أن المياه قد تسربت داخله عبر الثقوب، وانفجر المشاهدون ضحكاً عندما كانت المياه تبتلعه. ثم رأيت قارب نجاة محملاً بالأطفال وتلاحقه طوافة، وقد جلست في مقدمة المركب امرأة في أواسط عمرها، ربما تكون يهودية، وكانت تحتضن طفلاً في الثالثة من عمره وهو يصرخ خوفاً وهلعاً بينما يدسّ رأسه بين ثدييها، وكأنه يريد أن ينفذ إلى داخلها، والمرأة تحيطه بذراعيها وتلاطفه رغم أنها كانت هي الأخرى ترتعد خوفاً ورعباً. لقد كانت تحاول طوال الوقت أن تحتضن جسده لعلّ ذراعاها تدرآن عنه طلقات مدافع الطائرة. في هذه اللحظة ألقت الطوافة قذيفة زنة 20 كيلوغراماً على القارب فغرق بمن فيه ولم يظهر منه غير ذراع طفل تطاير إلى أعلى في الهواء، وقد بدا أن الطوافة تحمل آلة تصوير في مقدمتها تبعت الذراع إلى أعلى، وهنا علا التصفيق من مقاعد رجال الحزب، غير أن امرأة من النساء الجالسات في مقاعد العمال أخذت تضرب الأرض برجليها وهي تصرخ: «لا يجوز عرض هذه المشاهد بحضور الأطفال»، واستمرت في ذلك حتى تدخّل رجال الشرطة وأخرجوها من القاعة. ولا أظن أن مكروهاً قد أصابها بسبب ذلك فليس ثمة من يأبه لما يقوله الفقراء».

هنا توقف ونستون عن الكتابة، وأغلب الظن أنه كان يتألم من الدوالي ولم يكن يدري ما الذي جعله يكتب مثل هذا السيل من الهراء. غير أن الشيء الغريب هو أنه بينما كان يقوم بذلك، إذا بحادثة تلمع بجلاء ووضوح في ذاكرته، إلى حد أنه انكبّ على كتابتها بلا تردّد، وقد

كانت تلك الواقعة كما تبين له هي التي دفعته لأن يسرع إلى المنزل ويشرع في تسجيل مذكراته في هذا اليوم.

لقد حدثت تلك الواقعة في صباح ذلك اليوم حينما كان موجوداً بالوزارة، إذا صح أن أمراً غامضاً كهذا يمكن أن يحدث.

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة، وفي دائرة السجلات حيث يعمل ونستون كان الموظفون يجرّون المقاعد من مكاتبهم ويصفّونها في وسط القاعة المواجهة لشاشة الرصد استعداداً لبدء فعاليات «دقيقتي الكراهية». كان ونستون قد اتخذ مقعداً له في الوسط عندما دلف إلى القاعة شخصان يعرفهما من بعيد وإن لم يسبق له أن تكلم مع أيهما من قبل. لم يكن ثمة أحد ينتظر قدومهما، أحدهما فتاة طالما التقاها في الممرات، لم يكن يعرف اسمها، ولكنه كان يعرف أنها كانت تعمل في دائرة الإثارة، لأنه طالما رأى يديها ملطختين بالزيت وتحمل مفك براغي أحياناً. إنها من اللواتي يعملن في قسم الميكانيك على إحدى الآلات الخاصة بطباعة الروايات. كانت فتاة جريئة الطلة وفي السابعة والعشرين من العمر، شعرها كثيف ووجهها فيه نمش وحركاتها السريعة تنم عن جسم رياضي. كانت تتمنطق بحزام قرمزي يحمل شارة رابطة الشبيبة المناهضين للجنس، وكان الحزام ملفوفاً عدة لفات حول خصرها بشكل يبرز خطوط الكفلين. وقد نفر منها ونستون من أول نظرة، وكان سبب ذلك معرفته بالأجواء التي تحيط بمن مثلها، أجواء ملاعب الهوكي، وحمامات الماء البارد، والرحلات الجماعية، وتلك عقيدة العفّة التي كانت تعتنقها. لقد كان يمقت كل النساء تقريباً وعلى الأخص الشابات الجميلات منهن، فقد كنّ أكثر أعضاء الحزب إخلاصاً وتمسكاً بمبادئه، فمنهن الجاسوسات اللواتي يتلصصن على الناس ويحشرن أنوفهن بكل صغيرة وكبيرة بحثاً عن أي مظهر من مظاهر الانحراف عن مبادئ الحزب. ولكن هذه الفتاة، بصورة خاصة، كانت تبدو أخطرهن. ففي إحدى المناسبات عندما التقاها مصادفة في الممر رمقته بنظرة جانبية

وحادة، شعر على إثرها كما لو كانت قد اخترقت قلبه وملأته رعباً، وقد خطر له أنها ربما تكون عميلة من عميلات شرطة الفكر. ومع أن ذلك الظن كان بعيد الاحتمال، فإنه ظل يشعر بعدم الارتياح الممزوج بالخوف وبعدائية إزائها كلما رآها على مقربة منه.

وأما الشخص الآخر فكان رجلاً يدعى أوبراين، وهو عضو في الحزب الداخلي، ويشغل منصباً ذا أهمية كبيرة وصلاحيات واسعة، ولم يكن لدى ونستون فكرة واضحة عن طبيعته أو منصبه. وما كاد الحضور يرى البزة السوداء التي يرتديها أعضاء الحزب الداخلي حتى خيم الصمت للحظة عليهم. كان أوبراين رجلاً ضخم الجسم، قوي البنية، غليظ العنق، وذا وجه وحشي ساخر، ولكنه ورغم مظهره الذي يلقي بالروع في النفس فقد كان يحظى بشيء من الجاذبية ودماثة الخلق، وكان من عادته المبالغة في تحريك وتثبيت نظارته على أنفه بطريقة مهذبة جاذبة، وكانت حركته تلك تشبه ما كان يقوم به أحد نبلاء القرن الثامن عشر عندما يقدم علبة سعوطه إلى رجل آخر. وكان ونستون قد التقى أوبراين عشرات المرات على مدى سنوات، وكان يشعر في أعماقه بشيء من الانجذاب نحوه، ولم يكن سبب هذا الانجذاب راجعاً في الأساس للتناقض الواضح بين أخلاق أوبراين المهذبة وشكل جسمه الذي يشبه أبطال المصارعة، وإنما كان بسبب اعتقاد داخلي، أو ربما لم يكن اعتقاداً بل مجرّد أمل يحدوه، بأن ولاء أوبراين السياسي للحزب لم يكن تاماً. فقد كان ثمة شيء في وجهه يوحي بذلك إيحاء لا يقاوم، ولكن ربما كان ما يبدو على وجهه ليس انحرافاً عن ولائه للحزب وإنما كان مجرد ذكاء. بيد أنه وعلى أي حال كان يتمتع بمظهر يوحي بأنه شخص يمكنك أن تتحدث إليه مطمئناً إذا استطعت خداع شاشة الرصد والانفراد به. ولم يحدث أن كلف ونستون نفسه أبداً أدنى عناء للتحقق من ظنونه ولم يكن في الحقيقة أمامه من سبيل إلى ذلك. وفي هذه اللحظة تطلع أوبراين إلى ساعته فرأى أنها قد قاربت الحادية عشرة، فقرر البقاء داخل

قسم السجلات إلى أن تنتهي فعاليات «دقيقتي الكراهية». وقد جلس على كرسي في الصف نفسه الذي جلس فيه ونستون يفصل بينهما كرسيان، كان يشغل أحدهما امرأة ذات شعر رملي تعمل في مكتب مجاور لمكتب ونستون، في حين جلست الفتاة ذات الشعر الأسود خلفه مباشرة.

وفي اللحظة التالية انبعث صوت مزعج ومخيف من شاشة الرصد في طرف القاعة، كما لو أنه يصدر عن آلة قد جفّ زيتها. كان صوتاً تصطك له الأسنان ويقف له شعر الرأس. ولم يكن ذلك إلا إيذاناً ببدء فعاليات الكراهية.

وكما جرت العادة، ظهر على الشاشة وجه إيمانويل غولدشتاين عدو الشعب. فتعالت الصيحات من كل أنحاء القاعة، في حين صدر عن المرأة ذات الشعر الذهبي صرخة امتزج فيها الخوف بالاشمئزاز. كان غولدشتاين هو ذاك الخائن المرتد الذي كان في وقت ما (وليس من أحد يعرف متى كان ذلك) واحداً من رموز الحزب القيادية، وكانت مكانته تكاد تضاهي مكانة الأخ الكبير نفسه، ولكنه تآمر على الحزب وتورّط في نشاطات معادية للثورة فحُكم عليه بالموت، لكنه تمكن من الهرب في ظروف غامضة واختفى عن الأنظار. وكانت برامج «دقيقتي الكراهية» تتنوع من يوم إلى يوم، ولكن لم يكن هناك برنامج إلا وغولدشتاين هو محوره الرئيسي، إذ كان أول خائن للثورة وأول من سعى إلى تشويه الصورة المشرّفة للحزب، وكل الجرائم في حق الحزب وكل الخيانات والأعمال التخريبية والهرطقة والانحراف عن مبادئ الحزب، كانت نتيجة مباشرة لتعاليمه. وهو ما زال يعيش في مكان ما يدبر المكائد، ربما يكون في مكان ما وراء البحار حيث يعيش تحت رعاية أسياده الأجانب الذين يقدمون له التمويل اللازم، وبين آونة وأخرى تظهر شائعة أنه مختبئ في مكان ما داخل أوقيانيا نفسها.

بسبب الضغوط، لم يكن ونستون يرى وجه غولدشتاين إلا وينتابه خليط من المشاعر المفعمة بالألم، كان وجهه وجه يهودي هزيل البنية،

تعلو رأسه هالة من الشعر الأشيب، وله لحية أشبه بلحية (تيس)، كان وجهاً يوحي بذكاء صاحبه لكنه في مجمله صورة للخسة المتأصّلة، ويظهر فيه أنف طويل ساخر ترتكز عليه نظارتان، وكان أشبه ما يكون بوجه خروف وصوته كالثغاء.

كان غولدشتاين يلقي، كالعادة، خطابه الذي يشن فيه هجوماً ضارياً شريراً على مبادئ الحزب، وكان هجومه مليء بالتحامل والمبالغات، حتى أن الطفل ليستطيع أن يستشف ذلك، إلا أنها مع ذلك كانت معقولة لدرجة تثير الفزع لدى المرء حينما يتنبه إلى أن هنالك أناساً بسطاء، وأقل إدراكاً لحقائق الأمور، قد ينخدعون بها. كان يصيح متهجماً على الأخ الكبير ويستنكر دكتاتورية الحزب، ويطالب بإرساء السلام مع أوراسيا على الفور، كما كان يطالب بحرية التعبير وحرية الصحافة وحرية عقد الاجتماعات وحرية الفكر. وكان يصيح بحماس هستيري منددا بالخيانة التي تعرضت لها الثورة من الداخل، كل ذلك بكلمات سريعة متلاحقة في محاكاة للأسلوب الخطابي الذي اعتاده خطباء الحزب، بل وكانت خطبه تتضمن كلمات من اللغة الجديدة تفوق ما اعتاد على استخدامه أي من أعضاء الحزب أنفسهم. وفي أثناء ذلك، ومخافة أن يكون البعض قد انخدع بأكاذيبه الخافية وراء خطبته المنمقة، كانت تظهر على الشاشة وراء رأس غولدشتاين جحافل جرارة من جنود أوراسيا، صفوف متراصّة من رجال ذوي وجوه كالحة وحشية يظهرون على وجه الشاشة، كتائب متلاحقة ما إن تختفي واحدة إلا وتظهر أخرى أكثر وحشية وهمجية. وكان الإيقاع الرتيب لأحذيتهم العسكرية بمثابة الخلفية الصوتية لخطاب غولدشتاين وصوته الثغائي.

وقبل أن تمضي الثلاثون ثانية الأولى من فعاليات الكراهية، بدأت تتعالى صرخات غاضبة منفجرة من نصف الحضور في القاعة، إذ كان الوجه الأشبه بوجه الخروف والمعتد بنفسه لدرجة الغرور فضلاً عن الفزع الذي تثيره مشاهد جيش أوراسيا على الشاشة أكثر مما يمكن أن

يحتمل، هذا إلى جانب أن رؤية غولدشتاين أو حتى مجرد التفكير فيه كانت تملأ قلوب المشاهدين بحالة من الخوف والغضب. لقد كان ما يثيره من كراهية يفوق تلك التي لأوراسيا أو إستاسيا. وقد جرت العادة على أنه عندما تكون أوقيانيا في حرب مع إحدى هاتين الدولتين فهي في سلام مع الأخرى، ولكن الغريب في الأمر أن غولدشتاين هذا ورغم كونه مكروهاً وممقوتاً من الجميع، ورغم أن نظرياته كانت في كل يوم وفي كل لحظة تتعرض للدحض والنقد وتصبح مثاراً للاستهزاء على صفحات الصحف والكتب وشاشة الرصد ومنابر الحزب، كما تُقدم للرأي العام باعتبارها هراء وتخرص، بالرغم من كل هذا، كان تأثيره شديداً لا يضعف. فقد كان هناك دائماً أغرار ينخدعون به، فلا يكاد يمر يوم إلا وتلقي شرطة الفكر القبض على جواسيس ومخربين يعملون تحت إمرته. لقد كان غولدشتاين قائدا لجيش خفي كبير وشبكة سرية من المتآمرين تعمل في الخفاء ولا هدف لها إلا الإطاحة بنظام الحكم، والتي كان يعتقد أنها تسمى رابطة «الأخوة». كذلك كان الناس يتهامسون ويتناقلون القصص حول كتاب مخيف يضم كل الهرطقات التي ألفها غولدشتاين والتي يتم تداولها بصورة سرية هنا وهناك. كان كتاباً بلا عنوان ولذا كان الناس يشيرون إليه، إذا أشاروا إليه أصلاً، باسم الكتاب. وكانت الشائعات المبهمة هي المصدر الوحيد لأي معرفة عن هذا الكتاب، إذ لم يكن أي من أعضاء الحزب العاديين يجسر على الإشارة في حديثه إلى «الأخوة» أو الكتاب إلا اضطراراً.

وفي الدقيقة الثانية تصاعدت الكراهية حتى صارت سعاراً، وراح الناس يثبون إلى أعلى من مقاعدهم ثم يجلسون وهم يصيحون بأعلى صوتهم حتى يطغى على الصوت الثغائي الصادر عن غولدشتاين من الشاشة. وكان وجه المرأة الصغيرة ذات الشعر الذهبي قد احتقن واكتسى باللون الأحمر القاني فيما كان فمها يفتح ويغلق كسمكة طرحها الموج على الشاطئ، وكذلك احمرّ وجه أوبراين الضخم. أما ونستون فكان

يجلس منتصباً فوق مقعده فيما كان صدره يعلو ويهبط مع كل شهيق وزفير كما لو كان يتأهب لمواجهة موجة عاتية. وراحت الفتاة ذات الشعر الأسود التي تجلس خلف ونستون مباشرة تصرخ «وغد! وغد! وغد!»، ثم فجأة التقطت معجماً للغة الجديدة وقذفت الشاشة به فأصابت غولدشتاين في أنفه ثم سقط أرضاً، إلا أن صوت غولدشتاين استمر. وفي هذه اللحظة ألفى ونستون نفسه يصرخ مثل الآخرين ويضرب الأرض وحافة المقعد بقدميه في عنف. ولعل أفظع ما في «دقيقتي الكراهية» هو أن المرء لم يكن مجبراً على تمثيل دور ما، ومع ذلك كان من المستحيل عليه أن يتجنب الانخراط في هذا المشهد، ففي غضون ثلاثين ثانية لن تصبح المشاركة في «دقيقتي الكراهية» بالأمر الضروري، ذلك أن نشوة من الخوف والرغبة في القتل والانتقام والتعذيب وتهشيم الوجوه بالمطرقة كانت تتملك الحضور وتسري في أوصالهم وكأنها تيار كهربي يدفع بالمرء رغماً عنه للصراخ والصياح كمن أصابه مسّ من الجنون. ومع هذا فإن الغضب الذي كان يشعر به المرء آنذاك كان انفعالاً طائشاً وغير محدد الوجهة ومن الممكن تحويله من وجهة إلى أخرى مثل لسان لهب متصاعد. وهكذا لم تكن كراهية ونستون في لحظة من اللحظات موجهة ضد غولدشتاين إطلاقاً، وإنما على النقيض من ذلك كانت موجهة ضد الأخ الكبير والحزب وضد شرطة الفكر، ففي مثل هذه اللحظات كان قلبه يخفق تعاطفاً مع هذا المنبوذ الذي يظهر على الشاشة متهماً بالهرطقة ومثاراً للسخرية، وهو الوحيد الذي يقف حامياً للحقيقة والحكمة في عالم زاخر بالأكاذيب والتزوير. ومع ذلك فقد كان في اللحظة التالية يشعر بما يشعره الآخرون نحو غولدشتاين وبأن كل ما قيل عن غولدشتاين هو حقيقة لا ريب فيها. وفي تلك اللحظات كان مقته المكنون للأخ الكبير ينقلب إعجاباً يقارب العبادة، وكان الأخ الكبير حينذاك يعلو مقاماً ويصبح كحامي الحمى الجَسور الذي لا يقهر وكأنه طود عظيم يقف في وجه جحافل الجيوش الزاحفة من آسيا. بينما

غولدشتاين، ورغم العزلة التي فُرضت عليه وحالة العجز التي يعيشها، بل ووجوده الذي أصبح موضع شك، فإنه يبدو مثل ساحر شرير قادر بقوة صوته فقط أن يقوض بنيان الحضارة.

لقد كان بمقدور المرء أن يحوّل كراهيته بهذا الاتجاه أو ذاك بمحض إرادته. وفجأة وبالقوة العنيفة التي يرفع المرء بها رأسه من على الوسادة حينما يستولي عليه كابوس، استطاع ونستون أن يحوّل كراهيته من الوجه الظاهر على الشاشة إلى تلك الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم الجالسة وراءه. وطافت برأسه تخيلات جميلة وقوية. كانت تراوده الرغبة في أن يضربها ضرباً يفضي بها إلى الموت بهراوة من المطاط، أو يقيدها عارية إلى عمود ثم يرميها بزخة من السهام مثل القديس سباستيان. كم ود لو استطاع أن يغتصبها ثم يحزّ رقبتها عند بلوغه لحظة النشوة. والآن أدرك ونستون أكثر من ذي قبل سبب كراهيته لها، لقد كان يبغضها لجمالها وصغرها وعزوفها عن الجنس، ولأنه كان يمني نفسه بأن يكون معها في فراش واحد لكن ذلك لم يكن ممكناً، فقد كانت تحيط خصرها الممشوق الناعم، الذي كان يغري المرء أن يلف ذراعه حوله، بحزام قرمزي كريه هو رمز العِفّة.

وبلغت الكراهية ذروتها، وأصبح صوت غولدشتاين ثغاء خروف حقيقي بل تحول وجهه للحظة إلى وجه خروف. ثم لم يلبث أن تلاشى ليحل محله وجه جندي من جنود أوراسيا كان يندفع كالعملاق فينشر الرعب وهو يحمل في يده بندقية آلية تهدر، ويبدو وكأنه سيثب من الشاشة، حتى أن بعض المشاهدين الذين كانوا في المقاعد الأمامية كانوا يجفلون للوراء وهم في مقاعدهم. ولكن وفي اللحظة نفسها تنفس الجميع الصعداء إذ تلاشت هذه الصورة وحلت محلها صورة الأخ الكبير بشعر رأسه الأسود وشاربه الكث ورزانته الغامضة وقوته الفياضة، وكان وجهه من الضخامة بحيث ملأ الشاشة كلها. لم يكن ثمة من يسمع ما كان يقوله الأخ الكبير. فقد كانت مجرد كلمات تشجيعية معدودة من

تلك التي يُتَمتم بها في معمعة المعارك لا يستطيع المرء تمييزها، بيد أنها كانت تعيد الثقة إلى النفس بمجرد التلفظ بها. ثم تلاشى وجه الأخ الكبير وظهرت شعارات الحزب الثلاثة بأحرف كبيرة بارزة:

الحرب هي السلام

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة

لكن وجه الأخ الكبير، ورغم زواله عن الشاشة، بقي منطبعا عليها لثوان أخر، كما لو أن تأثيره الذي تركه في أعين الحضور أقوى من أن ينمحي دفعة واحدة وعلى الفور. أما المرأة ذات الشعر الذهبي فقد انحنت في مقعدها إلى الأمام وصدرت عنها همهمة كأنها تقول «أيها المخلص»، ومدت ذراعيها باتجاه الشاشة، ثم دفنت رأسها بين راحتيها. وكان يبدو من ذلك أنها تتلو بعض الصلوات.

وفي هذه اللحظة، انخرط جميع الحاضرين في ترديد إيقاعي لترنيمة الكبير .. الكبير، كانوا يرددونها ببطء ووضوح ويتوقفون للحظات بين المرّة والأخرى. كان صوت الهمهمة ثقيلاً ومفعماً بشيء من البربرية، ومن خلفيته كان ينبعث صوت يحسبه السامع وقع أقدام عارية أو دقات طبول بعيدة. استمر ذلك الصوت ثلاثين ثانية. إنه عبارة عن لازمة تكرارية كتلك التي تُسمع عادة في لحظات الانفعال الغامرة، أو ترنيمة تتغنى بحكمة الأخ الكبير وجلاله، والأرجح أنه شكل من التنويم الذاتي المغناطيسي وحالة من تغييب الوعي من خلال الإيقاعات الرتيبة. أما ونستون فقد بدا أن البرد قد أخذ يسري فيه حتى نفذ إلى أحشائه، ومع ذلك لم يكن أمامه بد من المشاركة في حالة الهيجان العامة. أمّا تلك الترانيم الكبير.. الكبير.. فقد كانت دائماً تملأه رعباً. نعم لقد كان يترنم مع الآخرين، فقد كان مستحيلاً أن يفعل غير ذلك، فأن تخفي مشاعرك الحقيقية وأن تتحكم في انفعالات وجهك، وأن تفعل ما كان يفعله كل شخص آخر، كل ذلك كان فعلاً غريزياً. ولكن هنالك

لحظات يمكن فيها أن تكون تعبيرات عينيه قد كشفت حقيقته. وفي هذه اللحظات تحديداً حدث ذلك الشيء الهام، هذا إن كان قد حدث فعلاً.

لقد التقت عيناه عيني أوبراين الذي كان قد انتصب واقفاً وهو يرفع نظارته عن أنفه ثم يعيد تثبيتها بإيماءته المميزة. ورغم أن عيونهما لم تلتقِ إلا لأجزاء من الثانية فقد كان ذلك كافياً حتى يدرك ونستون أن أوبراين كان يفكر في نفس ما يفكر فيه ونستون. لقد كانت تلك النظرة بمثابة رسالة لا يمكن أن يخطئها المرء، وبدا كما لو أن عقل كلٍّ منهما قد انفتح على عقل الآخر فتدفقت الأفكار من واحد لآخر عبر عيونهما. وخيّل لونستون أن أوبراين يقول له «أنا معك، إنني على معرفة دقيقة بمشاعرك، وأعرف كل شيء عما تضمره من ازدراء وكراهية واشمئزاز، ولكن لا عليك فأنا في صفك!» عندئذ خبا بريق التخاطر الفكري وبدا وجه أوبراين خلواً من أي تعبير كسواه من وجوه الآخرين.

هذا كل ما حدث. ولم يكن ونستون متأكداً من أن كل ذلك قد حدث فعلاً، لأن مثل هذه الحوادث تمر عادة دون أن تكون لها نتائج، وكل ما فعلته هو أنها أبقت على اعتقاده أو أمله بأن هنالك أيضاً آخرين لديهم مشاعر العداء نفسها نحو الحزب. ولربما كانت الشائعات عن وجود مؤامرات سرية واسعة النطاق صحيحة، بل ربما كانت رابطة «الأخوة» موجودة حقاً. لقد كان من المستحيل على المرء، بالرغم من الاعتقالات اللانهائية والاعترافات المتتالية وأحكام الإعدام، أن يؤمن بأن «الأخوة» إن هي إلا خرافة. وكان ونستون يؤمن أحياناً بوجودها وأحياناً بعدم وجودها. لم يكن هنالك دليل، بل مجرد إشاعات قد تعني شيئاً وقد لا تعني شيئاً، فالمكالمات المسترقة أو الكتابات المسجلة على جدران المراحيض العامة أو حتى لقاء غريبين أو إشارة يد تبدو كأنها إشارة سرية للتعارف، كل ذلك مجرد تكهنات ومن المحتمل جداً أن يكون الأمر كله محض خيال لا يوجد إلا في مخيلة ونستون.

عاد ونستون إلى مكتبه دون أن يلتفت مرة ثانية إلى أوبراين، ولم

تخطر بباله فكرة متابعة هذا التواصل العابر. كان الأمر ينطوي على مخاطر شديدة حتى لو عرف كيف يحتاط لها، لقد تبادلا نظرة غامضة وخاطفة لم تدم أكثر من ثانيتين وهذا كان كل ما في الأمر. ولكن حتى ذلك الأمر العابر كان حدثاً يستحق الذكر في مثل هذا الجو الانعزالي الذي كان يتحتم على المرء العيش فيه.

نهض ونستون من مقعده ثم جلس منتصباً، ثم تجشأ، فقد كان الشراب يغلي في معدته.

أعاد التحديق في الصفحة التي أمامه فاكتشف أنه عندما كان مستغرقاً في التفكير كتب على الصفحة شيئاً ما بدافع عفوي لاإرادي، ولم تكن الكتابة هذه المرة كتلك التي كانت حروفها غير مقروءة جيداً، فقد جرى قلمه هذه المرة بسهولة على الورق الناعم وبأحرف كبيرة أنيقة:

ليسقط الأخ الكبير
ليسقط الأخ الكبير
ليسقط الأخ الكبير
ليسقط الأخ الكبير

وظل يكتب هذه العبارة حتى ملأ بها نصف الصفحة.

وما إن استفاق لما يخطه بيده حتى تملّكه شعور بالفزع والهلع. إن الأمر لا يعدو أن يكون هراء إذ إن كتابة هذه الكلمات لم تكن أشد خطراً من مجرد اقتنائه مفكرة والبدء في تسجيل مذكراته. وقد راودته الرغبة في تمزيق الصفحات التي كتبها ومن ثم التخلي عن ذلك المشروع المغامرة برمته.

ولكنه لم يفعل ذلك لإدراكه أن تمزيقها لن يجدي فتيلا، وسيان أكتب ليسقط الأخ الكبير أو أحجم عن كتابتها، وسواء احتفظ بالمفكرة أو لم يحتفظ بها، فإن شرطة الفكر ستعتقله. فقد اقترف، وما زال يقترف، جرماً، بل وحتى لو لم يضع القلم على الورق فقد اقترف أمّ الجرائم التي تنطوي على جميع الجرائم، إنهم يطلقون عليها «جريمة

الفكر»، وهي جريمة ليست بالأمر الذي يمكن إخفاؤه إلى الأبد، فربما يمكنك مواراتها عن العيون لحين من الزمن أو لسنوات ولكن إن عاجلا أو آجلا لا بد أن تقع في قبضتهم.

كانت الاعتقالات تقع دائماً تحت جنح الليل، حيث يفزع صاحب الجرم من نومه على يد خشنة تهزه بغلظة، فيفتح عينيه على ضوء ساطع مسلط على عينيه، ويجد مجموعة من رجال ذوي وجوه عابسة يتحلقون حوله وهو ما يزال في فراشه. وكانت أغلب هذه الحالات تمر دون محاكمات أو حتى محاضر اعتقال، حيث كان الناس يختفون أثناء الليل. وكان اسمك يشطب من السجلات ويشطب معه كل شيء يتعلق بك أو لك فيه ذكر، حتى إن النكران يطال فكرة وجودك أصلاً ثم يتم نسيانك. لقد انتهيتَ ثم تلاشى ذكرك وكأنك تبخرت، نعم إنك تبخرت لقد كانت هذه هي الكلمة التي يصفون بها عادة ما حدث.

وانتابت ونستون للحظة من الزمن نوبة هستيرية، وراح يكتب بسرعة ويخط متعرج: سيرمونني بالرصاص، بيد أنني لا أبالي. سيطلقون النار عليّ من الخلف غير أنني لا أبالي، وليسقط الأخ الكبير.. إنهم دائماً يطلقون النار عليك من الخلف لكنني لا أبالي، ليسقط الأخ الكبير.

ثم اتكأ في مقعده وقد شعر ببعض الخجل من نفسه، ووضع القلم جانباً. وفي اللحظة التالية استأنف الكتابة بنشاط ولكن سرعان ما سمع طرقاً على الباب.

ظل ونستون على سكونه كفأر مذعور في جحره، يحدوه أمل واه بأن الطارق سينصرف بعد المحاولة الأولى، بيد أن الطرق توالى. ولأن أسوأ ما يمكن أن يفعله في مثل هذا الظرف هو التلكؤ في الاستجابة فقد أخذ قلبه يدق كالطبل. ولكن وجهه كان، بحكم العادة، جامداً وخلواً من أي تعبير. ثم وقف ومشى متثاقلاً صوب الباب.

الفصل الثاني

عندما وضع ونستون يده على مزلاج الباب تذكر أنه ترك المفكرة على الطاولة مفتوحة، وعبارة «ليسقط الأخ الكبير» تكاد تغطي الصفحة بأحرف كبيرة بما يكفي لقراءتها عن بعد. وهنا تنبه إلى أنه ارتكب حماقة تفوق الوصف، لكنه حتى مع هذا الفزع الذي انتابه لم يكن يريد طي الغلاف قبل أن يجفّ الحبر خشية أن تتلطخ الورقة.

استجمع شجاعته ثم فتح الباب، وسرعان ما استشعر موجة من الارتياح تسري في أوصاله، فالذي كان في الباب امرأة شاحبة اللون، ذات شعر أشعث ووجه مغضن بالتجاعيد.

ابتدرته المرأة بصوت مبحوح وحزين: «آه، أيها الرفيق، لقد شعرت بقدومك، هل بإمكانك المجيء لمعاينة مغسلة مطبخي، فالبالوعة مسدودة».

كانت هذه المرأة السيدة بارصون زوجة جاره في الطابق نفسه. (كانت كلمة «سيدة» ممجوجة إلى حد ما في الحزب وكان من المفترض أن يُدعى أيّ كان بلقب «رفيق» ومع ذلك كان يجري استعمالها مع بعض النساء أحياناً بإيحاء من الفطرة). كانت امرأة في الثلاثين من عمرها على وجه التقريب، ولو أنها تبدو أكبر من ذلك. وكان من يراها يتولد لديه انطباع بأن غباراً يتخلل تغضّنات وجهها. سارت فتبعها ونستون عبر الممر متململاً، فأعمال الصيانة هذه كانت مصدر إزعاج شبه يومي له، لأن كل الشقق في بناية النصر قديمة، حيث يعود تاريخ بنائها إلى 1930 أو ما

يقرب من ذلك التاريخ، وكانت بناية متداعية، فالجفصين يتساقط من الأسقف والجدران، والأنابيب تنفجر بفعل الصقيع، والأسطح تسرّب المياه إلى الداخل عندما تغطيها الثلوج. وكان نظام التدفئة لا يعمل إلا بنصف طاقته، هذا إذا لم يتم إيقافه كلية بدعوى التوفير. وأما الإصلاحات، فيما عدا تلك التي بإمكان الساكن إنجازها بنفسه، فكان يجب أن تمر معاملاتها عبر لجان كانت تتلكأ في تنفيذ أي شيء، حتى أن إصلاح لوح من الزجاج كان تنفيذه يحتاج إلى سنتين. ثم قالت السيدة بارصون معتذرة: «ما حصل كان بالتأكيد بسبب غياب طوم عن البيت».

كانت شقة عائلة بارصون أوسع من شقة ونستون، ووضيعة مثلها، ولكن تتميّز بأشياء أخرى. فكل شيء مهشم ومحطم كما لو أن حيواناً هائجاً قد عاث فيها. والكثير من مستلزمات الألعاب الرياضية ملقاة على الأرض كمضارب لعبة الهوكي وقفازات الملاكمة وكرة قدم مفرغة من الهواء فضلاً عن سروالين متسخين، وعلى الطاولة كومة من الأطباق المتسخة والدفاتر الممزّقة الزوايا. أما على الجدران فكانت تظهر أعلام رابطة الشباب واتحاد الجواسيس بلونها القرمزي، بالإضافة إلى صورة ضخمة للأخ الكبير. وكانت هناك أيضاً تلك الرائحة المعتادة - رائحة الملفوف المسلوق - التي تنتشر في كل أرجاء المبنى، تختلط معها رائحة عرق يفرزه جسم شخص ما، بيد أن هذا الشخص لم يكن في تلك اللحظة موجوداً بالغرفة. أما في الغرفة الأخرى فقد كان هنالك شخص ما يحمل مشطاً وقطعة من ورق الحمام يحاول أن يعزف بهما مقلّداً إيقاع موسيقى عسكرية كانت لا تزال تنبعث من شاشة الرصد.

وقد أشارت السيدة بارصون بعد أن أطلّت إطلالة خاطفة من باب الغرفة المجاورة: «إنهم الأولاد، لم يخرجوا من البيت هذا اليوم، وهذا لسبب...».

(يظهرأنه كان من عادتها أن تقطّع الجمل في وسطها). كانت مغسلة المطبخ ممتلئة حتى نصفها بماء متسخ مائل للاخضرار، رائحته أكثر نفاذاً

من رائحة الملفوف. جثا ونستون على ركبتيه وراح يتفحص كوع الأنبوب. كان يكره استعمال يديه، كما يكره الانحناء لأن ذلك يسبب له نوبات من السعال، بينما كانت السيدة بارصون تنظر إليه نظرة بائسة.

قالت: «لو أن طوم كان موجوداً لاستطاع أن يصلحها في لحظة، إنه يهوى القيام بمثل هذه الأعمال، إنه ماهر اليدين، نعم إن طوم هكذا».

بارصون هذا هو زميل ونستون في وزارة الحقيقة. لقد كان رجلاً مائلاً للسمنة، نشيطاً ولكن عليه علامات غباء مستحكم، بل هو كتلة من الحماس الأحمق، وواحد من ذوي الولاء الأعمى الذين يتوقف عليهم استقرار الحزب أكثر من توقفه على شرطة الرصد. في الخامسة والثلاثين من عمره، أُبعد كارهاً عن رابطة الشباب، وكان قبيل أن ينتسب إلى هذه المنظمة قد التحق باتحاد الجواسيس لمدة سنة بعد السن القانونية. أما في الوزارة فكان يشغل منصباً ثانوياً لم يكن يتطلب أي قدر من الذكاء، غير أنه من ناحية أخرى كان من القياديين في الهيئة الرياضية، وكل الهيئات المعنيّة بتنظيم الرحلات الجماعية والاستعراضات وحملات الادخار والتوفير والأنشطة التطوعية الأخرى. وكان بإمكانه أن يقول لك بكل فخر، وهو يدخن غليونه، إنه ظل على مدى الأربع سنوات الماضية يحضر جلسات الملتقى المجتمعي كل مساء، ورائحة عرقه النفاذة كانت شهادة كافية على نوع الحياة التي يحياها، حيث ترافقه أينما حل، بل ويتركها وراءه بعد انصرافه.

وضع ونستون يده على البالوعة باشمئزاز وقال: «هل يوجد لديكم مفتاح ربط؟»

- «لا أدري» أجابت السيدة بارصون على الفور، بينما انحنت لتنظر، «لا أدري أين أجده فالأولاد غالباً . . .»

كان هنالك صوت وقع أقدام وجلبة ولعب بأسنان المشط يُسمع عندما اندفع الأولاد إلى غرفة الجلوس. وكانت السيدة بارصون قد

وجدت مفتاح الربط وجاءت به. وهكذا تمكن ونستون من تسريب الماء من البالوعة بعد أن أخرج وهو متأفف كتلة شعر بشري كانت تتسبب بانسداد الأنبوب. ثم غسل أصابعه بقدر المستطاع بماء بارد من الصنبور وتوجّه إلى الغرفة الأخرى المجاورة للمطبخ.

لكنه فوجئ بصوت وحشي يزعق فيه قائلاً: «ارفع يديك فوق رأسك!»

كان الصوت لصبي جميل ذي مظهر خشن، في التاسعة من عمره، اندفع من خلف طاولة، وهو يهدده بمسدس زائف، بينما كانت شقيقته، التي تصغره بسنتين، تقلّده وفي يدها قطعة خشب. كلاهما كان يلبس سروالاً أزرق وقميصاً رمادي اللون ورباط عنق أحمر، وهو الزي الرسمي للجواسيس. رفع ونستون يديه فوق رأسه متبرماً، فقد كان في مظهر الصبي عدوانية شديدة توحي بأن الحكاية ليست مجرد مزحة.

- «أنت خائن»، صاح به الصبي، «إنك مجرم فكر، إنك من جواسيس أوراسيا، سأطلق عليك النار، سأزيلك من الوجود، سأرسلك إلى العمل في محافر الملح!»

وفجأة بدآ يقفزان من حوله وهما يصيحان «الخائن، مجرم الفكر». كانت الصغيرة تقلّد أخاها في كل حركة أو كلمة يأتي بها. لقد كان الأمر مخيفاً، إذ ذكّره بمن يداعب صغار النمور التي تتحول حينما تكبر إلى آكلة للحوم البشر. لقد كان يلمح شراسة متنمرة في عيني الصبي ورغبة واضحة في أن يرفس ونستون أو يضربه، فضلاً عن شعور بأنه صار في سن تسمح له بذلك. أدرك ونستون بأن من حسن حظه أن المسدس لم يكن مسدساً حقيقياً.

كانت السيدة بارصون تجول بناظريها ما بين ونستون وولديها وعلامات الارتباك بادية عليها. وعلى ضوء غرفة الجلوس الأكثر سطوعاً لاحظ ونستون باهتمام أن غباراً حقيقياً كان يتخلل تغضّنات وجهها.

«إنهما يحدثان جلبة شديدة»، هذا ما علقت به، واستطردت: «لقد

استاءا لأنهما لم يخرجا اليوم لمشاهدة أحد أحكام الإعدام شنقاً، هذا كل السبب، فانا مشغولة ولا يسمح لي وقتي بمرافقتهم، وطوم لا يعود من عمله في الوقت المناسب».

«لماذا لا نذهب للتفرج على عملية الشنق» صاح الولد بصوت زاعق وغاضب، وتغنّت الصغيرة وهي ترقص مرحاً «نريد مشاهدة الشنق! نريد مشاهدة الشنق!».

لقد كانت ستجري بالفعل عملية شنق بعض الأسرى من أوراسيا، أسرى متهمين بارتكاب جرائم حرب، وذلك مساء في الحديقة العامة. تذكر ونستون أن مثل هذا كان يجري مرة كل شهر تقريبا وكان مشهداً يحظى بشعبية عالية. ودائماً يلحّ الأطفال في طلبهم لحضوره ومشاهدته. استأذن ونستون من السيدة بارصون وأخذ طريقه إلى الباب، ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى شعر بأن شيئاً قد ضربه على ظهره ورقبته مسبباً له ألماً مبرحاً، شعر كأنما سلكاً متوهجاً إلى درجة الاحمرار قد لسع ظهره، فالتفت في اللحظة نفسها ليرى السيدة بارصون تجرجر ولدها إلى الوراء عبر الممر بينما كان الولد يهم بإخفاء مقلاع حصى في جيبه. وما إن أوصد ونستون الباب وراءه حتى صرخ الولد: غولدشتاين. ولكن ما صدم ونستون وآلمه، كان ذلك الخوف البائس الذي ارتسم على وجه المرأة الرمادي.

عاد ونستون إلى شقته واجتاز شاشة الرصد إلى كرسي قرب الطاولة وهو ما يزال يتحسس رقبته. كانت الموسيقى التي تنبعث من الشاشة قد توقفت، وحل محلها صوت عسكري جاف يقرأ بلهجة وحشية بياناً عن قوة تسليح القلاع العائمة الجديدة التي كانت قد رست بين أيسلندا وجزر فارو.

أدرك ونستون أنه مع مثل هذين الطفلين لا بد وأن تحيا هذه المرأة التعسة حياة رعب دائم. فلن تمر سنة أو سنتان إلا وسيكون طفلاها قد انتظما في سلك الجاسوسية يرصدان تحركاتها ليل نهار ترقباً لأي علامات

انحراف عن نهج الحزب قد تظهر عليها. إن معظم الأطفال في هذه الأيام قد باتوا مصدر رعب لأهلهم. وأسوأ ما في الأمر أن الصغار بانضمامهم إلى منظمات مثل اتحاد الجواسيس كان يتم تحويلهم بشكل منهجي إلى رعاع صغار لا يمكن ضبطهم، وهذا بدوره يقتل فيهم أي ميل إلى الثورة ضد نظام الحزب، بل على النقيض من ذلك سيصبحون عبيداً للحزب ولكل ما يتصل به. إن الأغاني، والمواكب، وحمل الرايات، والرحلات الجماعية، والتدريب على الأسلحة الزائفة، والهتاف، وتقديم فروض الطاعة والهتاف بحياة الأخ الكبير، كل ذلك كان نوعاً من اللعب الممتع بالنسبة لهم. أما ضراوتهم وشراستهم فكانتا توجّهان إلى الخارج، إلى أعداء الدولة، إلى الأجانب والخونة وزمر المخربين ومجرمي الفكر. وكان أمراً طبيعياً لمن هم فوق سن الثلاثين أن يخافوا أولادهم، فلم يكن يمر أسبوع إلا وتنشر فيه جريدة «التايمز» قصّة تحت عنوان «بطل صغير» تروي كيف استطاع «البطل» أن يتنصت على والديه ويشي بهما لشرطة الفكر بنقله ملاحظة تضعهم موضع شبهات.

كان ألم حصاة المقلاع قد خف وزال، عندما أمسك بقلمه متململاً، وهو يتساءل عما سيكتب في مفكرته، ولكنه فجأة وجد نفسه يفكر في أوبراين مرة ثانية.

قبل سنوات، لا يعلم كم على وجه التحديد، ربما سبع سنوات، رأى فيما يرى النائم أنه كان يجول في غرفة حالكة الظلام، فسمع شخصاً ما، على مقربة منه، يقول له وهو يجتازه «سنلتقي يوما في مكان يغمره النور حيث لا ظلام»، قيلت هذه الجملة بمنتهى الهدوء والاتزان، كانت خبراً ولم تكن أمراً، مشى هذا المتكلم دون أن يتوقف. الغريب أن هذه الكلمات التي سمعها في الحلم لم تكن ذات وقع شديد عليه أول الأمر، بيد أن ما ترمي إليه من معانٍ أخذ ينجلي له رويداً رويداً فيما بعد. إنه لا يتذكر الآن ما إذا كانت رؤيته لأوبراين للمرة الأولى قد جاءت قبل هذا الحلم أم بعده، ولا هو استطاع أن يتذكر ما إذا كان

الصوت صوت أوبراين نفسه، ولكن على أية حال كان يظن أنه ميّز الصوت، وأن أوبراين هو الذي كلمه في الظلام.

لم يكن ونستون متأكداً، وحتى بعد تلاقي شعاع عيونهما في ذاك اليوم، ما إذا كان أوبراين عدواً أم صديقاً، بل حتى هذا التحديد لم يبدُ ذا أهمية كبيرة له. لقد جمعهما رباط من التفاهم، رباط أقوى من رباط العاطفة أو الحزبية، «سنلتقي يوماً حيث لا يكون ظلام». لم يكن ونستون يفهم ما الذي يعنيه بهذا القول، لكنه كان يعتقد بأنه بطريقة أو بأخرى سيأتي هذا اليوم.

توقف الصوت المنبعث من الشاشة، وملأت هواء الغرفة الساكن موسيقى صوت بوق جميل وصاف. ثم عاد ذلك الصوت الذي يثير الأعصاب، يقول:

«انتباه، من فضلكم أعيروني انتباهكم، وردنا تواً نبأٌ هام من جبهة مالابار. إن قواتنا في جنوبي الهند قد أحرزت انتصاراً باهراً. لقد خولتني السلطات أن أعلن أن تقدمنا على هذه الجبهة، والذي نذيعه لكم الآن، سيمكننا من وضع نهاية لهذه الحرب، فإليكم ما ورد في هذه الإشارة...»

وهنا خطر ببال ونستون أنها مقدّمة لأنباء سيئة. وهكذا كان، إذ بعد الوصف المروّع لعملية الإبادة التي لحقت بجيوش أوراسيا، والأرقام المذهلة لأعداد القتلى والأسرى، أردف البيان بأنه ابتداء من الأسبوع القادم سيتم خفض حصة الفرد من الشوكولا من ثلاثين غراماً إلى عشرين.

هنا تجشأ ونستون ثانية، كان مفعول الشراب آخذاً في الزوال مخلفاً شعوراً بالخزي. أما الشاشة، ربما احتفالاً بالنصر أو للتغطية على نبأ تخفيض حصة الشوكولا، فقد انتقلت فجأة لبث نشيد «يا أوقيانيا كل هذا من أجلك». وكان من المفروض عندما تسمع النشيد أن تقف في حالة الاستعداد، لكن ونستون لم يكن في مجال رؤية الشاشة.

تَبِع نشيد «يا أوقيانيا كل هذا من أجلك»، موسيقى خفيفة. مشى ونستون نحو النافذة وظهره إلى شاشة الرصد. كانت السماء ما تزال صافية والهواء بارداً. تناهى إلى سمعه صوت قذيفة صاروخية انفجرت بعيداً محدثة دوياً رجّ الأرض رجّاً. لم يكن ذلك غير مألوف، ففي الوقت الحاضر يسقط ما بين عشرين وثلاثين من أمثال هذه القذائف على لندن أسبوعياً.

في الشارع كانت الريح ما تزال تتلاعب بالصورة المعلقة، وكانت عبارة الاشتراكية الإنجليزية المنحوتة بكلمة «اش انك» كما نحتت في قاموس اللغة الجديدة تظهر وتختفي مع كل هبة ريح. ومعها المبادئ المقدّسة التي تشير إليها: التفكير الازدواجي، إمكانية تغيير الماضي. وقد شعر ونستون وكأنه تائه في غابات قاتمة في أعماق البحار، وقد ضلّ في عالم وحشي، حيث هو نفسه ذلك الوحش. لقد كان وحيداً. وكان الماضي ميتاً، و المستقبل مجهولاً ولا يمكن حتى تصوّره، كيف له أن يتأكد ما إذا كان هنالك إنسان يقف إلى جواره؟ وكيف له أن يعرف أن هيمنة الحزب لن تدوم إلى أبد الدهر؟ وجواباً عمّا دار في خلده من تساؤلات، عادت الشعارات الثلاثة المكتوبة على واجهة وزارة الحقيقة للظهور أمامه:

الحرب هي السلام

العبودية هي الحرية

الجهل هو القوة.

أخرج من جيبه قطعة نقود من فئة الخمسة والعشرين سنتيماً، كان على أحد وجهيها هذه العبارات نفسها وقد نُقشت بأحرف دقيقة واضحة، بينما نُقش على الوجه الآخر وجه الأخ الكبير. كانت عيناه، حتى من خلال قطعة النقود، تلاحقانك. على العملة، على الطوابع، على أغلفة الكتب، على الأعلام، على ألواح الإعلانات، على علب السكاكر. في كل مكان ودائماً، عيناه تراقبانك وصوته يحيط بك. وسواء كنت

مستيقظا أو نائماً، تعمل أو تأكل، داخل منزلك أو خارجه، في الحمام أو في الفراش لا فرق، لا مهرب لك. أنت لا تملك سوى تلك السنتيمترات المكعبة داخل جمجمتك.

مالت الشمس نحو الغروب فانحسرت عن نوافذ وزارة الحقيقة الكثيرة، والتي بدت كئيبة وأشبه بكوى في أسوار قلعة. كان قلبه يرتجف أمام هذا الشكل الهرمي الضخم. رآه حصناً منيعاً لا يمكن اقتحامه، حتى إن آلافاً من القذائف الصاروخية تعجز عن النيل منه. مرة ثانية تساءل لِمَن يكتب ما يكتبه في مفكرته، أتراه يكتب للمستقبل أم للماضي، أيكتب لعصر ربما لن يوجد إلا في خيالاته؟ وأمام عينيه لم يكن الموت فحسب يقف متربصاً، بل الفناء. والمفكرة ستتحول إلى رماد وهو نفسه سيموت ويتحول إلى بخار. لن يكون هنالك أحد غير شرطة الفكر يقرأ هذه الأفكار وذلك قبل أن تمحوها من الوجود والذاكرة معاً. كيف يمكن أن تكتب للمستقبل، إذا كان لا يمكن لأي أثر لك أن يبقى لهذا المستقبل، ولا حتى كلمة على قصاصة ورق مجهولة الكاتب.

دقت ساعة الشاشة الثانية بعد الظهر، وعليه أن ينصرف في غضون عشر دقائق ليعود لعمله مرة ثانية في الدقيقة الثلاثين بعد الثانية ظهراً.

أحسّ أن دقات الساعة بدت كأنها قد بعثت في كيانه روحاً جديدة، كان كشبح وحيد يتمتم بينه وبين نفسه بالحقيقة دون أن يسمعه أحد على الإطلاق، ولكن ما دام يمكنه الاستمرار في ذلك فإن هذه التمتمة ستتواصل ، فليس بمجرد إسماع الآخرين صوتك بل ببقائك سليم العقل يمكنك مواصلة حمل التراث الإنساني. عاد ونستون إلى الطاولة وجلس على الكرسي ثم تناول القلم وبدأ يكتب: «إلى المستقبل أو الماضي، إلى الزمن الذي يكون الفكر فيه حراً طليقاً، إلى زمن يختلف فيه الأشخاص عن بعضهم البعض ولا يعيش كل منهم في عزلة عن الآخر، إلى زمن تظل الحقيقة فيه قائمة ولا يمكن فيه لأحد أن يمحو ما ينتجه الآخرون.

وإليكم، من هذا العصر الذي يعيش فيه الناس متشابهين، متناسخين، لا يختلف الواحد منهم عن الآخر. من عصر العزلة، من عصر الأخ الكبير، من عصر التفكير المزدوج ، تحياتي!»

شعر آنذاك كأنه في عالم الأموات، وبدا له أنه في هذه اللحظة فقط، لحظة بات فيها قادراً على صياغة أفكاره، قد اتخذ الخطوة الحاسمة. إن عواقب كل عمل تكمن في العمل نفسه، وكتب: «إن جريمة الفكر لا تفضي إلى الموت، إنها الموت نفسه».

الآن وقد أدرك أنه ميت لا محالة أصبح من الأهمية له أن يبقى على قيد الحياة قدر ما يتاح له ذلك. نظر إلى يده فوجد أن إصبعين من يمناه كانتا ملطختين بالحبر. وهذه هي بالضبط الأشياء الصغيرة التي يمكن أن تشي بك. فربما بسبب ذلك يبدأ بعض المتحمسين للحزب في الوزارة (امرأة مثلاً كتلك المرأة ذات الشعر الرملي أو تلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة) في التساؤل لماذا، ما الذي يجعله ينصرف إلى الكتابة ساعة الغداء؟ ثم لماذا يستعمل هذا النوع القديم من الأقلام في الكتابة، ثم ما الذي كان يكتبه يا ترى! ثم ترسل بتلك التساؤلات إلى المسؤول المختص. فأسرع إذ ذاك إلى الحمام، وراح، بحرص، يزيل الحبر بتلك الصابونة الخشنة التي تقشط الجلد قشطاً وكأنها صُنعت خصيصاً لهذه الغاية.

وبعد ذلك أعاد المفكرة إلى درج المكتب. ليس لأن إخفاءها أمرٌ ممكن، فمن العبث أن يفكر في ذلك، بل ليكون قادرا على معرفة ما إذا كان أحد قد توصل إليها أم لا. إن شعرة يضعها على نهاية تلك الصفحة يمكن كشفها بسهولة، ولذلك التقط بطرف بنانه ذرة غبارأبيض ووضعها على إحدى زوايا الغلاف، حيث يكفي مجرّد تحريك المفكرة لإزاحتها عن الغلاف.

الفصل الثالث

كان ونستون يحلم بأمه. حرك ذاك الحلم ذكراها في داخله، وفكر أنها لا بد قد اختفت وهو بعد في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره. كانت امرأة طويلة ممشوقة القوام كتمثال، تميل إلى الصمت، بطيئة الحركة، ولها شعر أشقر جميل. بعدئذ تذكر والده على نحو أكثر تشوشاً، فما يذكره عن والده أنه أسمر البشرة، نحيف، ويرتدي دائماً ملابس سوداء أنيقة (وأكثر ما يذكره ونستون عن والده أنه كان ينتعل حذاءً ذا نعل رقيق) ويضع نظارة على عينيه. وقد قضى والداه نحبهما في إحدى موجات التطهير الواسعة التي جرت في الخمسينات.

في تلك اللحظة كانت أمه تجلس في مكان سحيق تحته وهي تحمل شقيقته الصغرى بين ذراعيها. وأما شقيقته فلم يكن يتذكر شيئاً عنها على الإطلاق فيما عدا أنها كانت طفلة نحيلة، ضعيفة، دائمة الصمت وذات عينين واسعتين شاخصتين. كلتاهما كانتا تتطلعان إليه. فكلتاهما كانتا في موضع ما أسفل الأرض، ربما في قاع بئر مثلاً أو في قبر عميق عميق، ولكنه، رغم بُعد المكان عنه وعمقه، فإنه كان ما زال يهوي إلى أسفل. كانتا على سطح سفينة تغرق وتنظران إليه عبر ظلمة المياه. كان ما يزال هناك بعض الهواء الذي تتنفسانه، وما يزال باستطاعته أن يراهما وترياه وكانتا تغرقان وتغرقان إلى الأعماق السحيقة حيث المياه الخضراء التي ستواريهما عن الأنظار إلى الأبد. كان هو في الهواء الطلق وتحت أشعة

الشمس، أما هما ففي الماء الذي يشدهما نحو الموت. لقد كانتا حيث هما لأجل أن يكون هو في مكانه الذي هو فيه. كان يدرك ذلك كما تدركانه، ويراه على وجهيهما. لم يكن هنالك ملامة على وجهيهما أو في قلبيهما نحوه، كأنهما تعرفان أنه كان يجب أن تموتا من أجل أن يظل هو على قيد الحياة. وكان هذا جزءاً من مسار لا مفرّ منه.

لم يكن باستطاعته أن يتذكر ما الذي حصل، لكنه عرف في حلمه بطريقة ما أن أمه وشقيقته قدمتا حياتيهما فداء لحياته هو. لقد كان حلما من تلك الأحلام التي، رغم محافظتها على المشهد المميز لأجواء الأحلام، تبقى امتداداً لحياة الإنسان الفكرية، والتي يصبح المرء فيها على وعي بالحقائق والأفكار التي تبقى محفورة في ذاكرته حتى بعد أن يستيقظ.

وما خطر لونستون هو أن موت أمه، منذ ثلاثين سنة تقريباً، كان مأساة محزنة بشكل لم يعد موجوداً. فالمأساة، كما يفهمها، باتت شيئاً يخص العالم القديم، وينتمي لزمان كان ما يزال فيه خصوصية وصداقة وحب، لزمان كان ما يزال أفراد العائلة الواحدة يقفون فيه جنباً إلى جنب دونما حاجة إلى معرفة السبب. كانت ذكرى وفاة أمه تمزّق قلبه، فقد كانت تحبّه، وماتت وهي تحبّه، فيما كان هو صغيراً وأنانياً أعجز من أن يبادلها حبّاً بحب. ولسبب لا يعرفه لم يكن يتذكر كيف ضحّت بنفسها في سبيل مفهوم من الولاء كان خاصاً بها وغير قابل لأن يتحوّل أو يتزعزع. ورأى أن أشياء كهذه لا يمكن أن تحدث في هذه الأيام التي باتت زماناً للخوف والكراهية والألم، ولا مكان فيها للعواطف السامية أو للأحزان العميقة أو المعقدة المتشابكة.

كل هذا بدا له أنه يراه في عيون أمه وأخته الواسعة عندما كانتا تتطلعان إليه عبر المياه الخضراء، وعلى بعد مئات الفراسخ في الأعماق، وهما تغرقان لأسفل وتغرقان.

وفجأة رأى نفسه واقفاً على أرض يكسوها عشب ربيعي في نهاية

نهار صيفي حيث أشعة الشمس المائلة للغروب تذهّب الأرض. إنه المشهد نفسه الذي يتكرر مراراً في أحلامه حتى بات يشك فيما إذا كان قد رأى ذلك في اليقظة أم في المنام. في أوقات اليقظة كان يسمي هذا المشهد: الريف الذهبي. إنه مرعى قديم كانت ترعى فيه الأرانب، ويجتازه متلوياً ممر ضيق وحفر خِلْدٍ هنا وهناك. أما على السياج في الجانب المقابل من الحقل فقد كانت أغصان شجر الدردار تتمايل على نحو خفيف مع النسيم بينما تحف أوراقها متحركة بكتلها الكثيفة مثل شعر النساء. وعلى مقربة ينساب جدول صاف ورقراق حيث تسبح الأسماك في برك تحت أشجار الدردار.

وعبر الحقل، كانت الفتاة ذات الشعر الأسود تسير نحوه. وبحركة واحدة نزعت ثيابها ورمتها جانباً دون اكتراث. كان جسدها ناعماً وبشرتها بيضاء، لكن ذلك لم يثر فيه أدنى رغبة، بل إنه بالكاد تطلع إليها. لكن الذي استهواه من ذلك كله هو تلك الحركة التي نزعت بها ثيابها وطوحت بها أرضاً. فبرشاقتها وعدم مبالاتها بدا كأنها تقوّض ثقافة كاملة وتنقض نظاماً فكرياً بكليته، كما لو أن الأخ الكبير والحزب وشرطة الفكر يمكن أن تذهب أدراج الرياح بحركة بارعة كحركة ذراعها. لقد كانت هذه الحركة أيضاً من بقايا الزمن القديم. واستيقظ ونستون وكلمة شكسبير على شفتيه.

كانت شاشة الرصد ترسل صفيراً يصمّ الآذان استمر على وتيرة واحدة لثلاثين ثانية. وكانت الساعة تدق السابعة والربع وهو وقت استيقاظ العاملين بالمكاتب. قفز ونستون من فراشه عارياً، إذ كان العضو العادي بالحزب لا يتسلم إلا ثلاثة آلاف قسيمة ملابس سنوياً، وكانت البيجامة تكلف وحدها ستمائة، لبس على عجل بعض الملابس الداخلية المتسخة وسروالاً كان معلقاً على كرسي. كانت فترة التمارين الرياضية ستبدأ في غضون ثلاث دقائق. وفي اللحظة التالية تملكته نوبة سعال عنيفة، كانت تنتابه تقريباً بعد استيقاظه، أجهدت رئتيه بشدة حتى أنه لم

يكن يستطيع التنفس إذ ذاك إلا بعد أن يستلقي على ظهره ويشهق عدة شهقات عميقة. انتفخت عروقه من أثر السعال كما بدأت الدوالي تؤلمه.

ثم تعالى صوت أنثوي قوي لامرأة تزعق: «المجموعات من ثلاثين إلى أربعين! رجاء، خذوا أماكنكم! من ثلاثين إلى أربعين!».

قفز ونستون متخذا وضعية الاستعداد أمام الشاشة. ظهرت امرأة شابة نحيفة لكنها مفتولة العضلات ترتدي بذلة وحذاء رياضياً، ثم صرخت:

«مع ثني الذراعين ومدّهما، تابعوا معي، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، هيا أيها الرفاق، لتكن حركاتكم أكثر حيوية. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...»

لم يصرف ألم السعال ذهن ونستون عن الانشغال بما أثاره ذلك الحلم داخله. بل إن تلك الحركات المتناسقة من التمرين الرياضي قد أبقت على هذا التأثير. فبينما كان يحرك بصورة آلية ساعديه إلى الأمام وإلى الوراء، إلى فوق وإلى تحت، متظاهراً بالانشراح، وهو ما كان يعد أمراً ضرورياً أثناء التمارين الرياضية، كان يحاول جاهداً استرجاع تلك الفترة التي يلفّها من طفولته المبكرة، ولو أن ذلك كان في غاية الصعوبة، فبعد الخمسين يتلاشى كل شيء من الذاكرة. وإذا لم يكن هنالك سجلات يمكنك الرجوع إليها، فإن خط حياة الإنسان قد يُمحى أثره من الذاكرة. قد تخطر على ذاكرته أحداث كبيرة من المحتمل ألا تكون قد وقعت، أو تفاصيل أحداث دون أن تكون قادراً على استكناه الأجواء والظروف التي رافقتها. ومن الممكن أن تكون هناك فراغات زمنية كبيرة لا يمكنك أن تملأها بأي أحداث. لقد تغير كل شيء، حتى أسماء البلدان ومساحاتها على الخرائط تغيّرت. فالقطاع الهوائي رقم واحد على سبيل المثال لم يكن هذا اسمه في تلك الأيام، كان يسمى إنجلترا أو بريطانيا، أما لندن، حسبما كان يشعر، فقد كانت دوماً تسمى لندن.

لا يذكر ونستون على وجه التحديد وقتاً لم تكن فيه بلاده في حالة حرب، ولكن كان من الثابت له أنه كان هنالك فترة طويلة من السلام قد تخللت طفولته، لأن من ذكريات طفولته الأولى يذكر غارة جوية فاجأت الجميع على حين غرة. ربما كان ذلك عندما ألقيت قنبلة ذرية على كولشيستر. وهو لا يذكر الغارة نفسها، لكنه يذكر يد والده وهي تقبض على يديه بينما كانا يُهرعان نازلين إلى مكان عميق تحت الأرض على سلم حلزوني يرن تحت قدميه، مما آلم ساقيه واضطره للتوقف وأخذ قسط من الراحة. فيما أمه بحركتها الهادئة الحالمة كانت في صف طويل وراءهما وهي تحمل أخته الصغيرة، أو لعل ما تحمله كان صرة من البطانيات. فهو ليس متأكداً مما إذا كانت أخته قد وُلدت أم لا. أخيراً وصلوا إلى مكان مزدحم يعج بالضجيج، وهو حسبما اعتقد، محطة قطار أنفاق.

كان هنالك أناس يجلسون على أرض مرصوفة بالحجارة، بينما آخرون يتزاحمون بشدة وهم يجلسون على مقاعد معدنية الواحد فوق الآخر. استطاع ونستون وأمه وأبوه أن يجدوا لهم موطئاً. وبالقرب منهم كان رجل وامرأة طاعنان في السن يجلسان جنباً إلى جنب على مقعد. كان الرجل العجوز يلبس بذلة سوداء وقبعة من القماش الأسود تنحسر للوراء كاشفة عن شعر ناصع البياض. كان وجهه قرمزياً وعيناه زرقاوين ومغرورقتين بالدموع، وتنبعث منه رائحة الخمر وكأنها تفوح من جسمه وليس من الشراب. حتى كان المرء ليحسب أن الدموع التي تسيل من عينيه هي خمر صاف. ولكنه رغم كونه ثملاً قليلاً، فإنه كان رازحاً تحت أحزان حقيقية لا تحتمل. وبطريقته الطفولية أدرك أن ثمة واقعة فظيعة، واقعة لا يمكن غفرانها أو علاجها، قد حدثت. وبدا له أيضاً أنه قد عرف السبب. شخص ما كان يحبه العجوز، ربما حفيدة صغيرة، قد قضت نحبها. وكان العجوز يتمتم من حين لآخر قائلاً: «كان يجب ألا نثق بهم، هذا ما قلته أليس كذلك، هذا ما جنيناه من ثقتنا بهم، لقد

كنت أقول ذلك دائماً، ما كان ينبغي لنا أن نثق بهؤلاء الأنذال».

لكن من هم هؤلاء الذين ما كان عليهم أن يثقوا بهم؟ أمر لم يعرفه ونستون. منذ ذلك الوقت كانت الحرب متواصلة ، ولو أننا أردنا الدقة، فإنها لم تكن دائماً الحرب نفسها. فعلى مدى أشهر، أثناء طفولته، كان قتالٌ عنيف يدور في شوارع لندن نفسها. وهو ما يزال يذكر بعضه بوضوح. ولكن التاريخ لا يأتي حتى على إشارة لتلك الفترة. من كان يحارب من وفي أي وقت؟ أمر كهذا مستحيل طالما أنه لا سجل مكتوب أو كلمة مسجلة قد أتت على ذكر أي تحالفات غير تلك القائمة في الوقت الراهن. ففي هذه اللحظة مثلا في 1984 (إن كانت هذه اللحظة فعلا في 1984)، أوقيانيا في حرب مع أوراسيا، بينما تُحالف شرقاسيا. لكن ما من بيان عام أو خاص اعترف يوماً بأن القوى الثلاث قد أقامت تحالفات مختلفة عما هو قائم اليوم. ولكن ونستون عرف جيداً، أنه منذ أربع سنوات فقط كانت أوقيانيا في حرب مع شرقاسيا ومتحالفة مع أوراسيا. كان ذلك مجرد إدراك مبهم لأن ذاكرته وأفكاره لم تكن تحت سيطرته بصورة كافية. فعلى المستوى الرسمي لم يحدث أي تغيير في التحالفات. فإذا كانت أوقيانيا في حرب مع أوراسيا، إذن فإن أوقيانيا كانت دائماً في حرب مع أوراسيا. ذلك أن عدو اللحظة الراهنة يمثل الشر المطلق، وهذا ما يؤكد أن وفاقاً في الماضي أو المستقبل كان في حكم المستحيل.

كان الشيء المخيف الذي خطر له للمرة الألف، وهو يدفع بكتفيه إلى الوراء متألماً (بينما يداه على خاصرته ويتحرك حركة استدارية من الوسط، وهي حركة يفترض أنها تقوي عضلات الظهر)، أجل الشيء المخيف هو أن يكون ما انتابه من مخاوف صحيحاً! لو أن الحزب يستطيع أن يضرب يده في الماضي ليقول إن هذا الحدث أو ذاك لم يحدث أبداً. لو كان ذلك لكان أشد إفزاعاً من التعذيب أو الموت.

إن الحزب يقول إن أوقيانيا لم تدخل أبداً في تحالف مع أوراسيا،

بينما ونستون سميث يعرف أن أوقيانيا كانت في تحالف مع أوراسيا منذ وقت قريب، ولكن مثل هذه المعلومات أين يمكن أن نجدها. إنها فقط في ضميره الذي لا يلبث أن يُسحق، وإذا قبل الناس الأكذوبة التي ألزمهم بها الحزب، وإذا كانت كل السجلات تحكي القصة نفسها، فإن الأكذوبة تدخل التاريخ وتصبح حقيقة. وأحد شعارات الحزب «من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل، ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي». لكن الماضي، الذي هو في طبيعته قابل لإعادة النظر، لم يحدث أبداً أن تغير. فما هو صحيح اليوم كان صحيحاً منذ الأزل وسيبقى كذلك إلى الأبد. إن الأمر في منتهى البساطة، فكل المطلوب هو سلسلة لا تنتهي من الانتصارات على ذاكرتك «الاستحواذ على الحقيقة» أو كما يسمونها في اللغة الجديدة «التفكير الازدواجي».

«استرح» صرخت المدربة وهي تبتسم قليلاً.

أرخى ونستون ذراعيه وملأ رئتيه بالهواء ببطء، بينما كان عقله ينزلق في متاهات التفكير الازدواجي.. أن تعرف وأن لا تعرف، أن تعي الحقيقة كاملة، ومع ذلك لا تفتأ تقص الأكاذيب محكمة البناء، أن تؤمن برأيين في آن وأنت تعرف أنهما لا يجتمعان ومع ذلك تصدق بهما. أن تجهض المنطق بالمنطق، أن ترفض الالتزام بالأخلاق فيما أنت واحد من الداعين إليها. أن تعتقد أن الديمقراطية ضرب من المستحيل، وأن الحزب وصيٌّ عليها. أن تنسى كل ما يتعين عليك نسيانه، ثم تستحضره في الذاكرة حينما تمس الحاجة إليه، ثم تنساه مرة ثانية فوراً، وفوق كل ذلك أن تطبق الأسلوب نفسه على الحالتين. ذلك هو الدهاء الكامل، أن تفقد الوعي عن عمد ووعي، ثم تصبح ثانية غير واعٍ بعملية التنويم الذاتي التي مارستها على نفسك. بل حتى إن فهمَ عبارة التفكير الازدواجي تستدعي منك اللجوء للتفكير الازدوجي.

ومرة ثانية دعتهم المدربة لاتخاذ وضع الاستعداد: «الآن دعونا نرى من منا يستطيع أن يلمس أصابع قدميه» نادت بحماس، ثم أردفت قائلة

«ابدأوا من فوق الوركين، رجاء أيها الرفاق. واحد، اثنان! واحد، اثنان! . . .»

كان ونستون يكره هذا التمرين الذي يسبب له آلاماً حادة من كعبيه إلى إليتيه وغالباً ما كان ينتهي بنوبة سعال حادة. لم يكن له غير تأملاته ما يجعله مسروراً إلى حد ما. إن الماضي، كما تراءى له، لم يتغير فحسب، بل اجتُثّ من جذوره. إذ كيف يمكن أن تبرهن على أكثر الحقائق جلاء حينما لا يكون لديك أي سجل لها خارج ذاكرتك؟ هنا حاول ونستون أن يتذكر في أي سنة سمع للمرّة الأولى بالأخ الكبير. يُخيل إليه أن ذلك كان في الستينات، لكنه من رابع المستحيلات أن يتأكد من ذلك. ففي سجلات الحزب يصور الأخ الكبير طبعاً باعتباره زعيم الثورة وحاميها والقيّم عليها منذ أيامها الأولى. ومآثره كانت تتوغل تدريجياً في الماضي حتى وصلت إلى عالم الأربعينات والثلاثينات الخرافي، عندما كان الرأسماليون، بقبعاتهم الأسطوانية الغريبة، ما زالوا يسيرون في الشوراع بسياراتهم الفارهة أو عربات الخيول ذات الجوانب اللامعة. لم يكن أحد يعرف من هذه الأسطورة ما هو الحقيقي وما هو المختَلَق، بل إن ونستون نفسه لم يستطع تذكّر التاريخ الذي جاء فيه الحزب إلى الوجود، ويعتقد أنه لم يسمع بكلمة «إنج شك» قبل عام 1960، ولكن قد يكون من الممكن أنها قد اشتقت من «الاشتراكية الإنجليزية» في اللغة القديمة، مما يعني أنها كانت أسبق.

كان الضباب يحجب كل شيء. وكان بمقدورك أحياناً أن تضع يدك على أكذوبة محددة. فعلى سبيل المثال، تزعم كتب تاريخ الحزب أن الحزب هو أول من اخترع الطائرات، فيما ونستون يذكر الطائرات منذ طفولته الأولى، ولكن لا يمكن الحصول على برهان لنقض هذا الادعاء. مرة واحدة في حياته وقعت يداه على دليل وثائقي لا يمكن دحضه، برهان على تزييف حقيقة تاريخية. وفي تلك المناسبة. . . هنا قاطعه صوت غاضب آت من شاشة الرصد «سميث، ياسميث رقم 6079، نعم

أنت، انحنِ أكثر إلى الأسفل، إنك تستطيع أن تؤدي أداءً أفضل، لكنك لا تبذل جهداً كافياً، انحنِ أكثر رجاء. هذا أحسن أيها الرفيق. الآن استريحوا جميعاً وراقبوني.»

وفجأة تصبب كل جسم ونستون عرقاً حاراً، ومع ذلك بقي وجهه خلواً من أي انفعال. فليس له أن يظهر الخوف وليس له أن يظهر الاستياء. رفة عين واحدة يمكن أن تودي بك. كان ونستون واقفا يراقب بينما رفعت المدربة ذراعيها فوق رأسها ثم انحنت (ليس للمرء أن يقول بلطف ولكن بخفة وإتقان) ثم وضعت أصابع يديها تحت أصابع قدميها.

«هكذا يا رفاق. هكذا أريدكم أن تفعلوا. راقبوني ثانية. أنا في التاسعة والثلاثين من عمري ولدي أربعة أطفال. الآن انتبهوا»، وانحنت ثانية: «لاحظوا. ركبتاي غير مثنيتين، باستطاعتكم جميعاً أن تفعلوا مثلي إذا أردتم» قالت ذلك وهي تنتصب ثانية. «إن أي شخص لم يتجاوز الخامسة والأربعين يمكنه أن يلمس أصابع قدميه. فنحن الذين لم نحظ بشرف القتال على خطوط الجبهة، علينا على الأقل أن نبقى متمتعين باللياقة. تذكروا أبناءنا على جبهة مالابار! والبحارة على القلاع العائمة! فكروا فقط في كل ما عليهم أن يتحملوه. والآن حاولوا ثانية، هذا أفضل يا رفيق، أفضل بكثير»، قالت مشجعة حين نجح ونستون بعد جهد جهيد في ملامسة أصابع قدميه دون أن يثني ركبتيه للمرة الأولى منذ سنوات عديدة.

الفصل الرابع

بتنهيدة عميقة ولاإرادية، لم يمنعه حتى قربه من شاشة الرصد عن زفرها وهو يبدأ عمل يومه، سحب ونستون جهاز التسجيل باتجاهه ثم نفخ الغبار عن مهتافه. لبس نظارتيه، وأخرج أربع لفافات صغيرة من الورق وثبتها بمشجب، وكانت هذه اللفافات قد أُلقيت من الأنبوب الهوائي الموجود إلى يمين طاولته.

في حجيرة مكتبه كانت هنالك ثلاث فتحات: عن يمين جهاز التسجيل أنبوب هوائي صغير للرسائل المكتوبة. وعن يساره أنبوب أكبر للصحف. وفي الحائط الجانبي، في متناول يد ونستون، كوة كبيرة مستطيلة الشكل ومغطاة بشبكة سلكية. وهذه الأخيرة كانت للتخلص من الأوراق التالفة. كان هنالك آلاف أو عشرات الآلاف من هذه الكوى المتشابهة داخل البناء، ليس في الغرف فحسب، بل حتى على مسافات قصيرة في الممر. لسبب ما كان الناس يسمونها قبور الذاكرة. فعندما كان يعرف المرء أن هنالك وثيقة تَقرر إتلافها، أو حتى عندما يرى قطعة ورق تالفة ملقاة هنا أو هناك، كان تلقائياً يقصد أقرب قبور الذاكرة ويرفع غطاءها ثم يرمي بها داخلها، حيث يحملها تيار من الهواء الدافيء إلى أفران ضخمة مخفية في تجاويف البناء.

حلّ ونستون لفافات الورق الأربع وتفحّصها. كانت كل واحدة منها تحتوي على رسالة من سطر أو سطرين فقط باللغة المختصرة، وهي

ليست لغة جديدة فعلياً ولكنها تتألف في معظمها من مفردات من اللغة الجديدة، تستعمل في الوزارة للأغراض الداخلية. وكانت تجري على النحو التالي:

الزمان، 17-3-84، خطاب للأخ الكبير نقل مغلوطاً إلى أفريقيا. نقّحه.

الزمان، 19-12-83، التوقعات 3، ي ب، الربع الرابع، 83، أخطاء مطبعية، دققوا الإصدار الحالي.

الزمان، 14-2-84، وزارة الوفرة، حصل خطأ بالشوكولا، تحققوا.

الزمان، 13-2-83، نقل أمر اليوم لـ خ ك خاطئ جداً، لا تشيروا إلى أشخاص، أعيدوا الكتابة وأتلفوا الأوراق السابقة.

بقليل من الرضا نحّى ونستون الرسالة الرابعة جانباً، إذ كانت معقدة وعلى درجة من الأهمية تجعل من الأنسب إرجاء معالجتها إلى الآخر. أما الرسائل الثلاث الأخريات فقد كانت أموراً روتينية الطابع، بينها واحدة توحي بوجوب الخوض في غمار قوائم أرقام مملة.

أدار ونستون «أرقاماً خلفية» على شاشة الرصد طالباً أعداداً معينة من صحيفة «التايمز». انزلقت الصحيفة من الأنبوب الهوائي بعد بضع دقائق فقط. وكانت الرسائل التي تلقاها تشير إلى مقالات أو فقرات إخبارية سيتعين لسبب أو لآخر تعديلها، أو على حد قول العبارة الرسمية، تصحيحها. فعلى سبيل المثال نشرت صحيفة «التايمز» في عددها الصادر في السابع عشر من مارس أن الأخ الكبير، في خطابه الذي ألقاه قبل يوم، تنبأ أن جبهة جنوبي الهند ستظل هادئة، فيما ستشن أوراسيا هجوماً وشيكاً على شمال أفريقيا. ولكن ما حدث هو أن القيادة العليا الأوراسية قد شنّت هجومها على جنوب الهند وليس على شمال أفريقيا. لذلك

كان من الضروري إعادة كتابة الفقرة الموجودة في خطاب الأخ الكبير بالشكل الذي يظهر أنه تنبأ بما وقع فعلاً. كما أن «التايمز» في عددها التاسع عشر من كانون الأول (ديسمبر) قد نشرت التوقعات الرسمية لإنتاج أصناف مختلفة من السلع الاستهلاكية في الربع الأخير من العام 1983، والذي كان في الوقت نفسه الربع السادس من الخطة الثلاثية التاسعة. أما عدد اليوم فقد احتوى على بيان بالإنتاج الفعلي الذي تبيّن من خلاله أن التوقعات كانت خاطئة إلى حد كبير في كل جوانبها. وكانت مهمة ونستون تصحيح أرقام التوقّعات الأصلية وجعلها تتفق مع الأرقام الجديدة. أما بالنسبة إلى الرسالة الثالثة فقد كانت تشير إلى خطأ صغير جداً يمكن تصحيحه في غضون دقيقتين. فمنذ فترة وجيزة تعود إلى شباط (فبراير)، كانت وزارة الوفرة قد أصدرت وعداً (أو حسب العبارة الرسمية «تعهداً قاطعاً») بأنه لن يكون ثمة تخفيض في حصة الشوكولا خلال عام 1984. هذا بينما كان ونستون على معرفة بأن حصة الفرد من الشوكولا سيتم تخفيضها فعلاً من ثلاثين غراماً إلى عشرين بنهاية الأسبوع الحالي. ومن ثم كان يتوجب عليه هو استبدال كلمة «الوعد» المشار إليها في البيان بكلمة «تحذير» من احتمال اللجوء اضطراراً لتخفيض حصة الشوكولا في وقت ما من نيسان (أبريل).

وحالما انتهى ونستون من معالجة هذه الرسائل، أرفق تصحيحاته بالأعداد الخاصة بها من «التايمز» ثم دفعها في الأنبوب الهوائي. وبعدئذ، وبحركة يبدو أنها لاإرادية جعّد الرسائل الأصلية وأية ملاحظات كان قد دوّنها بنفسه، ثم رمى بها جميعاً في أحد قبور الذاكرة لتلتهمها النيران.

أما ماذا كان يجري في المتاهة غير المرئية حيث ينتهي الأنبوب الهوائي فأمر لم يكن ونستون يعرفه بصورة مفصلة، وإنما كان فقط يلم به إلماماً عاماً. فحالما يتم تجميع ومقارنة كافة التصحيحات التي يصدف أن تكون لازمة في عدد من أعداد «التايمز»، يعاد طبعه من جديد، ويتم

إتلاف النسخة الأصلية ووضع النسخة المصححة في ملفات المحفوظات محلها. ولم تكن عملية التبديل المتواصلة هذه تطبق على الصحف فحسب، بل كانت تطال أيضاً الكتب والدوريات والنشرات والإعلانات والأفلام وأشرطة التسجيل وأفلام الكرتون والصور وكذا كل أنواع الأدب أو الوثائق التي يمكن أن تحمل مضامين سياسية أو أيديولوجية. فيوماً بيوم وربما دقيقة بدقيقة يتم تحديث الماضي بما يجعله يتوافق والحاضر. وهكذا، فإن كافة تنبؤات الحزب يتسنى، بالدليل الوثائقي، إظهارها باعتبارها صائبة. كما أن كل فقرة إخبارية أو أي إبداء لوجهة نظر تتعارض مع مجريات الحاضر كان لا يسمح لها بالبقاء ضمن أي سجلات. فالتاريخ كله كان بمثابة لوح تم تنظيفه لإعادة النقش عليه بما تستلزمه مصلحة الحزب. وحينما يتم الانتهاء من عمل ما، فإنه يصبح من المتعذر تماماً على أيٍّ كان الإتيان ببرهان على أن ثمة تزييفاً قد جرى. وكان أكبر الاقسام ضمن دائرة السجلات، والذي يكبر بكثير ذاك الذي يعمل به ونستون، يتألف من أشخاص مهمتهم هي تعقب وتجميع كافة نسخ الكتب والصحف وأية وثائق حلت محلها أخرى وبات يتعين إتلافها. وهناك مجموعة من أعداد «التايمز»، والتي ربما بسبب تغيير في التحالفات السياسية أو نبوءة كاذبة وقع فيها الأخ الكبير، قد تمّت إعادة كتابتها عشرات المرات وما زالت محفوظة في ملفاتها حاملة تاريخها الأصلي دون أن تظهر أي نسخ أخرى تناقضها. وحتى الكتب أيضاً كان يتم استردادها وإعادة كتابتها المرة تلو المرة، ثم إعادة طباعتها بصورة مغايرة دون الإشارة إلى أي تغييرات جرت عليها. بل وحتى التعليمات الخطية التي كان يتسلمها ونستون والتي كان يتخلص منها فور الانتهاء منها، لم تشر من بعيد أو قريب لأي عمليات تزييف يتعين القيام بها. وكل ما كان يشار إليه دائماً هو مجرد هفوات أو أخطاء مطبعية أو اقتباسات مغلوطة يلزم تصحيحها توخياً للدقة.

ولكن ونستون كان يعتبر، وهو يعيد ضبط أرقام وزارة الوفرة، أن

ذلك ليس تزييفاً، بل مجرد استبدال تفاهات بتفاهات. فمعظم المواد التي كان يتعامل معها لم تكن تمتّ بصلة لما يحصل على أرض الواقع. فالإحصائيات كانت وهمية في نسخها الأصلية شأنها شأن نسخها المعدّلة. وفي كثير من الأحيان كان من المفترض أن تختلقها اختلاقاً من مخيلتك. فعلى سبيل المثال كانت توقعات وزارة الوفرة قد قدرت إنتاج الأحذية الربع سنوي بمائة وخمسة وأربعين مليون زوج من الأحذية، بينما كان الإنتاج الفعلي اثنين وستين مليوناً. ولدى إعادة كتابة التوقعات، خفّض ونستون الرقم إلى سبعة وخمسين مليوناً مفسحاً بذلك المجال للادعاء لاحقاً بأن ثمة فائضاً في الحصة المقررة. وعلى أي حال، فإن اثنين وستين مليوناً لم تكن أقرب إلى الحقيقة من سبعة وخمسين مليوناً أو من مائة وخمسة وأربعين مليوناً، ومن الممكن ألا يكون قد تم إنتاج أي أحذية على الإطلاق. بل وعلى الأرجح، لم يكن أحد يعرف ما تم إنتاجه أو حتى يبالي بمعرفة ذلك. فكل ما كان يعرفه المرء عن إنتاج الأحذية هو أرقام فلكية لا توجد إلا على الورق، في الوقت الذي كان زهاء نصف سكان أوقيانيا حفاة. وهكذا كان شأن كافة الحقائق المسجلة، صغيرة كانت أم كبيرة. فكل شيء يتلاشى في عالم من الظلال إلى حد يصبح معه حتى تاريخ السنة أمراً مشكوكاً فيه.

رفع ونستون ناظريه عبر القاعة. في الحجرة المقابلة لمكتبه على الجانب الآخر كان ثمة رجل ضئيل الجسم، دقيق الملامح، ذو ذقن سوداء، يُدعى تيلوتسون، يعمل بدأب، واضعاً على ركبتيه صحيفة مطوية، ومقرّباً فمه من مهتاف جهاز التسجيل. وكان يبدو من هيئته أنه يحاول الاحتفاظ بما يقوله سراً، بينه وبين شاشة الرصد. وعندما رفع رأسه لاحظ أنّ ونستون ينظر إليه، فبادله بنظرة عداء.

كان ونستون لا يعرف من هو تيلوتسون هذا ولا العمل الذي يقوم به. فالناس في دائرة السجلات كانوا لا يميلون للتحدث عما يُسْنَدِ إليهم من مهام. ففي القاعة الطويلة الخالية من النوافذ، وحجراتها المصطفة

على صفين وحفيف الأوراق الذي لا ينتهي وهمهمة الأصوات التي تهمس أمام أجهزة التسجيل، كان يعمل عشرات الموظفين الذين لم يكن ونستون حتى يعرف أسماءهم، مع أنه كان يراهم يومياً يروحون ويجيئون سراعاً في الممرات أو يلوحون بالإشارات في أثناء «دقيقتي الكراهية». ولكنه كان يعرف أن في الحجرة المقابلة لحجرته، تعمل المرأة ذات الشعر الرملي، التي تعكف يومياً على تعقب ومحو ما يرد في الصحف من أسماء لأناس تمّت إزالتهم من الوجود، ومن ثم ينبغي اعتبارهم وكأنهم لم يكونوا أبداً. وكان في ذلك شيء من الملاءمة لحالتها، إذ كان زوجها قد لاقى ذلك المصير قبل سنتين. وعلى بُعد بضع حجرات كان هنالك شخص هادئ، غير فعال، ويبدو كأنه يعيش في عالم من الخيال، يدعى إمبلفورث، وذو أذنين مغطاتين بشعر كثيف ويتمتع بموهبة مدهشة في التعامل مع القوافي والأوزان. كان إمبلفورث يعكف على إنتاج نسخ محرفة، أو نصوص نهائية كما كانت تسمى، من القصائد التي أصبحت تتعارض مع أيديولوجية الحزب، ولكن لسبب أو لآخر كان ينبغي استبقاؤها في موسوعة المختارات الأدبية. وهذه القاعة التي تضم خمسين عاملاً أو ما يقارب هذا العدد، كانت قسماً فرعياً واحداً، أو خلية مفردة ضمن المنظومة الضخمة المعقدة لدائرة السجلات. بينما كان يوجد فوق وتحت، مجموعات كبيرة من العاملين المنهمكين في كم هائل من أعمال لا يمكن تخيلها. فهناك قاعات الطباعة الضخمة بخبرائها واستديوهاتها المجهزة بشكل جيد من أجل تزييف الصور. وهنالك قسم البرامج الإعلامية بمهندسيه ومنتجيه وفرق الممثلين الذين اختيروا خصيصاً لمهاراتهم في تقليد الأصوات. كما كان ثمة جيوش من الكتّاب المراجعين الذين تقتصر وظيفتهم على وضع قوائم بالكتب والدوريات التي ينبغي مراجعتها. وكان هنالك مستودعات ضخمة حيث تخزن الوثائق المصححة فضلاً عن الأفران المخفية والتي يجري فيها إتلاف النسخ الأصلية. وفي مكان أو آخر، مجهول الاسم، كانت هنالك العقول

المدبرة التي يناط بها التنسيق بين الجهود وإرساء الخطوط العامة للسياسة التي تقرر ما يجب الاحتفاظ به من الماضي، وما يجب تزويره أو محوه.

ولم تكن دائرة السجلات هذه إلا فرعاً من فروع وزارة الحقيقة ولم تكن مهمتها الأساسية إعادة بناء الماضي فحسب، بل تزويد مواطني أوقيانيا بالصحف والأفلام والكتب، وبرامج شاشة الرصد، والروايات والمسرحيات، وبكل أنواع الإعلام أو الإرشاد أو التسلية، من التمثال إلى الشعار، ومن القصيدة الغنائية إلى بحوث علم الأحياء، من كتاب التهجئة الخاص بالأطفال إلى معجم اللغة الجديدة. ولم يكن على وزارة الحقيقة أن تلبي الاحتياجات المتنوعة للحزب فحسب، بل عليها أيضاً أن تؤدي الدور نفسه، ولكن بمستوى أدنى، لمصلحة البروليتاريا. فهناك سلسلة كاملة من دوائر الوزارة المنفصلة التي تتعامل مع أدب البروليتاريا وموسيقاهم ومسرحهم ووسائل لهوهم بصورة عامة. وهناك تصدر جرائد تافهة لا تحوي شيئاً تقريباً إلا أخبار الرياضة والجرائم والتنجيم. وتنتج الروايات الجنسية ذات الخمسة سنتات وأفلام الإثارة الجنسية والأغاني العاطفية التي يتم تأليفها بوسائط آلية مثل ذلك النوع من جهاز الكاليدسكوب المعروف بناظم الشعر. وهناك أيضاً قسم فرعي - اسمه في اللغة الجديدة بورنوسيك - ويعمل على إنتاج أحط أنواع المواد الإباحية، وهذه كانت توزع بمغلفات مختومة لا يسمح لأي عضو من أعضاء الحزب، ما عدا أولئك الذين يعملون فيها، بالنظر إليها.

انزلقت ثلاث رسائل من الأنبوب بينما كان ونستون يعمل، لكنها كانت تتعلق بأمور بسيطة، واستطاع بالفعل الانتهاء من أمرها قبل أن يداهمه موعد «دقيقتي الكراهية». وحينما انتهت الدقيقتان عاد إلى حجرته، وتناول معجم اللغة الجديدة من فوق الرف، وأزاح جهاز التسجيل جانباً، ونظف نظارتيه حتى يفرغ لمهمته الرئيسية في ذلك اليوم.

كانت أمتع الساعات في حياة ونستون هي تلك التي يمضيها في

العمل. صحيح أن معظم العمل كان مملاً ورتيباً، ولكن كانت هناك مهام صعبة ومعقدة إلى حد قد ينسى المرء نفسه في غمرتها، كما ينساها وهو منهمك في مسألة رياضية، حيث يُطلب منك عملية تزوير دقيقة وليس ثمة ما تسترشد به غير معرفتك بمبادىء «انج سوك» وتقديراتك الشخصية لما يريد الحزب أن يقوله. وكان ونستون يجيد مثل هذه المهام، حتى أنه كان يُعهد إليه أحياناً بتعديل المقالات الرئيسية في «التايمز» المكتوبة بكاملها باللغة الجديدة. فض ونستون الرسالة وقرأ ما يلي:

الزمان 3-12-83 نقل الأمر اليومي للأخ الكبير خاطئ جداً جداً، عدم الإشارة إلى أشخاص، اكتبه ثانية مصححاً، أرسله إلى فوق، لا تحفظه.

وفي اللغة القديمة تعني:

أمر الأخ الكبير في جريدة التايمز يوم 3 كانون الأول (ديسمبر) وفيه إشارات لأشخاص غير موجودين فعلاً. أعد كتابته بشكل كامل وابعث بالمسودة إلى مرجع أعلى قبل وضعه في الملف وحفظه.

تفحّص ونستون المقالة المثيرة للاعتراض، فأمرُ الأخ الكبير كما يبدو كان مخصصاً للإشادة بعمل مؤسسة إف إف سي سي، التي كانت تزود البحارة في القلاع العائمة بالسجائر وبعض الكماليات الأخرى. ذكر أحد الرفاق ويدعى الرفيق وذرذ وهو من الأعضاء البارزين في النخبة، مثنياً عليه ومنحه وساماً رفيعاً من الدرجة الثانية.

وبعد ثلاثة أشهر حُلت هذه المؤسسة فجأة. وكان بوسع المرء الظن بأن وذرذ وشركاءه قد باتوا من المغضوب عليهم، ولكن لم تصدر أية إشارة إلى ذلك لا في الصحف ولا على شاشة الرصد. كان ذلك هو المتوقع، لأنه لم يكن من المعتاد أن يحاكَم السياسيون المنشقون أو حتى يدانون علناً. فحملات التطهير الكبرى التي تشمل آلاف الناس وتصحبها

محاكمات علنية للخونة ولمجرمي الفكر الذين أقروا بخسّة ما اقترفوا من جرائم وجرى إعدامهم فيما بعد، لم تكن سوى عيّنات خاصة للعرض ولا تحدث غالباً أكثر من مرة واحدة كل سنتين. أما الأمر المألوف فهو أن الأشخاص الذين يجلبون على أنفسهم غضب الحزب كانوا يختفون من الوجود ويختفي معهم ذكرهم دون أن يُعثر على أي مفتاح يكشف سر اختفائهم. وفي بعض الحالات لا يكون هؤلاء قد ماتوا بعد. وربما يعرف ونستون ثلاثين شخصاً، فضلاً عن أبويه، ممن اختفوا في هذا الوقت أو ذاك.

حك ونستون أنفه بملقط للورق في يده، بينما كان الرفيق تيلوتسون ما زال منكباً على جهاز التسجيل بصورة توحي بسرية ما يفعله. ولما رفع رأسه ثانية باتجاه ونستون شعر بنظرة عداء تلمع في عينيه. تساءل ونستون عما إذا كان الرفيق تيلوتسون منهمكاً في المهمة نفسها التي تم إسنادها إليه. إن ذلك من الجائز تماماً. فمهمة على هذه الدرجة العالية من الدقة، لا يمكن أن يُعهد بها إلى شخص بمفرده: ومن جهة ثانية إذا أوكلت هذه المهمة للجنة معناه الاعتراف العلني بوقوع التزوير. لذلك من المرجّح أن يكون هنالك عشرات من العاملين يعكفون الآن على عمل نسخ لما قاله الأخ الكبير بالفعل. وبعد ذلك يقوم بعض ذوي العقول المدبرة من أعضاء النخبة في الحزب باختيار هذه النسخة أو تلك، وإعادة تنقيحها عبر عمليات معقدة من المراجعة مع الإحالات اللازمة، ثم يتم تمرير الكذبة التي وقع الخيار عليها إلى السجلات الدائمة لتصبح حقيقة.

لم يكن ونستون يدري أي جرم ارتكبه وذرذ، ربما حدث ذلك بسبب الفساد أو عدم الكفاءة. أو ربما لأن الأخ الكبير كان يرغب في التخلص من أحد مرؤوسيه الذين يحظون بشعبية جارفة. أو قد يكون لأن وذرذ أو واحداً من ذويه قد اشتُبِهَ في أن لديهم ميولاً انشقاقية، أو ربما، وهو الأرجح ، أن ما حصل قد حصل فقط لأن حملات

التصفيات والإبادة كانت جزءاً ضرورياً من آليات عمل الحكومة. المفتاح الوحيد الحقيقي لهذا اللغز يكمن في عبارة «لا تشر إلى الأشخاص» وهي ما تنطوي على إشارة إلى أن وذرذ قد مات فعلاً. لكن ليس لك أن تفترض دائماً بأن هذه هي الحال مع كل الذين يتم القبض عليهم، ففي بعض الأحيان يطلق سراح بعضهم ويمنحون حريتهم لسنة أو سنتين ثم ينفّذ فيهم حكم الإعدام. وأحياناً كثيرة قد يظهر بعض من تحسبهم في عداد الموتى منذ أمد طويل ظهوراً خاطفاً عبر محاكمة علنية حيث يدلي بشهادة يورّط بها مئات آخرين قبل أن يختفي، ولكن للأبد هذه المرة. أما وذرذ فلم يكن يُعَدّ شخصاً على أي حال، وهذا يعني أنه لم يكن له أبداً أي وجود. وهنا قرر ونستون أن مجرد قلب اتجاه خطابّ الأخ الكبير لن يكون كافياً، وأن من الأفضل أن يجعله يعالج مسألة لا علاقة لها أبداً بموضوعه الأصلي.

كان في وسعه تحويل الخطاب إلى إدانة للخونة ولمجرمي الفكر، ولكن ذلك سيكون مكشوفاً، كما كان يمكنه أن يختلق انتصاراً تحقق على الجبهة، أو نجاحاً في تحقيق فائض إنتاج في الخطة الثلاثية التاسعة، ولكن ذلك قد يعقّد السجلات تعقيداً شديداً. إن المطلوب هو قطعة من الخيال الخالص. وفجأة خطرت على باله فكرة جاهزة. إنها صورة الرفيق أوغيلفي الذي مات مؤخراً في ميدان المعركة وسط أجواء ملحمية. وما أكثر المناسبات التي كان الأخ الكبير يكرس فيها خطابه اليومي لإحياء ذكرى أحد أعضاء الحزب عديمي الذكر المتواضعين ليجعل من حياتهم ومماتهم مثالاً يحتذى به. واليوم يجب الإشادة بذكرى الرفيق أوغيلفي. صحيح أنه لم يكن هنالك وجود سابق لشخص حقيقي اسمه أوغيلفي، ولكن بضعة أسطر مكتوبة وصورتين مزيفتين له لكفيلة بأن تجعل له وجوداً.

أطرق ونستون لحظة ثم جذب جهاز التسجيل باتجاهه وشرع يملي بأسلوب الأخ الكبير المألوف: وهو أسلوب عسكري ومتحذلق في آن.

وبسبب لجوئه لحيلة طرح الأسئلة ثم تقديم الأجوبة الفورية عليها بنفسه، (مثل أتدرون أي الدروس يمكن أن نستخلصها أيها الرفاق؟ إن الدرس- والذي يكوّن أحد مبادىء الاشتراكية الإنجليزية- هو)، فقد كان من السهل تقليده.

في الثالثة من عمره ترك الرفيق أوغيلفي كافة لعب الأطفال ما عدا الطبلة والرشاش ونموذج لطوافة. وفي السادسة، أو قبل سنة من ذلك، إذا تركنا جانباً بعض قواعد الحساب، التحق بمنظمة الجواسيس، وفي التاسعة أصبح قائد مجموعة. أما في الحادية عشرة فقد وشى بعمّه إلى شرطة الفكر بعدما استرق السمع لحديث كان يبدو أنه يتضمن ميولاً إجرامية. وفي السابعة عشرة أصبح منظم مقاطعة في رابطة مناهضة الجنس، وفي التاسعة عشرة صمم القنبلة اليدوية التي كانت تتبنى مشروعها وزارة السلام، والتي تسببت أولى تجاربها في مصرع واحد وثلاثين أسيراً من أوراسيا عند تفجيرها. وفي الثالثة والعشرين قضى نحبه وهو يؤدي الواجب. فبينما كانت تلاحقه طائرات نفاثة معادية أثناء تحليقه بطوافته فوق المحيط الهندي حاملاً وثائق هامة أثقل جسمه بالرشاش وقفز من طوافته إلى أعماق المياه مع ما كان يحمله من وثائق. إنها نهاية بطوليّة نموذجيّة، حسبما يقول الأخ الكبير، لا يمكن أن يفكر فيها المرء إلا وتثير لديه مشاعر الحسد. بعدئذ أضاف الأخ الكبير بضع ملاحظات عن الطهر والإخلاص اللذين تمتع بهما الرفيق أوغيلفي في حياته. فقد كان لا يقرب الخمر ولا يدخن السجائر، ولا يلتمس الراحة من عمله إلا ساعة واحدة في اليوم يمارس فيها الرياضة، فضلاً عن أنه نذر نفسه للعزوبة معتقداً أن الزواج ورعاية الأسرة لا يناسبان شخصاً مثله، لقد وهب نفسه للواجب أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. ولم يكن له حديث إلا الحديث حول مبادئ الاشتراكية الانجليزية، ولا هدف له في الحياة إلا إلحاق الهزيمة بالعدو الأوراسي وتعقب الجواسيس والمخربين ومجرمي الفكر والخونة بشكل عام.

فكر ونستون في نفسه ما إذا كان سيمنح أوغيلفي وسام الاستحقاق، ولكنه عدل في النهاية عن تلك الفكرة لأنها ستجر وراءها مراجعة سجلات هو في غنى عنها. ومرة ثانية رفع ناظريه صوب منافسه في الحجرة المقابلة، وكان ثمة شيء في نفسه يقول له إن تيلوتسون منهمك في العمل ذاته الذي يؤديه هو. لكن لم يكن ثمة طريقة لمعرفة أيّ عمل سيتم تبنّيه في النهاية، غير أنه كانت لديه قناعة راسخة بأن عمله هو الذي سيتم اعتماده. فالرفيق أوغيلفي، الذي كان منذ ساعة لا يردّ حتى على خيال، أصبح حقيقة راسخة الآن. وفكر ونستون كيف أنه يمكنك أن تبعث الحياة في موتى دون أن يمكنك ذلك مع الأحياء. فالرفيق أوغيلفي، الذي لم يسبق أن كان له وجود في الحاضر، أصبح الآن موجوداً في الماضي، وحينما ينسى الناس عملية التزوير ويطويها النسيان، فلسوف يصبح وجوده يضاهي وجود كلٍّ من شارلمان أو يوليوس قيصر في صحته وثبوته.

الفصل الخامس

في قاعة الطعام ذات السقف المنخفض، تحت سطح الأرض، كان الصف يتحرك ببطء. فالقاعة كانت تغص بمن فيها والضجيج يصم الآذان. ومن فوق قضبان طاولة توزيع طعام الغداء كانت أبخرة الطعام المسلوق تتصاعد بقوة، مصحوبة برائحة حمضية لاذعة، مع ذلك لم تتغلب على رائحة خمر النصر. وفي الجانب الأقصى من القاعة كان هنالك ثقب صغير في الحائط حيث يستطيع المرء شراء قدح مترع بالخمر مقابل عشرة سنتات.

«ها هو الرجل الذي كنت أبحث عنه» صاح صوت يأتي من خلف ونستون.

استدار ونستون وإذا به يجد صديقه القديم سايم الذي يعمل في دائرة البحوث. (ربما كانت كلمة «صديق» ليست بالكلمة الدقيقة تماماً، ففي هاتيك الأيام لم يكن للمرء أصدقاء، بل رفاق. غير أنه كان من بين الرفاق مَنْ رفقته ألطف من رفقة غيره). كان سايم لغوياً اختصاصياً في اللغة الجديدة. إنه بالفعل أحد أعضاء فريق ضخم من خبراء يعكفون الآن على جمع وتصنيف الطبعة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة. كان سايم مخلوقاً ضئيل الجسم، أصغر حجماً من ونستون، ذا شعر أسود وعينين واسعتين جاحظتين عليهما مسحة من الحزن المفعم بالسخرية، تبدوان كأنهما تتفحصان وجهك أثناء حديثه إليك.

ابتدره سايم قائلاً: «كنت أود أن أسألك ما إذا كان لديك شفرات حلاقة».

«ولا واحدة» قال ونستون بشيء من العجالة والشعور بالذنب، «لقد بحثت في كل مكان، لكنها لم تعد موجودة الآن».

كان الجميع لا يكفون عن السؤال عن شفرات الحلاقة، وكان ونستون في حقيقة الأمر لديه شفرتان لم يستعملهما بعد، غير أنه يدخرهما لوقت تمس فيه الحاجة. كان ثمة نقص حاد في الشفرات منذ أشهر مضت. فدائماً كان هنالك سلعة من السلع الضرورية التي لم تعد متاجر الحزب تزوّد المواطنين بها. تارة تكون الأزرار، وتارة خيطان الصوف الخاص برتق الملابس، وأخرى رباطات الأحذية، أما الآن فهي شفرات الحلاقة التي لا يمكنك العثور عليها إلا باستجدائها بصورة شبه سرية من السوق السوداء.

وأضاف ونستون كاذباً: «إنني أستعمل الشفرة نفسها منذ ستة أسابيع».

تحرك الصف مرة أخرى للأمام. وعندما توقف التفت ونستون إلى سايم ثانية. تناول كل منهما صينية معدنية سطحها لزج من أثر الشحوم، من كومة صينيات على حافة الطاولة.

بادر سايم بالسؤال: «هل ذهبت ورأيت السجناء وهم يشنقون البارحة؟»

قال ونستون بشيء من اللامبالاة: «كنت في العمل، الأرجح أني سأشاهدهم على الشاشة.»

فردّ سايم: «إن ذلك لا يغني أبداً»

وكانت عيناه الساخرتان تحدقان بوجه ونستون وكأنهما تقولان له: «أنا أعرفك، وأرى ما في داخلك، وأعرف جيداً لماذا لم تذهب لمشاهدة السجناء يشنقون.» على المستوى الفكري، كان سايم شديد

الولاء لأيديولوجية الحزب، إذ تراه يتكلم بشماتة وبابتهاج كريهين عن غارات شنّتها الطوافات على قرى العدو وعن المحاكمات والاعترافات التي أدلى بها مجرمو الفكر، وعن الإعدامات التي تنفّذ داخل زنزانات وزارة المحبة. أما إذا أردت أن تتكلم إليه، فإن ذلك يتوقف على مدى قدرتك على الانتقال بالحوار لموضوع آخر لإبعاده عن مثل هذه المواضيع واستدراجه، إذا أمكن ذلك، للحديث عن جماليات اللغة الجديدة التي كان مولعاً بها وبارعاً فيها. أشاح ونستون بوجهه جانباً ليتحاشى النظرة الفاحصة لعيني سايم الواسعتين السوداوين.

قال سايم معقّباً: «كانت عملية شنق جيدة، غير أنهم على ما أعتقد أفسدوها بربط القدمين معاً، كنت أحب أن أراهم وهم يرفسون بها. لكن اللحظة الأكثر إثارة كانت تأتي في النهاية، وذلك حينما يتدلى اللسان إلى الخارج وقد أصبح داكن الزرقة. إن تلك اللحظة هي التي تحوز إعجابي.»

«التالي من فضلكم» صاح العامل ذو المريلة البيضاء وبيده مغرفة.

دفع كل من ونستون وسايم بصينيته تحت القضبان، فوضع لكل منهما بسرعة الوجبة المقررة: قصعة معدنية من طعام مسلوق ذي لون قرمزي رمادي، وكسرة من الخبز، ومكعب من الجبن، وفنجان من قهوة النصر الخالية من الحليب، وقطعة سكر واحدة.

قال سايم: «هنالك طاولة شاغرة تحت شاشة الرصد، لنأخذ في طريقنا إليها قدحين من الخمر»

كانت الخمر تقدم لهم في أقداح من الصيني بلا مقابض. وشقا طريقهما عبر القاعة الغاصة بالناس، ثم وضع كل منهما صينيته على الطاولة ذات الغطاء المعدني، والتي كانت تغطي إحدى زواياها مستنقعات صغيرة من حساء خلّفه بعضهم، بدا وكأنه طعام تقيأه شخص ما. أخذ ونستون قدحه من الخمر، وبعد أن توقف لحظة ليستجمع قواه تجرع تلك المادة ذات الطعم الزيتي جرعة واحدة. وعندما نفرت الدموع

من عينيه، أحس فجأة أنه كان جائعاً. فأخذ يزدرد الحساء الذي كانت تخالطه مواد لزجة على هيئة مكعبات هلامية ذات لون وردي ربما كانت بعض مستحضرات اللحم. وإلى أن أتى كل منهما على قصعته دون أن ينطق بكلمة. ومن الطاولة الواقعة إلى اليسار من ونستون، وراء ظهره بقليل، كان شخص ما يتكلم على نحو سريع ومستمر، وبجعجعة تشبه صوت بطة، تخترق صخب القاعة كلها.

سأل ونستون بصوت عال ليتغلب على جلبة المكان: «أين وصلت بالمعجم؟»

قال سايم: «إنني أتقدم ببطء. إنني في باب النعوت. إنه عمل جذّاب.»

وتألق وجهه مباشرة لدى ذكر اللغة الجديدة، فأزاح القصعة جانباً وتناول كسرة خبز بيد وباليد الأخرى قطعة جبن، وانحنى برأسه على الطاولة حتى يتسنى له الحديث بصوت منخفض.

وقال: «الطبعة الحادية عشرة هي طبعة نهائية، إننا نصوغ اللغة في شكلها النهائي، ذلك الشكل الذي لن يجري حديث بغيره. عندما نفرغ منه، فإنه سيتحتم على الآخرين من أمثالك أن يتعلموا من جديد مرة ثانية. لعلك تظن أن مهمتنا الرئيسية هي ابتكار كلمات جديدة، لكن لا، ليس هذا ما نقوم به البتة، إننا نقوم بتدمير الكلمات - عشرات بل مئات الكلمات كل يوم يجري تدميرها. إننا -نسلخ- اللغة حتى العظام. فالطبعة الحادية عشرة لن تحتوي على كلمة واحدة يمكن أن يبْطُل استخدامها قبل عام 2050.»

ثم أخذ يقضم قطعة الخبز ويبتلعها بنهم، وواصل الحديث بشيء من الحذلقة، وقد بدا وجهه الأسمر الرقيق مفعماً بالحيوية، وقد زالت النظرة الساخرة من عينيه، وحلّ مكانها هدوء حالم.

وأضاف بعد تفكير: «إن تدمير الكلمات شيء جميل. بالطبع فإن

نسبة الفقد الأكبر تكون في الأفعال والنعوت، إلا أن هناك الكثير من الأسماء التي يمكن التخلص منها أيضاً، إضافة إلى المترادفات والأضداد. ترى ما هو مبرر وجود كلمة هي مجرد نقيض لأخرى؟ فكل كلمة تحمل نقيضها في نفسها. خذ مثلا كلمة «جيد» إذا كان لديك كلمة مثل «جيد»، ما هي الحاجة إذن إلى كلمة مثل «رديء»؟ إن كلمة «غير جيد» تؤدي المعنى تماماً بل إنها أفضل لأنها تحمل المعنى المضاد تماماً، بينما لا تؤديه الأخرى بالتمام نفسه. ثم أيضاً إذا أردت تعبيرا أقوى لكلمة «جيد»، ما فائدة أن يكون لديك كل هذه السلسلة من الكلمات الغامضة غير المجدية مثل «ممتاز» و«رائع» وما شاكلها؟ ألا تغطي كلمة «جيد جداً» المعنى، أو كلمة «جيد جداً جداً» إذا كنت ترغب في معنى أقوى. من المؤكد أننا نستعمل هذه الصيغ ولكن في الطبعة النهائية من قاموس اللغة الجديدة سوف لن تكون موجودة. وفي النهاية سيكون مفهومنا للجودة والرداءة محكوماً كلية بست كلمات فحسب - أو في الواقع بكلمة واحدة. ألا ترى ذلك أمراً رائعاً يا ونستون؟ لقد كانت الفكرة في الأصل من بنات أفكار الأخ الكبير».

لاح شيء من الحماس المفتعل على وجه ونستون لدى سماعه ذكر الأخ الكبير، إلا أن سايم استطاع رغم ذلك أن يتبين على الفور فتوراً في هذا الحماس.

وأردف قائلاً وعلى وجهه علائم الأسف: «يبدو أنك لا تقدر اللغة الجديدة حق قدرها يا ونستون. حتى عندما تكتبها فإن تفكيرك يظل محكوماً باللغة القديمة. إنني أقرأ تلك الفقرات التي تكتبها من حين لآخر في «التايمز». إنها جيدة نوعاً ما غير أنها تظل أشبه بالترجمة. إنك في داخلك تميل إلى استخدام اللغة القديمة رغم كل ما تحمله من غموض وظلال المعاني غير المجدية. أنت لا تدرك روعة تدمير الكلمات. هل تعرف أن اللغة الجديدة هي اللغة الوحيدة في العالم التي تتناقص مفرداتها عاماً بعد عام؟»

كان ونستون يعرف ذلك بالتأكيد. فابتسم ولم يعلّق، آملا الحصول على بعض التعاطف، وخوف أن يخونه لسانه. قضم سايم كسرة أخرى من الخبز الأسمر ثم ابتلعها سريعاً وتابع قائلاً:

«ألا ترى أن الغاية النهائية للغة الجديدة هي التضييق من آفاق التفكير؟ بحيث تصبح جريمة الفكر في نهاية المطاف جرماً مستحيل الوقوع من الناحية النظرية، وذلك لأنه لن توجد كلمات يمكن للمرء من خلالها أن يرتكب هذه الجريمة. فكل مفهوم يحتاج إليه الناس سيتم التعبير عنه بكلمة واحدة محددة المعنى وغير قابلة للتأويل، أما معانيها الفرعية فيتم طمسها حتى تصبح طي النسيان. إننا في الطبعة الحادية عشرة لن نكون بعيدين عن هذا الهدف. ولكن تلك العملية ستستمر على هذا المنوال إلى أمد حتى بعد رحيلنا أنا وأنت عن هذا العالم. فالكلمات تتناقص عاما بعد عام، كما يتضاءل مدى الوعي والإدراك شيئا فشيئا. بل وحتى في الوقت الراهن ليس هنالك سبب أو عذر يبرر اقتراف جريمة الفكر. لقد باتت المسألة مجرد انضباط ذاتي وضبط يفرضه المرء على واقعه، وفي النهاية لن تكون هنالك حاجة حتى لذلك. ستبلغ الثورة أوجها حينما تكتمل اللغة ويتم إتقانها. إن الانجسوك هي اللغة الجديدة واللغة الجديدة هي الانجسوك. قال هذه العبارة وهو في غاية النشوة، ثم أردف: «هل خطر لك أبداً يا ونستون أنه مع حلول عام 2050 على أقصى حد، لن يتبقى على وجه الأرض إنسان يمكنه فهم حديث كهذا الذي نتبادله معاً الآن؟»

وعلق ونستون قائلا: «ولكن دعنا نستثني . . .» قالها مرتابا ولم يكملها.

لقد كان على وشك القول: «نستثني عامّة الناس» لكنه تدارك نفسه حينما استشعر أن هذه الملحوظة قد تُؤول بطريقة ما باعتبارها نقصاً في الولاء لديه. ولكن سايم مع ذلك قد استشف ما كان يهمّ بقوله.

وقال غير عابئ: « إن أبناء عامّة الناس ليسوا بشراً. لكن مع حلول

عام 2050 أو ربما قبل ذلك، سوف تكون المعرفة الحقيقية باللغة القديمة قد تلاشت، وسيكون كل التراث الأدبي القديم قد اندثر. وأما أعمال تشوسر وشكسبير وملتون وبايرون فلن يكون لها وجود إلا عبر تراجم اللغة الجديدة، ولن يقف التغيير الذي سيلحق بها عند مجرد جعلها تختلف عما كانت عليه، بل ستتحول إلى نقيض ما اعتاده الناس. وحتى أدبيات الحزب ستتغير، وشعاراته ستتبدل. إذ كيف يمكن أن تتبنى شعاراً مثل «الحرية هي العبودية» فيما يكون مفهوم الحرية نفسه قد جرى نسفه؟ إن المناخ الفكري سيكون كله قد تغير. وفي الحقيقة لن يكون هنالك «تفكير» على النحو الذي نفهمه الآن، فالولاء يعني انعدام التفكير، بل انعدام الحاجة للتفكير. الولاء هو عدم الوعي.»

وفجأة وبقناعة راسخة فكر ونستون أن سايم لا بد وستتم تصفيته يوماً ما. إنه متوقد الذكاء. إنه يرى ببصيرة نافذة ويتحدث بصراحة شديدة. والحزب لا يرغب في وجود مثل هؤلاء. يوماً ما سيختفي من الوجود، ذلك ما أراه مكتوباً على جبينه.

بعدما أنهى ونستون ما كان بين يديه من خبز وجبن، استدار جانبا وهو على كرسيه ليحتسي قهوته. وعلى الطاولة الواقعة عن يساره ما زال الرجل ذو الصوت الصاخب يتكلم دون رادع أو وازع. وكانت تجلس إلى جواره فتاة شابة، ربما تكون سكرتيرته، وظهرها إلى ونستون. كانت تصغي إليه ويبدو عليها أنها توافقه بحماس على كل ما يقوله. وبين الفينة والأخرى كان ونستون يلتقط بعض ما تتلفظ به الفتاة من عبارات مثل «أعتقد أنك محق تماما، إنني أتفق معك كلية» كانت تقولها بصوت أنثوي سخيف وحيّ. لكن الصوت الآخر لم يتوقف عن الكلام ولو لحظة واحدة، حتى عندما كانت تتكلم الفتاة. كان ونستون يعرف هذا الرجل، لكنه لا يعرف عنه أكثر من أنه يشغل منصباً هاماً في دائرة الإثارة.

كان يناهز الثلاثين من العمر، ذا رقبة قوية العضلات وفم واسع كثير الحركة. كان من عادته أن يلقي برأسه إلى الوراء قليلاً وهو

يتحدث. وبسبب الزاوية التي يأخذها أثناء جلسته كانت النظارتان تلتقطان الضوء وتعكسانه شعاعاً باتجاه ونستون مما جعله يرى عينيه كأنهما مجرد عدستين. ولكن المزعج في الأمر أنه كان من المستحيل تقريباً أن تميز كلمة واحدة من بين ذلك السيل من الكلمات المتدفقة من فمه. ومرة واحدة فقط تمكن ونستون من التقاط جملة - «إبادة تامة ونهائية لغولدشتاين» - قيلت على نحو سريع جداً. وأما بقية كلامه فقد كان مجرد ضجيج وجعجعة. وبالرغم من أنك لم تكن تستطيع فعلياً أن تميز ما يقوله الرجل، فإنك لن تكون في ريب من طبيعته العامة. ربما كان يهاجم غولدشتاين ويطالب باتخاذ إجراءات أكثر صرامة ضد مجرمي الفكر والمخربين، وربما كان يندد بالفظائع التي ارتكبها الجيش الأوراسي، وربما كان يثني على الأخ الكبير أو المقاتلين الأبطال على جبهة مالابار، إذ ليس هنالك من فرق. وأياً كان حديثه، فإن ما يمكن أن تكون على يقين منه هو أن كل كلمة من حديثه كانت تنبع من ولاء خالص لمبادئ الانجسوك الصحيحة. وفيما كان ونستون يراقب ذلك الوجه الخالي من العينين، والفكين المتحركين إلى أسفل وأعلى، أحس ونستون شعوراً غريباً وهو أن هذا الذي يراه ليس إنساناً حقيقياً وإنما نوع من الدمية؛ إذ لم يكن عقله هو الذي يتكلم، بل حنجرته، ولم يكن ما ينطق به حديثاً بالمعنى الحقيقي، بل ألفاظاً معزولة وصخباً يصدر عن حالة من اللاوعي وأشبه بصوت بطة.

خيم الصمت على سايم لحظة من الزمن، وبملعقته كان يتتبع البقايا الموجودة في طبق الحساء، فيما واصل الصوت القادم من الطاولة الأخرى الجعجعة بسرعة وكان يسمعه ونستون بسهولة رغم كل الضجيج الذي تعج به القاعة.

وهنا تدخل ونستون قائلاً: «هناك كلمة في اللغة الجديدة لا أدري ما إذا كنت تعرفها، إنها «بوقوق» أي يجعجع مثل البطة. إنها واحدة من هاتيك الكلمات المثيرة التي تحمل معنيين متناقضين، فإن نعتّ بها

خصماً فهي سباب، وإن نعتّ بها شخصاً تتوافق معه فهي ثناء.»

وجال في خاطر ونستون مرة ثانية أن سايم ستتم تصفيته. خامرته هذه الفكرة وشعر بالحزن مع أنه كان يعرف أن سايم يزدريه ويكرهه نوعا ما، ولديه القدرة على الوشاية به بتهمة «جريمة فكر» إذا رأى دافعاً لذلك. كان لدى سايم بعض المثالب. لقد كان يفتقر لخصال الحذر والتحفظ ويفتقر أيضاً إلى بعض الغباء الذي يحفظ حياة صاحبه. ولا يمكنك القول بأن سايم لم يكن صادق الولاء. فقد كان يؤمن بمبادئ الانجسوك، ويبجّل الأخ الكبير، ويهلل للانتصارات، ويكره المنشقين عن الحزب، ليس بإخلاص عادي فحسب بل بحماس شديد، وكان يحرص على الاطلاع على أحدث المعلومات التي لم يكن عضو الحزب العادي يلتفت إليها. بيد أن سمعته كانت تحوم حولها الشكوك؛ فقد كان يقول أشياء يَحسُن به ألا يقولها، وقرأ كتباً كثيرة للغاية، وكان يرتاد مقهى شجرة الكستناء، منتدى الرسامين والموسيقيين. لم يكن ثمة قانون مكتوب أو حتى غير مكتوب يحظر التردد على هذا المقهى، ومع ذلك كان مكاناً لا يستساغ الذهاب إليه. لقد كان يلتقي فيه قادة الحزب القدامى الذين تم تشويه سيرتهم قبل أن تتم تصفيتهم أخيراً. ويقال إن غولدشتاين نفسه كان يُرى هناك منذ سنين أو عقود. لم يكن التنبؤ بالمصير الذي سيؤول إليه سايم أمراً صعباً. ومع ذلك كان من الثابت أن سايم لو لمح شيئاً عن طبيعة ما يضمره ونستون من آراء، فإنه لم يكن ليتردد لحظة عن الوشاية به إلى شرطة الفكر. وكذلك سيفعل أي شخص آخر في موقفه، لكن سايم كان أكثر حماساً للحزب، والحماس وحده لا يكفي، والولاء المطلق يعني انعدام الوعي.

تطلع سايم وقال: «ها هو ذا بارصون قادما» وكان يبدو من لهجته وكأنه يود أن يضيف «الأحمق بارصون». كان بارصون، جار ونستون في بنايات النصر، يشق طريقه عبر القاعة. إنه رجل بدين، قصير، متوسط الحجم ذو شعر أشقر ووجه كوجه الضفدعة. كان جسمه يحمل المزيد

من الشحوم في رقبته وخاصرته، إلا أنه ظلّ نشيطاً كصبيّ كثير الحركة. مظهره كله عبارة عن مظهر فتى صغير نما بسرعة وكبر بحيث إنه رغم ارتدائه زي العمل المعتاد ما كان بوسعك أن تفكر فيه إلا وكأنه يرتدي السروال الأزرق والقميص الرمادي ورباط العنق الأحمر كأحد أعضاء اتحاد الجواسيس. ولدى رؤيته يرى المرء دائماً صورة ركبتين مجوفتين وكُمّين يتدليان من ساعدين قصيرين ممتلئين. كان بارصون يعود لارتداء السروال القصير دائماً كلما خرج في نزهة جماعية أو أي أنشطة بدنية أخرى تبرر له ذلك. تقدم نحوهما وحياهما مبتهجاً ثم جلس إلى الطاولة تفوح منه رائحة عرق كثيفة، وتغطي وجهه القرمزي حبات من الرطوبة.. في «المركز الاجتماعي» كان بوسعك أن تخمن أن بارصون يلعب كرة تنس الطاولة بمجرد إمساكك بيد المضرب التي رطّبها عرقه. أخرج سايم من جيبه ورقة تحوي قائمة طويلة من الكلمات التي يدققها وقلمه الجاف بين إصبعيه.

وقد علق بارصون على ذلك غامزاً ونستون: «انظر إليه، إنه يدرس حتى في استراحة الغداء، أي حرص هذا ؟ ماذا هناك أيها الصبي العجوز؟ شيء ما يصعب عليّ فهمه، على ما أعتقد». ثم قال لونستون: «أيها الصبي العجوز، هل تدري لماذا ألاحقك؟ إنه التبرع الذي نسيت أن تعطيني إياه.»

وردّ عليه ونستون متسائلاً: «لأي شيء هذا التبرّع؟» قالها وهو يتحسس ما لديه من مال في جيبه. إذ إن ربع الراتب يجب اقتطاعه لسداد التبرّعات التي يعجز المرء عن إحصائها.

فأجابه بارصون: «تبرّع «لأسبوع الكراهية». لعلك سمعت بصندوق البيوت، إنني أمين صندوق بنايتنا. إننا نبذل جهوداً جبارة لجمع المال من أجل إقامة عرض هائل. أودّ أن تعلم أنه لن يكون خطئي إذا لم تظهر بنايات النصر بالمظهر اللائق ولم يُعلَّق عليها أكبر عدد من الأعلام في الشارع كله، من فضلك دولارين.»

مدّ ونستون يده إلى جيبه وأخرج دولارين مجعدين ومتسخين، قام بارصون بتسجيلهما في دفتر صغير كتب عليه بذلك الخط المنمق الذي يكتبه نصف الأمي.

وأردف قائلاً: «بالمناسبة أيها الصبي العجوز، لقد علمت أن ولدي المشاغب قد قذفك أمس بمقلاعه الصغير؛ لقد عنّفته وعاقبته على تلك الفعلة، وأكدت له أنني سأصادر المقلاع منه إذا عاد لمثل ذلك.»

قال ونستون: «أظن أنه كان مستاءً لعدم ذهابه لمشاهدة حفلة الشنق.»

فردّ بارصون: «ذلك صحيح، ولكنهما في ذلك يظهران ما لديهما من روح عالية، أليس كذلك؟ يا لهم من صغار ملاعين، لكنها قوة الاندفاع، فكل ما يشغلهما هو الجواسيس والحرب. هل تعرف ماذا فعلت ابنتي الصغيرة السبت الماضي حينما خرجت في رحلة مع مجموعتها على طريق بيركهامستد؟ لقد اصطحبت معها فتاتين صغيرتين وانسللن عن مجموعتهن وأمضين كل فترة الظهيرة في تعقب رجل غريب. لقد ظللن يقتفين آثاره لساعتين عبر الغابة، وعندما وصلن إلى قرية «أميرشم» سلّمنه لإحدى الدوريات.»

سأل ونستون مشدوها: «ولكن ما الذي دعاهن لذلك؟» فتابع بارصون حديثه معتزاً وقد أخذته النشوة: «لقد تحققت ابنتي من أنه عميل للأعداء ربما أنزلته طوافة. والنقطة اللافتة للانتباه أيها الصبي العجوز، هي ما الذي جعلها تشكك فيه من البداية؟ لقد لاحظت أنه يلبس نوعاً غريباً من الأحذية، لم تر أحدا يلبس مثلها من قبل. ومن هنا جاء ظنها بأنه أجنبي. إنها ملاحظة ذكية من صغيرة مثلها في السابعة من عمرها، أليس كذلك؟»

قال ونستون: «وماذا حدث للرجل؟»

«هذا ما لا أعرفه على وجه التأكيد، ولكنني لن استغرب إطلاقاً

إذا. . .» وهنا أكمل بارصون بالإشارة جاعلاً أصابعه على شكل مسدّس، ثم طقطق بلسانه مقلداً صوت الرصاص.

«حسناً» علق ونستون دون أن يرفع نظره من على الورقة التي بين يديه.

ثم أكمل ونستون بنوع من الشعور بالواجب: «من المؤكد أننا لا يمكننا الدخول في مخاطرات»

قال بارصون: «إننا في حالة حرب».

وكما لو أنه تأكيد لحالة الحرب، انبعث نفير بوق من شاشة الرصد التي فوق رؤوسهم مباشرة، غير أنه لم يكن إعلانا عن انتصار عسكري هذه المرة، بل مجرد بيان من وزارة الوفرة.

وصاح صوت شبابي متحمس: «أيها الرفاق، انتبهوا، وردتنا أنباء رائعة لكم. لقد انتصرنا في معركة الإنتاج. فتقارير الإنتاج التي استُكملت الآن لكافة السلع الاستهلاكية تُظهر أن مستوى المعيشة قد ارتفع بما لا يقل عن 20% عما كان عليه في العام الماضي. وقد عمّت أرجاء البلاد مسيرات عارمة وعفوية هذا الصباح في كل أوقيانيا، حيث انطلق العمال من مصانعهم ودوائر عملهم وساروا في الشوارع حاملين الرايات وهاتفين بحياة الأخ الكبير امتناناً له على الحياة الجديدة السعيدة التي وهبهم إياها بفضل قيادته الحكيمة. وفيما يلي بعض هذه الأرقام: المواد الغذائية. . .»

كانت عبارة «الحياة الجديدة السعيدة» من العبارات التي تتردد كثيراً، حيث باتت مؤخراً من العبارات المحبذة لدى وزارة الوفرة. جلس بارصون، وقد شد انتباهه صوت البوق، مصغياً وقد ارتسمت على وجهه علائم الجدية المشدوهة والسأم المتعالي. لم يستطع متابعة الأرقام، لكنه كان يدرك أنها تبعث على الرضا، وأخرج من جيبه غليونا كبيراً وسخاً كان محشواً حتى نصفه بالتبغ المفحّم؛ فمع تخفيض حصة الفرد من التبغ

إلى مائة غرام في الأسبوع، بات من الصعب أن تملأ غليونك حتى حافته. أما ونستون فكان يدخن سيجارة النصر التي يمسكها بحذر في وضع أفقي لئلا يتناثر تبغها. والحصة الجديدة من السجائر لن يُشرع في توزيعها إلا صباح غد، وهو لم يعد لديه سوى أربع سجائر. في هذه اللحظة سدّ أذنيه عن الضجيج الآتي من بُعد وأرهف السمع إلى ما تذيعه شاشة الرصد عن مسيرات شكر للأخ الكبير على رفعه حصة الشوكولاتة إلى عشرين غراماً في الأسبوع. فحدّث نفسه: كيف ذلك؟ لم يكن قد مر سوى يوم واحد على نبأ تخفيضها إلى عشرين غراماً أسبوعياً! فهل يمكن أن يكون الناس قد تناسوا ذلك وابتلعوه في أربع وعشرين ساعة فقط؟ أجل، لقد تناسوا. لقد تناسى بارصون ذلك الكذب بسهولة وابتلعه بغباء الحيوان. أما ذلك المخلوق الذي لا عينين له والجالس إلى الطاولة الأخرى فقد ابتلعه بحماس وتعصب ورغبة متقدة في تعقب كل من تسول له نفسه أن يشير إلى أن الحصة كانت ثلاثين غراماً في الأسبوع الماضي لأجل الوشاية به وتصفيته. بل إن سايم نفسه، ولكن بطريقة أكثر تعقيداً تنطوي على شيء من التفكير المزدوج، ابتلعه هو أيضاً. فهل أنا الوحيد الذي ما زلت أحتفظ بذاكرتي؟

واصلت الإحصائيات الوهمية تدفقها من شاشة الرصد. فمقارنة بإحصائيات العام المنصرم، هنالك ازدياد في الغذاء والملابس والبيوت والأثاث وأواني الطهي والوقود والسفن والطائرات والكتب والمواليد، ازدياد في كل شيء ما عدا المرض والجريمة والجنون. وسنة بعد سنة ودقيقة بعد دقيقة، كان كل شيء وكل إنسان آخذ في الصعود بسرعة مطردة.

على غرار ما فعل سايم قبل قليل، أمسك ونستون بملعقته وغمسها في المرق الأصفر ثم رفعها إلى فمه راسماً خطاً طويلاً من المرق على الطاولة. وتمعّن باستياء في الحياة التي يحياها. وتساءل أهكذا كانت الحياة دائماً؟ هل كان مذاق الطعام رديئاً كما هو الآن؟ وألقى نظرة حوله

في المطعم فوجد قاعة مزدحمة، سقفها منخفض، وقد اكتست جدرانها بالسخام من أثر أيادٍ وأجسام لا تحصى، وامتلأت بكراسٍ وطاولات معدنية مهشمة وُضعت بشكل متلاصق بحيث تتصادم أكواع الجالسين أثناء الطعام. كما رأى ملاعق مثنية وصواني منبعجة وأباريق خشنة بيضاء. كانت كل السطوح ذات ملمس لزج من أثر الشحوم، فالوسخ يتخلل ما بها من تشققات، كما كانت تفوح من القاعة رائحة حمضية تنبعث من الخمرة والقهوة الرديئتين ومن الملابس المتسخة. كان المرء يحس دائماً بأصوات احتجاج تنبعث من معدته ومن تحت جلده، ويشعر بأنه قد سُلب شيئاً كان من حقه الحصول عليه. صحيح أنه لا يذكر أن الأحوال كانت تختلف عن ذلك كثيراً، فكل ما يمكنه تذكره بصورة واضحة هو أن النقص في الطعام كان دائماً. لم يكن يوجد جوارب أو ملابس داخلية ليست مليئة بالرتوق. والأثاث كان دائماً مهشماً عتيقاً، والغرف بلا تدفئة، وقطارات الأنفاق مزدحمة، والبيوت متداعية آيلة للسقوط. لقد بات الخبز أسود اللون، والشاي نادر الوجود، والقهوة متعفنة الطعم، والسجائر غير كافية. ولم يكن من شيء وفير ورخيص سوى الخمرة المصنعة كيماوياً. ولئن كانت الأوضاع تسير من سيّئ إلى أسوأ مع تقدمه في السن، فهل كانت هنالك دلائل تشير إلى أن ذلك لم يكن الوضع الطبيعي للأمور؟ فإذا كان قلب المرء يتألّم لوجود كل هذه المنغّصات: شتاءات طويلة وقذارة جوارب، ومصاعد معطلة دائماً، وماء بارد، وصابون خشن، وسجائر تتفتت، وطعام رديء ذي مذاق غريب.. هل كان المرء يضيق ذرعاً بتلك الأوضاع التي لا تطاق لو لم تكن لديه ذاكرة ما توحي إليه بأن الأمور كانت تختلف عما هي عليه الآن؟

ألقى نظرة أخرى حوله في المطعم، فبدا له أن كل الأشخاص كانوا قبيحي الشكل، وأن هذا القبح لن يزول حتى لو ارتدوا ملابس أخرى وخلعوا الزي الأزرق المعهود. في الجانب الأبعد من القاعة كان رجل ضئيل الجسم مثير للاستغراب يشبه الخنفساء يجلس إلى طاولة بمفرده

ويحتسي فنجاناً من القهوة وعيناه الصغيرتان ترسلان نظرات مرتابة من جهة لأخرى. وجال بخاطر ونستون لو أن النموذج الجسدي الذي حدده الحزب هو النموذج المثالي، حيث يكون الفتيان يافعين ومفتولي العضلات، وتكون الفتيات العذارى مكتنزات الصدور وشقراوات الشعر ومفعمات بالحيوية وقد أكسبتهن الشمس سمرة وأصبحن متحررات من القلق. أما في الواقع وبقدر ما يستطيع أن يحكم، فإن غالبية الناس في القطاع الهوائي رقم واحد كانوا ضئيلي الأجسام وذوي بشرة سمراء وقبيحي الشكل. وكان مما يبعث على الاستغراب، الكيفية التي تمكن من خلالها ذلك النمط الخنفسائي الشكل من النفاذ إلى الوزارت: حيث ترى فيها رجالاً قصاراً، سماناً يسمنون في وقت مبكر جداً، ذوي سيقان قصيرة وحركات سريعة زاحفة ووجوه ممتلئة وعيون صغيرة للغاية. إنه النمط الذي يزدهر بصورة أفضل في ظل هيمنة الحزب.

اختُتم بيان وزارة الوفرة ببوق آخر وحلّت محله موسيقى خفيفة. وأخرج بارصون، وقد أثاره هول أرقام الإنجازات وحرك فيه حماسه الفاتر، أخرج غليونه من فمه. وقال وهو يهز رأسه هزة العارف: «من المؤكد أن وزارة الوفرة قد أبلت بلاء حسناً هذه السنة. بالمناسبة أيها الصبي العجوز، هل لديك شفرات حلاقة يمكنك أن تعطيني واحدة منها؟»

أجاب ونستون: «لا، ولا واحدة، إنني أستعمل الشفرة نفسها منذ ستة أسابيع، آسف».

وعاد من جديد ذلك الصوت المجعجع الآتي من الطاولة المجاورة بعدما كان توقف مؤقتا أثناء إذاعة بيان الوزارة. ولسبب ما وجد ونستون نفسه يفكر في مسز بارصون، بشعرها الملفوف وبالغبار الذي يتخلل تغضّنات وجهها. أظن أنه في غضون عامين سيشي بها أطفالها إلى شرطة الفكر. وبعدئذ سيتم تصفيتها، كما ستتم تصفية سايم وونستون

وأوبراين. أما بارصون فلن يحدث له شيء من ذلك أبداً. كما أن ذلك المخلوق الذي بلا عينين صاحب الصوت المجعجع لن تتم تصفيته، وكذلك لن تتم تصفية هؤلاء الرجال القصار شبيهي الخنافس الذين يتحركون داخل الردهات الملتوية في الوزارات. وأيضاً تلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة، لن تتم تصفيتها. بدا له أنه يعرف بالفطرة من سيبقى ومن سيفنى بالرغم من أنه لم يكن من السهل التكهن بمن سيُقدّر له البقاء.

في هذه اللحظة أفاق من تأملاته بهزة عنيفة. فالفتاة الجالسة إلى الطاولة المجاورة التفتت نصف التفاتة وهي تتطلع إليه، وكانت هي نفسها الفتاة ذات الشعر الأسود. كانت تنظر إليه بطرف عينيها ولكن بتركيز مستغرب. وكلما التقت عيناها بعينيه كانت تحيد بطرفها عنه.

أحسّ ونستون إذ ذاك بالعرق يتصبب من عموده الفقري. وسرت في أوصاله نوبة فزع شديدة. ومع أن هذه النوبة قد تلاشت سريعاً، لكنها خلّفت لديه شعوراً بعدم الارتياح. وتساءل، تُرى ما الذي يجعلها تراقبه؟ ولماذا تتبعه إلى كل مكان؟ ولسوء حظه لم يستطع أن يتذكر ما إذا كانت جالسة على هذا المقعد قبل مجيئه، أم أنها قد جاءت لاحقاً. ولكنها كانت، بالأمس، تجلس وراءه مباشرة أثناء «دقيقتي الكراهية» بينما لم يكن ثمة حاجة واضحة تدعوها لذلك. من المرجح تماماً أن هدفها الحقيقي هو الإصغاء إليه والتأكد من أنه يهتف بصوت عال.

وعاودته فكرته السابقة ، فقد لا تكون عضواً في شرطة الفكر، وفي هذه الحالة من المؤكد أنها من الجواسيس وهم الأشد خطراً على الإطلاق. لم يكن يعلم منذ متى وهي تتطلع إليه، لكن ربما كان ذلك لما يربو على الخمس دقائق. ومن الممكن أن تكون قد فضحته ملامح وجهه. إنه لخطر جسيم أن تدع أفكارك تجري على عواهنها حينما تكون في مكان عام أو ضمن مدى شاشة الرصد. فأهون الأشياء يمكن أن تودي بك حتى لو كانت حركة عصبية صغيرة أو نظرة قلق لاإرادية أو

همهمة اعتادها المرء، أو أي شيء يوحي بنقص في الولاء. وفي كل الأحوال فإن ظهور تعبير انفعالي غير لائق على وجهك (كأن تبدو عليك علامات الارتياب حينما يتم الإعلان عن أحد الانتصارات) هو مخالفة تستوجب عقاباً، بل لقد اشتق لذلك اسم في اللغة الجديدة: جريمة الوجه.

عادت الفتاة وأدارت له ظهرها. ففكر ربما أنها لم تكن تلاحقه، وربما كان جلوسها خلفه أو قريبا منه خلال هذين اليومين محض مصادفة. انطفأت سيجارته فوضعها بعناية على طرف الطاولة، لعله يعاود تدخينها بعد انتهاء العمل إذا لم يتناثر تبغها. قد يكون الشخص الجالس إلى الطاولة المجاورة جاسوساً لشرطة الفكر، وربما سيجد نفسه في غضون ثلاثة أيام نزيل إحدى زنزانات وزارة المحبة، لكن عقب السيجارة يجب ألا يذهب هدراً. طوى سايم شريط الورق ووضعه في جيبه بينما بدأ بارصون يتكلم ثانية.

«هل سبق لي أن أخبرتك أيها الصبي العجوز»، قالها بارصون مبتسماً وهو يمسك بغليونه، «عمّا فعله الصغيران الشقيان، حينما قاما بإشعال النار في تنورة بائعة عجوز في السوق عندما رأياها تلفّ بعض النقانق بصورة الأخ الكبير؟ لقد تسللوا خلفها وأشعلوا في تنورتها النار مستخدمين علبة ثقاب. أعتقد أن التنورة قد تضررت كثيراً من ذلك. آه من هذين الشقيين، إنهما ممتلآن حماسة. لا شك أن التدريب الأولي الذي يتلقونه في منظمة الجواسيس هذه الأيام، وهو أفضل من ذاك الذي كنا نتلقاه نحن في أيامنا. هل تعرف ما الذي تم تزويدهم به مؤخراً؟ سماعات بوقية للأذن يتنصتون بها من ثقوب مفاتيح الأبواب. لقد أحضرت ابنتي الصغيرة واحدة منها أمس وجربتها على باب غرفة الجلوس، ورأت أنها تستطيع بواسطتها أن تسترق السمع ضعفي ما تسترقه بوضع أذنها على ثقب المفتاح. من المؤكد أن ذلك مجرد لعبة. لكن ألا تظن أن ذلك سيوحي لهم بأفكار مناسبة؟

في هذه اللحظة أطلقت شاشة الرصد صفرة عالية إيذاناً بالعودة للعمل. فهبّ الرجال الثلاثة من فورهم وانطلقوا يشقّون طريقهم وسط الزحام الزاحف بحثاً عن مصعد غير معطل، في حين كان ما تبقى من تبغ في سيجارة ونستون يتناثر على الأرض.

الفصل السادس

كتب ونستون في مذكراته:

«كان ذلك منذ ثلاث سنوات مضت، وكان الوقت مساء والظلام مخيماً، وفي شارع جانبي ضيق قرب إحدى محطات القطار الكبيرة. إلى جانب باب عند حائط، تحت ضوء قنديل ينبعث منه نور ضئيل، كانت تقف امرأة ذات وجه صغير عليه طلاء كثيف من النوع الذي يروقني في بياضه الذي يشبه القناع وبشفتين حمراوين لامعتين - نساء الحزب كنّ لا يطلين وجوههن أبدا - وكانت الشوارع آنذاك خاوية من المارة ومن شاشات الرصد. مدت يدها وقالت: «دولارين ... »

توقف ونستون قليلاً، فقد صعُبَ عليه مواصلة الكتابة. أطبق جفنيه وضغط عليهما بأصابعه محاولاً أن يمحو ذلك المنظر الذي ظل مطبوعاً في مخيلته. وطغت عليه رغبة جامحة في أن يصيح بأعلى صوته متفوهاً بكلام بذيء أو أن يضرب رأسه بالحائط، ويركل الطاولة ويلقي بالمحبرة خارج النافذة... أو أن يأتي بأي عمل من شأنه أن يولّد عنفاً أو يُحدث ضوضاء او يسبب ألماً، عسى أن يطمس ذلك تلك الذكرى التي كانت تؤلمه.

ثم أخذ يردد بينه وبين نفسه: «إن ألد أعدائك هو جهازك العصبي. وما يعتمل في نفسك من توتر قد يورّطك في عمل لا تحمد عقباه». تذكر رجلاً مر به في الشارع منذ أسابيع قليلة مضت. كان مظهره عادياً تماماً، عضو في الحزب يبلغ من العمر ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين، طويل القامة نحيفها ولحمل حقيبة صغيرة. لم يكن يفصل بينهما سوى بضعة أمتار عندما رأى الجانب الأيسر لوجه الرجل ينقبض في تشنج فجائي. وتكرر ذلك ثانية عندما مر كل منهما بالآخر. كانت تلك الحركة عبارة عن

تماماً، عضو في الحزب يبلغ من العمر ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين، طويل القامة نحيفها ويحمل حقيبة صغيرة. لم يكن يفصل بينهما سوى بضعة أمتار عندما رأى الجانب الأيسر لوجه الرجل ينقبض في تشنج فجائي. وتكرر ذلك ثانية عندما مر كل منهما بالآخر. كانت تلك الحركة عبارة عن رجفة أو ارتعاشة سريعة كطقة مصراع الكاميرا وكان من الواضح أن تلك الحركة عادة عنده. ودار بخلده حينذاك أن ذلك الرجل المسكين قد انتهى أمره. فقد كان المخيف في الأمر أنه من الجائز جداً أن تكون تلك الحركة لاإرادية. أمّا الأشد خطراً فهو أن يتكلم أثناء نومه، إذ لم تكن هنالك من وسيلة للاحتراس من ذلك على حد علمه.

استجمع شجاعته ثم عاد إلى الكتابة:

«مضيت معها عبر البوابة ثم اجتزنا الساحة الخلفية إلى مطبخ في قبو حيث كان هنالك سرير قرب الحائط وعلى الطاولة قنديل خُفض نوره إلى أدنى درجة وهي . . . »

وصر بأسنانه ودّ لو استطاع أن يبصق. وفي تلك اللحظة ذاتها وفيما هو مع المرأة في المطبخ خطرت على باله زوجته كاترين. فقد كان ونستون متزوجاً في وقت ما، ومن المحتمل أنه كان لا يزال متزوجاً فعلى حدّ علمه أن زوجته لم تكن قد ماتت بعد. وبدا أنه يستنشق ثانية الرائحة الساخنة المنبعثة من المطبخ، وهي رائحة تختلط برائحة البق والملابس القذرة والعطر الرخيص الرديء الذي مع ذلك، كان مغرياً لأنه ما من امرأة في الحزب تستعمل عطراً على الاطلاق، وحتى لم يكن ممكناً تصور أنها تفعل ذلك، بل كان ذلك التصرف مقتصراً على عامة الشعب. وكانت تلك الرائحة تستدعي في ذهنه رغبة ممارسة الجنس دون أن يدرك لذلك سبباً.

كانت مجامعته لتلك المرأة هي زلته الأولى منذ سنتين أو يزيد.

فبكل تأكيد كانت معاشرة المومسات أمراً محظوراً. ولكن ذلك كان من بين المحظورات التي يمكنك أن تستجمع شجاعتك لمخالفتها من حين لآخر. لقد كانت مسألة محفوفة بالأخطار لكنها ليست مسألة حياة أو موت. فإذا تم إلقاء القبض عليك مع إحداهن قد يحكم عليك بقضاء خمس سنوات في معتقل الأشغال الشاقة، لا أكثر من ذلك، إن لم يكن عليك جرم آخر. وليس ذلك بالأمر الصعب، شريطة ألا يتم القبض عليك متلبساً بالجرم المشهود. وكانت الأحياء الفقيرة تغص بالنساء اللواتي كنّ على استعداد لأن يبعن أنفسهن. فبعضهن يمكن شراؤه لقاء قنينة من الخمر الذي كان يُحظر شربه على عامة الشعب. كان الحزب يميل لتشجيع الدعارة، ولكن بصورة غير معلنة، باعتبارها متنفساً لغرائز لا يمكن كبتها كلية. فالدعارة في حد ذاتها لم تكن تهم الحزب كثيراً ما دامت تتم مع نساء الطبقة المحتقرة والمسحوقة في الخفاء ومجردة من أي شعور حقيقي باللذة، أما الجريمة التي لا تُغتفر فهي ممارستها بين أعضاء الحزب. وبالرغم من أن المتهمين في حملات التطهير الكبرى كانوا يجبرون، دون استثناء، على الاعتراف بهذا الجرم، فقد كان من الصعب تخيّل أن مثل هذا الأمر قد حدث فعلاً.

لم يكن هدف الحزب مجرد منع الرجال والنساء من تكوين ولاءات فيما بينهم، قد يتعذر السيطرة عليها. لقد كان هدفه الحقيقي غير المعلن هو تجريد العملية الجنسية من كل لذّة. إذ ليس الحب هو العدو بقدر ما هي الشهوانية، سواء كانت في إطار الزواج أو خارجه. وكل الزيجات بين أعضاء الحزب كان يجب، لكي تتم، أن تحصل على موافقة لجنة تشكلت خصيصاً لهذا الغرض. وبالرغم من أنه لم يُنص صراحة على ذلك المبدأ أبداً، فإن الإذن بالزواج كان يُحجب دائماً إذا ما أظهر الشخصان المعنيان أي ميول جنسية متبادلة فيما بينهما. فالغاية الوحيدة المعترف بها للزواج هي إنجاب الأطفال لخدمة الحزب. وكان يُنظر إلى العملية الجنسية على أنها عملية تافهة تدعو للاشمئزاز والتقزز، تماماً

كتعاطي حقنة شرجية. ولم يكن يُعَبِّر عن ذلك بكلمات صريحة، وإنما بطريقة غير مباشرة حيث كان ذلك يُغرس في كل عضو في الحزب منذ طفولته المبكرة. ولذلك أيضاً أُنشِئَت منظمات مثل رابطة الشباب المناهض للغريزة الجنسية، التي كانت تدعو للعزوبة الكاملة لكلا الجنسين. فكل الأطفال يجب إنجابهم عبر التلقيح الصناعي (وتسمى هذه العملية في اللغة الجديدة أرتسيم) على أن يعهد بهم بعد ذلك لمعاهد عامة.

كان ونستون يعي أن هذا لم يكن مقصودا بشكل جدي وكلي ولكنه يتماشى مع أيديولوجية الحزب الذي كان يحاول وأد الغريزة الجنسية، وإذا تعذر ذلك، فعلى الأقل تشويهها وتحقيرها. لم يكن ونستون يعلم لماذا كل ذلك، لكن كان يبدو أن ذلك طبيعي . فبقدر تعلق أي أمر بالنساء، فإن جهود الحزب كانت تحقق نجاحات كبيرة.

مرة ثانية لمعت في ذاكرته كاترين. لابد أنه انقضت تسع أو عشر أو ربما إحدى عشرة سنة على انفصالهما، وعجب لنفسه كيف لا تخطر على باله إلا نادراً. بل إنه ولأيام متصلة كان يستطيع نسيان كونه متزوجاً بها، فالحزب لم يكن يسمح بالطلاق وإن كان بدلا من ذلك يشجع الانفصال في حال عدم الإنجاب.

كانت كاترين فتاة طويلة القامة ناعمة الشعر هيفاء القد رشيقة الحركة ذات وجه لا يتأثر بشيء وأنف معقوف، كان وجهها يوحي بالنبل لأوّل وهلة، لكن إذا حدّقت فيه لا تجد شيئاً. بُعيد زواجه بها ومعرفتها عن قرب، أدرك أن عقلها هو الأكثر بلادة وجهلاً وتفاهة إلى حد لم يعرف له مثيلاً. فلم يكن في عقلها سوى الشعارات، ما من حماقة واحدة على الإطلاق ليست بقادرة على ابتلاعها ما دام الحزب هو الذي يقدمها . «الكاسيت البشري» هكذا كان يلقبها بينه وبين نفسه. ومع ذلك كان بمقدوره أن يتجشم العيش معها لولا علّة واحدة هي الجنس.

كان يخيل إليه أنها تفزع منه ويتيبس جسدها كلما اقترب منها، فإذا

احتضنها فكأنما يحتضن تمثالاً خشبياً شُدَّ بمفاصل. والغريب أنه كان يشعر وهي تشدّه إليها أنها تدفعه بعيداً عنها في الوقت نفسه بكل قوتها، وكانت صلابة عضلاتها تساعد على نقل ذلك الانطباع إليه. وأخيراً تستلقي مغمضة العينين فلا تقاوم ولا تتجاوب بل تستسلم، وهو الأمر الذي كان في أوله مربكاً له بشدة ثم تحول بعد فترة إلى شيء فظيع. لو أنها فضلت العزوف عن الجنس، لكان ونستون رضي بنصيبه وتحمّل العيش معها، لكن العجيب أن كاترين هي التي رفضت ذلك بنفسها متعللة بالرغبة في إنجاب طفل إذا استطاعا لذلك سبيلا. ومن ثم استمرت العملية تتكرر بانتظام مرة كل أسبوع كلما كان ذلك ممكناً، كما أنها اعتادت أن تذكّره بها في الصباح كشيء يتعين القيام به في المساء ولا يجوز نسيانه. وكانت تطلق على هذه العملية اسمين: أولهما «صناعة طفل» والثاني «واجبنا تجاه الحزب». وإنه لحقّ أنها استعملت هاتين العبارتين. وسرعان ما بات ينتابه شعور بالرعب الشديد كلما حان الوقت المضروب لذلك. لكن من حسن الحظ لم تثمر علاقتهما طفلاً ولذا فقد كفّت عن المحاولة، وسرعان ما انفصلا بعد ذلك.

تنهد ونستون، وتناول قلمه مرة أخرى وراح يكتب:

«وألقت بنفسها على الفراش، وفي الحال، وبدون أي نوع من المداعبات وبطريقة في منتهى اللامبالاة والخشونة رفعت تنورتها. وأنا..»

ووجد نفسه واقفاً هناك في ضوء المصباح الخافت وقد امتلأت خياشيمه برائحة البق والعطر الرخيص وفي قلبه شعور بالانهزام والنفور، ممزوجاً بالتفكير في جسد كاترين الأبيض الذي تجمد إلى الأبد تحت تأثير قوة الحزب التخديرية. وتساءل لماذا يضطر إلى ذلك؟ لماذا لا تكون له امرأة تخصه، بدلاً من تلك النزوات القذرة التي تنتابه على فترات متباعدة؟ لقد كان وجود علاقة حب حقيقية أمراً لا يمكن الطموح إليه إذ كانت نساء الحزب كلهن متشابهات. كانت العفة متجذرة فيهن

تجذّر ولائهن للحزب. فبفضل إعدادهن الباكر وممارستهن للرياضة واستعمالهن الماء البارد والتفاهات التي كانت تُحشى بها عقولهن في المدارس وفي رابطة الجواسيس ورابطة الشباب، والمحاضرات والعروض والأناشيد والشعارات والموسيقى العسكرية، بفضل كل ذلك كان يُنْتَزَع منهن كل شعور طبيعي. كان عقله يخبره بأنه لا بد أن هناك استثناءات لذلك، ولكن قلبه لم يصدقه، إذ كن جميعاً محصنات مثلما أرادهن الحزب. وكانت غاية آماله أن يسقط حصن الفضيلة ولو لمرة واحدة في حياته. ولمّا كانت ممارسة العملية الجنسية على طبيعتها تعتبر عصياناً، فإن مجرد الرغبة الجنسية تصبح جريمة فكر. وحتى إذا أمكنه إيقاظ كاترين من سباتها العاطفي، لكان ذلك اعتبر إغواء لها رغم أنها زوجته.

وإذا كان لا بدّ من كتابة القصة فقد أخذ القلم وكتب:

«رفعت فتيلة القنديل لمزيد من النور. وعندما وقعت عيناي عليها في الضوء . . .»

بسبب الظلام المخيّم بدا ضوء المصباح الزيتي الضعيف كأنما ازداد توهجاً. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها بوضوح. تقدم نحوها خطوة ثم توقف وقد تملكته رغبة فيها يشوبها الرعب. إذ كان يدرك تماماً المجازفة التي أقدم عليها بمجيئه إلى هنا، فمن الجائز تماماً أن يقبض عليه أثناء خروجه، وربما يكون رجال الدورية في انتظاره أمام الباب الآن. بل وربما هم بانتظاره خارج الباب في هذه اللحظة للقبض عليه حتى لو غادر المكان دون أن يقربها.

لا بد من كتابة ما جرى، يجب الاعتراف به. اكتشف على ضوء المصباح أن المرأة كانت عجوزاً التصقت بوجهها طبقة سميكة من طلاء الزينة إلى حد بدا كأنه سينهار عند أول ملامسة كقناع كرتوني. كما كان الشيب قد خطّ شعرها. وعندما فغرت فاها قليلاً لم يكشف إلا عن فراغ كفراغ الكهف يبعث على الخوف إذ كانت بلا أسنان.

وأخذ يكتب بسرعة بخط غير منتظم:

«وعندما رأيتها في ضوء القنديل وجدتها عجوزاً، لا يقلّ عمرها عن الخمسين، لكني مضيت قدماً وباشرتها كالمعتاد.»

وضغط بأصابعه على جفنيه ثانية. لقد أتم كتابة الحكاية أخيراً، ولكن دونما أن يشعر بأي فارق، فذلك العلاج يخلّصه من تلك الرغبة الجامحة في الصياح بأعلى صوته مطلقاً أقذر الكلمات.

الفصل السابع

وكتب ونستون: «إن كان هنالك من أمل، فالأمل يكمن في عامة الشعب».

لابد أن الأمل يكمن في عامة الشعب، فمن هذه الكتلة البشرية التي لا يُلتفت إليها والمهمشة وتمثل 85 بالمائة من تعداد شعب أوقيانيا، يمكن أن تنبعث القوة التي تدمر الحزب. لا يمكن إسقاط الحزب من داخله. فأعداؤه، إن كان له أعداء أصلاً، لا يمكنهم أن يجمعوا صفوفهم أو حتى أن يتعارفوا. وحتى إذا كانت أسطورة حركة «الأخوة» موجودة، وهو أمر جائز، فقد كان من غير المتصور أن يتمكن أعضاؤها من التجمع بأعداد تزيد على الاثنين أو الثلاثة. وأمر الانتفاضة يُعْرَف من نظرة في العيون أو نبرة في الصوت أو في الغالب بكلمة يُهمس بها من وقت لآخر. لذلك لو أمكن لعامة الشعب أن يدركوا مدى قوتهم لما كانت هناك حاجة للتآمر، فكل ما يحتاجه الأمر أن ينتفضوا مثلما ينتفض الحصان لإزاحة الذباب بعيداً عنه. ولو شاءوا لمزّقوا وأحالوا الحزب هشيماً تذروه الرياح بين عشية وضحاها. ولا بد أن يخطر ذلك لهم إن عاجلاً أو آجلاً؟ ومع ذلك . . . !

وتذكر كيف كان يسير ذات مرة في شارع مزدحم عندما انبعث صياح مدوّ لمئات الأصوات (أصوات نساء) من شارع جانبي على مقربة

منه. لقد كانت صرخة غضب ويأس قوية وعميقة وعالية أخذت تدوي كأنها صدى أجراس تدق. وشعر بقلبه يثب من الفرح. لقد حانت اللحظة! هكذا ظنّ. إنه الهيجان! لقد انفكت عامة الشعب من عقالها أخيراً. وما إن وصل ذلك المكان حتى رأى حشداً من الغوغاء يبلغ عدده حوالي المائتين أو الثلاثمائة امرأة وقد تجمهرن حول أكشاك سوق الشارع ويدت وجوههن ملتاعة كوجوه ركاب سفينة تغرق. غير أنه في هذه اللحظة استحال ذلك القنوط الجماعي إلى مشاجرات فردية نشبت بين المتجمهرات. واتضح أن أحد هذه الأكشاك كان يبيع قدوراً من الصفيح ذات نوعية رديئة ورخيصة في حين كان من الصعب دائماً الحصول على أوعية للطهي من أي نوع. إذ كان المخزون منها قد نفد على نحو مفاجئ، فكانت بعض النسوة يحاولن الابتعاد بما فزن به من أوعية ويتعرضن للضرب والدفع أثناء ذلك، فيما راحت عشرات أخريات يصحن حول الكشك متهمات البائع بالتحيّز وبإخفاء الأوعية. ومن جديد تعالت الصيحات حينما ظهرت امرأتان منتفختان، إحداهما منسدلة الشعر، تمسكان بقدر واحدة وتتنازعان عليها وتحاول كل منهما تخليصه من يد الأخرى حتى انخلع مقبض القدر. كان ونستون يراقب المنظر باشمئزاز. وتعجب للحظة من تلك القوة المرعبة التي تبدت في تلك الصرخة التي انطلقت من بضع مئات من الحناجر! لماذا لا يصرخن مثل هذه الصرخات من أجل شيء له قيمته؟

وهنا عاد إلى مذكراته ومضى يكتب:

«لن يثوروا حتى يعوا ولن يعوا إلا بعد أن يثوروا.»

وغلب على ظنه أنه لا بد أن يكون ذلك مأخوذاً عن أحد كتب النصوص التي وضعها الحزب. كان الحزب يزعم، بالطبع، أنه حرر العامة من أغلال العبودية، فقبل الثورة كانوا يلاقون أبشع أنواع الاضطهاد على أيدي الرأسماليين، كما يُضربون بالسياط ويتضورون جوعاً، وكانت

النساء يُكرهن على العمل في مناجم الفحم (والحقيقة أن النساء ما زلن يعملن في مناجم الفحم)، وكان الأطفال يباعون إلى المصانع في سن السادسة. ولكن في الوقت نفسه ومما يتوافق مع ازدواجية التفكير، كان الحزب في أدبياته يؤكد على أن عامة الشعب طبقة وضيعة بالفطرة وأنه يجب إبقاؤهم مذعنين كالحيوانات. في الحقيقة كان ما يُعرف عن العامة قليل، ولم يكن ثمة ما يدعو لمعرفة المزيد عنهم. فما داموا يعملون ويتكاثرون فتصرفاتهم الأخرى غير ذات أهمية، ولذلك فقد ترك لهم الحبل على الغارب كقطيع من الأبقار تُرِكَ طليقاً على مراعي الأرجنتين، يعيشون نمطاً من الحياة يتناسب مع طبائعهم. كانوا يولدون ويكبرون في الأزقة الفقيرة ثم يذهبون إلى العمل في سن الثانية عشرة ويمرون مروراً عابراً في مرحلة تمثل ذروة الجمال والرغبة الجنسية، وبعدئذ يتزوجون في العشرين ويبلغون أواسط العمر في الثلاثين، ويموت معظمهم في الستين. كل ما يشغل بالهم العمل الجسدي الشاق ورعاية الأطفال والعناية بالمنزل والمشاجرات التافهة مع الجيران، ومشاهدة الأفلام ولعب الكرة واحتساء الجعة، وفوق كل ذلك كانت المقامرة تملأ أفق عقولهم. ومن ثم لم تكن السيطرة عليهم أمراً عسيراً؛ إذ يكفي أن تندس ثلة قليلة من عملاء شرطة الفكر بينهم، ينشرون الإشاعات المغرضة، حتى يتعرفوا على القلة منهم التي يُعتقد أنها مكمن الخطر فيستأصلون شأفتهم. ولم تسجل أية محاولة لغرس أيديولوجية الحزب فيهم؛ إذ لم يكن من المرغوب فيه أن يكون لدى عامة الشعب وعي سياسي قوي؛ فكل ما هو مطلوب منهم وطنية بدائية يمكن اللجوء إليها حينما يستلزم الأمر، إقناعهم بقبول ساعات عمل أطول أو حصص أقل من السلع التموينية. بل وحتى عندما كان ينتابهم شعور بالسخط، كما يحدث أحياناً، فإن سخطهم لم يكن ليفضي إلى شيء كونهم يعيشون بلا مبادئ عامة، ولذلك كانوا يركزون غضبهم على تظلمات خاصة وقليلة الأهمية. فالأخطار الكبرى لا تسترعي انتباههم، وليس لدى الغالبية العظمى منهم

شاشات رصد في بيوتهم، بل وحتى الشرطة المدنية كانت قليلاً ما تتدخل في شؤونهم. لقد كانت لندن تغص بالجرائم، فكان فيها عالم كامل من اللصوص وقطاع الطرق ومحترفي الدعارة وتجار المخدرات والمحتالين من كل صنف ولون، ولكن ليس لذلك أي اعتبار ما دام يجري بين عامة الشعب. وفي كافة المسائل الأخلاقية كان يُسْمَحُ لهم أن يتبعوا تقاليد أسلافهم الموروثة. ولم يكن التزمت الحزبي فيما يخص الحياة الجنسية يفرض عليهم، والفحشاء كانت تمر دون عقاب والطلاق كان مسموحاً به. ولذلك كان يسمح لهم بممارسة الشعائر الدينية وإذا ما أبدوا حاجة أو رغبة في ذلك فهم ليسوا موضع شك. وفي ذلك كان شعار الحزب يقول: «عامة الشعب والحيوانات أحرار».

انحنى ونستون وحكّ دواليه بحذر بعدما شعر بأنها تؤلمه مرة ثانية. والشيء الذي كان يتردد في رأسه هو أنه من المستحيل معرفة الصورة الحقيقية للحياة قبل الثورة. وأخرج من الدرج نسخة من نصوص التاريخ الخاص بالأطفال والذي استعاره من مسز بارصون، وأخذ ينسخ قطعة منه إلى مذكراته:

«في الأيام الغابرة قبل الثورة المباركة، لم تكن لندن جميلة كما نعرفها اليوم. لقد كانت مكاناً مظلماً قذراً بائساً لا يجد فيه المرء ما يسد رمقه، مئات بل ألوف من الفقراء يسيرون حفاة وبلا مأوى، وكان الأطفال الذين في مثل أعماركم يُكرهون على العمل لاثنتي عشرة ساعة في اليوم لحساب سادة قساة يجلدونهم بالسياط إذا أبطأوا في عملهم ولا يطعمونهم إلا فتات الخبز والماء. ووسط ذلك الفقر المدقع، كانت هناك بضعة بيوت كبيرة ورائعة يسكنها رجال أثرياء لدى كل منهم ثلاثون خادماً على الأقل يقومون على خدمتهم. وهؤلاء كانوا يُسمون بالرأسماليين. وهم رجال سمان ذوو وجوه قبيحة كصورة أحدهم التي ترونها على الصفحة المقابلة. وباستطاعتك عزيزي الطفل أن تراه وهو يرتدي معطفا طويلاً أسود اللون وقبعة غريبة لامعة تشبه مدخنة الموقد

وكانت تسمى «القبعة العالية». ذلك هو الزي الرسمي للرأسماليين ولم يكن يُسمح لأحد سواهم بلبسه. وكان هؤلاء يملكون كل شيء في العالم فيما كان الآخرون جميعاً عبيداً لهم. أجل كانوا يملكون الأراضي والمنازل والمصانع والأموال. وإذا ما خرج أحد عن طاعتهم فقد كان بمقدورهم أن يلقوا به في السجن أو يجردوه من وظيفته ليهلك جوعاً. وإذا ما رغب أي شخص عادي في التحدث إلى رأسمالي كان عليه أن يجمع أطراف ثوبه وينحني ويخلع قبعته ويخاطبه بكلمة «سيدي». وكان رئيس كل هؤلاء الرأسماليين يسمى الملك، و. . . .»

وكان ونستون يعرف بقية ما يحتويه ذلك الكتاب. إذ فيه إشارة إلى الأساقفة في أرديتهم ذات الأكمام الواسعة، والقضاة في معاطفهم الفاخرة، وآلات التعذيب باختلاف أنواعها ومآدب السادة رؤساء البلديات، وعادة تقبيل أقدام البابا. وكان هنالك أيضاً ما يجب عدم ذكره في كتب الأطفال. إنه القانون الذي كان يعطي الحق لكل رأسمالي أن ينام مع أية امرأة تعمل في أحد مصانعه.

كيف كان يمكنك أن تعرف مقدار ما في ذلك من أكاذيب؟ فقد يكون الإنسان العادي حقاً أفضل حالاً الآن مما كان عليه قبل الثورة. غير أن البرهان الوحيد على نقيض ذلك كان ذاك الاحتجاج الصامت الذي تشعر به في قرارة نفسك، فضلاً عن الشعور الغريزي بأن الأوضاع التي تعيشها لا تطاق وبأنها لا بد كانت في وقت سابق مغايرة لما هي عليه الآن. وفكّر أن ما يميز حقاً الحياة العصرية لم يكن قسوتها أو انعدام الطمأنينة، وإنما هو العري والانحطاط واللامبالاة.

ولو أمعنت النظر في ما حولك لتبين لك أن الحياة لا تشبه في شيء تلك الأكاذيب المتدفقة من شاشات الرصد، ولا تلك المُثُل التي كان الحزب يسعى إلى إرسائها. وكانت هذه المُثُل في معظمها، حتى لدى عضو الحزب، غير مؤثّرة ولا سياسية، يشهد على ذلك الانخراط في

أعمال حقيرة والتزاحم للحصول على موطئ قدم في قطار الأنفاق أو رتق جورب مهترئ أو تسوّل قطعة سكر أو ادخار عقب سيجارة. أما المُثُل التي كان يروِّج لها في الحزب فقد كانت شيئاً ضخماً مخيفاً وبراقاً، وتُشعرك بأنك وسط عالم من الفولاذ والقوة، والآلات الضخمة والأسلحة المخيفة، وتوحي لك بأنك وسط أمة من المحاربين والمتعصبين الذين يمضون قدماً كبنيان مرصوص ويفكرون تفكيراً واحداً متماثلاً ويهتفون بشعارات واحدة ويعملون بلا كلل ويقاتلون وينتصرون ويعتدون، ويبلغ تعدادهم ثلاثمائة مليون من الأنفس ذوي الوجوه المتماثلة. أما الحقيقة فهي في المدن القذرة الكئيبة والآيلة للسقوط، يروح ويجيء فيها بشر جياعٌ، يعانون من سوء التغذية، بأحذية بالية وثياب مهلهلة، ويقطنون بيوتاً متداعية تعود للقرن التاسع عشر تفوح منها رائحة الملفوف المسلوق ممزوجة بروائح قذرة.

كان يبدو له أن ما يراه هو صورة للندن، المدينة الكبيرة المتداعية ذات المليون سلة نفايات، تختلط بصورة السيدة بارصون ذات الوجه المغضن بالتجاعيد والشعر المنفوش وهي تحاول عبثاً فتح بالوعة مسدودة.

انحنى صاحبنا وحكّ كاحله مرة أخرى. ثم سار مع أفكاره بين هذه الحياة البائسة وما يدعيه الحزب من أكاذيب. فليلاً نهاراً كانت شاشات الرصد تصم أذنيك بالإحصائيات التي تبرهن على أن الشعب اليوم لديه طعام أكثر وثياب أوفر وبيوت ووسائل راحة أفضل، وأنهم أصبحوا يعيشون أطول، ويعملون ساعات أقل، وأنهم أكبر وأصح وأقوى وأسعد وأذكى وأكثر ثقافة من أولئك الذين كانوا على قيد الحياة منذ خمسين سنة خلت. هذا ولم يكن من الممكن أبداً التدليل على صدق أو كذب كلمة واحدة من ذلك. فمثلاً كان الحزب يزعم أن 40 في المائة بين البالغين من عامة الشعب متعلمون أما قبل الثورة فقد كانت النسبة 15 في المائة فقط. ويزعم كذلك أن نسبة وفيات الأطفال بلغت 160 بالألف فقط، في

حين كانت قبل الثورة 300 بالألف. وعلى هذا المنوال كانت الإحصاءات تجري شبيهة بمعادلة بسيطة مجهولة . فمن الجائز جداً أن تكون كل كلمة في كتب التاريخ، بل حتى الأمور التي يعتبرها المرء مسلّمات، هي محض خيال. وربما لم يكن هنالك أبداً ذلك القانون الذي يبيح للرأسمالي مجامعة أي امرأة تعمل في مصانعه، أو مخلوق مثل الرأسمالي أو قبعة مثل قبعته العالية.

كل شيء كان يلفّه الضباب، فالماضي امّحى من الوجود وما تم محوه بات طي النسيان فصارت الكذبة حقيقة. مرة واحدة في حياته عثر على دليل مادي لا يرقى إليه شك، على عملية تزييف وأمسك به بين أصابعه لثلاثين ثانية فقط. لابد أن ذلك كان في عام 1973. وعلى أية حال كان ذلك في الفترة التي انفصل فيها عن كاترين. ولكن التاريخ الحقيقي لتلك الحادثة كان أبكر بسبع أو ثماني سنوات.

بدأت القصة فعلاً في منتصف الستينات إبان موجات التطهير الكبرى التي جرى فيها تصفية الزعماء الأصليين للثورة دفعة واحدة وإلى الأبد. وبحلول عام 1970 لم يكن قد تبقى منهم أحد، ما عدا الأخ الكبير. أما الباقون فقد وُصموا بالخيانة واعتبروا مناوئين للثورة. وفرّ غولدشتاين إلى حيث لا يعرف أحد، فيما توزع الآخرون. قلة منهم اختفت، وأغلبية تم إعدامها بعد محاكمات علنية صورية اعترفوا خلالها بما نُسب إليهم من جرائم. وكان من ضمن من بقي على قيد الحياة ثلاثة رجال هم جونز وآرونسون ورادرفورد. وكان هؤلاء الثلاثة قد أُلقي القبض عليهم عام 1965. وكما يحدث غالباً، فقد اختفوا لمدة سنة أو أكثر، لا يُعرف إن كانوا أحياء أم أموات، بعدئذ وعلى نحو مفاجئ جيء بهم ليجرِّموا أنفسهم بالطريقة المعهودة، بحيث اعترفوا بالتجسس لصالح الأعداء (وفي ذلك الوقت كان العدو هو أوراسيا أيضاً)، وباختلاس المال العام، وبقتل العديد من أعضاء الحزب المخلّص، كما بتدبير الدسائس ضد زعامة الأخ الكبير للثورة، وذلك حتى قبل قيام الثورة،

كذلك اعترفوا بعمليات تخريبية أفضت إلى مقتل مئات الألوف من الناس. لكن وبعد اعترافهم بهذه الجرائم صدر أمر بالعفو عنهم وأعيدوا إلى الحزب ومُنحوا مناصب بألقاب رنّانة لكنها خاوية من الصلاحيات. وكتب ثلاثتهم مقالات مطولة وخسيسة يشرحون فيها الأسباب التي دفعتهم للانشقاق عن الحزب سابقاً وقطعوا العهود على إصلاح أنفسهم.

وبعد فترة من إطلاق سراحهم رآهم ونستون بالفعل في مقهى شجرة الكستناء. وهو يذكر ذلك الشعور بالافتتان الممزوج بالخوف الذي انتابه وهو يراقبهم بطرف عينيه. كانوا يكبرونه سناً. بقايا من العالم القديم، وتقريباً آخر قادة الحزب العظماء الباقين من الأيام المجيدة الأولى للحزب. كان عبق النضال السري والحرب الأهلية ما زال عالقاً بهم على نحو خافت. انتابه شعور آنذاك، رغم أن التواريخ والحقائق في ذلك الوقت كانت عرضة للعبث بها، بأنه سمع بأسمائهم قبل سنوات من سماعه بالأخ الكبير. لكنهم الآن خارجون على القانون وأعداء ومنبوذون ومحكوم عليهم بالزوال في غضون سنة أو سنتين. إذ لم يحدث أن سقط أحد في قبضة شرطة الفكر ثم كُتبت له النجاة في النهاية، لقد كانوا جثثاً في انتظار من يعيدها إلى قبورها.

لم يكن من الحكمة أن يُرى أحد بجوار مثل هؤلاء الناس، لذلك خلت أقرب الموائد إليهم من رواد المقهى. وكانوا يجلسون وقد خيم عليهم السكون وأمامهم كؤوس الخمر المعطرة بالقرنفل التي يشتهر بها هذا المقهى. ومن بين الثلاثة كان راذرفورد وحده هو الذي ترك أثراً خاصاً في ونستون. فهذا الرجل كان رساماً كاريكاتورياً شهيراً في يوم من الأيام ألهبت رسومه الهزلية القاسية الرأي العام الشعبي قبل وأثناء الثورة. وحتى الآن، وعلى فترات متباعدة كانت صوره الهزلية تظهر في جريدة التايمز، مجرد محاكاة لأسلوبه الأول ولكنها عديمة الروح ولا تبعث على الإقناع. فهي دائماً بمثابة اجترار لموضوعات قديمة وُضعت في

قوالب جديدة، حيث يصور الأحياء الفقيرة والأطفال يتضورون جوعاً، وشجار الشوارع، والرأسماليين ذوي القبعات العالية - حتى وهم في الشرفات كانوا يتعلقون بقبعاتهم الأنيقة - في محاولة بائسة لا تنتهي للعودة إلى الماضي. كان راذرفورد رجلاً ضخم الجثة ذا غرّة من شعر دهني رمادي، ووجه منتفخ مجعّد وشفتين سميكتين مكتنزتين. ويبدو أنه كان في الماضي رجلاً قوياً جداً، أما الآن فجسده الكبير يترهل ويتهدل في كل اتجاه. كان يبدو أنه يتحطم كجبل يتداعى.

ولم يستطع ونستون أن يتذكر الآن كيف أتى إلى المقهى في مثل هذا الوقت إذ كانت الساعة السادسة مساء، وكان المكان شبه خاوٍ وثمة موسيقى خفيفة تنساب من شاشة الرصد بينما جلس الرجال الثلاثة في زاويتهم صامتين وبلا حراك. ودون أن يطلبوا شيئاً من النادل، أحضر كؤوساً إضافية من الخمر، وعلى المائدة المجاورة رقعة شطرنج صُفّت عليها القطع دون أن يبتدئ أحد اللعب. وبعدئذ وربما لنصف دقيقة من الزمن، طرأ تغير ما على الشاشة إذ تغير اللحن وتغيرت معه الموسيقى. كان شيئاً يصعب وصفه. كانت النغمة الجديدة نغمة ناهقة متكسرة مزعجة، نغمة أسماها ونستون في عقله «نغمة صفراء»، وبعد ذلك صدح صوت من الشاشة بما يلي:

تحت شجرة الكستناء الوارفة

بعتك وبعتني

وها هم يرقدون هناك ونحن نرقد هنا

تحت شجرة الكستناء الوارفة

لم يحرك الرجال الثلاثة ساكناً. ولكن عندما تطلّع ونستون إلى وجه راذرفورد المحطم مرة ثانية رأى عينيه وقد اغرورقتا بالدموع. ولاحظ وللمرة الأولى، وقد استولت عليه رعشة داخلية لم يعرف مبعثها، لاحظ أن كلٌ من آرونسون وراذرفورد كان أنفه مكسوراً.

وبعد ذلك بوقت قليل ألقي القبض على ثلاثتهم من جديد، فقد ظهر أنهم كانوا قد انخرطوا في مؤامرات جديدة بعدما أطلق سراحهم، واعترفوا أثناء محاكمتهم الثانية بجميع جرائمهم القديمة مرة أخرى إضافة إلى سلسلة من الجرائم الجديدة، ثم أُعدموا وجرى تسجيل ما أُنزل بهم من عقاب في تاريخيات الحزب ليكونوا عبرة للأجيال القادمة. وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ أي في عام 1973، كان ونستون يقلّب ملف مستندات، كان الأنبوب الهوائي قد قذف به إليه، فعثر على قصاصة ورق كان من الواضح أنها انزلقت بين الأوراق الأخرى ثم نُسيت. وما إن دقّق فيها حتى أدرك أهميتها. إنها نصف صفحة قُطعت من جريدة «التايمز» الصادرة منذ عشر سنوات، نصف الصحيفة الأعلى ولذلك تضمّن التاريخ، كما تضمّن صورة لمندوبي الحزب في فرع نيويورك. وكان يتوسط هذه المجموعة بشكل بارز هؤلاء الثلاثة. ولم يكن أحد ليخطئهم، فأسماؤهم كانت تظهر أسفل الصورة.

المهم في الموضوع هو اعترافهم أثناء محاكمتهم الأولى والثانية بأنهم كانوا في ذلك التاريخ، تاريخ الجريدة، في أوراسيا. وأنهم طاروا من مطار سرّي في كندا إلى موعد ضُرب لهم في مكان ما من سيبيريا، وهناك التقوا أعضاء من القيادة العامة لأوراسيا، وأفضوا إليهم بأسرار عسكرية هامة، وكان هذا التاريخ قد علق في ذاكرة ونستون لأنه كان يصادف عيد منتصف الصيف ولا بد أن القصة كلها مسجلة في أماكن أخرى لا حصر لها أيضاً. وخلص ونستون من ذلك إلى نتيجة وحيدة مفادها أن الاعترافات كانت كاذبة وملفّقة.

ومن الطبيعي أن ذلك لم يكن يُعَدّ في حد ذاته اكتشافاً. فحتى في ذلك الوقت، لم يكن ونستون يتخيل أن الناس الذين تطالهم حملات التطهير قد ارتكبوا فعلاً ما يُتهمون به من جرائم. ولكنه كان دليلاً مادياً، إنه قطعة من الماضي الذي تم محوه، مثل عظام الحفريات، تظهر في

طبقة غير طبقتها فتقوض نظرية جيولوجية. إنه دليلٌ كان يكفي لإحالة الحزب إلى هشيم تذروه الرياح فيما لو تم عرضه أمام العالم وكشف مغزاه.

استمر ونستون في عمله عندما رأى الصورة وأدرك ما تعنيه، ثم غطاها بورقة أخرى. ولحسن الحظ كان اتجاه الصورة بعكس شاشة الرصد حينما بسطها أمامه.

تناول ونستون دفتر الكتابة ووضعه على ركبتيه ودفع بالكرسي إلى الوراء حتى يصبح بعيداً قدر المستطاع عن شاشة الرصد. لم يكن من الصعب أن تجعل وجهك خالياً من أي تعبير، بل وحتى أنفاسك يمكن حبسها ببعض الجهد. لكن لم يكن بإمكانك التحكم في ضربات قلبك التي كانت شاشة الرصد شديدة الحساسية إزائها وقادرة على التقاطها. انقضت عشر دقائق كان يتمنى انقضاءها، يعذبه خلالها شعور بالخوف من أن ينكشف سره بفعل حادثة ما كنفخة هواء تهبّ على مقعده مثلاً. بعدئذ ودون أن يكشفها ثانية قذف بها إلى مقبرة الذاكرة مع أوراق أخرى لا لزوم لها. في خلال دقيقة ستصبح رماداً.

كان ذلك منذ عشرة أعوام أو أحد عشر عاماً خلت، ولو أن ذلك حدث اليوم لكان من المحتمل أن يحتفظ بتلك الصورة. والعجيب أن مجرد إمساكه بها بين أصابعه أثار فيه إحساساً مغايراً لما كان عليه من قبل، رغم أن الصورة نفسها، وكذلك الحادثة التي سجلتها، كانت مجرد ذكرى. وتساءل: «ترى هل أصبحت عندي قبضة الحزب على الماضي أقل قوة بسبب دليل تافه لم يعد له وجود وكان قائماً في الماضي؟»

لكن في هذه الأيام وعلى افتراض أن الصورة بُعثت من رمادها بطريقة ما، فإنها لا يمكن أن يعتد بها كدليل. ففي زمن اكتشافه لهذا الدليل، لم تكن أوقيانيا قد دخلت بعد في حرب مع أوراسيا. ولا بد أن

الرجال الثلاثة قد أفشوا أسرار بلادهم لعملاء شرقاسيا. وبعد ذلك الوقت ظهرت اتهامات أخرى لم يكن يستطيع تذكّر عددها، كما أنه من المحتمل جداً أن الاعترافات قد أعيد تنقيحها مرات ومرات إلى أن أصبحت الحقائق والتواريخ الأصلية بلا معنى على الإطلاق. فالماضي لم يكن قد تغير فحسب، بل كان في تغيُّر دائم. وأشد ما كان يربض على صدره مثل الكابوس أنه لم يفهم أبداً لماذا يمارسون علينا الخداع والدجل. فالفوائد المباشرة لتزييف الماضي واضحة لكن الغاية البعيدة من ورائها كانت غامضة. فأخذ قلمه ثانية وكتب:

«إنني أفهم (كيف)، لكن لا أدرك (لماذا)؟»

ثم تساءل، كما تساءل مراراً وتكراراً من قبل، عما إذا كان هو نفسه مصاباً بمسّ من الجنون. فالجنون ربما هو، بكل بساطة، أن تخالف الآخرين. ففي زمن من الأزمان كان من الجنون أن تعتقد أن الأرض تدور حول الشمس، أما اليوم فالجنون هو أن تعتقد أن الماضي غير قابل للتبديل. ولعل ونستون هو الوحيد في تمسكه بهذا الاعتقاد، وإذا كان وحيداً في ذلك فهذا يعني أنه مجنون. بيد أن فكرة الجنون لم تكن تقلقه كثيراً، بل ما كان يُرعبه هو احتمال أن يكون على خطأ.

التقط كتاب التاريخ الخاص بالأطفال ثم تطلّع إلى صورة الأخ الكبير التي تغطي الغلاف حيث العينان المغناطيسيتان تحدقان فيه، وكأنما كانت هنالك قوة هائلة تجثم عليك. شيء يخترق الجمجمة ويدخل إلى دماغك فيزعزع معتقداتك ويحملك على أن تنكر على حواسك ما تشعر به. فمن الممكن في نهاية المطاف أن يعلن الحزب أن اثنين واثنين يساويان خمسة وعليك أن تصدق ذلك. وعاجلاً أم آجلاً سيحصل ذلك. إن منطقه يتطلب مثل هذا. ففي الحزب لم تكن فلسفتهم تنكر صلاحية التجربة فحسب وإنما كانت تنكر أيضاً، بكياسة، وجود الحقيقة الظاهرة. كذلك كانوا يعتبرون ضلال الضالين هو عين العقل. والمرعب في ذلك ليس احتمال قتلك بجريرة التفكير بطريقة مغايرة، بل احتمال أن يكونوا

على صواب. إذ كيف يمكنك بعدها أن تعرف أن اثنين واثنين يساويان أربعة؟ أو أن قوة الجاذبية موجودة؟ أو أن الماضي لا يمكن تغييره؟ فإذا كان كل من الماضي والعالم الخارجي لا يوجدان إلا في أذهاننا، وإذا كانت أذهاننا نفسها يمكن التحكم فيها- فماذا تكون نتيجة ذلك؟

لكن لا! فكّر ونستون، وكأن شجاعته اشتدت وقويت فجأة من تلقاء نفسها. وقد خطر أوبراين على بال ونستون، دونما داع. كان يعرف، بيقين أقوى مما سبق، أن أوبراين في صفّه. فقد كان يكتب مذكراته من أجله وإليه، كانت أشبه برسالة لامتناهية لن يقرأها أحد، لكنها موجهة إلى شخص بعينه، وهذا ما يعطيها قيمتها.

لقد كان الحزب يوصي بأن ترفض تصديق ما تراه عيناك وما تسمعه أذناك. كان هذا هو توجيهه النهائي والأكثر أهمية. وغاص قلبه بين ضلوعه وهو يفكر في القوة الهائلة الموجّهة ضده، وفي السهولة التي يستطيع بها أي مفكر من مفكري الحزب أن يكتشف بها أمره في نقاش أو مناظرة تعتمد على الدهاء، لن يكون قادراً على فهمها أو حتى الرد عليها. ومع ذلك فقد كان متيقناً أنه على صواب وهم على ضلال، وأن عليه الدفاع عن البسيط والواضح والحقيقي. فالبديهيات الواضحة عليك أن تتمسك بها! إن العالم المادي موجود، وله قوانين لا تتغيّر، فالحجارة صلبة والماء سائل والأشياء التي لا ترتكز على شيء تهوي نحو الأرض. وتحت تأثير شعوره بأنه يتحدث إلى أوبراين وبأنه كان يرسي مسلّمة هامة كتب ونستون:

الحرية هي حرية القول إن اثنين واثنين يساويان أربعة، فإذا سُلم بذلك سار كل شيء آخر في مساره السليم.

الفصل الثامن

كانت رائحة بُن مُحمّص تفوح في أنحاء الشارع منبعثة من مكان ما في أسفل الممر- بُن حقيقي وليس بُن النصر-، توقف ونستون رغماً عنه للحظات ربما عادت به ذاكرته خلالها إلى دنيا طفولته شبه المنسية، وبعدئذ سُمعت طقة باب يغلق لتختفي الرائحة على أثر ذلك فجأة، وكأنما كانت صوتاً وحُجِب.

كان قد جال عدة كيلومترات فوق الأرصفة حينما عادت دواليه تنقز عليه، وكانت هذه هي المرة الثانية خلال ثلاثة أسابيع التي يتخلّف فيها عن حضور الأمسيات في المركز الاجتماعي، وفي هذا تهوّر لأن عدد مرات الحضور كان موضع مراجعة دقيقة. ووفقاً لأحد مبادئ الحزب، ما كان لعضو بالحزب أن يكون لديه وقت فراغ أو أن ينفرد بنفسه إطلاقاً إلا عند نومه، بل كان من المفترض أن يشارك في أي لون من ألوان الترفيه الجماعي طالما أنه لا يعمل أو يتناول طعاما أو ينام. وكان إقدام العضو على عمل يوحي بميل للعزلة، حتى لو كان ذلك نزهة على الأقدام يقوم بها منفرداً، هو عمل فيه مخاطرة واضحة. وكان يُعبّر عن ذلك في اللغة الجديدة بكلمة «حياة خاصة» وهي تعني الفردية والتمركز حول الذات. ولكنه عندما انصرف من الوزارة في ذلك المساء أغراه نسيم نيسان العليل بمتابعة السير تحت السماء التي كانت أشد زرقة وأكثر دفئاً من أي وقت مضى في هذه السنة. وفجأة بدت له تلك الأمسيات

الطويلة الصاخبة التي تقام في المركز العام وما يصحب ذلك من ألعاب مجهدة ومحاضرات مملة، وصخب الرفاق وهم يتبادلون أنخاب الشراب، بدا له كل ذلك أمراً لا يحتمل. وبدافع لاإرادي وجد نفسه يغادر موقف الحافلات ويهيم في متاهات لندن لا يلوي على شيء وسط شوارع لا يعرفها، فتارة يسير جنوباً وأخرى شرقاً وثالثة شمالاً غير آبه أين يسير وبأي اتجاه.

وكانت الكلمات التي كتبها في مذكراته «إن كان هنالك من أمل فإنه يكمن في العامّة» لا تني تتردد في ذهنه أثناء سيره وقد رأى فيها حقيقة خافية وعبثاً. وكان آنذاك قد وصل إلى مكان ما وسط الأحياء القذرة الداكنة اللون والواقعة شمال شرق ما كان يُعرف ذات يوم بمحطة (القديس بانيراس)، كان يسير في شارع مرصوفٍ بالأحجار، على جانبيه تصطف بيوت صغيرة من طابقين محطمة الأبواب تطل مباشرة على رصيف الشارع كأنها جحور جرذان. وكنت ترى بركاً من الماء القذر هنا وهناك بين الأحجار. وفي مداخل الأبواب المعتمة، وفي الأزقة الضيقة المتفرعة، كانت أعداد هائلة من الناس تتكوم، فتيات في ميعة الصبا وقد طلين شفاههن بطريقة فجة، وشباب يلاحقون الفتيات، ونساء مترهلات يسرن متهاديات يمشين على مهل كنماذج لما ستكون عليه الفتيات الشابات بعد عشرة أعوام، ونساء عجزة يسرن على أقدام مفلطحة، وأطفال في ثياب مهلهلة وأقدام حافية يلعبون في برك الماء رغم سماعهم صيحات غضبى من أمهاتهم، وربما كان ربع عدد نوافذ الشارع محطمة ومرقعة... ولم يعر معظم الناس اهتماماً بونستون عدا قلة منهم رمقته بشيء من الاستغراب الحذر. وكانت تقف على مدخل أحد الأبواب امرأتان ضخمتان بسواعد حمراوات آجرية طُويت فوق المئزر، تتجاذبان أطراف حديث التقط ونستون مقاطع منه عندما اقترب منهما:

- نعم لقد قلت لها إن كل هذا حسن. ولكنك لو كنت في مكاني

لفعلت الشيء نفسه الذي فعلته، وقلت أيضاً إن من السهل أن تنتقدي الآخرين طالما ليس عندك من المشاكل ما عندي.

وقالت الأخرى: آه! ذلك هو الأمر تماماً، إنه صحيح تماماً.

وما إن مرّ بهما ونستون حتى لاذتا بالصمت فجأة وهما تتفحصانه بنظرات عدائية صامتة. في الحقيقة لم يكن ذلك عداء بالمعنى المعروف للكلمة بل مجرد حذر وتخوف وقتي كالذي يحدث عند مرور حيوان غير مألوف أمام المرء، إذ لم تكن رؤية اللباس الأزرق أمراً مألوفاً في مثل هذا الشارع. ومن المؤكد أنه لم يكن من الحكمة في شيء أن تتواجد في مثل تلك الأماكن ما لم تكن مكلّفاً بمهمة محددة هناك. وإذا حدث وصادفتك دورية فقد يستوقفونك ويسألونك: «هل تسمح لنا برؤية هويتك أيها الرفيق؟ ماذا تفعل هنا؟ متى تركت عملك؟ أهذا هو طريقك المعتاد في العودة لمنزلك؟ وهلم جرا. . .» وليس ذلك بسبب قواعد تحظر العودة للمنزل من غير الطريق المعتاد، وإنما لأن مثل هذا العمل يلفت انتباه شرطة الفكر.

فجأة امتلأ الشارع عويلاً وصراخاً، وانبعثت صيحات الإنذار من كل حدب وصوب وأخذ الناس يتقاطرون إلى مداخل الأبواب كالأرانب. وهرعت امرأة صغيرة السن من مدخل باب قريب جداً من ونستون وأمسكت بطفل نحيل كان يلعب في بركة من الماء ثم لفته بمئزرها وقفزت به إلى الداخل. حصل كل ذلك في لمح البصر. وفي اللحظة نفسها اندفع رجل يرتدي حُلة سوداء من زقاق جانبي وقفز نحو ونستون وهو يشير بفزع إلى السماء ويصيح في وجهه:

«بارجة. . . ! احذر أيها المسؤول! إنها تدوي فوق رأسك! انبطح أرضا بسرعة!»

وكان العامة لسبب ما يستعملون كلمة «بارجة» للإشارة إلى القذائف الصاروخية. وغالبا ما كانوا على صواب عندما يطلقون تحذيراً من هذا القبيل. وبالرغم من أنه يفترض أن القذيفة الصاروخية تفوق في سرعتها

سرعة الصوت، فقد بدا أنهم كانوا يتمتعون بغريزة ما تنبئهم بها قبل سقوطها بثوان معدودة. انبطح ونستون أرضاً وشبك ساعديه حول رأسه، ثم سمع أزيزاً مدوياً بدا له كما لو أن الأرض قد ارتجّت بقوّة وتساقط وابل من أجسام خفيفة على ظهره، ثم تبين له عندما وقف على قدميه أنها كانت شظايا من زجاج تطاير من النوافذ القريبة تحيط به من كل جانب.

وبعدئذ تابع سيره، وكانت القنبلة قد دمرت مجموعة من البيوت بامتداد مئتي متر في الشارع وتصاعد عمود أسود من الدخان في السماء مع غيمة من الغبار الكثيف غطت الأنقاض الناجمة عن الدمار. تجمع جمهور من الناس أمامه على الرصيف حيث كانت تكوين من الجبس وفي وسطه يستطيع المرء أن يتبين خيطاً أحمر لامعاً. وعندما اقترب ونستون رأى يداً بشرية مبتورة من المعصم وقد ابيضت تماماً، عدا العقد الدامية التي فيها مما جعلها تشبه الجبس.

لكز هذا الشيء بقدمه إلى البالوعة وأخذ شارعاً جانبياً ليتحاشى الزحام، وفي غضون ثلاث أو أربع دقائق كان قد أضحى خارج المنطقة المنكوبة حيث كانت الشوارع على حياتها الحقيرة الصاخبة كأن شيئا لم يحدث، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء تقريباً وقد غصّت الحانات بروّادها من عامة الشعب. ومن أبوابها المتجهمة، دائمة الاهتزاز بين فتح وغلق، انبعثت رائحة البول ونشارة الخشب والجعة الحامضة. في زاوية ناشئة عن نتوء واجهة أحد المنازل وقف ثلاثة رجال متقاربين جداً وقد أمسك أوسطهم بجريدة مفتوحة فيما كان الآخران يتطاولان لقراءتها من فوق كتفيه، وحتى قبل أن يصبح على مقربة تسمح له باستقراء تعابير وجوههم رأى استغراقهم الشديد الذي شمل كل ذرة من أجسامهم، وكان واضحاً أنهم يقرأون نبأ على جانب من الخطورة. وعندما أصبح على بعد خطوات منهم تفرقوا فجأة ودخل اثنان منهم في تلاسن عنيف حتى بدا أنهم على وشك البدء في توجيه اللكمات.

- ألا يمكنك أن تصغي لما أقول أيها اللعين؟ لقد أخبرتك أنه منذ أربعة عشر شهراً لم يربح أي عدد ينتهي بالرقم 7.

- بلى . . . لقد حدث ذلك مرة.

- كلا لم يحدث. فمنذ سنين وأنا أحتفظ في منزلي بكل المجموعات وأدونها بانتظام على قصاصة ورق وليس فيها أي عدد ينتهي بالرقم 7.

- بلى لقد ربح رقم 7. . دعني أتذكر الرقم الملعون . . إنه أربعة صفر سبعة، وكان ذلك في شهر فبراير لا بل الأسبوع الثاني من فبراير.

- فبراير. . . يا لك من أحمق. . . الأرقام جميعها مدوّنة لديّ وأنا أقول لك إنه لا يوجد ذلك الرقم .

صاح بهما الرجل الثالث قائلاً: «كفى مهاترة. . .»

كانوا يتحدثون عن اليانصيب، وبعدما ابتعد عنهم مسافة ثلاثين متراً نظر خلفه فوجدهم ما زالوا يتشاحنون ووجوهم منفعلة ومتقدة. وكان سحب اليانصيب الأسبوعي على الجوائز النقدية الهائلة، هو الحدث العام الوحيد الذي يعيره العامة اهتماماً كبيراً جداً، ومن المرجح أن هناك بضعة ملايين من العامة الذين يعتبرون اليانصيب هو السبب الرئيسي إن لم يكن الوحيد وراء تمسّكهم بالحياة، إذ كان لهم بمثابة المخدر ومبعث بهجتهم وحماقتهم ومحرك تفكيرهم. وحيثما كان اليانصيب هو الموضوع، كنت تجد الناس الذين بالكاد يقرأون ويكتبون، يُظهرون قدرة على إجراء الحسابات المعقدة والاحتمالات المدهشة التي تعتمد على الذاكرة. كان هناك عدد كبير من الرجال يعتمدون في كسب قوتهم على بيع الأوراق والتنبؤات وتمائم الحظ. ولم يكن لونستون علاقة بإدارة اليانصيب، فقد أنيط بوزارة الوفرة دور الإشراف على إدارة هذه العملية، ولكنه كان يدرك (وفي الواقع كان كل شخص في الحزب يدرك ذلك) أن الجوائز كانت وهمية للغاية بحيث يجري دفع الجوائز ذات المبالغ

الصغيرة فحسب، أما تلك ذات المبالغ الكبيرة فكان رابحوها أشخاصاً لا وجود لهم. وفي غياب أي اتصال حقيقي بين طرفي أوقيانيا لم يكن من الصعب تمرير مثل ذلك التلاعب.

«لكن إن كان هنالك من أمل فإنه يكمن في العامة، ويجب عليك الإيمان بذلك». عندما تصوغ ذلك في كلمات فإنه يبدو معقولاً، وعندما ترى الرجال يمرون على الرصيف فإنه يصبح قضية تؤمن بها. ما إن استدار إلى شارع متفرّع حتى انتابه شعور بأنه جاء إلى هذا المكان من قبل وأن هناك طريقاً رئيسياً غير بعيد. من مكان ما تعالت أصوات بالصياح، ثم انعطف الطريق انعطافة شديدة وانتهى بدرج يفضي إلى زقاق حيث كان الباعة يعرضون خضروات ذابلة. في تلك اللحظة تذكر ونستون المكان. لقد كان الزقاق يؤدي إلى الشارع الرئيسي، وعند المنعطف الثاني، وبما لا يبعد خمس دقائق، كان يوجد حانوت بيع الأشياء القديمة الذي سبق أن اشترى منه مفكّرته. ومن قرطاسية صغيرة وقريبة كان قد اشترى ماسكة الريشة والحبر.

توقف لحظة عند أعلى الدرج، فقد كان في الجانب المواجه للزقاق حانة قذرة اكتست نوافذها بالغبار كأنما غطاها الصقيع. اندفع من الباب دائم الاهتزاز رجل حناه الكبر دون أن يفقد نشاطه. وكان ذا شارب أبيض أشعث مدبباً إلى الأمام كشارب برغوث البحر. عندما وقف ونستون يراقبه، خطر له أن ذلك الرجل الذي بلغ من العمر عتياً كان في أوسط عمره عندما اندلعت الثورة، كما كان وأمثاله من الرجال هم آخر الحلقات التي تربطنا بعالم الرأسمالية الذي تهاوى. وفي داخل الحزب نفسه لم يكن قد بقي على قيد الحياة الكثير من الذين كانت أفكارهم قد تشكلت قبل اندلاع الثورة، كما كان الجيل الأكبر من ذلك قد أبيد معظمه إبان موجات التطهير الكبرى التي جرت في الخمسينات والستينات، أما من نجا من هؤلاء فقد أدّى بهم ما لاقوه من إرهاب إلى حالة من الاستسلام الفكري الكامل. ولو كان هناك أحياء يمكنهم نقل

صورة صادقة عن الأوضاع في الربع الأول من هذا القرن فلا بد أن يكونوا من العامة. وعلى نحو مفاجئ عادت إلى ذهنه تلك القطعة التي نسخها في مذكراته من كتاب التاريخ وتملكته رغبه جنونية في أن يدلف إلى الحانة ويلقي إلى الشيخ بما يحيّره من تساؤلات: أخبرني عن حياتك عندما كنتَ صغيراً. ماذا كانت عليه الحال في تلك الأيام؟ هل كانت الأمور أحسن مما هي عليه الآن أم أسوأ؟».

هبط السلم على عجل خشية أن يتطرق الخوف إلى قلبه مع مرور الوقت فيقعده عن ذلك، واجتاز الشارع الضيق، كان ذلك ضرباً من الجنون ولا ريب. في العادة لا قوانين محددة تحظر الحديث مع العامة أو ارتياد حاناتهم، لكن ذلك أمر غير عادي على الإطلاق ولا يمكن بحال أن يمر دون أن يلحظه أحد، فخطر له أن يتظاهر بأن نوبة إغماء قد ألمت به إذا ما ظهرت له إحدى الدوريات وإن كان ذلك لن ينطلي عليها على الأرجح. دفع الباب أمامه حيث فاجأته رائحة الجعة الحامضة البشعة، وما إن دخل حتى خفتت حدة الضجيج بشكل ملحوظ وأحس بأن الجميع يرمقون لباسه الأزرق، كما توقفت مباراة رمي السهم التي كانت تدور في الطرف الآخر من الحجرة للحظات. كان العجوز الذي تعقبه يقف عند البار منهمكاً في جدال مع الساقي صاحب الأنف المعقوف، الذي كان ممتلئ الجسم طويل القامة ذا ساعدين قويين وفي سن الشباب، بينما تحلق حولهما فريق آخر يراقب المشهد وكؤوسهم بأيديهم.

قال الرجل العجوز وقد شد كتفيه كمن يتأهب للدخول في شجار: «ألا أبدو في نظرك مواطناً كاملاً؟ ألا يوجد كأس من سعة (الباينت) بين كؤوسك الحقيرة؟»

أجاب النادل وقد اتكأ بأطراف أصابعه على البار: «بحق الجحيم ما هو ذاك الباينت؟»

- تبا له! يدّعي أنه ساقٍ ولا يعرف ما هو الباينت؟ هو نصف

الربع، وهناك أربعة أرباع في الغالون، فهل عليّ أن أعلّمك الألف باء مرة ثانية؟

أجاب الساقي باختصار: «لم أسمع بذلك، لأننا لا نقدم إلا باللتر ونصف اللتر، وها هي الأكواب على الرف أمامك».

قال الرجل العجوز مصمماً: «ولكني أريد باينت، ألا يمكن أن تملأ لي باينت؟ لم تكن لدينا هذه الأكواب القذرة عندما كنت شاباً».

فأجابه الساقي وهو ينظر بطرفه إلى باقي الزبائن: «عندما كنت في شبابك كنا نحن نعيش فوق قمم الأشجار».

وانخرط الجميع في ضحك صاخب، في حين بدا أن القلق الذي تسبب به دخول ونستون إلى الحانة قد تلاشى. احمرّ خجلاً وجه العجوز الأبيض المليء بالبثور، واستدار مبتعداً وهو يتمتم. لكن ونستون أمسك ذراعه بلطف قائلا: «هل تسمح لي أن أقدم لك شرابا؟» فرد العجوز قائلاً وقد شد كتفيه ثانية: «إنك سيد مهذب» وبدا أنه لم يلحظ لباس ونستون الأزرق وأضاف بعدائية موجهة نحو الساقي: «باينت ... باينت من الجعة».

وصبّ لهما الساقي نصفي لتر من جعة داكنة اللون في كأسين كان قد غسلهما في دلو تحت البار. كانت الجعة هي الشراب الوحيد الذي يقدم في حانات العامة، إذ كان من المفروض ألا يشرب العامة الخمر، لكن الحصول عليه كان متيسراً بسهولة. وحمي وطيس لعبة رمي السهم مرة أخرى وبدأ مجموعة من الرجال يتحدثون عن أوراق اليانصيب ونسوا أمر ونستون إلى حين. كانت ثمة مائدة خشبية تحت النافذة حيث يمكن تبادل الحديث دون خوف أن يسترق السمع أحد، إذ كان ذلك فيما لو حصل من الأمور البالغة الخطورة، لكن على أية حال كان المكان خلواً من شاشات الرصد وهو ما حرص ونستون على التحقق منه فور دخوله المكان.

قال الرجل متذمراً بعد أن استقر جالساً وراء كأسه: «كان في

استطاعته أن يعطيني باينت، فنصف اللتر غير كاف وغير شاف، ولتر كامل كثير جدا ويضر بغدة المثانة، ناهيك عن السعر».

فقال ونستون متردداً: «لا بد أنك شهدت تغييرات كبيرة منذ كنت شاباً».

قلّب الرجل العجوز عينيه الضعيفتين في أرجاء القاعة من لوحة لعبة السهام إلى البار ومنه إلى باب مرحاض الرجال وكأنه يبحث عن تلك التغييرات داخل القاعة.

وأخيراً أجاب: «كانت الجعة أحسن وأرخص! فعندما كنت شابا كانت الجعة غير حادة وكنا لا نسميها جعة ويباع الباينت منها بأربعة بنسات. وبالطبع كان ذلك قبل الحرب.» فسأله ونستون: «أي حرب تقصد؟» فأجاب الرجل بغموض: «كلها» ورفع كأسه وقد شد كتفيه ثانية وقال: «نخبك، في صحتك».

وفي رقبته النحيلة ظلت تفاحة آدم تتحرك نزولاً وصعوداً في حركة سريعة حتى انتهى من شرب كامل الجعة. توجه ونستون إلى البار وأحضر كأسين آخرين من سعة نصف اللتر. وبدا أن الرجل العجوز قد تناسى استهجانه لشرب لتر كامل.

قال ونستون: «إنك تكبرني سناً بكثير ولا بد أنك كنت رجلاً ناضجاً قبل أن أولد أنا ويمكنك أن تتذكر كيف كانت الحياة قبل الثورة. فالذين هم في مثل سنّي لا يعلمون شيئاً عن تلك الأيام وليس أمامنا من سبيل لذلك سوى الكتب، ومن يدري ربما يكون ما سُجل في الكتب غير صحيح ولذا أودّ معرفة رأيك في ذلك. إن كتب التاريخ تقول إن الحياة قبل الثورة كانت تختلف اختلافاً جذرياً عما هي عليه الآن، فقد كان وصل العسف والجور والفقر إلى حد من السوء لا يمكن تخيله، وكان غالبية العمال في لندن لا يجدون ما يسد رمقهم منذ مولدهم وحتى مماتهم بينما نصفهم الآخر لا يملك حتى حذاء ينتعله. كما كانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم ويتركون المدارس في سن التاسعة وينام

العشرة منهم في غرفة. وفي الوقت نفسه كانت توجد فئة قليلة من الناس، لا يتجاوز عددها بضعة آلاف، تتمتع بالثراء والسلطة ويسمون بالرأسماليين. كانوا يمتلكون كل شيء ويسكنون قصوراً ذات أبهة يقوم على كل منها ثلاثون خادماً ويستقلون سيارات أو عربات تجرّها الخيول ويشربون الشمبانيا ويرتدون القبعات العالية . . .»

تهلّل وجه الرجل العجوز فجأة وقال: «قبعات عالية! جميل منك أن ذكرتني بذلك، لقد خطرت تلك القبعات ببالي بالأمس فقط ولست أدري لماذا. لم أر أية قبعة منذ سنين، فآخر مرة ارتديت واحدة كان في جنازة زوجة أخي وكان ذلك في . . . لا يمكنني أن أتذكر التاريخ لكن لا بد أن ذلك كان منذ خمسين عاماً، وبالطبع كانت القبعة مستأجرة لتلك المناسبة، لعلك تفهم ما أقصد.»

قال ونستون مخفياً امتعاضه: «إنني لا أهتم كثيراً بموضوع القبعات العالية، فما يهمني هو أن هؤلاء الرأسماليين وقلة من المحامين ورجال الدين ومن اعتاشوا عليهم كانوا سادة الأرض، وأن كل ما عليها وجد لأجلهم، وكنتم أيها العمال عبيداً لهم ومن حقهم أن يفعلوا بكم ما يشاؤون، فباستطاعتهم أن يشحنوكم على السفن إلى كندا كما تشحن المواشي، وأن يناموا مع بناتكم إذا عنّ لهم ذلك، وأن يأمروا بجلدكم بما كانوا يطلقون عليه «القطة ذات التسعة أذيال». وكان عليكم أن ترفعوا لهم القبعات إذا ما مررتم بهم كما كان كل رأسمالي يجول محاطاً بعصابة من الأذناب الذين . . .»

وتهلّل وجه العجوز مرة أخرى وقال: «الأذناب! لم أسمع بهذه الكلمة منذ زمن طويل. الأذناب! إنك تعيدني إلى الوراء سنين طويلة. إنني أتذكر – أيام الحمير – عندما كان من عادتي أن أذهب إلى «حدائق هايد بارك» عصر أيام الآحاد لأستمع للخطباء، فإلى هناك كان الناس على اختلاف مشاربهم يفدون من جيش الخلاص والروم الكاثوليك إلى اليهود والهنود، وكان ثمة خطيب لا تسعفني الذاكرة باسمه الآن، ولكنه

كان خطيباً مفوهاً حقاً، يتحدث عن أذناب البرجوازيين وخدم الطبقة الحاكمة وتحدث عن الطفيليين، الطفيليين ذاك مسمى آخر لهم. وكان يسميهم أيضاً الفعلة مشيراً إلى حزب العمال، لعلك تفهم ما أقول.

وشعر ونستون أن العجوز كان يغني على ليلاه. فقال: «ما أريد معرفته منك هو: هل تشعر أنك تتمتع الآن بحرية أوسع مما كنت تتمتع بها في تلك الأيام؟ هل تُعامل الآن كإنسان؟ في الأيام الخوالي هل كان الأغنياء . . .»

أضاف الرجل العجوز متذكراً: «مجلس اللوردات»، فقال ونستون: «مجلس اللوردات إن شئت ذلك، ولكن ما أسألك عنه هو هل كان هؤلاء الناس يعاملونك بازدراء لمجرد أنهم أغنياء وأنك فقير؟ وهل صحيح أنه كان يتعين عليك مخاطبتهم بلفظة «سيدي» وخلع قبعتك كلما مررت بهم؟»

وبدا على الرجل العجوز أنه قد راح في تفكير عميق، وبعدما شرب ما يقرب من ربع جعته أجاب قائلاً: «أجل، لقد كانوا يحبون منك أن تلمس قبعتك لهم ففي ذلك إبداء للاحترام، ولم أكن شخصياً أوافق على شيء من ذلك، ولكني كنت أفعله في كثير من الأحيان مضطراً».

وردّ ونستون قائلاً «وهل كان أمراً معتاداً - إنني أنقل لك ما ورد في كتب التاريخ فحسب - هل كان أمراً معتاداً لدى هؤلاء الناس وخدمهم أن يرموا بك من الرصيف إلى البالوعات؟»

قال الرجل العجوز: «حدث ذات مرة أن رمى بي أحدهم، إنني أذكر ذلك وكأنه بالأمس. لقد كان هناك سباق ليلي للقوارب، وقد اعتادوا أن يكون سباقهم فظيعاً وأشبه بالشجار، واصطدمت مصادفة بشاب في شارع شفتسبري - لقد كان سيداً ويرتدي قميصاً ومعطفاً أسود ويعتمر قبعة عالية. كان يسير على الرصيف في خط متعرج فاصطدمت به دون تعمد. فقال: ألا تنظر أمامك؟ فأجبت: أتظن أن هذا الرصيف الملعون ملكك وحدك. فقال: سأفصل رأسك الأحمق عن جسدك إذا

تماديت في وقاحتك. فقلت وقد أمسك بتلابيبي ودفعني دفعة قوية كادت ترميني أمام حافلة: لقد كنت شاباً في ذلك الوقت وكنت سأسدد له ضربة مماثلة، ولكن...»

واستولى على ونستون شعور باليأس، لقد كانت ذاكرة الرجل العجوز خالية إلا من توافه التفاصيل، ولن يحصل منه على معلومات ذات قيمة. إذن فتاريخ الحزب قد يكون صحيحاً، ومع قليل من التعديل، قد يكون كل ما فيه صحيح. وأخيراً قرر القيام بمحاولة أخيرة.

فقال للشيخ: «ربما لم أوضح لك قصدي تماماً. ما أود قوله هو الآتي: إنك تعيش على هذه الأرض منذ زمن طويل، وقد عشت شطراً من حياتك قبل الثورة: ففي عام 1925 مثلاً كنت قد بلغت رشدك، فهل برأيك، من خلال ما تتذكره، كانت الحياة سنة 1925 أحسن مما هي عليه الآن أم أسوأ؟ وإذا كان لك أن تختار فهل تفضل العيش في هذه الحياة أم في تلك؟

نظر الرجل العجوز إلى لوحة لعبة السهام نظرة تأمل، وأكمل متكلماً بهيئة فيلسوف ونبرة تسامح كما لو أن الجعة قد لينت عريكته. فقال: «إنني أعلم ما تأمل مني أن أقوله، إنك تأمل أن أقول أنني أتمنى العودة إلى سن الشباب. كل الناس يتمنون أن يعودوا إلى ريعان الشباب حيث يتمتعون بالصحة والعافية. وعندما تبلغ ما بلغت من سني فلن تكون على مايرام، فأنا الآن أعاني من ألم خبيث في قدمي، ومثانتي في اضطراب شديد حتى أنها تضطرني إلى ترك الفراش ست أو سبع مرات في الليلة الواحدة. لكن من ناحية أخرى فإن للتقدم في السن ميزات عظيمة، منها مثلاً أنه لا يكون لديك هموم تنغص عليك، كما لن تشغل النساء بالك، وفي هذا فائدة جمة، فأنا لم أعرف امرأة منذ ثلاثين سنة، إذا كنت تعتبر هذا ميزة حسنة، بل وأكثر من هذا لم أرغب في ذلك».

اتكأ ونستون على النافذة، إذ لم تكن هنالك جدوى من متابعة ذلك الحديث. وكان على وشك شراء المزيد من الجعة عندما نهض الرجل

العجوز فجأة متجهاً صوب المرحاض كريه الرائحة حيث كان نصف لتر الجعة الإضافي قد فعل فعله فيه. أما ونستون فقد ظل جالساً في مكانه يحملق في كأسه الفارغة لدقيقة أو دقيقتين، ولم يشعر إلا وقدماه تحملانه خارج الحانة مرة ثانية. كان ونستون على امتداد ما يقارب من عشرين سنة يفكر في هذا السؤال السهل الممتنع محاولاً الإجابة عنه: «هل كانت الحياة قبل الثورة أفضل مما هي عليه الآن؟» لكن سؤاله ظل بلا جواب حتى الآن، طالما أن قلة من الناس الباقين على قيد الحياة من العالم القديم لم يكونوا قادرين على مقارنة عقد بآخر. كانوا يتذكرون آلاف التفاهات، كمشاجرة مع زميل عمل أو البحث عن منفاخ دراجة مفقود أو تعبير اعترى وجه شقيقة قضت منذ زمن بعيد أو دوامات الغبار في صباح يوم عاصف منذ سبعين عاماً، كل هذا بينما كانت الحقائق الرئيسية واقعة خارج مدى رؤيتهم، إذ كانوا كالنملة التي يمكنها رؤية الأشياء الصغيرة بينما تتعامى عن الكبيرة. وحينما يعتري العجز الذاكرة وتكون السجلات المكتوبة زائفة، يصبح ادّعاء الحزب بأنه قام بتحسين أوضاع الحياة الإنسانية واجب القبول لأنه لم توجد، ولا يمكن أن توجد، أي معايير لقياس صحة ذلك من خطئه.

وفي هذه اللحظة انقطع حبل تفكيره فجأة وتوقف عن السير ونظر حوله، فإذا هو في شارع ضيق فيه عدد قليل من الحوانيت الصغيرة المعتمة المنتشرة بين المنازل، وفوق رأسه مباشرة كانت تتدلى ثلاث كرات معدنية بلا لون بدت كما لو كانت مذهبة فيما مضى. وأحس أنه يعرف المكان. فقد كان يقف خارج حانوت الخردوات الذي اشترى منه دفتر مذكراته.

وسرت في أوصاله ارتعاشة خوف، ففي الأصل كان شراؤه ذلك الدفتر عملاً طائشاً، وكان قد أقسم آنذاك ألا يقرب ذلك المكان مرة أخرى. ومع ذلك ففي اللحظة التي أطلق لأفكاره العنان قادته قدماه مرة أخرى إلى ذلك المكان من تلقاء نفسها، وكان ما يرجوه من شراء

المفكرة، وهو أن تكون له ردءا من تلك النوازع الانتحارية. وقد استرعى انتباهه في الوقت نفسه أن الحانوت لا يزال مفتوحاً بالرغم من أن الساعة بلغت التاسعة. دلف إلى الحانوت وهو يشعر بأنه سيكون أقل مدعاة للريبة داخل الحانوت من التسكع على الرصيف، وإذا ما سئل عن ذلك، فيمكنه أن يقول بكل وضوح إنه كان يحاول شراء شفرة حلاقة!

كان صاحب الحانوت قد قام لتوه بإشعال قنديل كانت تنبعث منه رائحة قذرة لكنها محتملة. وكان رجلاً في حوالي الستين من عمره يبدو عليه الضعف ومحدودب الظهر وذا أنف طويل جميل وعينين هادئتين شوهتهما نظارة غليظة. كان يغلب على شعره الشيب لكن حاجبيه كانا كثيفين وما يزالان أسودين. وكانت النظارة وحركاته المهذبة النشطة، فضلاً عن السترة المخملية السوداء التي يرتديها، تضفي عليه هيئة رجل فكر، كما لو كان أديباً أو موسيقياً. وكان صوته ناعماً ولهجته أقل خشونة من لهجة غالبية العامة.

ابتدره الرجل فوراً: «لقد عرفتك وأنت تقف على الرصيف. ألست السيد الذي اشترى دفتر السيدة الحسناء ذي الورق الجميل؟ أعتقد أنه لم يعد يُصنع مثله منذ خمسين عاماً». ثم حدج ونستون من فوق نظارته وقال له: «هل من خدمة خاصة أسديها لك؟ أم تراك تريد فقط أن تلقي نظرة؟»

أجاب ونستون بغموض: «كنت ماراً وأردت أن ألقي نظرة وليس في ذهني شيء معيّن أطلبه.»

قال الرجل: «لا بأس. على كل حال لا أعتقد أن عندي ما يرضيك.» قالها وهو يشير بيده الناعمة معتذراً: «لعلك ترى أن الحانوت يكاد يخلو من البضائع ولا أخفيك سراً إن قلت إن تجارة القطع الأثرية القديمة على وشك الانقراض فلم يعد هناك طلب، كما أن المخزون نفد. والاثاث والأواني الخزفية والزجاجية تتكسر تدريجياً، كما أن الأدوات المعدنية قد فقدت إذ لم تقع عيني منذ سنوات على شمعدان نحاسي»

في حقيقة الأمر كان الحانوت غاصاً بالبضائع ولكن لم يكن بينها شيء ذا قيمة تذكر، ومساحة المحل محدودة إذ عُلّقَ على الجدران عدد لا يحصى من إطارات الصور المغبرة، كما كانت واجهة العرض تحتوي على أطباق مملوءة بالجوز والمزاليج والأزاميل البالية والسكاكين مهترئة النصول والساعات الكالحة التي لا يبدو عليها حتى أنها تعمل، ناهيك عن أشياء أخرى متنوعة مما لا قيمة له. إلا أنه على طاولة صغيرة في إحدى الزوايا وضعت أشياء من العتائق والغرائب مثل علب سعوط ومشابك من العقيق وما شابه ذلك، وهي توحي بأنه قد يكون بينها ما هو مفيد. وبينما كان ونستون يتّجه نحو هذه الطاولة لاح أمام عينيه شيء أملس مستدير يلمع لمعاناً هادئاً تحت ضوء القنديل، فالتقطه.

كان قطعة ثقيلة من الزجاج محدبة من جانب ومسطحة من الجانب الآخر تكاد تشكل نصف كرة، وكان لون الزجاج ومادته نقيا نقاء ماء المطر . وفي جوفه كان ثمة جسم غريب ذو لون أحمر قاني يشبه وردة أو عشبة بحر وقد بدا أكبر من حجمه الحقيقي بسبب السطح الزجاجي المحدب.

سأل ونستون بافتتان: «ما هذا؟»

وأجاب الرجل: «إنها مرجان من المحيط الهندي، كانت العادة أن يحفظوها في زجاج. لعلها صنعت قبل مئة عام وربما أكثر.»

وأجاب ونستون: «يا لها من شيء بديع»

قال الرجل مباهياً: «إنها بديعة الجمال لكن في هذه الأيام» ثم سعل وأضاف: «إذا فكرت في شرائها الآن فستكلفك أربعة دولارات وأستطيع أن أتذكر عندما كان شيء كهذا يساوي ثمانية دولارات بل ربما أكثر، فهذا أمر لا يمكن حسابه ولكنه على أية حال كان مبلغاً كبيراً من المال.»

ودفع ونستون الدولارات الأربعة في الحال ودسّ هذه التحفة في جيبه. ولم يكن جمالها هو مدعاة انجذابه إليها بقدر ما كان ذلك العبق الذي أحاط بها كونها تنتمي لعصر غير هذا العصر، وإلى ذلك لم يكن

زجاجها ذو الملمس الناعم واللون الصافي كماء المطر كأي زجاج آخر رآه، وكانت ذات جاذبية مضاعفة بسبب عدم فائدتها الواضحة وإن كان بوسع المرء أن يعتقد أنها قد استعملت في يوم من الأيام كثقل يوضع على الورق. رغم ثقلها الشديد في جيبه فإنها ولحسن حظه لم تسبب بروزاً واضحاً. فقد كان أمراً غريباً بل مدعاة للريبة أن يحوز عضو الحزب أي شيء عتيق أو جميل، فهذا يجعله دائماً موضع شكوك. وتهللت أسارير الرجل العجوز بعدما تسلم الدولارات الأربعة، وهنا أدرك ونستون أنه كان سيقبل بثلاثة أو حتى بدولارين.

وقال: «توجد غرفة أخرى في الطابق العلوي ربما يهمك إلقاء نظرة عليها. ليس فيها الكثير من الأشياء، بل القليل من القطع الصغيرة فقط. وسنكون بحاجة إلى قنديل إذا صعدنا لأعلى.»

وهنا أوقد قنديلاً آخر، وبظهر منحنٍ وببطء أخذ يصعد السلم المائل البالي عبر ممر ضيق يؤدي إلى غرفة لا تطل على الشارع بل على فناء مرصوف بالأحجار وغابة من المداخن. ولاحظ ونستون أن أثاث الغرفة كان ما يزال مرتباً كما لو كانت مهيأة للسكن وعلى الأرض قطعة من سجادة فيما عُلّق على الجدران صورة أو صورتان. وبالقرب من المدفأة كان ثمة مقعد ذو ذراعين، ومن فوق رف المكتبة انبعث صوت ساعة زجاجية عتيقة الطراز مرقّمة باثني عشر رقما. وتحت النافذة كان ثمة سرير كبير يشغل ربع مساحة الغرفة تقريبا بينما الحاشية ما زالت موضوعة فوقه.

قال الرجل العجوز بما يشبه الاعتذار: «كنا نعيش هنا حتى ماتت زوجتي. إني أبيع الأثاث قطعة بعد قطعة، والآن انظر، هذا سرير جميل من خشب الزان أو على الأقل سيكون كذلك إذا استطعت أن تتخلص مما يعيث فيه من حشرات البق، وإن كنت أستطيع القول إنك ستجد في ذلك شيئاً من المشقة».

كان يمسك بالقنديل عالياً لكي يضيء الغرفة كلها. وفي مثل هذا

الضوء الضعيف بدت الغرفة مغرية على نحو غريب، ولمعت في ذهن ونستون فكرة استئجار الغرفة نظير بضعة دولارات أسبوعياً، لكن مَن سيتجرّأ على مثل هذه المخاطرة. كانت فكرة طائشة ومستحيلة ويجب التخلي عنها بمجرد التفكير فيها، إلا أن الغرفة أيقظت فيه نوعاً من الحنين إلى الماضي ، وفكّر في روعة الجلوس في غرفة كهذه، على كرسي ذي ذراعين وإلى جوار مدفأة يمدّ قدميه على حاجزها والقهوة على الموقد، شاعراً بعزلة تامة وأمان تام، دون أن تراقبه عين أو يطارده صوت، ولا يشق حجاب هذا السكون إلا صوت غليان الماء ودقات الساعة الشجية.

لم يستطع ونستون منع نفسه من أن يتمتم قائلاً: «لا يوجد هنا شاشة رصد!»

قال الرجل العجوز: «آه . . . لم يسبق أن كان لدي واحدة إنها غالية جداً ولم أشعر أبداً أنني بحاجة إلى واحدة. وهناك طاولة جميلة ذات جوانح في تلك الزاوية لكنك ستحتاج إلى تركيب مفصلات جديدة لها إذا أردت استخدامها.»

وفي الزاوية الأخرى من الحجرة خزانة كتب وجد ونستون نفسه منجذباً نحوها، ولكن لم يكن فيها سوى مهملات إذ كانت عملية ملاحقة الكتب وإتلافها قد طالت، وبنفس الشدة، الأحياء الشعبية مثلما طالت غيرها من أماكن. كان من المستبعد تماماً أن يعثر في كل أرجاء أوقيانيا على نسخة من كتاب طبع قبل سنة 1960.

وكان الرجل العجوز لا يزال ممسكاً بالقنديل ويقف أمام صورة موضوعة في إطار من خشب الورد ومعلقة على الجانب الآخر من المدفأة مقابل السرير.

وقال العجوز برقّة: «والآن، إذا كنت من محبي اللوحات القديمة. . .»

مشى ونستون عبر الغرفة ليتفحص الصورة التي كانت عبارة عن

رسم محفور في الفولاذ لبناء بيضاوي ذي نوافذ مستطيلة وبرج صغير في المقدمة، وحول البناء سياج من القضبان الحديدية وفي الطرف شيء كالتمثال، حدق ونستون فيه بضع لحظات فبدا وكأنه يعرفه على الرغم من أنه لم يستطع تذكره.

قال الرجل العجوز: «إن الإطار مثبت في الحائط ولكن يمكنني نزع المسامير من الحائط إذا كنت تريده.»

بعد صمت، قال ونستون: «إنني أعرف ذلك البناء، إنه الآن عبارة عن أنقاض وسط شارع بالقرب من قصر العدل.»

أضاف الرجل: «هذا صحيح، إنه بالقرب من دار القضاء. وقد تعرض للقصف منذ سنوات كثيرة، لقد كان عبارة عن كنيسة في يوم من الأيام وكانت تسمى كنيسة القديس كليمنت دان.» ثم ابتسم ابتسامة اعتذار وكأنه أدرك أنه قال شيئاً سخيفاً وأضاف: «برتقال وليمون، تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت!»

فقال ونستون: «ماذا؟»

«أوه ... «برتقال وليمون تقول كنيسة القديس كليمنت» إنها أغنية كنا نرددها ونحن صغار ولا أتذكر بقيتها، ولكني أعرف أنها كانت تنتهي بمقطع (ها هنا تجد شمعة تستنير بها حتى الفراش، وها هنا منجل لحز رقبتك.) لقد كان ذلك نوعاً من الرقص، يرفعون أذرعهم لتمر من تحتها وعندما يصلون إلى مقطع (وهنا منجل لحز رقبتك) يخفضون أذرعهم ليمسكوا بك. لقد كانت مجرد أسماء للكنائس وتتضمن أسماء كنائس لندن الرئيسية».

تساءل ونستون إلى أي قرن يعود بناء الكنائس يا ترى؟ إذ كان يصعب أن تقدر عمر أي بناية في لندن، فكل بناية كبيرة ولافتة للنظر كانوا يدّعون تلقائياً أنها شيدت في عهد الثورة، وأي بناية أخرى يبدو بوضوح انتماؤها إلى عهد قبل ذلك كانت تُنسب إلى فترة غامضة تسمى القرون الوسطى، وأما قرون الرأسمالية فكان ينظر إليها على أنها لم تنتج

شيئاً ذا قيمة، لذلك ما كان باستطاعة المرء أن يعرف شيئاً عن تاريخ من الطرز المعمارية أكثر مما يعرفه من خلال الكتب. فكل ما يلقي ضوءاً على الماضي مثل التماثيل والنقوش والنصب التذكارية وأسماء الشوارع كان يتم تغييره وتحويره بصورة منهجية.

قال ونستون: «لم أكن أعرف أبداً أنها كانت كنيسة».

ورد الرجل العجوز قائلاً: «في الواقع لا يزال يوجد الكثير منها ولكنها تستعمل لأغراض أخرى...» ثم استدرك: «ها لقد تذكرت بقية الأغنية:

(برتقال وليمون تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت، وتقول أجراس كنيسة القديس مارتن أنت مدين لي بثلاثة فارذن)

هذا هو كل ما يمكنني تذكره الآن. والفارذن كان عملة نحاسية صغيرة تشبه السنت.»

وسأل ونستون: «لكن أين كانت كنيسة القديس مارتن؟»

«كنيسة القديس مارتن؟ إنها لا تزال قائمة وتقع في ساحة النصر أمام معرض الصور. إنها عبارة عن بناء بواجهته قبة مثلثة وأعمدة وسلّم.»

كان ونستون يعرف ذلك المكان جيداً. فقد كان متحفاً لعرض معروضات دعائية من كل الأنواع كنماذج للقذائف الصاروخية والقلاع العائمة واللوحات الشمعية، تُصوِّر الفظائع التي ارتكبها الأعداء وما شابه ذلك.»

وأضاف الرجل العجوز: «كانوا يسمونها القديس مارتن في قلب الحقول ولو أني لا أرى أية حقول في هذه الأنحاء».

لم يشتر ونستون الصورة، فقد كانت حيازتها أكثر مدعاة للشبهة من حيازة قطعة الزجاج كما أنه يستحيل حملها إلى المنزل إلا إذا انتزعت من إطارها. لكنه تلكأ بضع دقائق أخرى متحدثاً إلى الرجل العجوز الذي

تبين له أن اسمه ليس «ويكس»، كما قد يتبادر إلى الذهن من الكتابة التي على واجهة الحانوت، وإنما شارنتون، وكان أرمل، يبلغ من العمر 63 سنة ويسكن هذا الحانوت منذ ثلاثين عاماً، وطوال هذه المدة كان يعتزم تغيير الاسم الموجود على الواجهة لكنه لم يفعل. وقد ظل صدى ذلك المقطع من الأغنية يتردد في رأسه طوال حديثهما معاً. (برتقال وليمون تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت، وتقول أجراس كنيسة القديس مارتن أنك مدين لي بثلاثة فارذن) لقد كان مقطعا غريباً لكن ما إن تردده في نفسك حتى يخيل إليك أنك تسمع دقات أجراس حقيقية، أجراس لندن المفقودة والتي ما زالت موجودة في مكان ما أو اتخذت شكلاً آخر ثم أصبحت في طي النسيان. وبدا له أن أصواتها المنبعثة من برج تلو آخر تجلجل في أذنيه. وبقدر ما يستطيع العودة بذاكرته للوراء فإنه لا يذكر أنه سمع دقات أجراس كنيسة حقيقية.

ترك ونستون السيد شارنتون وهبط الدرج بمفرده لئلا يراه العجوز وهو يستطلع الشارع قبل أن يخرج من الباب. وكان قد عقد العزم على القيام بزيارة أخرى للحانوت بعد فترة مناسبة، شهر مثلاً، فربما كان ذلك أقل خطراً من تهرّبه من إحدى أمسيات المركز الاجتماعي. ولكن الحماقة الحقيقية التي ارتكبها كانت عودته مرة أخرى إلى مكان اشترى منه دفتر مذكراته دون أن يتحقق مما إذا كان صاحب الحانوت جديراً بالثقة أم لا ومع ذلك . . . !

أجل رغم ذلك، فكّر ثانية أنه سيعود لشراء قطع أخرى جميلة من هذه المهملات، وليشتري لوحة كنيسة القديس كليمنت المحفورة، بعد أن ينتزعها من إطارها، ويحملها إلى المنزل تحت سترة معطفه الأزرق وليستخلص بقية القصيدة من تلافيف ذاكرة الرجل العجوز. ولمع في ذهنه للحظات مرة ثانية ذلك المشروع الطائش، مشروع استئجار الغرفة الكائنة بالطابق العلوي. وتحت تأثير غمرة الفرح التي اعترته لمدة خمس ثوان نسي حذره وخرج إلى الشارع دون أن يلقي ولو بنظرة عبر النافذة.

وكان قد بدأ يتمتم بنغمة مرتجلة: تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت برتقال وليمون، وأنت مدين لي بثلاثة فارذن.

فجأة شعر أن دمه تجمّد في عروقه واضطربت أمعاؤه عندما رأى القادم نحوه وما عاد يفصله عنه سوى عشرة أمتار. لقد كانت الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة. لم يكن من الصعب عليه أن يتعرف عليها رغم ضعف الإضاءة في الشارع. نظرت إلى وجهه محدقة به ثم أكملت مسرعة كأنها لم تره.

لبضع ثوان شعر ونستون أنه قد فقد القدرة على الحركة، فاستدار يميناً وابتعد متثاقلاً دون أن ينتبه إلى أنه يسير في الاتجاه الخطأ. على أي حال فقد اهتدى إلى حقيقة أمرها، فقد تبدد كل شك لديه في أنها كانت تتجسس عليه، إذ ليس من المعقول أن يكون تجوالها في المساء ذاته وفي الشارع الخلفي المعتم ذاته الذي يبعد كيلومترات عن أي حي يقطن فيه أعضاء الحزب، محض مصادفة، لقد كان ذلك أكثر من مجرّد مصادفة. ولم يعد يهم إذا كانت جاسوسة لشرطة الرصد أو مجرد جاسوسة هاوية مدفوعة بفضولها الخاص. المهّم أنها كانت تراقبه وربما رأته وهو يدلف إلى الحانة أيضاً.

كان يسير مجهداً، ومع كل خطوة يخطوها كانت قطعة الزجاج في جيبه ترتطم بشدة في فخذه حتى أنه كاد يخرجها ويطوّح بها بعيداً. وكان الأسوأ هو الألم الذي أصاب معدته ولدقيقتين تمثل الموت أمام عينيه إن لم يصل إلى مرحاض في الحال، كيف سيجده في مثل هذا الحي؟ غير أن الأزمة مرّت مخلفة ألماً شديداً وراءها.

توقف ونستون عن السير، فقد كان الشارع عبارة عن زقاق مسدود. تساءل لبضع ثوان عما يجب عليه أن يفعل، فاستدار إلى الخلف وهمّ بالعودة وقد خطر بباله أن الفتاة اجتازته منذ ثلاث دقائق فقط وأنه ربما يمكنه، إذا ما أسرع الخطى، اللحاق بها ثم اقتفاء أثرها حتى يصلا إلى مكان منعزل هادئ فيحطم رأسها بحجر أو ربما تفي قطعة الزجاج التي

في جيبه بهذا الغرض. لكنه تخلى عن الفكرة بعيد لحظات، فقد كان خائر القوى وليس بمقدوره أن يوجه ضربة لأحد، وفوق ذلك كانت الفتاة قوية وفي سن الشباب، وقد تدافع عن نفسها. ثم خطر له أيضا أن يهرع إلى المركز الاجتماعي ويبقى فيه حتى يغلق أبوابه كدليل يثبت مكان تواجده في هذا المساء. لكن ذلك كان أيضاً مستحيلاً. لقد انتابته حالة من الإعياء الشديد وكان كل ما يريده هو أن يعود إلى المنزل بسرعة ويستلقي بهدوء.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء حينما عاد إلى شقته وكانت الأنوار تطفأ في الحادية عشرة والنصف في المدخل الرئيسي. دلف إلى المطبخ حيث ازدرد ملء فنجان شاي من خمرة النصر ثم توجه إلى الطاولة في الزاوية وأخرج دفتر مذكراته من الدرج، لكنه لم يفتحه في الحال إذ كان ينبعث من شاشة الرصد صوت أنثوي نحاسي يزعق بأغنية وطنية، فراح يحدق في غلاف الدفتر ذي اللون المرمري محاولاً دون جدوى أن يخرج ذلك الصوت من رأسه.

«لقد كانوا دائماً يأتونك ليلاً، والأفضل لك أن تقتل نفسك قبل أن يقبضوا عليك ومن المؤكد أن كثيراً سبقوك لذلك، فأكثر حالات الاختفاء كانت عمليات انتحار حقيقية. لكن الأمر يستلزم شجاعة اليأس حتى تقتل نفسك في عالم يتعذر فيه الحصول على سلاح ناري أو على سم سريع المفعول وأكيد الأثر.»

وفكّر بشيء من الدهشة في عدم جدوى الألم والخوف وفي ما يلاقيه الإنسان من خذلان من جسمه الذي تخور قواه في اللحظات الحاسمة، فقد كان بإمكانه أن يُخرس الفتاة ذات الشعر الأسود لو أنه قد تصرف بالسرعة الكافية، ولكن الخطر الداهم الذي كان محدقاً به سلبه القدرة على التصرف. وأدرك أن مواجهة الإنسان ضد جسده أصعب من مواجهة العدو الخارجي. وحتى في هذه اللحظات ورغم ما شربه من خمر، فإن الألم الذي في جوفه أفقده القدرة على التفكير المنطقي.

وأدرك أيضاً أن هذا هو ما يعتري الإنسان في كل المواقف البطولية والمأساوية. ففي ميدان القتال أو في غرفة التعذيب أو على متن سفينة تغرق، تغدو القضايا التي تحارب من أجلها طي النسيان دائماً، ذلك لأن جسدك يظل يتضخم حتى يملأ عليك العالم فلا ترى سواه. وحتى إذا لم يشل الرعب حركتك أو لم يجعلك الألم تصرخ، فإن الحياة تظل صراعاً موصولاً ضد الجوع والبرد والقلق أو ضد حموضة وحرقة المعدة أو ألم الأسنان.

شعر ونستون بضرورة أن يكتب شيئاً ففتح المفكرة، لكن ذاك الصوت الأنثوي كان قد بدأ أغنية جديدة وكان كأنه يرتطم بمخه كشظايا من الزجاج. ثم حاول أن يفكّر في أوبراين الذي من أجله، أو إليه، كانت المذكرات ، لكنه وبدلاً من التفكير في أوبراين راح يفكر في ما سيحدث له بعدما تقبض عليه شرطة الفكر. لن يهم إذا ما قتلوك في الحال فذلك ما كنت تنتظره. ولكن المهم هو ما يسبق الموت (لا أحد يتحدث في مثل هذه الأمور رغم أن الجميع يعرفها)، هناك خطوات الاعتراف التي عليك أن تمر بها، من الزحف على الأرض والصراخ طلباً للرحمة وطقطقة العظام المتكسرة والأسنان المهشمة وخصلات الشعر التي تُنتزع من رأسك حتى تدميه. لماذا يتعين عليك أن تتجشم كل هذا ما دامت النهاية واحدة؟ ولماذا ليس بالإمكان أن تقتطع من حياتك بضعة أيام أو أسابيع؟ فلم يحدث أن أفلت أحد من الملاحقة أو صَمَدَ على الاعتراف. وحالما تقر بجريمة فكر فإنه من المؤكد أن موتك يصبح مسألة وقت معلوم. لماذا إذن ذلك الرعب من المستقبل الذي لم يكن ليغير شيئاً؟

ونجح قليلاً في استحضار صورة أوبراين. فقد قال له أوبراين في الحلم «سنلتقي في مكان لا ظلمة فيه». كان يعرف ما عناه أوبراين أو خيل إليه ذلك. فالمكان الذي لا ظلمة فيه هو المستقبل المتخيَل الذي لن يراه وإن كان يمكن استشرافه والمشاركة فيه. إلا أنه لم يستطع متابعة

تسلسل أفكاره أبعد من ذلك بسبب الصوت الصادر عن شاشة الرصد والذي كان يصفر في أذنيه. وما إن وضع ونستون سيجارة بين شفتيه حتى تناثر نصف ما فيها من تبغ كالغبار اللاذع على لسانه، وكان من الصعب أن يخرجه من فمه مرة أخرى. وسرعان ما غمر مخيلته وجه الأخ الكبير طارداً صورة أوبراين. وكما فعل منذ أيام خلت، أخرج قطعة عملة معدنية من جيبه ونظر إليها فحدجه الوجه بنظرة فيها هدوء ورزانة من يذود عن الحمى: ولكن أي ابتسامة تلك التي كان يخفيها تحت شاربه الأسود؟ وكدقات أجراس نعي الموتى ترددت أصداء الكلمات في ذهنه:

الحرب هي السلام
الحرية هي العبودية
الجهل هو القوة

الجزء الثاني

الفصل الأول

كان الوقت ضحى عندما غادر ونستون مكتبه ومضى إلى المرحاض. وإذا بشخص مقبل نحوه من الطرف الآخر للممر الطويل ذي الضوء الساطع. كانت الفتاة ذات الشعر الأسود. وكانت قد انقضت أربعة أيام مذ صادفها خارج حانوت الخردوات. عندما اقتربت منه لفت انتباهه أن ذراعها اليمنى معلّقة في رقبتها إلى رباط لم يستطع أن يميزه عن بعد لأن لونه شبيه بلون لباسها الرسمي الذي كانت ترتديه. ربما كانت قد سحقت يدها وهي تدور حول آلات (كاليدوسكوب) الكبيرة التي تتم فيها الحبكة القصصية. وكان مثل هذا الحادث أمراً شائعاً في دائرة الإثارة.

كانت تفصل بينهما مسافة أربعة أمتار تقريبا عندما تعثرت الفتاة وسقطت على وجهها فصرخت صرخة ألم مدوية، لابد أنها سقطت على ذراعها المصابة. توقف ونستون عن سيره في حين كانت الفتاة قد نهضت على ركبتيها وقد شحب وجهها وبدت شفتاها أكثر احمراراً، وكانت عيناها تحدقان بوجهه وقد ارتسمت فيهما نظرة تطلب منه أن يساعدها، نظرة هي أقرب إلى الخوف منها إلى الألم.

خفق قلب ونستون بعاطفة غريبة، فالتي أمامه هي عدو كان يسعى للفتك به، لكنها أيضاً مخلوقة بشرية تتألم، ولربما يكون ساعِدُها قد كسر مرة أخرى. وبغريزته الإنسانية تقدم نحوها ليأخذ بيدها. فحينما

رآها تسقط فوق ذراعها المضمدة شعر كما لو أن الألم قد سرى إلى جسده هو. وسألها: هل أصابك أذى؟

- لا، لا شيء.. إنها ذراعي ... سوف تصبح على ما يرام في الحال.

كانت تتكلم وقلبها يخفق بشدة، أما وجهها فقد شحب شحوباً شديدا. ومدت له يدها الثانية، فأعانها على النهوض، وإذ ذاك بدا أنها استعادت بعض لونها وبدت في حال أفضل.

وعادت تكرر بعد قليل: «لم يحدث شيء يستحق الذكر، فكل ما في الأمر أن معصمي ارتطم بالأرض. شكراً لك أيها الرفيق».

وعاودت السير في الاتجاه نفسه الذي كانت تسير فيه من قبل، سارت بخطى نشطة ورشيقة وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

لم تستغرق هذه الحادثة سوى نصف دقيقة فقط. لقد كان الحرص على ألا تطفو مشاعر المرء على وجهه بمثابة عادة باتت أشبه بالغريزة، فقد كانا يقفان أمام شاشة الرصد مباشرة عندما وقع الحادث ومع ذلك كان من العسير جداً على ونستون أن يكبت شعور الدهشة الذي ارتسم على وجهه، إذ أثناء الثانيتين أو الثلاث التي أعان خلالها الفتاة على النهوض حدث أنها أودعته شيئاً في يده ولم يكن هناك شك في أنها فعلت ذلك عن قصد. كان هذا الشيء صغيراً ومنبسطاً، وعندما ولج من باب المرحاض نقله من يده إلى جيبه حيث تحسسه بأطراف أصابعه. كانت قصاصة من الورق مطويّة.

عندما وقف أمام المبولة فتح الورقة وقال في نفسه «لا ريب في أنها تحمل رسالة ما بداخلها»، وراودته نفسه للحظة أن يقرأ الرسالة في التو والحال، ولكنه سرعان ما تنبه لما تنطوي عليه هذه الخطوة من حماقة مطبقة، إذ من المؤكد أن شاشات الرصد تعمل ليل نهار في هذا المكان، فقفل راجعاً إلى مكتبه. جلس وألقى بقصاصة الورق بغير اهتمام بين

الأوراق الأخرى المرصوصة فوق مكتبه، وأحس بقلبه يخفق خفقات مدوية، وكان من حسن حظه أن المهمة المسندة إليه في تلك اللحظة كانت عملاً روتينياً محضاً، إذ كان يصحح قائمة مطولة من الأرقام وهو الأمر الذي لا يتطلّب انتباهاً شديداً.

وقال في نفسه أياً كان ما هو مكتوب في الرسالة، فلا بد أنه سيكون ذا مغزى سياسي. فكّر في تلك اللحظة باحتمالين. أولهما، وهو الأكثر رجحانا، أن الفتاة تعمل جاسوسة لحساب شرطة الفكر، وهو ما كان يخشاه، لكنه لم يفهم لماذا تلجأ شرطة الفكر لهذه الطريقة لتوصيل رسائلها، لعل لديهم من الأسباب ما يفسر ذلك. فلربما في الرسالة تهديد أو استدعاء أو أمر بالانتحار أو فخ ما ينصب له. أما عن الاحتمال الآخر فقد كان أكثر جنونا، كان يساور ونستون رغم أن ونستون قد حاول دون جدوى أن يكبته، ومفاده أن هذه الرسالة ليس ثمة ما يربطها بشرطة الفكر على الإطلاق إذ إنها مرسلة من إحدى المنظمات السرية. فلعل لجماعة «الأخوة» وجود!، ولعل الفتاة منضوية في عضويتها. لا ريب في أن هذه الفكرة كانت عبثية، ولكنها انبجست في خاطره منذ لحظة شعوره بالورقة في يده. ولم تكد تمر دقيقتان حتى كان التفسير الأول والأرجح قد خطر بباله ثانية. وحتى الآن ورغم أن عقله أوحى إليه أن هذه الرسالة قد تعني موته، فإنه لم يصدق ذلك وظل متشبثاً بأهداب أمل واه، في حين أخذ قلبه يدق بعنف محاولاً كبت أثر ارتعاشة على صوته وهو يهمهم بالأرقام إلى آلة التسجيل.

لفّ رزمة كاملة من أوراق العمل ثم زج بها في الأنبوب الهوائي. ثماني دقائق كانت قد مضت حين أعاد تثبيت نظارته فوق أنفه وتنهد، ثم جذب مجموعة أخرى من أوراق العمل وقد وُضعت قصاصة الورق فوقها، وما إن فضّها حتى رأى الكلمة التالية مكتوبة فوقها بخط كبير:

«أحبك»

تملّكه ذهول شديد لعدة لحظات حتى أنه نسي أن يلقي بأداة

الجريمة في قبور الذاكرة. وحينما فعل ذلك، ورغم إدراكه للخطر الذي ينطوي عليه إبداء أي اهتمام زائد، فإنه لم يقدر على منع نفسه من قراءتها مرة ثانية، وفي الحال، حتى يطمئن قلبه إلى أن الكلمة موجودة حقاً.

وكان من العسير عليه أن يواصل العمل لما تبقّى من وقت في ذلك الصباح. ولم يكن أشق عليه من التركيز على ما بين يديه من مهام مزعجة، إلا ضرورة إخفائه لما يختلج وجهه من انفعال أو اضطراب عن شاشة الرصد، وشعر كأن ناراً أُشعلت في ضلوعه. كان تناوله لطعام الغداء في المطعم الحار والغاص بالموظفين والمليء بالضوضاء بمثابة عملية تعذيب. فقد كان يأمل أن يختلي بنفسه أثناء ساعة الغداء، لكنه ولسوء حظه، فإن الأحمق بارصون قد حشرَ نفسه بكل سماجة بجانبه، وقد فاقت رائحة عرقه الكريهة رائحة الطعام المسلوق، ومضى بارصون يثرثر حول الاستعدادات لأسبوع الكراهية، مبدياً حماسته بشكل خاص لنموذج لوجه الأخ الكبير عَرْضَهُ متران ويجري إعداده بواسطة فرقة الجاسوسات، التي تنتمي إليها ابنته، خصيصاً لهذه المناسبة. ولم يكن ونستون يستطيع سماع ما يقوله بارصون وسط الضوضاء مما يضطره إلى تحمّل إزعاج تكرار بارصون لبعض ملاحظاته السخيفة. وقد لمح الفتاة ذات مرة وهي جالسة مع فتاتين أخريين حول إحدى الموائد في الطرف الآخر من قاعة الطعام. ويبدو أنها لم تره، أما هو فلم ينظر في اتجاهها مرة ثانية.

كان ونستون أفضل حالاً في فترة ما بعد الظهيرة. فقد أسندت إليه مهمة صعبة تتطلب عدة ساعات وتستلزم منه تركيزاً بحيث ينحي كل ما عداها جانباً. كان عليه تزوير بعض تقارير الإنتاج الصادرة منذ سنتين بطريقة تثير علامات استفهام حول نزاهة عضو بارز في قيادة الحزب وقد غدا في وضع مزعزع. كان ونستون يجيد أداء مثل هذا اللون من العمل، بالتالي فقد تمكن من إقصاء الفتاة عن تفكيره لأكثر من ساعتين. ولكن

عادت ذكراها ترتسم أمام عينيه مصحوبة برغبة جامحة في الاختلاء بنفسه حتى يمكنه التفكير في هذا التطور الجديد، وهو ما سيكون مستحيلاً دون أن يختلي بنفسه. كانت تلك الليلة هي إحدى الليالي التي يتعين عليه فيها الذهاب إلى المركز الاجتماعي. ازدرد وجبة طعام أخرى لا طعم لها ثم سارع إلى المركز وشارك في سخافة من سخافات «مجموعة النقاش»، ثم لعب شوطين من كرة الطاولة وشرب عدة كؤوس من الخمر وجلس نصف ساعة يستمع لمحاضرة بعنوان «علاقة الانجسوك (الاشتراكية الانجليزية) بالشطرنج». ورغم أن الملل قد أمسك بتلابيب روحه، فإنه وللمرّة الأولى يشعر بعدم الرغبة في التملص من أمسية من تلك الأمسيات. إذ بعد رؤيته لكلمة «أحبك» شعر برغبة تنبجس بين حناياه في أن يظل على قيد الحياة، وبدا له فجأة أن من الحماقة أن يجازف بنفسه في مثل هذه المجازفات البسيطة. لم تكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة مساء حينما عاد إلى شقته واستلقى على فراشه في الظلام حيث يكون بمأمن من شاشة الرصد إن هو التزم الصمت، لكن كان في مقدوره أن يسترسل في التفكير دون توقف.

وكانت الصعوبة العملية التي تتطلب حلاً هي: كيف يتصل بالفتاة ويرتب لقاء معها. وكان قد أبعد احتمال أنها تنصب له شركاً، وقد تأكد له ذلك بسبب ما اعتراها من اضطراب حينما أودعته القصاصة. فقد كان جلياً أن نوبة من الهلع قد انتابتها إلى درجة أخرجتها عن صورتها المعروفة، ولم يخطر على باله البتة أن يتمنّع عن قبول هذه البادرة منها، رغم أنه كان يفكر قبل خمس ليال في تهشيم رأسها بحجر. لكن ذلك لم يعد ذا اهمية الآن. وراح يفكر في جسدها العاري البض مثلما رآه في الحلم. كان يحسبها حمقاء كبقية فتيات جيلها، برأس محشو بالحقد والأكاذيب وجوفٍ مملوء بالجليد. ولذا فقد انتابته نوبة من حمى الخوف حينما خطر بباله احتمال فقدانه لها وإفلات جسدها الأبيض البض من بين يديه! وكان أخشى ما يخشاه هو أن يتغير رأيها إذا هو لم يبادر إلى

الاتصال بها. ولكن الصعوبات العملية التي كانت تحول دون تحقق ذلك اللقاء كانت جمة. كان أمره أشبه بأمر من يحاول تحريك قطعة شطرنج فيما الموت يحاصر الملك. فأينما تولِّ وجهك تَرَ شاشة الرصد. وفي واقع الحال فإن كافة وسائل الاتصال بها قد خطرت بباله خلال خمس دقائق من قراءته للرسالة، ولكنه الآن وبعدما أصبح لديه متسع من الوقت للتفكير، أخذ يستعرضها واحدة تلو أخرى كما لو كان يصفّ مجموعة من الأدوات على مائدة.

وكان من الجلي أنه من غير الممكن أن يجمع بينهما لقاء كذلك الذي جمع بينهما في ذاك الصباح. فلو أن عملها كان في دائرة السجلات لكان الأمر هيناً نسبياً، لكنه لا يعرف على وجه التحديد أين توجد دائرة الإثارة في المبنى، وليس لديه ما يتذرع به للذهاب إلى هناك. ولو أنه كان يعرف أين تقطن وفي أي وقت تنصرف من العمل لتعمد مقابلتها في طريق عودتها إلى منزلها. بيد أن تتبعها إلى منزلها لم يكن أمراً مأمونة عواقبه لأن ذلك يعني التسكع خارج الوزارة وهو أمر يحتمل أن يلفت إليه الأنظار. وأما فكرة أن يبعث لها برسالة عبر البريد فأمر غير ممكن بتاتاً، إذ كانت الرسائل تفتح عند نقلها طبقاً لنظام متبع ومعلن ومن ثم ما كان يقدم على كتابة خطابات إلا قلة من الناس. وحينما تستدعي الضرورة إرسال بعض الرسائل كان الناس يلجأون إلى بطاقات مطبوعة تتضمن قائمة من العبارات الجاهزة، ويكفي المرء آنذاك أن يشطب على العبارت التي لا تتناسب مع موضوع رسالته. وفي نهاية المطاف استقر رأيه أن آمن مكان يلتقيان فيه هو المطعم. فإذا استطاع أن يشير إليها لكي تجلس بمفردها إلى منضدة في منتصف قاعة الطعام بعيدا عن شاشة الرصد ووسط طنين كاف من الأصوات ليغطي على الحديث بينهما، إذا أمكن تحقيق هذه الشروط في مدى زمني مقداره 30 ثانية فبإمكانهما أن يتبادلا بعض الكلمات.

انقضى أسبوع كانت حياته خلاله بمثابة حلم قلق. ففي اليوم

التالي لم تظهر الفتاة في المطعم إلا حينما كان يهم بمغادرته، وكانت صافرة بدء العمل قد سمعت فظن أنها غيرت نوبة عملها إلى نوبة أخرى. واجتاز كلاهما الآخر دون أن يرفع إليه ناظريه. وفي اليوم الذي تلى ذلك، كانت الفتاة في المطعم في الوقت نفسه، لكنها كانت بصحبة ثلاث فتيات أخريات وكن يجلسن أسفل شاشة الرصد مباشرة. ثم مرّت عليه ثلاثة أيام ثقيلة لم تظهر خلالها على الإطلاق، وبدا له أن عقله وجسده قد أصيبا بحساسية مفرطة أو بنوع من الشفافية جعل كل لفتة وكل صوت وكل تماس وكل كلمة، كان لزاماً عليه أن ينطق بها أو يصغي إليها، لوناً من ألوان العذاب. وحتى في نومه لم يبارحه طيفها. وفي خلال هذه الأيام لم يمسّ مفكرته. وإذا كان من راحة فقد كان يلتمسها في أوقات عمله حين يكون بمقدوره أن ينسى نفسه في غمرة العمل لمدة أقصاها عشر دقائق. كان واضحاً أنه ليس لديه أي دليل أو تفسير لما عساه قد لحق بالفتاة، ولا يمكن أن يسأل عنها. ربما تكون قد راحت ضحية عملية تصفية أو ربما تكون قد أقدمت على الانتحار أو نُقلت إلى الطرف الآخر من أوقيانيا. لكن أسوأ هذه الاحتمالات وأرجحها على الإطلاق أنها ربما غيّرت رأيها وقررت أن تتحاشى لقاءه.

وفي اليوم التالي عاودت الفتاة الظهور وقد حررت ذراعها من رباطه مكتفية بوضع ضمادة حول معصمها. وكانت رؤيته لها مبعثاً لارتياح غامر لديه حتى أنه لم يستطع مقاومة الرغبة في النظر إليها مباشرة لعدة ثوان. وفي اليوم التالي كان قاب قوسين أو أدنى من إمكانية التحدث إليها، إذ عندما دلف إلى المطعم كانت تجلس إلى مائدة بعيدة عن الحائط وكانت بمفردها. ولما كان الوقت مبكرا، فإن المطعم لم يكن قد امتلأ بعد بروّاده. وتحرك الطابور إلى الأمام حتى أصبح ونستون أمام طاولة تسليم الطعام، ثم توقف لدقيقتين لأن شخصاً من الذين يتقدمونه في الصف راح يشكو من عدم تسلمه قرص السكر. ولكن الفتاة كانت لا

تزال بمفردها عندما أكمل ونستون صينيته وبدأ يسير متظاهراً بعدم الاكتراث بينما كانت عيناه تبحثان في المكان عن مائدة تقع خلفها. وسار نحوها حتى بات لا يفصله عنها سوى ثلاثة أمتار. ولم يبق غير ثانيتين ويتحقق مراده. وعندئذ تناهى إلى سمعه صوت قادم من خلفه ينادي «سميث» فتظاهر بأنه لم يسمع. فعاد الصوت يكرر النداء «سميث». فأدرك أن لا فائدة من التظاهر بعدم السماع واستدار يتطلّع وراءه فإذا به يرى ذلك الشاب الأشقر الشعر الغبي، الذي يدعى ويلشر والذي بالكاد كان يعرفه، يدعوه مبتسماً لمكان شاغر بجانبه. ولم يكن رفضه لتلك الدعوة بمأمون العاقبة. فبعد أن عرفه بعض من في المطعم لم يعد بمقدوره أن يذهب ويجلس قبالة مائدة تجلس إليها فتاة بمفردها، فقد كان ذلك لافتاً للأنظار ولذا جلس مع ويلشر وعلى شفتيه ابتسامة غير ودّية. وتهلل لذلك وجه الشاب الغبي. وعندئذ تراءى لونستون أن يحطم هذا الوجه بفأس فيشقّه نصفين. وما هي إلا دقائق قليلة حتى كانت مائدة الفتاة قد امتلأت.

ولكن لا بد أنها لاحظته مقبلاً نحوها ولربما فهمت المغزى. وفي اليوم التالي حرص ونستون على المجيء إلى المطعم مبكراً، فوجدها جالسة بمفردها في المكان نفسه. وكان يتقدمه في الطابور مباشرة رجل ضئيل الجسم سريع الحركة أشبه بالخنفساء ذو وجه منبسط وعينين صغيرتين مريبتين وما إن ابتعد عن طاولة التوزيع وهو يحمل صينيته حتى اتجه إلى مائدة الفتاة كالسهم، فضاعت آمال ونستون الذي تبعه وقد تجمد الدم في عروقه، ولكن لا جدوى من لقائه بالفتاة ما لم يكن على انفراد. في هذه اللحظة سُمع صوت ارتطام وإذا بالرجل الضئيل قد هوى أرضاً على أطرافه الأربعة بينما طارت الصينية في الهواء وجرى منها جدولان من الحساء والقهوة فوق أرضية القاعة. نهض الرجل على قدميه وهو يرمق ونستون بنظرات عدائية. كان واضحا أنه يشك في أن ونستون قد عرقله من الخلف. غير أن كل شيء مر بسلام. وبعد خمس ثوان

كان ونستون يجلس إلى مائدة الفتاة بينما راحت دقات قلبه تدوي كالرعد.

لم يرفع نظره إلى عينيها. بل أخذ ينقل أوعية الطعام من الصينية إلى الطاولة وشرع في التهام طعامه على الفور. كان أمراً بالغ الأهمية أن يبادر بالحديث إليها قبل مجيء أي شخص آخر، ولكن شعوراً فظيعاً بالخوف قد انتابه، فقد انقضى أسبوع كامل على أولى بوادرها نحوه ولربما تكون قد غيرت رأيها، بل لابد أنها قد غيرت رأيها! كان من المستحيل أن تكلل مثل هذه العلاقات بالنجاح. إن ذلك لا يحدث على أرض الواقع. ولعله كان سيحجم عن الحديث إليها لولا رؤيته أمبلفورث في تلك اللحظة، الشاعر ذا الأذنين كثيفتي الشعر، وهو يتجول في أنحاء قاعة المطعم على مهل ومعه صينية باحثاً عن مكان شاغر. كان ثمة وشيجة غامضة تربط أمبلفورث بونستون ومن المؤكد أنه لن يتردد في الجلوس معه إن هو رآه. لم يكن أمام ونستون غير دقيقة واحدة للعمل. كان ونستون والفتاة منهمكين في التهام الطعام دون توقف. وكان ما يتناولانه عبارة عن حساء فاصوليا. وبصوت هادئ وأشبه بالغمغمة كسر ونستون حاجز الصمت بينهما دون أن يرفع أي منهما عينيه عن صينيته مواصلين تناول الحساء. وبين ملعقة وأخرى تبادلا بعض الكلمات الضرورية بصوت خفيض ودون أن يعتري وجهيهما أي انفعال.

- أي ساعة تتركين عملك؟

- السادسة والنصف مساء.

- أين يمكن أن نلتقي؟

- ساحة النصر قرب التمثال.

- إنها مليئة بشاشات الرصد.

- لا خوف إذا كانت مزدحمة بالناس.

- هل من إشارة؟

- كلا، لا تقترب مني إلا إذا رأيتني بين حشد من الناس. ولا تنظر نحوي بل ابق على مقربة مني.

- في أي وقت؟

- السابعة مساء.

- حسناً.

لكن أمبلفورث لم ير ونستون، فجلس إلى مائدة أخرى. أما ونستون والفتاة فلم يتبادلا كلمة واحدة بعد ذلك وكانا يتحاشيان تبادل النظر ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً. فرغت الفتاة من غدائها على عجل وانصرفت، في حين بقي ونستون يدخن سيجاره.

ذهب ونستون إلى ساحة النصر قبل حلول الموعد المضروب وراح يدور حول النصب الهائل الحجم ذي الشكل الأسطواني، المنتهي بتمثال ضخم للأخ الكبير وهو يحدق جنوباً في الأفق حيث عقد له النصر على الطائرات الأوراسية (قبل سنوات كانوا يقولون طائرات شرقاسيا) في معركة خاضتها المحطة الجوية رقم 1. في الشارع وأمام التمثال كان هناك تمثال آخر لرجل يمتطي حصاناً يفترض أنه أوليفر كرومويل. مضت خمس دقائق على الموعد ولم تظهر الفتاة فانتاب ونستون خوف شديد من جديد إذ ظن أنها لن تأتي وأنها قد عدلت عن رأيها. راح يتقدم ببطء إلى الطرف الشمالي من الساحة وقد علا وجهه نوع من السرور الباهت عندما وقعت عيناه على كنيسة القديس مارتن التي كانت أجراسها، حينما كانت لها أجراس، تدق نغمات «أنت مدين لي بثلاث فارذنج». ثم فجأة رأى الفتاة واقفة عند قاعدة التمثال وهي تقرأ، أو تتظاهر بقراءة، ما كتب على قاعدة التمثال، ولم يكن من المأمون أن يقترب منها قبل أن يتجمع المزيد من الناس حولها، فشاشات الرصد تملأ المكان. بيد أنه في هذه اللحظة انبعث صوت هتافات وسمع أزيز عربات ثقيلة تنطلق من الناحية اليسرى. وفجأة سادت حالة من الهرج والمرج في الساحة. تسللت الفتاة من بين تماثيل الأُسُود عند قاعدة النصب ثم غرقت في الزحام. وتبعها

ونستون بينما كان يُعْلَن أن قافلة من أسرى الحرب الأوراسيين كانت تمر.

كانت جماهير كثيفة من الناس قد تقاطرت على الساحة حتى أغلقت طرفها الجنوبي. فرأى ونستون نفسه، وهو الذي في الأوقات العادية ينأى عن كل أشكال العراك، وقد راح يشق طريقه بالمناكب ويدفع ويلكز ليشق طريقه إلى وسط الحشود. وسرعان ما بات على مبعدة ذراع واحدة من الفتاة. ولكن الطريق كان مسدوداً برجل ضخم الجثة من العامة وامرأة بحجمه تقريباً، ربما تكون زوجته، وكأنهما يشكلان معاً حائطاً بشرياً لا يمكن اختراقه. شق ونستون طريقه بصعوبة حتى حشر كتفه بينهما بعنف. للحظة من الزمن أحس وكأن أحشاءه قد انسحقت بين هاتين الكتلتين من اللحم. لكنه نجح في اختراقهما وقد تصبب عرقاً. أخيراً وجد نفسه إلى جانب الفتاة كتفاً لكتف وكلاهما يحدق أمامه دون أن يلتفت إلى الآخر.

كان هناك رتل طويل من الشاحنات، تحمل حراساً ذوي وجوه خشبية ومسلحين بالبنادق الآلية يقفون منتصبين في كل زاوية من زوايا الشاحنات، يمر ببطء في الشارع. وفي الشاحنات كان يجلس رجال ضئيلو الأجسام ذوو بشرة صفراء وثياب خضراء رثة اكتظت بهم الشاحنات وراحت وجوههم المنغولية البائسة تحدق من فوق جوانب الشاحنات فاغرين أفواههم غير عابئين بشيء. وكنت تسمع من حين لآخر قعقعة الأغلال الحديدية التي سُربلوا بها كلما تأرجحت شاحنة. شاحنات تلو شاحنات من الأسرى المساكين كانت تمر. وكان ونستون يشعر بوجود هذه الوجوه لكنه كان يراهم على نحو متقطع، إذ كانت الفتاة تقف بجانبه وقد التصقت ذراعها اليمنى بمرفقه، وكانت وجنتها قريبة منه بحيث كان يحس حرارتها. وسرعان ما أمسكت الفتاة بزمام الموقف مثلما فعلت حينما كانت في المطعم. وابتدرته بالكلام وبالصوت نفسه الخالي من الانفعالات كالعادة، حيث كانت شفتاها لا

تتحركان إلا بالكاد ولا يخرج منهما إلا همس يكاد يضيع وسط طنين الأصوات وقرقعة الشاحنات.

- هل تسمعني؟

- أجل.

- هل يمكنك الحصول على إذن من العمل بعد ظهر الأحد؟

- أجل.

- إذن اصغ إليّ بعناية وانتبه جيداً لكل ما سأقوله. اذهب إلى محطة بادنجتون...

وبدقة عسكرية متناهية أدهشته، أخذت توضح له الطريق الذي يسلكه كالتالي: رحلة بالقطار تستغرق نصف ساعة، ثم الانعطاف يساراً خارج المحطة ثم السير كيلومترين عبر طريق حتى يصل إلى بوابة نُزع قضيبها العلوي اعبرها إلى طريق عبر الحقول يؤدي إلى ممر مغطى بالعشب عبر شجيرات صغيرة إلى أن تصل إلى شجرة ميتة عليها طحالب كثيرة. كان الموقف يبدو كما لو كانت تحمل خريطة داخل رأسها. وأخيراً سألته بصوت خفيض:

- هل يمكنك تذكر كل ذلك؟

- أجل.

- إذن، انعطف يساراً ثم يميناً فيساراً ثانية لتجد بوابة نُزع قضيبها العلوي.

- فهمت، لكن في أي وقت؟

- حوالي الساعة الثالثة. ربما ستضطر للانتظار لأنني سأسلك طريقاً آخر. لكن هل أنت متأكد أنك تتذكر جيداً كل ما قلت؟

- أجل.

- إذن ابتعد عني بأسرع ما يمكن.

لم تكن تحتاج إلى قول ذلك. فقد ظلا لفترة من الزمن عاجزين عن تخليص نفسيهما من الجماهير المحتشدة. كانت الشاحنات لا تزال تتتابع والناس فاغرين أفواههم دهشة وعجباً. في البداية كان هناك قليل من صيحات الاستهجان والصفير وكانت تنبعث من أعضاء الحزب فقط ولم تلبث أن توقفت. فقد كانت غريزة حب الاستطلاع تخيم على الأجواء. فالأجانب سواء كانوا من أوراسيا أو شرقاسيا يُنْظَر إليهم كنوع من الحيوانات الغريبة. إذ لم يكن المرء يراهم إلا في ثياب السجناء وحتى في ذلك لم يكن يستطيع أن يراهم إلا للحظات عابرة كما أن مآلهم كان يظل مجهولاً، فباستثناء تلك القلة منهم الذين يشنقون باعتبارهم مجرمي حرب، كان الباقون يختفون تماماً عن الأنظار ولعلهم يرسلون إلى معسكرات الأشغال الشاقة. وغابت الوجوه المنغولية المستديرة لتحلّ محلها وجوه أوروبية قذرة ذات لحى يظهر عليها أثر الإرهاق. ومن فوق خدود ناتئة العظام كانت عيونهم تنفذ إلى عيني ونستون. فتارة تكون نظراتهم قاسية وتارة تذهب بعيداً. وبينما كان رتل الشاحنات يقترب من نهايته رأى ونستون في آخرها عجوزاً كهلاً، وقد اكتسى وجهه بشعر أشيب كثيف، يقف منتصباً وقد عقد معصميه معاً بشكل متقاطع أمام صدره كما لو كان قد اعتاد أن يجدهما موثوقين معاً. وكان الوقت قد حان لافتراق ونستون والفتاة. ولكن في اللحظة الأخيرة وفيما كانت الجماهير ما زالت محتشدة شبكت يده بيدها وضغطت عليها.

لم يستغرق هذا التشابك بين يديهما أكثر من عشر ثوان، ومع ذلك بدا أنهما قد تشابكتا مدة أطول. وكان في ذلك ما يكفي ونستون لمعرفة كل تقاطيع راحة يدها تفصيلاً. فقد تلمّس الأصابع الطويلة والأظافر حسنة التقليم، وراحة اليد التي اخشوشنت من أثر العمل وتلمّس اللحم الناعم عند المعصم. وكان مجرد تحسسه لها قميناً بأن يعرفها لاحقا مع أنه لم يرها. وفي اللحظة ذاتها خطر بباله أنه لم يعرف لون عينيها. ربما

كانتا بُنّيتين. ولكن ذوي الشعر الأسود قد تكون عيونهم زرقاء اللون أحياناً. وكان من الحمق الشديد أن يلتفت لينظر إلى عينيها. فقد ظلا يحدقان أمامهما باستمرار حتى حين تشابكت يداهما. وبدلاً من أن يتطلع ونستون في عيني الفتاة، رأى عيني الأسير الكهل تحدقان بكآبة في عينيه من خلال شعر وجهه الكثيف.

الفصل الثاني

وجد ونستون نفسه يسير عبر ممر يخيم عليه الظل حيناً ويغمره الضوء حيناً آخر، وكان عندما يسرع الخطى تزلّ به قدمه في برك من الماء أكسبتها أشعة الشمس المتسربة من خلال أغصان الأشجار لوناً ذهبياً. وكانت الأرض تحت الأشجار التي عن يساره تكتسي بزهور زرقاء تشبه الجرس في تكوينها. وكان يبدو أن الهواء يداعب الوجوه، لِمَ لا واليوم هو الثاني من أيار. ومن مكان ما في قلب الغابة كان ينبعث هديل الحمام.

كان ونستون قد وصل إلى مكان اللقاء قبل الموعد المضروب دون أن تواجهه أي صعوبات أثناء الطريق. إذ يبدو أن الفتاة كانت ذات خبرة واسعة تجعلها موضع ثقة في تخيّر الأماكن الآمنة، حتى إن الفزع الذي اعتراه في أثناء رحلته كان أقل مما يكون عليه في المعتاد. ومع ذلك ليس للمرء أن يحسب أنه أكثر أماناً في الريف مما هو في لندن. نعم يخلو الريف من شاشات الرصد، بيد أن خطراً آخر يكمن فيه ألا وهو الميكروفونات المخبأة عن العيون والتي يمكنها التقاط صوتك وتمييزه، فضلاً عن أنه لم يكن من السهل أن تقوم برحلة بمفردك دون أن تلفت إليك الأنظار. وبالرغم من أنه لم يكن من الضروري أن تحصل على جواز مرور ما دامت رحلتك لا تتجاوز المئة كيلو متر. ولكن محطات السكك الحديدية تكون أحياناً مرتعاً لرجال الدورية، فإذا ما صادفت

هنالك أحد أعضاء الحزب فإنها تستوقفه لفحص أوراقه واستجوابه بأسئلة محرجة. غير أنه لم تعترض ونستون في رحلته أي دوريات، ومع ذلك كان وهو في طريقه من المحطة يأخذ جانب الحذر ويتلفت خلفه مرة تلو أخرى خشية أن يكون ثمة من يقتفي أثره. كان القطار مزدحما بالعامة الذين تخيم عليهم أجواء الانتعاش المصاحبة للعطلة في طقس صيفي لطيف. وكانت العربة ذات المقاعد الخشبية التي استقلها ونستون تغص بأسرة واحدة كبيرة العدد تراوح أعمار أفرادها ما بين جدة طاعنة في السن وطفل رضيع ابن شهر واحد. كانت هذه الأسرة ذاهبة لقضاء بعض الوقت لدى بعض أصهارهم في الريف وأيضاً، وحسبما عبّروا بصراحة لونستون، الحصول على قليل من الزبد من السوق السوداء.

اتسع الممر، وما هي إلا دقيقة حتى وجد ونستون نفسه أمام الطريق الذي حدثته عنه الفتاة. وكان مجرد طريق للماشية يمتد بين شجيرات قصيرة. لم يكن ونستون يحمل ساعة ولكنه كان يقدّر أن الوقت لم يبلغ الثالثة مساء بعد. وكانت الزهور الزرقاء التي تشبه الأجراس تكسو الأرض بشكل كثيف للغاية إلى حد يستحيل معه ألا يطأها المرء بقدميه. ركع ونستون على ركبتيه وجعل يقطف بعضها ليقتل الوقت من ناحية ولأنه من ناحية أخرى كانت تراوده فكرة غامضة وهي أن يقدم للفتاة باقة من الزهور لحظة لقائه بها. وكان ونستون قد جمع باقة كبيرة وراح يشم رائحتها الزكية عندما أتاه صوت من ورائه جمّد الدم في عروقه. كان الصوت صوت وقع أقدام تطأ الحشائش. ولكنه تجاهله وواصل قطف الزهور غير مكترث إذ ارتأى أن ذلك هو أفضل ما يمكنه عمله. وراح يفكر فيمن يكون هذا القادم، ربما كانت الفتاة وربما كان شخصاً آخر يتعقب خطاه. ولأن تلفّته حواليه كان من شأنه أن يثير الشكوك حوله، فقد راح يقطف زهرة تلو أخرى حتى أحس بيد تربت على كتفه برقة.

رفع وجهه فإذا بالفتاة أمام عينيه. وأشارت إليه محذرة من أن يتفوه بكلمة، ثم شقت طريقها عبر الشجيرات لتنفذ إلى داخل الغابة عبر ممر

ضيق. لم يكن ثمة شك في أنها سارت في هذا الممر من قبل، إذ كانت تروغ من البقع الموحلة كما لو كانت تفعل ذلك بحكم الألف والعادة. وتبعها ونستون وهو ما يزال يقبض على باقة الزهور. في البدء شعر ونستون بالارتياح، بيد أن مراقبته لهذا القوام الممشوق القوي وهو يتبختر أمام عينيه وقد شد على الخصر ذلك الزنار القرمزي شدا يبرز مفاتن الردفين قد كرست لديه الشعور بالدونية وخُيل إليه أنها ربما تراجع نفسها في ما هي مقدمة عليه إن هي استدارت ونظرت إليه. لكن عذوبة الهواء وخضرة أوراق الربيع كانتا قد ملأتاه رهبة. وكانت شمس أيار في المسافة التي قطعها من المحطة قد أثارت لديه شعوراً بالخجل من قذارته وشحوبه، كمخلوق لا يرى الشمس، وقد انسدّت مسام جلده بفعل سخام لندن الذي يكسوها. وتنبه إلى أن الفتاة ربما لم تره حتى الآن في وضح النهار حيث الضوء الساطع. وبلغا الشجرة المتداعية التي حدثته عنها فتجاوزتها الفتاة وشقت لنفسها طريقاً بين الشجيرات التي بدت مسدودة، وسار ونستون في أثرها، وسرعان ما وجد أنهما يقفان في مرجة من العشب الأخضر الصغير تحيط بها أشجار وارفة الظلال تحجب الرؤية. هنا توقفت الفتاة ثم التفتت قائلة:

- ها نحن قد وصلنا.

وقف محدّقاً فيها تاركاً بينه وبينها خطوات، فهو لم يجرؤ على الاقتراب منها لأكثر من ذلك.

واستطردت تقول: «لم أشأ أن أحدثك بشيء ونحن في الطريق خشية أن يكون ثمة ميكروفون مخبأً في مكان ما. وإن كنت أعتقد أن ليس هناك شيء من ذلك ولكن يجب أخذ الحيطة على أي حال، فاحتمال التقاط صوتك وتمييزه من قبل أحد الأوغاد يظل احتمالاً قائماً على الدوام. أمّا هنا فنحن في أمان.

ولم يجد ونستون في نفسه من الشجاعة ما يكفي ليتجرّأ به على الدنو منها حتى الآن.

فجعل يردد عبارتها في غباء: «هنا نحن في أمان».

«أجل.. انظر حولك إلى الأشجار.»

كانت أشجار دردار صغيرة قُطعت في يوم من الأيام ثم عادت فنبتت من جديد مكوّنة غابة من القضبان التي لا تزيد سماكة واحدها على سماكة معصم اليد. وأضافت الفتاة: «لا توجد أشجار كبيرة يمكن إخفاء ميكروفون فيها. عدا عن ذلك فقد جئت إلى هذه البقعة من قبل».

كان ذلك تمهيدا لبدء حديثهما. وتغلّب ونستون على ما تملّكه من رهبة ودنا منها. كانت تقف أمامه منتصبة القامة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة ومفعمة بالسخرية وكأنها تتساءل عن سبب إحجامه عن أي فعل حتى الآن. وهنا حدث أن سقطت باقة الزهور التي بين يديه أرضاً وبدا أنها قد سقطت من تلقاء نفسها، فأمسك بيدها وقال: «أوَتصدقين لو قلت لك إنني لم أعرف لون عينيك حتى الآن؟» ولاحظ للتو أنهما بنّيتان أو بالأحرى فيهما ظلال بنية خفيفة أما أهدابهما فكانت سوداء. وسألها: «أمّا وقد رأيتني في وضح النهار، فهل ما زلت تحتملين النظر إلى وجهي؟»

- أجل بسهولة.

- إنني في التاسعة والثلاثين من عمري، ومقترن بزوجة لا أستطيع التخلص منها وأعاني من الدوالي ولي خمسة أسنان اصطناعية.

فقالت الفتاة: «إن هذا لن يقلل من اهتمامي بك».

وفي اللحظة التالية، ودون أن يدري مَن منهما بادر بذلك، كانت الفتاة بين ذراعيه. في البداية لم يكن ونستون يصدق ما يجري. فها هو الجسد الغض مشدودٌ على جسده، والشعر الأسود يغطي صفحة وجهه، ورفعت الفتاة وجهها فأخذ يمطر شفتيها الحمراوين بالقبلات، وأحاطت عنقه بذراعيها وهي تناديه بمعسول الكلمات. جذبها إلى الأرض فلم تُبدِ أي مقاومة، فكان باستطاعته أن يفعل بها ما يحلو له. لكن الحقيقة أنه

لم يكن لديه أي رغبة جسدية تذهب إلى ما هو أبعد من مجرد التماس بينهما. فقد استولت عليه مشاعر الزهو وعدم التصديق. كان مسروراً بما يحدث لكنه لم يكن يشعر بأية رغبة جسدية. لقد حدث كل شيء بسرعة خاطفة إلى حد أن شبابها وجمالها قد أرهباه، بعد أن كان قد أَلِفَ العيش بدون نساء - وهو يجهل سبب ذلك. وقامت الفتاة عن الأرض واستلّت زهرة من شعرها، وجلست ملاصقة له وهي تلف ذراعها حول خصره وقالت:

«هدئ من روعك ياعزيزي. لسنا في عجلة من أمرنا. وما زال لدينا متسع من الوقت. ألا ترى أن هذه الخلوة رائعة. لقد اكتشفتها عندما ضللت طريقي ذات مرة في إحدى الرحلات الجماعية. ولو جاء أحدهملأمكننا سماع وقع خطاه وهو على بعد مائة متر.»

سألها ونستون: «ما اسمك؟»

فأجابت: «جوليا. إنني أعرف اسمك، إنك ونستون! ونستون سميث».

- وكيف تسنّى لكِ معرفة ذلك؟

- أظن أنني أبرع منك في اكتشاف الأشياء يا عزيزي. هل أخبرتني بمشاعرك نحوي قبل أن أعطيك الرسالة في ذلك اليوم؟

لم يشعر ونستون بأي دافع للكذب عليها، وكان يعتقد أن أفضل بداية لحبهما هو أن يفضي إليها بأسوأ ما كان يكنّ لها.

فأجاب: «كنت أكره مجرد رؤيتك، وراودتني كثيراً الرغبة في اغتصابك ثم قتلك بعد ذلك. بل ومنذ أسبوعين كنت أفكر جدّياً في تحطيم رأسك بحجر. وإذا كنت تودين معرفة السبب، فقد ظننت أن بينك وبين شرطة الفكر رباط ما».

ضحكت الفتاة مبتهجة، إذ اعتبرت ذلك ثناء على براعتها في التخفي.

وقالت: «هل حقاً ظننت أنني أعمل مع شرطة الفكر؟ أوكنت جاداً في ذلك الظن؟»

فأجاب: «قد لا يكون ذلك بالضبط. ولكن مظهرك العام وكونك في ريعان شبابك ومتعافية وجميلة، جعلني أظن أن ذلك محتمل...»

قالت: «إذن كنت تظن أنني عضوة بالحزب وصادقة في قولي وفعلي. ولعلك اعتقدت أنني من الذين يشاركون في حمل الأعلام وترديد الشعارات والسير في المسيرات والخروج في الرحلات الجماعية وكل ما شابه ذلك. وظننت أنه لو سنحت لي أدنى فرصة للوشاية بك كمجرم فكر لفعلت ذلك حتى يقتلوك؟»

- نعم لقد خامرتني أشياء من هذا القبيل. فكما تعلمين هناك فتيات كثيرات يقدمن على ذلك.

فقالت وهي تخلع الزنار القرمزي، شعار اتحاد الشبيبة المناهض للجنس وتعلقه على غصن شجرة: «إنها شرطة الفكر اللعينة هي التي تبث هذا الانطباع». بعدئذ، وكما لو أن ملامستها لخصرها قد ذكّرتها بشيء ما، تحسست جيب معطفها وأخرجت منه قطعة شوكولا وقسمتها شطرين وأعطت ونستون أحدهما. وقبل أن يمد يده أدرك من رائحتها أنها من نوع غير عادي، فقد كانت ذات لون غامق ولامع وملفوفة بورق فضي. فالشوكولا التي يعرفها كانت ذات لون بني كثيب ومتفتتة وكان طعمها أشبه ما يكون بطعم الدخان المنبعث من حرائق أكوام القمامة. ومع ذلك فقد كان من حين لآخر يتذوق شوكولا مثل تلك الشوكولا. ولقد أهاجت من رائحتها ذكرى لم يستطع أن يستحضرها رغم كونها قوية ومربكة.

سألها: «من أين لك هذا؟»

فأجابت غير عابئة: «من السوق السوداء». ثم استطردت: «إنني من الفتيات اللواتي يلفتن إليهن الأنظار. إنني رياضية. كما أنني كنت قائدة زمرة في منظمة الجواسيس. وكنت أقوم بثلاث مهمات تطوعية كل

أسبوع ضمن اتحاد الشبيبة المناهض للجنس. لقد كنت أمضي الساعات تلو الساعات أجوب أنحاء لندن لألصق ملصقاتهم اللعينة، وفي المواكب كنت دائماً أحمل طرفاً من الراية، وكانت مشاعر البهجة بادية على محياي دائماً ولم يحدث أن تهربت يوماً من شيء يُسْنَد إلي، وأشارك الجماهير في هتافها. إن هذه وحدها هي طريق السلامة».

وذابت أول قضمة من الشوكولا على لسان ونستون. كان الطعم لذيذاً. لكن ثمة ذكرى ظلت تتحرك في أطراف وعيه، ذكرى شيء يستشعره بقوة دون أن يستطيع قولبته في شكل محدد تماماً مثل جسم يراه المرء بطرف عينيه. وكان يحاول أن يطردها عنه وهو يعي أنها ذكرى شيء ما ودّ لو لم يفعله لكنه لم يستطع ذلك.

قال لها: «إنك لا تزالين في مقتبل عمرك. فأنت أصغر مني بعشر أو خمس عشرة سنة. فما الذي أعجبك في رجل مثلي؟»

ردت قائلة: «إنه شيء ما في وجهك شجعني على خوض المغامرة. إنني ماهرة في اكتشاف الأشخاص الذين لا انتماء لهم. فما إن رأيتك حتى أيقنت أنك ضدهم».

وأدرك ونستون أنها تعني الحزب بقولها (ضدهم)، وبالأخص قيادة الحزب التي كان حديثها عنها ينم عن كراهية ممزوجة بالسخرية، وهذا ما جعل ونستون يشعر بالقلق رغم علمه بأنهما أكثر أماناً في هذا المكان من أي مكان آخر. بيد أن ما أدهشه هو خشونة عبارتها. فقد كان من المفترض أن أعضاء الحزب لا يتلفظون بالسباب، حتى إن ونستون نفسه كان نادراً ما يفعل ذلك بصوت عال على الأقل. أما جوليا فقد بدا أنها لا تستطيع أن تأتي على ذكر الحزب، وعلى الأخص قيادة الحزب، دون أن تستخدم ذلك اللون من الكلمات التي تُرى مرسومة بالطباشير على جدران الأزقة الضيقة الفقيرة. ولم يستقبح ونستون منها ذلك، فهذا علامة على ثورتها على الحزب وكل أساليبه، بل ويبدو دليلاً على العافية والصحة، إنه أشبه بالحصان يعطس حين يشمّ رائحة دريس فاسد. كانا

قد تركا تلك البقعة الطبيعية وأخذا يجولان ثانية عبر الظلال المتقطعة وقد لفّ كل منهما ذراعه حول خصر الآخر كلما كان بإمكانهما أن يسيرا جنباً إلى جنب. ولاحظ أن خصرها قد غدا أكثر ليونة بعدما خلعت عنه الزنار القرمزي. كانا يتحدثان همساً. فخارج البقعة وحسبما قالت جوليا، يحسن بهما أن يلتزما الهدوء. وكانا قد بلغا حافة الغابة الصغيرة فاستوقفته قائلة:

- لا تخرج إلى الأرض المكشوفة، فقد يكون هنالك شخص يترصدنا. إننا نظل في أمان ما دمنا وراء أغصان الأشجار.

لقد كانا يقفان تحت ظل شجيرات البندق بينما كانت أشعة الشمس المتسرّبة عبر أوراق الشجر الغزيرة تلفح وجهيهما. وما إن نظر ونستون إلى الحقل الممتد وراء الغابة حتى أخذت جسمه رجفة بطيئة وغريبة، فقد عرف هذا الحقل بمجرد أن وقع بصره عليه. كان مرعى قديماً مغطّى بالعشب ويتخلله ممشى، وتلال الخلد هنا وهناك. وعلى الجانب الآخر من الحقل تدّلت أغصان أشجار الدردار متمايلة مع النسيم وتتحرك أوراقها ببطء وكثافة وكأنها خصلات شعر امرأة. وفي مكان قريب، لكن خارج مجال النظر، لا بد أن هناك جدولاً ذا برك خضراء تسبح فيها الأسماك؟

وهنا همس متسائلاً: «ألا يوجد جدول ماء بالقرب من هنا؟»

- بلى، ثمة جدول عند حافة الحقل التالي. إن فيه سمك كبير الحجم حتى ليمكنك أن تراه فوق صفحة البرك يحرك ذيله أسفل أشجار الصفصاف.

فغمغم قائلاً: «إنه الريف الذهبي، تقريباً».

- أي ريف ذهبي ذلك؟

- لا شيء، لكنه مشهد طبيعي كنت أراه أحياناً في الحلم.

وهمست جوليا: «انظر!»

كان طائر الحسُّون قد حط على غصن لا يبعد أكثر من خمسة أمتار عنهما وعلى مستوى وجهيهما تقريباً. ويبدو أن الطائر لم يرهما، فقد كان هو في الشمس وكانا هما في الظل. نشر الطائر جناحيه ثم أعادهما بعناية إلى وضعهما الأول، وخفض رأسه للحظة، كما لو كان يؤدي فرضاً من فروض الطاعة والتبجيل للشمس، وأخذ يصدح بأغانيه. ووسط هدأة ما بعد الظهيرة بدا أن الصوت قد جعل ونستون وجوليا يجفلان فاحتضن كل منهما الآخر مبهورين بذلك الصوت العذب. وانسابت الموسيقى دقيقة تلو أخرى مع تنويعات تبعث على الدهشة، فلم يكرر أي نغمة طوال ذلك وكأنما كان يتعمد استعراض براعته في الغناء. وكان الطائر يتوقف لثوان أحياناً لينشر جناحيه ثم يضمّهما ثانية، ويملأ صدره بالهواء ثم ينطلق في التغريد ثانية. كان ونستون يراقبه ولديه شيء من التبجيل الغامض. وتساءل في نفسه ترى لمن كان الطائر يغرد ولماذا؟ لم يكن بجواره رفيق أو غريم. وما الذي يجعله يحط على غصن من أغصان غابة مهجورة كهذه ويصدح بموسيقاه في العراء وما من أحد يسمعه؟ وتساءل أيكون هنالك بعد كل هذا ميكروفون مخبأ في مكان ما على مقربة منهم؟ إنه وجوليا قد حرصا على أن يكون كلامهما همساً، ولن يستطيع الميكروفون التقاط ما قالاه، لكنه حتماً سيلتقط تغريد الحسون. وربما ثمة رجل ضئيل الجسم أشبه بالخنفساء عند الطرف الآخر من الميكروفون ينصت باهتمام إلى ذلك. بيد أنه وبالتدريج استطاع فيض الموسيقى المنسابة أن يطرد كل الهواجس من ذهنه. وكان هذا الفيض أشبه بسائل ينسكب فوق جسمه ممتزجاً بأشعة الشمس المتسربة عبر أوراق الشجر. وهنا توقف ونستون عن التفكير مكتفياً بما يعتمل في داخله من أحاسيس. كان خصر الفتاة الذي يحيطه بذراعيه ليناً ودافئاً. جذبها نحوه حتى صار صدره ملاصقاً لصدرها وأحس بجسدها يمتزج بجسده. وأينما تحسست يداه كان جسدها مستسلماً كالماء. وتلاقت شفاههما بقبلات مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الجافة التي

تبادلاها قبل ذلك. وعندما انفك ذلك العناق وتنهد كلاهما تنهيدة عميقة، جفل الطائر وفزع فأطلق لجناحيه العنان.

واقترب ونستون من أذن جوليا وهمس: «الآن؟»

فهمست هي أيضاً: «ليس ها هنا، هيا بنا إلى المخبأ فإنه أكثر أماناً».

ومع طقطقة الأغصان تحت أقدامهما راحا يشقان طريقهما نحو الخلوة. وعندما دلفا إلى حلقة أشجار الدردار استدارت نحوه وكان كلاهما يتنفس أنفاساً سريعة متلاحقة ولكن لم تلبث الابتسامة أن ارتسمت على ثغر الفتاة من جديد. أخذت تتمعن في وجهه للحظة ثم تحسست أزرار ثيابها. أجل! كان الموقف أشبه بما رآه في الحلم. فبسرعة كتلك التي تخيلها نزعت عنها ثيابها وحينما طرحتها جانباً كان ذلك بالحركة الرائعة نفسها التي بدا وكأنها تقوّض أركان حضارة بكاملها. وبدا جسدها ناصع البياض تحت ضوء الشمس، ولكنه لم يتطلع إلى جسدها من فوره فقد كانت عيناه معلقتين بذلك الوجه الأنمش ذي الابتسامة الخافتة الجريئة. ركع أمامها ثم أخذ بيدها بين يديه.

- هل فعلتِ ذلك من قبل؟

- بالطبع مئات المرات أو قل عشرات المرات.

- مع أعضاء الحزب؟

- نعم، دائماً مع أعضاء الحزب.

- مع أعضاء القيادة الحزبية؟

- كلا، ليس مع أولئك الأوغاد. لكن هناك كثيرين منهم تقتلهم الرغبة فيما لو سنحت لهم أدنى فرصة. إنهم ليسوا بهذا العفاف الذي يَدَّعونه.

فقفز قلب ونستون ابتهاجاً. إذن لقد أتت ذلك الفعل عشرات المرات، وتمنى لو أنها قد فعلته مئات أو آلاف المرات. فكل شيء يشير

إلى الفساد كان يملأه بأمل مجنون. من يدري، ربما كان الحزب يواري فساداً مستشرياً تحت هذه القشرة، وما تعاليمه عن التقشف ونكران الذات إلا ستار يخفي وراءه ألوان العسف والجور. وكم ستكون سعادته لو استطاع أن ينقل لهم العدوى بالبرص أو الزهري وأن يفعل كل ما من شأنه أن ينشر الفساد والانحلال في الحزب حتى يمكن تقويضه! ثم جذبها نحو الأرض بحيث أصبحا وجهاً لوجه وقال لها: «كلما ازداد عدد الذين يضاجعونك منهم ازداد حبي لك. هل تفهمين ما أعني؟»

- نعم تماماً.

- إنني أكره التبتل، وأمقت القداسة! ولا أريد بقاء لأي فضيلة في أي مكان. أريد أن يستشري الفساد في كل شخص حتى النخاع.

- حسناً، لا بد إذن أنني أناسبك يا عزيزي، فالفساد موغل فيّ حتى نخاعي.

- هل تحبين إتيان ذلك الفعل؟ لست أعني معي فقط، وإنما أعني الفعل في حد ذاته.

- إنني أحبه حباً جماً.

كان ذلك هو عين ما أراد أن يسمعه منها. ليس مجرد حب شخص لآخر، وإنما هي الغريزة الحيوانية والرغبة التي يستوي فيها الناس، إنها القوة التي ستمزق الحزب إلى أشلاء. ومددها فوق العشب وبين الزهور المتساقطة. ولم يصادف صعوبة هذه المرة وعادت أنفاسهما إلى الحالة الطبيعية، ثم انفصلا بعدما انتابهما إعياء مفعم باللذة. وكانت الشمس قد اشتدت حرارتها. وأحسا بنعاس يغالبهما. مدّ ونستون يده إلى معطفها الذي ألقته جانباً وغطى به بعض جسدها. وراحا من فورهما يغطان في نوم عميق امتد بهما زهاء نصف ساعة.

كان ونستون هو من استيقظ أولاً فراح يتأمل ذلك الوجه الأنمش، الذي لا يزال نائماً في سلام متوسداً راحة يدها. ولم يكن فيها من جمال

يلفت النظر سوى جمال ثغرها. فهنالك خط أو خطان حول عينيها إذا دققت النظر. أما شعرها القصير الأسود الفاحم فكان غزيراً وناعماً بشكل غير عادي. وتنبه في تلك اللحظة إلى أنه لا يزال يجهل اسمها كاملاً أو عنوانها.

أثار هذا الجسد الغض القوي، الذي ما يزال ساكناً في نومه، شعوراً بالأسى والرغبة في حمايتها. ولكن الرقة المتناهية والتي استشعرها وهو تحت شجرة البندق حينما كان طائر الحسون يغرد لم تعاوده ثانية. وحسر الثوب عن جسدها وراح يتفحص خصرها الغض. وتذكر أن الرجل في الأيام السالفة كان ينظر إلى جسد الفتاة بشهوة ثم يكتفي بذلك. أما في هذه الأيام فلا يمكن أن تحس بالحب الخالص أو الشهوة النقية، فلم تعد هنالك عاطفة نقية لأن كل شيء بات يخالطه الخوف والكراهية. لقد كان عناقهما معركة ونشوتهما نصراً. كانت صفعة على وجه الحزب بل فعل تحدٍّ سياسي.

الفصل الثالث

قالت جوليا: «بإمكاننا أن نأتي إلى هنا مرة أخرى، فليس ثمة خطر في استعمال المخبأ الواحد مرتين، ولكن ليس قبل مضيّ شهر أو شهرين».

حين أفاقت جوليا بدّلت هيئتها، وأصبحت أكثر تنبّهاً وحيوية فارتدت ثيابها وشدت حزامها القرمزي حول خصرها ثم أخذت ترسم خطة الإياب ، وبدا من الطبيعي أن تُترك لها مثل هذه المهمة، فقد كانت تمتلك ما يفتقده ونستون من خبرة ودهاء يتطلبهما مثل هذا الأمر، كما كان لديها معرفة شاملة بالريف المحيط بلندن تراكمت لديها عبر الرحلات الجماعية الكثيرة التي قامت بها. كانت طريق الإياب التي رسمتها له غير تلك التي سلكها في مجيئه حيث جعلته يستقل القطار من محطة غير تلك جاء منها عند ذهابه. وقالت له كمن يرسي مبدأ عاماً وهاماً: «إياك والعودة إلى البيت من الطريق نفسه الذي سلكته في الذهاب». وحسب الخطة كانت ستغادر المكان أولا فيما سينتظر ونستون نصف ساعة قبل أن ينطلق عائداً بعدها.

وقد عينت له مكاناً يمكنهما اللقاء فيه بعد انتهاء العمل في الليلة الرابعة من ذلك التاريخ. وكان المكان عبارة عن شارع ضمن أكثر الأحياء بؤساً حيث توجد سوق مكشوفة تعج دائماً بالضجيج والازدحام، وكان من المقرر أن تتجول بين الحوانيت متظاهرة بأنها تبحث عن رباط

نعل أو خيوط لرتي الثياب، وحين ترى أن المكان آمنٌ فسوف تعطس حينما يقترب منها، وإن لم تفعل فعليه أن يمر بها كما لو كان لا يعرفها. وإذا ما حالفهم الحظ سيكون من المأمون أن يتبادلا أطراف الحديث لربع ساعة مستغلين الزحام الحاصل وعندها يمكنهما ترتيب لقاء آخر.

وبعدما انتهت من تعليماتها، قالت: «يتعين عليّ الانصراف الآن. يجب أن أكون هناك في السابعة والنصف، إذ ينبغي أن أناوب ساعتين في رابطة الشبيبة المناهضة للجنس أمضيهما في توزيع المنشورات وما شاكلها. أليس في ذلك سُخف؟ من فضلك انفض لي ثيابي. ألا زالت هناك أغصان عالقة بشعري؟ هل أنت متـأكد؟ إذن إلى اللقاء ياحبيبي، إلى اللقاء!»

قالت هذا وألقت بنفسها بين ذراعيه وأمطرته بقبلات مشبوبة، ثم انسلّت من بين ذراعيه لتشق طريقها عبر أشجار الدردار وتختفي في الغابة دون أن تحدث صوتاً. وحتى هذه اللحظة لم يكن ونستون قد عرف اسمها كاملاً أو عنوانها بعد. لكن ذلك لم يكن ذا أهمية لأنه من المستبعد أن يلتقيا داخل منزل أو أن يتبادلا أي شكل من أشكال الرسائل فيما بينهما.

لم يعودا مرة أخرى إلى ذلك المكان من الغاب. وعلى مدى بقية شهر أيار لم تتح لهما سوى فرصة واحدة لممارسة الحب .. وكان ذلك في مخبأ آخر تعرفه جوليا، إنها غرفة برج كنيسة مهدمة في منطقة ريفية شبه مهجورة حيث سقطت قنبلة ذرية قبل ثلاثين سنة. كان مخبأً آمناً، لكن بلوغه كان محفوفاً بمخاطر جمة. أما بقية اللقاءات فكانت تتم في الشارع، وفي مكان مختلف كل مرّة دون أن يتجاوز لقاؤهما الواحد نصف الساعة. ففي الشارع كان بإمكانهما أن يتبادلا الحديث بشكل ما. وكانا عندما يسيران على الأرصفة المزدحمة يحرصان على ألا يسيران متجاورين أو يلتفت واحدهما إلى الآخر، وفي أثناء ذلك يتبادلان حديثاً متقطعاً بصورة تبعث على الاستغراب حيث كان الحديث أشبه بضوء

منارة يومض ويخبو، فمثلاً قد يضطرهما مرور أحد أعضاء الحزب بزيّه الرسمي أو اقترابهما من شاشة رصد إلى صمت مفاجئ ومطبق ثم يستأنفان حديثهما بعد دقائق قليلة مبتدئين من وسط جملة كانا قد قطعا حديثهما عندها. ثم فجأة يمسكان عن الحديث عندما يفترقان في المكان المتفق عليه ليواصلا ما انقطع من حديث في اليوم التالي دون مقدمات ومن حيث انتهيا. وبدا أن جوليا متمرسة تماماً على ذلك النوع من الحديث والذي كانت تسميه (الحديث بالتقسيط)، كما أنها كانت تتمتع ببراعة فائقة في التحدث دون أن تحرك شفتيها، ولم يتمكنا إلا مرة واحدة خلال شهر من اللقاءات الليلية من تبادل قبلة وذلك عندما كانا يسيران في شارع جانبي يخيم عليه الصمت (كانت جوليا لا تتحدث مطلقاً إلا عندما تكون في شارع رئيسي) وعندما سمعا صوت زئير يصم الآذان، واهتزت الأرض من تحت أقدامهما، وعبق الجو، وكان ونستون ممدداً على الأرض وقد أثخنته الجراح وانتابته حالة من الهلع، لا بد أن قذيفة صاروخية قد سقطت بالقرب منهما. وفجأة لم يشعر إلا ووجه جوليا لا يفصله إلا بضعة سنتيمترات عن وجهه. وكان وجهاً شاحباً شحوب الموتى حتى إن شفتيها الحمراوين اصطبغتا باللون الشاحب نفسه، وظن أنها لقيت حتفها فضمّها إليه وحينما جعل يقبّلها تبيّن له أنه يقبل وجهاً حياً دافئاً. لكن بعضاً من مادة غبارية حالت بين تلاثم شفاههما إذ كان كلا الوجهين مغطّيين بطبقة من الملاط.

وكان يحدث في بعض المرات أن يبلغا مكان اللقاء ثم يضطران إلى المرور ببعضهما دون أن يتبادلا ولو إشارة، وذلك إما لأن إحدى الدوريات قد ظهرت في المكان أو لأن حوامة أخذت تحلق فوق الرؤوس. وحتى لو كانت لقاءاتهما لا تنطوي على مثل هذه الأخطار، فقد كان يتعذر عليهما أن يجدا وقت فراغ يلتقيان فيه، لأن ونستون كان يعمل ستين ساعة أسبوعياً في حين كانت جوليا تعمل أكثر من ذلك، كما كانت أيام عطلاتهما تتباين حسب ضغوط العمل ونادراً ما تتوافق. وفي

كل الأحوال كان من النادر أن تحصل جوليا على أمسية خالية تماماً من الواجبات لأنها كانت تمضي وقتاً طويلاً للغاية في الاستماع للمحاضرات، والمشاركة في التظاهرات، وتوزيع المنشورات الخاصة برابطة الشبيبة المناهض للجنس، وإعداد الرايات الخاصة بأسبوع الكراهية، وجباية الأموال لحملة الادخار وما شاكل ذلك من نشاطات. وكانت تقول في ذلك أنه يفيد كتمويه: «فإذا التزمت بصغائر القواعد يمكنك خرق كبائرها». ومن ثم فإنها حثت ونستون على أن يتطوع بأمسية أخرى يمضيها في إعداد الذخائر وهو ما كان يضطلع به أعضاء الحزب شديدو الحماس. وهكذا كان ونستون يمضي أمسية من كل أسبوع، أربع ساعات من الملل القاتل في تجميع قطع معدنية صغيرة ربما كانت فتائل قنابل في ورشة باردة وسيئة الإضاءة حيث تختلط طَرَقات المطارق، على نحو باعث على الكآبة، بالموسيقى المنبعثة من شاشات الرصد.

وعندما التقيا في برج الكنيسة كان حديثهما المتقطع يتصل بعد وصل ما تخلله من فجوات. وقد حدث ذلك في ظهيرة يوم قائظ ملتهب حيث كان الهواء في الغرفة المربعة الصغيرة التي تعلو الأجراس راكداً وحاراً وتفوح منه رائحة نفاذة لروث الحمام. وقد جلسا لساعات يتحدثان فوق أرضية الغرفة المغطاة بالغبار وبأوراق الشجر المتساقطة، ومن حين لآخر كان ينهض أحدهما ليلقي نظرة عبر ثقوب الغرفة كي يتأكد من عدم قدوم أحد.

كانت جوليا في السادسة والعشرين من عمرها، وكانت تعيش مع ثلاثين فتاة أخرى في نزل. (وكان لديها مقولة تكررها: دائماً في مستنقع النساء! لَكَم أكره النساء). كانت تعمل، كما كان يظن، على آلات كتابة الروايات في قسم الخيال وتستمتع بعملها الذي يقوم أساساً على إدارة وتشغيل محرك كهربائي قوي. وبالرغم من أنها لم تكن «بارعة»، فإنها كانت مغرمة باستعمال يديها وتشعر بالارتياح كلما وقفت أمام الآلة،

وكان بوسعها أن تصف المراحل التي تمر بها عملية تأليف رواية ابتداء بالتوجيه العام الذي تصدره لجنة التخطيط وانتهاء باللمسات الأخيرة التي تضعها الفرقة المنوط بها إعادة الكتابة. غير أن جوليا لم تكن تهتم كثيراً بشكل المنتج النهائي إذ كانت تقول إنها لا تأبه كثيراً بالقراءة، فالكتب في نظرها ليست سوى سلعة يتم إنتاجها مثلها مثل المربى وأربطة النعال.

لم يكن لديها ذكريات عما قبل الستينات، وكان الشخص الوحيد الذي أتيح لها أن تعرفه وكثيراً ما يتحدث عن أيام ما قبل الثورة هو جدّها الذي اختفى عندما كانت هي في الثامنة. وفي المدرسة كانت قائدة فريق الهوكي، وفازت بميدالية ألعاب الجمباز لدورتين متتاليتين. كما كانت قائدة فريق (في اتحاد الجواسيس) وأمينة سر أحد فروع رابطة الشبيبة قبل أن تلتحق برابطة الشبيبة المناهضة للجنس. لقد كانت دائماً تتمتع بشخصية ممتازة، بل إنها اختيرت (وهي علامة أكيدة تدل على السمعة الطيبة) لكي تعمل في أحد الأقسام الداخلية لقسم الخيال الذي كان ينتج روايات إباحية للعامة. وكان العاملون في هذا القسم ينعتونه بـ «ماك هاوس». ولقد أمضت فيه سنة حيث كانت تساعد في إنتاج كتيبات مغلفة ومختومة تحمل عناوين مثل (قصص مثيرة) أو (ليلة واحدة في مدرسة البنات) تسوّق بين شباب العامة في الخفاء فيبتاعونها باعتبارها من المحظورات التي حصلوا عليها.

سألها ونستون بفضول: «وعلام تحتوي هذه الكتب؟»

- تفاهات مقززة. إنها في الحقيقة تبعث على الملل. فهي جميعها تقوم على ست حبكات فقط تدور حولها ولكنهم يحوّرونها قليلاً في كل مرة. بالطبع أنا لم ألتحق بفريق إعادة الكتابة أبداً، فدوري يقتصر على العمل على المكشاف (الكلايدسكوب) كما أنني لست أديبة يا عزيزي ولا حتى مؤهلة لذلك.

عرف ونستون وملؤه الدهشة أن جميع العاملين في هذا القسم، ما عدا رئيسه، من الفتيات. والفكرة كانت أن الرجال أقل قدرة على كبح

غرائزهم الجنسية من النساء، ومن ثم كانت المواد التي يتعاملون معها تجعل الرجل أكثر عرضة للفساد.

وأضافت قائلة: «إنهم حتى لا يحبذون وجود المتزوجات من النساء ضمن القسم، فهم يفترضون أن الفتيات دائماً عفيفات. ولكن أمامك الآن تقف واحدة منهن».

في السادسة عشرة أقامت جوليا أول علاقة لها، وكانت مع عضو من أعضاء الحزب في الستين من عمره، وانتحر لاحقا ليتجنب القبض عليه. وأضافت: «لقد أسدى لي بذلك صنيعاً طيباً وإلا لكانوا قد انتزعوا اسمي منه فيما سيدلي به من اعترافات». ومذاك الحين عرفت الكثيرين غيره، فقد كانت الحياة من وجهة نظرها بسيطة للغاية، فالمرء يود لو يمضي أوقاتاً طيبة بينما، هم، وتعني الحزب، يريدون لو يحولوا دون ذلك. ولذا فإن المرء يلجأ لخرق هذه القواعد قدر استطاعته. وبدا أنها تعتقد أن من الطبيعي أنهم يريدون أن يسلبوك ملذاتك بقدر ما هو من الطبيعي أن يحاول المرء الإفلات من قبضتهم. وكانت تكنّ كرهاً للحزب ولا تتردد في التعبير عن ذلك بأشنع الكلمات. لكنها لم تكن توجه له انتقادات تعميمية إلا حينما يمس الأمر حياتها الشخصية فساعتئذ لم تكن تأبه مطلقاً بعقيدة الحزب. ولاحظ ونستون أنها لا تستعمل مطلقا أياً من مفردات اللغة الجديدة ما عدا تلك المتداولة في الاستخدام اليومي للغة. فمثلاً لم تسمع مطلقاً بما يسمّى «الأخوة» بل وأنكرت وجودها. وكانت ترى أن أي شكل من أشكال الثورة المنظمة ضد الحزب محكوم عليه بالفشل ولا يقوم به سوى الأغبياء والحمقى، وأما الحذاقة في نظرها فهي أن يخرق المرء القواعد ويظل على قيد الحياة بعد ذلك. وتساءل ونستون في نفسه عن عدد الذين يفكرون على شاكلتها من الجيل الأصغر، إنهم أناس تربّوا في عهد الثورة ولم يعرفوا عهداً سواه، حيث يسلّمون بالحزب كما لو كان قدراً مقدّراً لا يتغير مثله مثل السماء، فلا يتمردون على سلطته وأقصى ما يتجرّأون عليه هو أن يروغوا منه كما يروغ الأرنب من الكلب.

ولم يتطرقا في حديثهما إلى إمكانية زواجهما، فقد كان ذلك أمراً صعب المنال ويجب حتى عدم التفكير فيه. إذ لا يمكن حتى تخيل فكرة أن تسمح اللجنة المعنية بمثل هذا الزواج وحتى لو أمكن التخلص من كاترين، زوجته السابقة، بطريقة ما، فإن زواجهما كان سيظل أمراً مقطوعاً منه الرجاء تماما كحلم يقظة.

وسألته جوليا: «كيف كانت زوجتك؟»

فأجابها: «إنها كانت ... هل تعرفين كلمة «التفكير الصالح» في اللغة الجديدة؟ والتي تشير إلى الولاء الحق الذي يكنه شخص للحزب بل وعدم قدرته على التفكير الطالح».

- كلا لم تمرّ عليّ هذه الكلمة، ولكني على دراية جيدة بمثل هذا النمط من الأشخاص.

وبدأ ونستون يروي لها حكاية زواجه وكانت دهشته شديدة حينما استبان له أنها على علم بتفاصيلها الرئيسية بالفعل، إذ أمسكت بزمام الحديث بدلاً عنه وأخذت تصف له، كما لو كانت قد رأت جسد كاترين أو تحسسته، كيف أنه يتيبس بمجرد ملامسته لها وكيف أنها تدفعه عنها بكل ما أوتيت من قوة حتى حينما تكون ذراعاها تطوقان عنقه. ولم يجد ونستون غضاضة في الحديث عن مثل هذه الأمور مع جوليا. فعلى أي حال لم تعد كاترين وذكراها تقض مضجعه منذ زمن طويل إذ غدت مجرد ذكرى بغيضة على نفسه.

قال لها: «لقد كان في استطاعتي احتمالها لولا شيء واحد»، وأخبرها عن ذلك الطقس الذي كانت كاترين ترغمه على ممارسته في الليلة نفسها من كل أسبوع. وأضاف: «لقد كانت تمقت هذا الطقس ولكن لم يكن لأي شيء في الوجود أن يجعلها تكفّ عنه. لقد دأبت على تسميته ...، هل لك أن تخمني؟»

قالت جوليا: «واجبنا إزاء الحزب».

قال لها: «وكيف عرفت ذلك؟»

- لقد كنت في المدرسة يا عزيزي حيث يتلقى من هم فوق السادسة عشرة درساً في الجنس مرة في الشهر. أما داخل حركة الشبيبة فهم يغرسونه فينا غرساً على مدى سنوات، بل وأجرؤ على القول إن ذلك كان يترك تأثيراً عميقاً لدى كثير من الفتيات ولكن لا أحد يمكنه التصريح بذلك فالناس مراؤون جداً فيما يتصل بذلك.

وراحت جوليا تسترسل حول الموضوع. فمع جوليا كل شيء يرتبط بغريزتها الجنسية، فحالما يلامس أحد هذه الغريزة فإنها تصبح حادة الذكاء. وهي خلافاً لونستون كانت قد فطنت إلى المعنى الباطني للطهر الجنسي الذي يحث عليه الحزب. فهذه الغريزة لا تني توجد عالماً خاصاً بها خارج سلطان الحزب، ومن ثم كان يتعين استئصالها إذا أمكن، بل الأهم من ذلك أن الحرمان الجنسي يفضي بعضو الحزب إلى حالة من الهستيريا، وهو أمر مرغوب فيه حيث يمكن تحويله إلى نوع من حُمّى الحرب وعبادة الزعيم. وقد بسطت فكرتها على النحو الآتي:

«عندما يمارس المرء الجنس فإنه يستنفد قواه ويستشعر نوعاً من اللذة تجعله لا يأبه بعدها بشيء. وهم لا يرغبون في ذلك، لأنهم يريدونك أن تكون شعلة من النشاط طوال الوقت. وليست كل هذه المسيرات التي لا تهدأ وما يصحبها من هتافات وتلويح بالرايات إلا تنفيساً لطاقة جنسية مكبوتة. فلو كان المرء مبتهجاً في قرارة نفسه فما الذي يدفعه للاهتمام بالأخ الكبير وبالخطط الثلاثية ودقيقتي الكراهية والبقية الباقية من ترهاتهم اللعينة».

واعتبر ونستون أن ما قالته جوليا صحيحٌ، فثمة صلة وثيقة ومباشرة بين إجبار المرء لنفسه على العفّة وبين ولائه السياسي. إذ كيف يتسنى للحزب ضبط مستوى الخوف والكراهية والتصديق المطلق لدى أعضائه عند الحد المطلوب، إلا من خلال الضبط القسري لبعض الغرائز القوية لاستخدامها فيما بعد كقوة دافعة؟ ولأن الحافز الجنسي كان مصدر خطر

على الحزب فقد كان يُحَوَّل لمصلحته، وكذلك كانوا يلعبون لعبة مماثلة مع غريزة الأبوة والأمومة، فمع أن مفهوم الأسرة ظل قائماً، وظل يتمّ تشجيع الآباء والأمهاتِ على إبداء حبهم لأطفالهم بالطريقة نفسها المتبعة في العهد القديم تقريباً، فإن الأطفال على الجانب الآخر كان يتم تحويلهم، وبطريقة ممنهجة، للعمل ضد آبائهم كما يُدَرَّبون على التجسس عليهم والإبلاغ عن أي انحرافات تظهر. وهكذا أصبحت الأسرة امتداداً لشرطة الفكر، ووسيلة لضرب نوع من الحصار حول كل فرد بواسطة عملاء يحصون عليه كل حركاته وسكناته ليلاً نهاراً.

وعلى نحو مفاجئ عاود التفكير في كاترين والتي كانت ولا ريب ستشي به إلى شرطة الفكر لولا أنها كانت من الغباء إلى حدّ يجعلها لا تدرك الانحرافات الحاصلة في آرائه عن عقيدة الحزب، لكن الشيء الذي جعلها تخطر بباله حقيقة هو حرارة الجو الخانقة في ذلك التوقيت والتي جعلت العرق يتفصّد من جبينه، فبدأ يخبر جوليا عن شيء قد حدث، أو بالأحرى لم يحدث في ظهيرة صيف أخرى شديدة القيظ منذ إحدى عشرة سنة.

كان ذلك بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من زواجه، حينما ضلا طريقهما أثناء رحلة جماعية في مقاطعة «كنت»، ولم يتخلفا عن الآخرين سوى دقيقتين إذ سلكا منعطفاً خاطئاً، وفي الحال وجدا نفسيهما عند جرف لمحجر طباشير قديم بلغ ارتفاعه ما بين عشرة أو عشرين متراً وفي القاع كانت تتراكم كتل من الصخور. وقد ضلاّ طريقهما، وحالما أدركا ذلك بدت كاترين شديدة الانزعاج، فقد كان مجرد بُعدها عن الضجيج المنبعث من أصوات الرفاق كفيلاً بأن يشعرها بأنها قد اقترفت إثماً. وكانت تريد العودة سريعاً من الطريق الذي سلكاه خطأً ثم تبدأ البحث في الاتجاه الآخر. بيد أنه في هذه اللحظة استرعى انتباه ونستون بعض الزهور التي تنمو وسط شقوق الجرف الذي تحتهما. وكان بعضها ذا لونين، رغم أنهما ينبتان من الجذر نفسه.

ولأن ونستون لم يكن قد رأى زهوراً كهذه من قبل، فقد صاح: «انظري كاترين! انظري إلى هذه الزهور. تلك التي تنمو قرب القاع. إنها ذات لونين مختلفين؟»

كانت كاترين قد ولت وجهها نحو طريق العودة، ولكنها اضطرت مغتاظة أن تعود. وانحنت برأسها فوق حافة الجرف لتنظر إلى حيث يشير، كان ونستون يقف خلفها على بعد مسافة قليلة منها وقد وضع يده حول خصرها خشية أن تفقد توازنها. وفي هذه اللحظة خطرت بباله فجأة فكرة أنهما وحيدان تماما؛ فما من مخلوق بشري حولهما وما من ورقة شجر تهتز بل ولا طائر يرفرف بجناحيه. وفي مكان كهذا المكان كان احتمال وجود ميكروفون مخبأ احتمالاً جد ضئيل، وحتى لو وُجد ميكروفون فإنه لن يلتقط إلا الصوت. لقد كانت تلك الساعة أشد ساعات الظهيرة قيظاً وأكثرها إغراءً للنوم، حيث كانا يصطليان تحت أشعة الشمس، وتتصبب حبات العرق على وجه ونستون. وسرعان ما خطرت له الفكرة ....

سألته جوليا: «ولماذا لم تُلقِ بها من فوق الجرف؟ لو كنت مكانك لفعلت».

فقال: «نعم عزيزتي كنت ستفعلين. بل إنني كنت سأفعل، أو ربما كنت سأفعل، ذلك أيضاً لو أنني كنت على ما أنا عليه الآن. إنني لست متأكداً على أية حال».

- هل أنتَ آسف على أنك لم تفعل؟

- أجل، إجمالاً أنا آسف.

كانا يجلسان جنباً إلى جنب على الأرض المغطاة بالغبار فجذبها إليه وضمها ثم أراح رأسها على كتفه فتغلبت رائحة شعرها الجميلة على رائحة روث الحمام. كانت في ميعة الصبا ولا تزال تنتظر الكثير من الحياة، بيد أنها لم تدرك أن دفع شخص بغيض من فوق جرف والتخلص منه لن يحل المشكلة.

قال: «الواقع أن ذلك لم يكن ليغير من الأمر شيئاً».

قالت جوليا: «علام إذن الأسف لأنك لم تتخلص منها؟»

قال: «لأنني أفضّل الإيجابي على السلبي، ففي هذه اللعبة التي نلعبها ليس في استطاعتنا أن نفوز، إذ كل ما في الأمر أن بعض الفشل أهون من بعض».

وحينذاك أحس بارتعاشة سرت في كتفيها كدلالة على عدم موافقتها، إذ كانت تعارضه دائماً كلما تفوه بأشياء من هذا القبيل. فهي لا تسلّم إطلاقاً بفكرة أن قانون الطبيعة يحكم على الفرد دائماً بالهزيمة. وبطريقة ما كانت تعلم أن مصيرها إلى زوال، ذاك أن شرطة الفكر، إن عاجلاً أو آجلاً، ستلقي القبض عليها وتزيلها من الوجود. لكنها من وجهة نظر أخرى كانت تؤمن أنه من الممكن، بشكل من الأشكال، إقامة عالم يعيش في الخفاء ويمكنك العيش فيه حسبما تشاء وتختار. وكل ما تحتاج إليه لتحقيق ذلك العالم هو حظ ودهاء وجرأة. بيد أنها لم تدرك أنه ليس ثمة ما يسمى بالسعادة، وأن النصر الوحيد الذي يمكن تحقيقه قابع في المستقبل البعيد الذي سيأتي بعد موتك بأمد طويل، كما لم تكن تدرك أنه يجدر بالمرء أن يعتبر نفسه جثة بلا روح منذ اللحظة التي يعلن فيها الحرب على الحزب.

علّق: «إننا في عداد الموتى».

فقالت جوليا بإصرار: «إننا لم نمت بعد».

قال: «أوافقك أننا لم نمت جسدياً. لكن بعد ستة أشهر، سنة، خمس سنوات حسبما أتصور سنكون من الموتى. إنني أخاف الموت، وأنتِ أصغر مني سناً وربما تخافين الموت أكثر مني. لا ريب أننا سنحاول إرجاء قدومه قدر المستطاع، وإن كان ذلك لن يغير من حقيقة الأمر شيئا، فما دام الإنسان هو الإنسان فإن الموت والحياة لديه يصبحان وجهين لعملة واحدة».

قالت جوليا: «إن هذا لهراء. ترى مع أي منا تحب أن تنام الآن، معي أم مع هيكل عظمي؟ ألا تستمتع بكونك على قيد الحياة؟ ألا تحب أن تتحسسني؟ ها أنا ذا، وهذه يدي، وهذه ساقي، أنا حقيقية، أنا موجودة، إنني حية! ألا تحب هذا؟»

ودنت منه لتضغط بصدرها على صدره. أحسّ نهديها ناضجين وبارزين من خلال معطفها. وبدا جسدها كما لو كان يصبّ بعضاً من عنفوانها وحيويتها في جسده.

فأجاب: «بلى، أحب ذلك».

قالت: «إذن كف عن ذكر الموت. والآن أصغِ إليّ عزيزي، علينا أن نتفق على موعد لقائنا القادم، يمكننا أن نعود إلى مكاننا في الغاب، فقد غبنا عنه فترة طويلة، ولكن يجب علينا أن نسلك طريقاً آخر هذه المرة. لقد حددت كل شيء. استقل القطار... لكن انظر، سأرسمه لك».

وبطريقتها العملية مسحت جزءاً صغيراً من الأرض المغطاة بالغبار، واستلّت ريشة من عش حمام وراحت ترسم خريطة الطريق.

الفصل الرابع

راح ونستون يُقلّب نظره في زوايا الغرفة الوضيعة الصغيرة الكائنة فوق حانوت السيد شارنغتون. كان فيها سرير ضخم ينتصب مرتباً بجوار النافذة وعليه أغطية بالية. وكان فوق المتكأ العلوي للمدفأة ساعة عتيقة من ذات الاثني عشر رقما تسمع دقاتها. وفي زاوية الغرفة شبه المعتمة كان يومض وعلى نحو ضعيف ثقل الورق الزجاجي الذي اشتراه في آخر زيارة له إلى ذلك الحانوت.

قرب سياج المدفأة كان هنالك موقد زيتي من الصفيح أكل الدهر عليه، فضلاً عن إبريق وفنجانين أمدّه بها السيد شارنغتون. أشعل ونستون شريط الموقد ثم وضع فوقه إبريق الماء ليغلي، وكان قد أحضر معه عبوة من قهوة النصر وبعض مكعبات السكرين. كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة مساء، فيما هي في الواقع السابعة والثلث. أما موعد وصول جوليا فكان في السابعة والنصف.

راح قلبه ينبض خوفاً بكلمات: إنها لحماقة! إنها لحماقة، إني أجرجر نفسي متعمداً إلى موت زؤام مجاني، فالجريمة التي أوشك على ارتكابها هي من الجرائم التي لا يمكن لعضو الحزب أن يتملّص منها. لقد انبجست في ذهنه هذه الفكرة للمرة الأولى وأثارتها في مخيلته رؤيته للثقل الزجاجي الذي انعكس على سطح الطاولة المطوية. وكما تكهن فإن السيد شارنغتون لم يجد غضاضة في أن يؤجر الغرفة له، وبدا جلياً

أن حفنة الدولارات التي سيدرّها عليه ذلك قد سرّته كثيراً حتى أنه لم يظهر عليه أي أثر لصدمة أو شعور بالتأذي لدى معرفته بأن ونستون ينوي أن يتخذها ملاذاً لممارسة الحب، بل وعلى النقيض من ذلك راح يتظاهر بعدم المبالاة وجعل يسترسل في الحديث عن مبادئ عامة وبلهجة لطيفة تعطي انطباعاً بأنه ليس له وجود بالغرفة. وقال لقد كانت الخصوصية شيئاً ثميناً جداً، فالمرء يحتاج من وقت لآخر إلى موئل يختلي فيه بنفسه، وأصول اللياقة الاجتماعية تقضي بأن يحتفظ كل من تناهى إلى معرفته هذا الأمر بالمعلومات لنفسه، بل وبدا وكأنه يتلاشى نهائياً ويلغي وجوده وهو يضيف قائلاً: «إن للمنزل مدخلين، أحدهما يمر عبر الساحة الخلفية ويطل على زقاق».

وتحت النافذة كان هنالك شخص يغني، فاسترق ونستون النظر محتمياً وراء ستار الموسلين، وكانت شمس حزيران لا تزال في كبد السماء، حيث كان ينظر في الساحة التي غمرتها الشمس إلى تلك المرأة الضخمة التي جعلها بنيانها المتين أشبه بعمود نورماندي، فكانت ذات ساعدين مفتولي العضلات حمراوي اللون تلفّ حول خصرها مئزراً، كما كانت تروح وتجيء بين وعاء الغسيل والحبل حيث كانت تعلق أشياء صغيرة بيضاء اللون أدرك ونستون أنها حفاضات أطفال، وكانت كلما انتهت من مشاجب الغسيل التي تحملها بين شفتيها تنطلق بالغناء بصوت جهوري:

«كان حلماً مقطوع الرجاء
مر كيوم من نيسان
ولكن بنظرة وكلمة وأحلام أثاروها
استُلب مني فؤادي».

ظلت أصداء هذه الأغنية تتردد في أنحاء لندن على مدى أسابيع، لقد كانت واحدة من أغنيات مشابهة لا حصر لها يوجهها أحد فروع قسم الموسيقى إلى العامة، وكانت كلماتها تؤلف دون أي تدخّل بشري

بواسطة جهاز يعرف باسم «الناظم». غير أن المرأة كانت تغنيها بطريقة بعثت الحياة في كلماتها ما جعل هذه السخافات الكئيبة تتحول إلى أصوات تبعث على السرور. كان ونستون يسمع المرأة وهي تغني، كما يسمع وقع احتكاك حذائها وهي تجرجره على أحجار الشارع مختلطاً بصراخ الأطفال في الشارع. كما كان يتناهى إلى السمع هدير خافت لحركة الشاحنات يأتي من أفق بعيد، ومع ذلك ظل سكون عجيب يخيم على الغرفة، وربما كان مردّ ذلك عدم وجود شاشة رصد في الغرفة.

وعاد يحدث نفسه: يا لها من فكرة حمقاء، إنه لمن المستبعد التردد على هذا المكان لأكثر من بضعة أسابيع بغير افتضاح سترهما. ولكن فكرة أن يمتلكا مكاناً مغلقاً وآمناً وفي متناولهما كانت تمارس على كليهما إغراء لا يقاوم، إذ تعذّر عليهما لفترة بعد لقائهما في برج الكنيسة ترتيب لقاءات جديدة، فقد ازدادت ساعات العمل بشكل لا يُحتمل استعداداً لفعاليات «أسبوع الكراهية». ومع أنه كان لا يزال هناك شهر قبل حلول هذا الأسبوع فإن الاستعدادات الهائلة والمعقدة التي تسبقه ألقت بمزيد من الأعباء على كاهل كل شخص. وأخيراً تمكن كل منهما من تدبير نصف يوم عطلة في اليوم نفسه، وكانا قد اتفقا على أن يعودا إلى مخدعهما في الغاب. وفي المساء الذي سبق الموعد المضروب التقيا على نحو خاطف في الشارع، وكالمعتاد لم يتطلع ونستون مباشرة إلى جوليا وهما يسيران واحدهما في اتجاه الآخر في قلب الزحام، بيد أنه مع ذلك لاحظ من خلال هذه النظرة الخاطفة أن جوليا أكثر شحوبا من ذي قبل.

وحينما تبيّن لها أن لا خطر يتهددها إن هي تكلمت، غمغمت تقول: «لقد تم إلغاء الموعد، أقصد موعد الغد».

أجاب ونستون: «ماذا؟»

قالت: «لن أستطيع المجيء بعد ظهر الغد».

قال: «ولِمَ لا؟»

أجابت: «للسبب المعتاد نفسه، لقد بدأت الاستعدادات أبكر في هذه المرة».

وتملّك ونستون غضبٌ عارم. فخلال الشهر الذي مضى كان ثمة تغيير قد طرأ على طبيعة رغبته إزائها. في أول الأمر كانت مفعمة بالقليل من الشهوة الحقيقية، وكان أول لقاء حب يضمهما بمثابة عمل صادر عن إرادة لا رغبة. لكن ذلك تغيّر في المرة الثانية، إذ إن رائحة شعرها وفمها وملمس بشرتها قد تغلغلت في جوانحه وملأت الهواء الذي يحيط به وأصبحت ضرورة بالنسبة إليه، بل استحالت شيئاً لا يريده فحسب بل يشعر أيضا بأن من حقه الحصول عليه. ولذلك فعندما قالت إنها لن تستطيع المجيء ساوره شعور بأنها تخادعه، ولكن في هذه اللحظة ازداد ضغط الزحام فالتقت أيديهما مصادفة، وشعر بها تضغط على أطراف أصابعه بشكل لا يثير الرغبة بل يحرك العاطفة. وحدثته نفسه أن المرء حينما يعيش مع امرأة يجب أن يعتبر خيبة الرجاء هذه أمراً عادياً وحدثاً متكرراً، وهنا شعر بعاطفة مشبوبة إزاءها كما لم يشعر من قبل. ومنّى نفسه لو أنه قد تزوجها قبل عشر سنوات، ولو أنه كان يستطيع أن يمشي معها في الشوارع كما يفعلان الآن ولكن علانية ودون خوف، ويتبادلان الحديث حول التفاهات ويشتريان معاً احتياجات بيتهما. وفوق كل ذلك تمنى لو كان لديهما مكان يختليان فيه معاً دون رقيب أو حسيب وبغير أن يكون لزاماً عليهما أن يمارسا الحب في كل مرة يلتقيان فيها. لم تكن فكرة استئجار غرفة السيد شارنغتون قد خطرت له في تلك اللحظة، بل حدَث ذلك في اليوم التالي، ولم يكد يعرضها على جوليا حتى قبلتها بسرعة لم يتوقعها. كان كلاهما يعي أن هذا عمل طائش، إذ كانا كمن يحفران قبريهما بمحض إرادتهما. وبينما كان يجلس على حافة السرير راح يفكر ثانية في زنزانات وزارة الحب. إنه لأمر غريب أن هذا الفزع المحكوم به على الإنسان يجتاح وعيه حيناً ويختفي حيناً، فهو يكمن هناك في المستقبل، ويستبق الموت تماما مثلما يسبق الرقم 99 المائة.

فالمرء لا يستطيع تحاشيه وإن كان يستطيع إرجاءه، ومع ذلك فإن على المرء من حين لآخر أن يختار بمحض إرادته أن يقصّر الفترة التي تسبق وقوعه.

وفي تلك اللحظة سمع ونستون وقع أقدام سريعة على السلم اندفعت على أثرها جوليا إلى داخل الغرفة، وكانت تحمل حقيبة أدوات من قماش خشن بني اللون مثل تلك التي كان يراها تحملها في أروقة من الوزارة. فنهض وتقدم نحوها ليأخذها بين ذراعيه ولكنها تخلصت منه بسرعة ربما لأنها كانت لا تزال تحمل الحقيبة.

وقالت: «لحظة من فضلك، دعني أريك ما أحضرت معي. هل أحضرت معك بن النصر البغيض؟ لا بد أنك فعلت. يمكنك أن ترمي به بعيدا لأننا لن نحتاج إليه بعد الآن. انظر». ونزلت على ركبتيها وفتحت الحقيبة وأخرجت ما بها من مفاتيح ربط ومفكات كانت تغطي القسم الأعلى منها حيث كانت تضع تحتها عبوات ورقية أنيقة. وكانت العبوة الأولى التي ناولتها إلى ونستون ذات ملمس غريب وغامض بعض الشيء، لقد كانت معبأة بمادة ثقيلة أشبه بالرمل.

قال: «ما هذا؟ سكر؟»

- إنه سكر حقيقي لا مكعبات السكرين. وهذا رغيف من الخبز- الخبز الأبيض الرائع، لا الخبز الكريه الذي يُعطى لنا. وها هي علبة صغيرة من المربى. وإليك بعضاً من الحليب. لكن انظر هذا هو الشيء الذي أفخر به حقاً، لقد اضطررت للفّه بقطعة من الخيش لأنه...

ولم تكن ثمة حاجة لأن تشرح له لماذا اضطرت للفّ هذا الشيء، فقد كانت رائحته قد ملأت الغرفة بالفعل وكانت رائحة غنية ودافئة بدت وكأنها انبعاثات آتية من عالم طفولته الأولى: رائحة لا تصادف المرء في الوقت الراهن إلا حينما تفوح من خلف باب موصد يطل على ممر أو تنبعث بطريقة ما في شارع مكتظ بالناس حيث يستنشقها المرء للحظة ثم تختفي ثانية.

همس ونستون بدهشة: «إنه بُنّ، بُنّ حقيقي».

- إنه البن الذي يشربه أعضاء الحزب الداخلي. إليك كيلو كاملاً منها.

- ولكن كيف تسنى لكِ الحصول على مثل هذه الأشياء؟

- إنها كلها مواد خاصة بالحزب الداخلي. ليس ثمة ما ينقص هؤلاء الأوغاد، ولكن بطبيعة الحال يستطيع الخدم والندل أن يسرقوا بعضاً منها خلسة ... انظر لقد حصلت على عبوة من الشاي أيضاً.

جلس ونستون القرفصاء بجانبها ومزق إحدى عبوات الشاي ثم صاح قائلاً: «إنه شاي حقيقي لا أوراق شجر العليق».

وقالت جوليا بغموض: «لقد أصبح لديهم كميات كبيرة منه في الآونة الأخيرة كما لو كانوا قد احتلوا الهند أو شيئاً من هذا القبيل. والآن أصغ إليّ عزيزي: إني أريدك أن تدير ظهرك لثلاث دقائق. اذهب واجلس على الجانب الآخر من السرير ولا تقترب من النافذة ولا تستدر نحوي إلا عندما أطلب منك ذلك».

وراح ونستون يحدق من خلال ستار الموسلين وهو غائب الذهن، وكان يبدو أن المرأة ذات الساعدين حمراوي اللون لا زالت تروح وتجيء في الساحة بين وعاء الغسيل وحبل الغسيل. وأخرجت مشجبي غسيل من فمها وهي تغني بحس عميق:

«يقولون إن الزمن يداوي كل الجراح
يقولون إن المرء بوسعه دائماً النسيان
بيد أن الابتسامات والدموع عبر السنين
ما تزال حتى الآن تقطع نياط قلبي!»

كان يبدو أن المرأة تحفظ جميع مقاطع هذه الأغنية عن ظهر قلب. وأخذ صوتها يسري لأعلى محمولاً على أجنحة نسيم الصيف العليل وعلى لحن رقيق مفعم بشعور ينم عن سعادة تخالطها الكآبة. وكان

الناظر إليها يخامره شعور بأنها ستكون راضية كل الرضا لو أن أمسية حزيران هذه قد امتدت بلا نهاية ولو أن ما لديها من ثياب مغسولة لا ينفد حتى تظل على حالها هذه لألف عام تعلق فيها حفاضات الأطفال وتردد الأغنيات التافهة. وتنبه إلى أن من غريب الحقائق أنه لم يسبق له أن سمع عضواً من الحزب وهو يغني وحده وبهذه التلقائية، إذ كان ذلك قميناً بأن يبدو شكلاً من أشكال عدم الولاء وانحرافاً عن مبادئ الحزب وشذوذاً خطيراً يرقى إلى مستوى كلام المرء إلى نفسه. وربما لم يكن الناس يبحثون عن شيء للتغني به إلا حينما يصبحون على شفير الموت جوعاً.

مرّت الدقائق الثلاث، فقالت جوليا: «يمكنك أن تستدير الآن».

استدار ونستون وللحظة بدا له أنه لا يعرفها. وكان في الحقيقة يتوقع أن يراها عارية، بيد أنها لم تكن كذلك، فالتحول الذي جرى عليها كان أكثر إثارة للدهشة من التعري. ذلك أنها كانت قد طلت وجهها بمساحيق الزينة وتلويناتها.

لا بد أنها قد انسلّت إلى أحد الحوانيت الكائنة في أحياء العامة واشترت لنفسها مجموعة من أدوات الزينة. كانت شفتاها قد ازدادتا احمراراً ووجنتاها قد توردتا وأنفها قد طاله شيء من المسحوق، بل وكان هناك أثر لشيء ما تحت عينيها يجعلهما أكثر بريقاً. نعم، لم يكن قيامها بذلك كله قد تم ببراعة، ولكن مقاييس ونستون أيضاً في مثل هذه الأمور لم تكن رفيعة، إذ لم يسبق له أن رأى أو حتى تخيل امرأة من الحزب تصبغ وجهها بمساحيق الزينة. لقد كان التغيير الذي طرأ على مظهرها مثيراً للدهشة، فهي لم تصبح أكثر جمالاً فحسب بل أيضا، وهو الأهم، أكثر أنوثة. وقد زاد من روعة مظهرها هذا شعرها القصير وزيها الصبياني. وما إن ضمها بين ذراعيه حتى غمرت أنفه رائحة زهور بنفسج صناعي، وعادت به الذاكرة في الحال إلى العتمة التي كانت تخيم على المطبخ شبه المعتم سيئ الذكر وإلى المرأة ذات الفم كالمغارة. ورغم أن

عطر جوليا هو نفسه العطر الذي كانت تستعمله تلك المرأة، لكنه في هذه اللحظة كان ذا أثر مغاير.

وصاح: «وعطر أيضاً!»

- أجل يا عزيزي، عطر أيضاً. هل تدري ما أنوي عمله في المرة التالية؟ سوف أجيء بثوب نسائي حقيقي وألبسه هنا عوضاً عن هذه البنطلونات اللعينة! سوف ألبس أيضاً جورباً حريرياً وحذاء عالي الكعب. أريد أن أكون في هذه الغرفة امرأة لا رفيقة حزبية.

ثم خلعا ملابسهما وقذفا بها بعيداً واعتليا السرير الخشبي الضخم. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتجرد فيها من ثيابه كاملة مع جوليا، فحتى تلك اللحظة كان ما يزال يشعر بخجل شديد من جسمه النحيل الشاحب وتلك الدوالي البارزة في بطتي ساقيه وكذلك البقعة المشوهة اللون فوق كاحله، ولم يكن فوق السرير أي شراشف سوى تلك البطانية البالية التي كانت خيوطها قد بليت حتى أصبحت ملساء، وما إن رقدا عليها حتى تملكتهما الدهشة من ضخامة السرير ومرونة نوابضه. وقالت جوليا: «لا ريب أنه محشو بالبق، لكن ذلك لا يعنينا في شيء!» لم يعد المرء يرى أسرة مزدوجة هذه الأيام اللهم إلا في بيوت العامة. لقد نام ونستون في واحد منها في صباه، أما جوليا فلا تتذكر أن فرصة كهذه أتيحت لها من قبل.

وللتو راحا في نوم عميق لفترة وجيزة. وعندما استيقظ ونستون كانت عقارب الساعة قد زحفت حتى قاربت التاسعة مساء، لكنه لم يتحرك لأن جوليا كانت لا تزال نائمة متوسدة ذراعه. كانت معظم مساحيق زينتها قد انتقلت إلى وجهه فضلا عن الوسادة، لكن ثمة بقعة خفيفة من اللون الأحمر كانت لا تزال تبرز جمال وجنتيها. وفوق مؤخرة السرير كان شعاع أصفر من أشعة الشمس الغاربة يسقط فينعكس ضوؤه على موقد النار حيث يغلي الماء في الإبريق. أما في الأسفل، في الساحة، فكانت المرأة قد كفّت عن الغناء، إلا أن صياح الأطفال في

الشارع كان يتناهى إلى مسامعه عبر النافذة. وأخذ ونستون يتساءل في غموض عما إذا كان أمراً طبيعياً في ماضي الأيام الغابرة أن ينام معاً، في سرير مثل هذا ووسط الجو المنعش لأمسية صيفية كهذه، رجل وامرأة وهما متجردين من كل ثياب، يمارسان الحب متى شاءا ذلك ويتبادلان الحديث متى شاءا، ودون أن يشعرا بأن ثمة ما يضطرهما إلى مغادرة فراشهما. هل كان أمراً عادياً أن يضطجعا بكل بساطة لا يشغلهما إلا الإصغاء إلى الأصوات الهادئة الآتية من الخارج؟ لا ريب أن شيئاً من ذلك لم يكن عادياً في يوم من الأيام. وهنا استيقظت جوليا وفركت عينيها ثم رفعت نفسها متكئة على مرفقها ونظرت إلى الموقد الزيتي.

وقالت: «لقد تبخر نصف الماء، سأنهض وأعدّ بعض القهوة خلال لحظة. أمامنا ساعة بعد. في أي ساعة يقطعون الكهرباء عن شققكم؟»

- في الحادية عشرة والنصف مساء.

- إنهم في نزلنا يقطعونه في الحادية عشرة مساء، ولكن علينا أن نكون هناك قبل ذلك لأن . . . آه ما هذا؟ اخرج أيها الوحش القذر!

وألقت ببعض جسمها فجأة من فوق السرير حيث التقطت حذاء من على الأرض وقذفت به بحركة صبيانية نحو زاوية من زوايا الغرفة، تماماً كما رآها تلقي بالقاموس في وجه غولدشتاين في ذلك الصباح أثناء «دقيقتي الكراهية».

سألها بدهشة: «ما هذا؟»

- إنه جرذ رأيته يمد أنفه اللعين من ثقب في الغطاء الخشبي. لقد أخفته على أي حال.

- فغمغم ونستون: «جرذان! حتى في هذه الغرفة!»

فقالت جوليا غير آبهة وهي تعاود الاضطجاع:

- إنها موجودة في كل مكان. حتى في مطبخ نزلنا، كما أن بعض المناطق في لندن تغص بها غصاً. هل تعلم أنها تهاجم الأطفال؟ نعم إنها

تفعل. وفي بعض الشوارع لا تجرؤ أم على ترك طفلها بمفرده لدقيقتين. إن الجرذان الضخمة بنية اللون هي التي تهاجم، وأقبح ما يفعله هذا النوع من الجرذان هو أنها دائماً...

فقاطعها ونستون مغمضاً عينيه تماماً: «كفاك حديثاً في هذا الموضوع».

- ما بالك يا حبيبي، لقد شحب لونك. ما الأمر؟ هل تصيبك رؤيتها بالغثيان؟

- إن أكثر ما يرعبني في هذا العالم هو الجرذان.

فضمّته إلى جسدها وأحاطته بأطرافها كأنما أرادت أن تبث فيه الطمأنينة بدفء جسدها. لكنه لم يفتح عينيه مرة أخرى مباشرة، فقد مرت به لحظات تملّكه خلالها شعور بأن ذلك الكابوس الذي كان لا يفتأ ينتابه من حين لآخر طوال حياته قد عاوده من جديد. لقد كان دائماً الكابوس نفسه الذي يرى فيه نفسه واقفاً أمام جدار من الظلام وعلى الجانب الآخر كان ثمة شيء لا يمكن احتماله، إنه شيء كريه على النفس لا يمكن للمرء مواجهته. وفي ذلك الحلم الكابوس كان ما يستحوذ عليه هو شعوره بأنه يخادع ذاته، لأنه في واقع الأمر كان يعلم ما وراء هذا الجدار، وبجهد جهيد، وكأنما ينتزع قطعة من مخّه، كان يمكنه أن يخرج هذا الشيء إلى النور. بيد أنه كان دائماً يستيقظ دون أن يكتنه هوية ذلك الشيء: رغم أنه كان يبدو وكأن رابطاً ما يربطه بما كانت جوليا تتحدث عنه حينما قاطعها.

- إنني آسف، لا شيء، كل ما في الأمر هو أنني لا أحب الجرذان.

- هدئ من روعك حبيبي، فلن نبقي على هذه الحيوانات اللعينة هنا، سأحشو هذا الثقب بقطعة من الخيش قبل أن ننصرف، وفي المرة التالية عند قدومنا سأحضر معي بعض الاسمنت وأسده على نحو مضمون.

كانت نوبة الفزع التي انتابت ونستون قد أخذت في الزوال. ولشعوره بالخجل من نفسه جلس متكئاً على مقدمة السرير، في حين كانت جوليا قد نهضت وارتدت زيها الرسمي وأعدّت القهوة. كانت الرائحة المتصاعدة من الغلاية قوية ونفاذة حتى أنهما أوصدا النافذة خشية تسربها إلى الخارج لئلا تلفت الأنظار وتصبح الغرفة مثارا للشكوك. ولم يكن ثمة ما هو ألذ مذاقا من القهوة إلا ذلك الطعم حريري الملمس الذي أكسبها إياه السكر، الذي كاد ونستون ينساه بعد أن ظل لسنوات لا يستعمل إلا السكرين. أما جوليا فقد أخذت تتجول في الغرفة وقد دسّت إحدى يديها في جيبها فيما الأخرى تمسك بقطعة خبز بالمربى وهي تتطلع بلا مبالاة إلى رف الكتب في محاولة لاستكشاف أفضل الطرق لإصلاح قوائم الطاولة المطوية، ثم ألقت بنفسها فوق المقعد البالي ذي المسندين لترى ما إذا كان مريحاً أم لا؟ ثم مضت تتفحص الساعة ذات الاثني عشر رقماً عتيقة الطراز بارتياح من يتسلى بشيء، ثم حملت الثقل الزجاجي إلى السرير لتمعن النظر فيه. ولكنه أخذها من يدها مأخوذاً كالعادة بمنظر الزجاج الناعم الذي يشبه ماء المطر.

فسألته جوليا: «ماذا تظن هذا يا ترى؟»

- لا أظن أنها شيء مهمّ، أقصد أنه لم يسبق لها أن كانت ذات فائدة في يوم من الأيام. وهذا هو ما أحبه فيها. إنها أثر من الماضي فاتهم أن يمحوه. إنها رسالة يعود تاريخها إلى مئة عام، هذا إن استطاع المرء أن يقرأها.

وأومأت جوليا صوب الصورة ذات القضبان المحفورة والمعلقة فوق الحائط قائلة: «وماذا عن هذه الصورة؟ هل يمكن أن يكون عمرها مئة عام؟»

أجاب ونستون: «أكثر من ذلك، ربما مئتي عام. لكن هذا ما لا يستطيع أحد أن يجزم فيه، فقد بات من المستحيل على المرء أن يحدد عمر أي شيء في هذه الأيام».

ودنت جوليا من الصورة لتنعم النظر فيها ثم قالت وهي تركل الغطاء الخشبي للحائط أسفل الصورة مباشرة: «ها هو الثقب الذي أطل الجرذ اللعين بأنفه منه. ما هذا المكان؟ أذكر أنني رأيته قبل ذلك».

قال ونستون: «إنها كنيسة، أو على الأقل كانت كنيسة القديس سانت كليمنت دان».

وحينئذ كانت أصداء مقطع الأغنية التي لقنه إياها السيد شارنغتون قد عاد يتردد في ذاكرته وأضاف بلهجة مفعمة بالحنين إلى الماضي: «برتقال وليمون، تقول أجراس سانت كليمنت!»

ولدهشته أكملت جوليا المقطع بما يلي:

«إنك مدين لي بثلاث فارذنج، تقول أجراس سانت مارتن،

فمتى ستدفعيها؟ تقول أجراس أولد بايلي . . .»

وأضافت تقول: «لست أذكر ماذا تقول الأغنية بعد ذلك. ولكنني أذكر أنها تنتهي على النحو الآتي: ها هي شمعة تستضيء بها إلى فراشك، وها هو سيف لحزّ رقبتك».

كان الأمر أشبه بمقطعين تتألف منهما كلمة سر، ولكن كان لا بد أن يكون ثمة شطر آخر بعد «أجراس أولد بايلي»، ربما يمكن انتزاعه من ذاكرة السيد شارنغتون إذا أمكن تذكيره به على نحو مناسب.

سألها: «لكن من علمك هذا؟»

- إنه جَدّي، لقد اعتاد أن يرددها لي وأنا بعد فتاة صغيرة. لقد تبخر عندما كنت في الثامنة أو اختفى على أي حال. وأضافت بشكل غير متجانس: ترى ماذا كان شكل الليمونة؟ لقد رأيت البرتقال، إنه فاكهة مستديرة صفراء اللون ذات قشرة سميكة.

قال ونستون: «أنا أستطيع تذكر الليمون، لقد كان شائع الانتشار في الخمسينات وكان شديد الحموضة إلى حد يجعلك تصرين صريراً على أسنانك بمجرد أن تتذوّقيه».

قالت جوليا: «أراهن أن هذه الصورة تؤوي بقّاً خلفها. سوف أنزلها من مكانها وأنظفها جيداً في يوم من الأيام. أظن أن وقت انصرافنا قد حان. يجب أن أبدأ في إزالة هذه الزينة عن وجهي، يا له من عمل مزعج. وسوف أزيل أحمر الشفاة عن وجهك فيما بعد».

ولم ينهض ونستون رغم مرور بضع دقائق أخرى. كان الظلام قد بدأ يسدل ستاره على الغرفة، فاستدار ناحية انبعاث الضوء وراح يحدق في الثقل الزجاجي. وما كان يثير لديه دهشة لا تنقطع ليس قطعة المرجان بل لب الزجاج الذي يحيط بها والذي كان يبدو شفافاً كالهواء رغم عمقه السحيق. وبدا كما لو أن سطح الزجاج قوساً سماوياً يضم عالماً صغيراً بكل أجوائه. وانتابه شعور بأنه يمكنه أن يدلف إلى هذا العالم، بل إنه في الواقع موجود بداخله مع السرير الخشبي والطاولة المطوية والساعة والقضبان المحفورة والثقل الزجاجي ذاته. فالثقل بمثابة الغرفة التي تحتويه وقطعة المرجان هي حياة جوليا وحياته وهما مثبتتين بنوع من الروابط الأبدية في قلب البلور ذاته.

الفصل الخامس

اختفى سايم. ففي ذات صباح تغيّب عن عمله، ولم يتساءل عن سبب اختفائه إلا بضعة أشخاص مغفلين. وفي اليوم التالي أصبح طي النسيان ولم يأت على ذكره أحد، وفي اليوم الثالث ذهب ونستون إلى قاعة قسم السجلات ليلقي نظرة على لوحة الإعلانات، وكانت إحداها تحمل لائحة بأسماء أعضاء لجنة الشطرنج التي كان سايم عضواً فيها، وبدت اللائحة كما كانت تبدو من قبل تماماً، إلا أنها نقصت اسما واحداً. وكان في ذلك دلالة كافية على أن سايم لم يعد له وجود، بل لم يكن له وجود من قبل على الإطلاق.

كان الطقس حاراً جدّاً، وفي الوزارة الأشبه بالمتاهة والمعدومة النوافذ كانت الغرف مكيفة الهواء تحتفظ بدرجة حرارة طبيعية، أما في الخارج فكان لهيب الحرارة على الأرصفة يشوي أقدام المارة كما كانت رائحة قطارات الأنفاق المزدحمة في ساعات الذروة تزكم الأنوف، وكانت الاستعدادات لأسبوع الكراهية تجري على قدم وساق، وموظفو كافة الوزارات يعملون ساعات إضافية، إذ كان يتعين عليهم تنظيم المواكب والاجتماعات والاستعراضات العسكرية والمحاضرات والتماثيل الشمعية والعروض السينمائية وبرامج شاشات الرصد، كما كانوا يعملون على نصب الحوامل للتماثيل وصُنع دمى لشخصيات معينة ونقش الشعارات وصياغة الأغاني وإطلاق الشائعات وتزييف الصور. ولذلك

توقفت وحدة جوليا في قسم الخيال عن إنتاج الروايات من أجل الإسراع في إصدار سلسلة من المنشورات التي تصور الفظاعات التي يقترفها الأعداء. أما ونستون فكان، إضافة إلى عمله المعتاد، يصرف الساعات الطوال كل يوم في مراجعة ملفات الأعداد القديمة من صحيفة التايمز وذلك لتغيير أو تحريف فقرات إخبارية كان يتعين الاستشهاد بها في ما سيلقى من خطابات. في تلك الأيام كانت المدينة في حركة محمومة حيث تنزل الجموع المثيرة للشغب من العامة لتطوف في الشوارع في أوقات متأخرة من الليل، كما كانت القذائف الصاروخية تتساقط على المدينة بمعدل يفوق أي وقت آخر، وكان دوي انفجارات هائلة يُسمع عن بعد دون أن يجد أحد تفسيراً له، الأمر الذي كان يسمح بتطاير شائعات لامعقولة حولها.

وكان اللحن الجديد لأغنية أسبوع الكراهية (وكانوا يطلقون عليها أغنية الكراهية) يبثّ عبر شاشات الرصد دون توقف. لحن كان في عمومه أبعد ما يكون عن الموسيقى بسبب ما كان يميزه من إيقاع وحشي يجعله أقرب إلى نباح الكلاب وأشبه بدق الطبول، كما كان يزرع الذعر في النفوس حينما تزأر به مئات الحناجر على وقع أقدام الجند وهي تضرب الأرض. أما العامة فقد أغرموا بها حتى أنها دخلت في المنافسة مع الأغنية القديمة التي كانت لا تزال تحظى لديهم بشعبية كبيرة والتي تقول «كان حلماً مقطوع الرجاء»، كما كان أطفال بارصون يعزفونها ليل نهار وبصورة لا تحتمل على أسنان مشط وقطعة من ورق الحمام. وهكذا أصبحت أمسيات ونستون أكثر ازدحاما بالمهام من أي وقت مضى، كما شُكلت فرق من المتطوعين يقودها بارصون كانت مهمتها هي إعداد الشوارع لاستقبال أسبوع الكراهية، فيحيكون الرايات ويرسمون الصور ويخطون اللافتات وينصبون صواري الأعلام فوق المنازل ويمدون الأسلاك عبر الشوارع، بشكل يعرضهم للخطر، لاستقبال المحتفلين من حَمَلَة الأعلام. وكان بارصون يباهي، وهو في أوج نشاطه وسعادته، بأن

بنايات النصر وحدها ستعرض أربعمائة متر من قماش الرايات، كما بدا أن شدة الحرارة والعمل اليدوي قد أعطياه الذريعة للعودة إلى ارتداء السروال القصير والقميص المفتوح في المساء، كما غدا شعلة من النشاط والحركة إذ تراه دافعاً شيئاً وجارّاً آخر، ناشراً أو طارقاً بمطرقة، يلاطف هذا ويمازح ذاك بطريقة رفاقية، ويقوم بما تمليه عليه المواقف. وهو في كل ذلك كان يطلق من كل طية من طيات جسمه ما بدا معيناً لا ينضب من عرق كريه الرائحة يزكم الأنوف.

وفجأة ظهرت ملصقة جديدة في كافة أرجاء لندن، لم تكن تحمل أي كتابات أو تسمية بل كانت تمثل صورة مخيفة لجندي أوراسي يراوح طوله ما بين ثلاثة إلى أربعة أمتار وهو يخطو إلى الأمام بوجه منغولي جامد الملامح منتعلاً حذاء ضخماً ومتأبطاً مدفعاً رشاشاً. ومن أي زاوية نظرت إلى الملصقة بدت فوهة المدفع على نحو أكبر وأقرب وهو يسددها نحوك مباشرة. ولم يُترك مكان خال على جدار في لندن إلا وعُلقت عليه هذه الملصقة حتى أنها فاقت صور الأخ الكبير عدداً، بل لقد كانت تدفع بالعامة الذين يقفون في العادة موقفاً لامبالياً من الحرب إلى الانخراط في نوبات من السعار الوطني. وانسجاماً مع هذه الأجواء كانت القذائف الصاروخية تتساقط مسببة في إزهاق الأرواح بأعداد أكثر من المعتاد، وحدث أن سقطت إحداها على قاعة سينما غاصة بروادها في حي «ستيبني» فدفنت مئات الضحايا تحت الأنقاض، فخرج جميع سكان الجوار للتشييع في جنازة ضخمة سارت لساعات طويلة وقد كانت في الحقيقة مسيرة غضب. كما سقطت قذيفة أخرى على قطعة أرض خربة كان يستخدمها الأطفال كملعب فمزّقت العشرات منهم إلى أشلاء. وكانت ثمة مظاهرات ساخطة تجوب الشوارع تُحرق فيها دمى تمثّل غولدشتاين وتُمزق المئات من الملصقات التي تصور الجندي الأوراسي ويقذف بها جميعاً لألسنة اللهب، ثم تنهب المتاجر أثناء أعمال الشغب التي تترافق مع المظاهرات. وسرت شائعة بعدئذ مفادها أن جواسيس

كانوا يوجهون هذه القذائف الصاروخية عبر موجات لاسلكية، فقام المتظاهرون بإضرام النيران في أحد المنازل العائدة لزوجين عجوزين من أصل أجنبي كانت الشكوك قد ثارت حول ضلوعهما في ذلك فماتا اختناقاً بالدخان.

جوليا ونستون وكلما تسنى لهما بلوغ الغرفة الكائنة فوق حانوت السيد شارنغتون كانا يضطجعان جنباً إلى جنب فوق السرير المجرد من الأغطية تحت النافذة وهما عاريين جرّاء شدة الحرارة. وبالرغم من أن الجرذان لم تعاود الظهور فإن البق قد تكاثر على نحو مخيف بسبب الحرارة الشديدة، ولكن يبدو أن أياً من ذلك لم يكن ينتقص من سعادتهما، فقد كانا يعتبرانها جنة سواء أكانت قذرة أو نظيفة، وكانا بمجرد وصولهما إلى الغرفة يمطران كل شيء بوابل من الفلفل الذي ابتاعاه من السوق السوداء، ثم ينزعان ثيابهما ويمارسان الحب معا والعرق يتصبب من جسديهما حتى يستغرقا في نوم عميق، فإذا ما أفاقا وجدا البق وقد جمع صفوفه واحتشد لشن هجوم مضاد.

وقد بلغ عدد مثل هذه اللقاءات خلال شهر حزيران ما بين أربعة إلى سبعة. وفي هذه الأثناء كان ونستون قد أقلع عن عادة شرب الجن تماماً وكأنه لم يعد بحاجة إلى ذلك، كما غدا جسمه أكثر امتلاء ولم تعد دوالي ساقيه ظاهرة عدا بقعة بنية فوق كاحله، وزالت عنه نوبات السعال التي كانت تنتابه كل صباح، كما لم يعد يرى الحياة حملاً ثقيلاً لا يطاق أو يشعر بالحاجة الماسة لأن ينظر بغضب نحو شاشة الرصد أو يطلق اللعنات بأعلى صوته. والآن وقد أصبح لديهما ملاذ آمن هو بمثابة المنزل لهما، فقد باتا لا يشعران بالضيق من كونهما لا يلتقيان إلا مرات قليلة ولا يمكثان معاً في كل مرة سوى ساعتين. إذ كان همّهما منصبّاً على أن الغرفة الكائنة فوق الحانوت ينبغي أن تظل موجودة وكان مجرّد أنها موجودة ولم تُنتهك حرمتها يشعرهما بارتياح يكاد يضاهي ذلك الذي يشعرانه حينما يكونان بداخلها، إذ كانت الغرفة تمثل لهما عالماً خاصاً

كما باتت جيباً من جيوب الماضي تستطيع الحيوانات المنقرضة أن تسير فيه، وكان ونستون يرى في السيد شارنغتون حيواناً منقرضاً هو الآخر. وقد اعتاد ونستون أن يتوقف، كلما هم بالصعود إلى الغرفة، لدقائق قليلة يتجاذب فيها أطراف الحديث مع السيد شارنغتون الذي كان نادراً ما يغادر حانوته ولا يأتيه إلا القليل من الزبائن، فقد كان يعيش حياة أشبه بحياة الأشباح تبدأ من ذلك الحانوت المعتم الضيق وتنتهي في المطبخ الخلفي الأشد ضيقاً حيث كان يعد فيه وجباته والذي كان يحتوي، من بين ما يحتوي، على مذياع قديم جداً (غرامافون) ذي بوق هائل. وكان ذلك العجوز يُسَرّ كلما سنحت له فرصة للحديث مع ونستون، وكان في تجواله بين متاعه عديم القيمة، بأنفه الطويل ونظارته الغليظة وكتفيه المقوستين في معطفه المخملي، يبدو كهاو لجمع التحف أكثر منه تاجراً. وبشيء من الحماس الفاتر كان يشير بأصابعه إلى هذه القطعة من الخردة أو تلك - كسدادة قنينة من الصيني أو غطاء مطلي لعلبة سعوط مكسورة أو علبة مغلقة تحتوي على خصلة من شعر طفل مات منذ زمن طويل، وكل هذا دون أن يسأل ونستون إن كان لديه رغبة في شراء أي منها، فكل ما يطمح إليه هو أن تحوز إعجاب ونستون. أما الحديث معه فكان أشبه بالإصغاء إلى رنين صندوق موسيقي اهترأت أوتاره حيث كان يستحضر من زوايا ذاكرته بعضاً من القصائد المنسية، فكانت إحداها تدور حول أربعة وعشرين شحروراً وأخرى حول بقرة ذات قرن مكسور وثالثة عن موت الديك روبين المسكين. وكان كلما استذكر بعض المقاطع يقول بضحكة خافتة مستنكرة: لقد خطر لي أنك ربما تهتم بذلك، بيد أنه لم يكن يستطيع أن يتذكر أكثر من أبيات قلائل من كل قصيدة.

وكان ونستون وجوليا يدركان، وبطريقة لا تفارق بالهما، أن دوام حياتهما على هذه الحال أمر محال. وكانت تمر بهما أوقات يخيل إليهما فيها أن موتاً وشيكاً يحدق بهما تماما كالسرير الذي يرقدان فوقه،

وحينذاك كانا يلتصقان أحدهما بالآخر وقد تملكتهما شهوانية يائسة مثل روح هالكة دنت لحظتها وتريد إشباع شهواتها وملذاتها قبل أن تدق ساعة هلاكها. وفي أوقات أخرى كانا يعيشان شعور أن حالهما هذه ليست آمنة فحسب وإنما أيضاً ذات ديمومة، كما كانا يشعران بأنهما ما داما في هذه الغرفة فلن يلحقهما أي مكروه. ومع أن الوصول إلى الغرفة كان شاقاً ومحفوفاً بالمخاطر إلا أنها كانت لهما حرماً آمناً. لقد كان ونستون ينتابه فيها شعور كذاك الذي ينتابه عندما يحدق في قلب الثقل الزجاجي، ويحس بأن في مقدوره الدخول إلى ذلك العالم الزجاجي وبأنه بمجرد أن يدلف إليه فإن بوسعه أن يوقف دوران الزمن. وكثيراً ما كانا يسلمان قيادهما لأحلام يقظة تدور حول إمكانية إفلاتهما من موت محتوم، فقد يظل الحظ حليفاً لهما إلى أجل غير منظور فيستطيعان مواصلة مؤامرتهما على هذا النحو في البقية الباقية من حياتهما الطبيعية، أو قد تموت كاترين ويفلحان، بمناورة بارعة، في الحصول على إذن بالزواج، أو قد ينتحران معاً، أو قد يتواريان عن العيون ويغيّران هيئتيهما بحيث لا يعرفهما أحد ويتعلمان الكلام بلهجة البروليتاريا ويحصلان على عمل في أحد المصانع ويعيشان ما بقي لهما من حياة في شارع خلفي بعيداً عن العيون. بيد أن كل تلك الأحلام كانت محض هراء ولم يكن ذلك يغيب عن إدراكهما. ففي واقع الأمر لم يكن أمامهما من مهرب، فحتى الخطة الوحيدة القابلة للتطبيق، وهي انتحارهما، ما كان في نيتهما وضعها موضع التنفيذ. لقد كانت حياتهما من يوم إلى يوم ومن أسبوع إلى أسبوع، وهما يغزلان خيوط حاضر لا مستقبل له، تبدو أمراً غريزياً لا يمكنهما صده، تماماً مثلما تظل الرئتان تجذبان النفس تلو النفس ما دام الهواء موجوداً.

وفي أحيان أخرى، كانا يتحدثان عن الانخراط في ثورة حقيقية على سلطان الحزب ولكن دون أن يكون لديهما أدنى تصور عن الخطوة الأولى في ذلك السبيل. وحتى لو كانت حركة «الأخوة» الخرافية

موجودة حقاً، فإن اختراق عالمها يظل عقبة كأداء، وقد تحدث ونستون إلى جوليا عن تلك الألفة الموجودة، أو التي يخيل إليه أنها موجودة، بينه وبين أوبراين، وعن ذلك الدافع الذي كان يراوده أحياناً في أن يلتقي أوبراين ويفصح له عما يكنّه من عداوة للحزب ويطلب منه العون في ذلك. ومن الغريب حقاً أن جوليا لم تكن تعتبر ذلك عملاً متهوراً يتعذر الإقدام عليه، إذ كانت اعتادت أن تحكم على الناس من سيماء وجوههم، ولذا بدا لها أن من الطبيعي أن يعتقد ونستون بأن أوبراين جدير بالثقة لمجرد ذلك التلاقي الذي حصل مرة بين شعاعي البصر لديهما. وفضلاً عن ذلك فقد كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً بأن كل شخص تقريباً يضمر في قريرته نقمة على الحزب وأنه لن يتردد في خرق القواعد متى أَمِنَ عاقبة ذلك. ولكنها رفضت أن تؤمن بأن معارضة واسعة النطاق ومنظمة موجودة أو يمكن أن يكتب لها الوجود. إذ كانت ترى أن ما يُتَداول من حكايات عن غولدشتاين وجيشه السري ما هي إلا خرافات اختلقها الحزب خدمة لأغراضه وعليك أن تتظاهر بأنك تؤمن بها. وفي مرات لا يحصى عددها كانت تجد نفسها في تجمّعات الحزب وفي تظاهراته العفوية، تهتف بأعلى صوتها مطالبة بضرورة إعدام أشخاص لم تكن قد سمعت بأسمائهم من قبل كما لم تكن تصدق أي من الجرائم المزعومة التي نسبت إليهم. وعندما تنعقد المحاكمات العلنية، كانت تأخذ مكانها بين مفارز اتحاد الشبيبة، التي تحيط بقاعات المحاكم منذ الصباح وحتى المساء، وهي تردد من حين لآخر «الموت للخونة». أما خلال دقيقتي الكراهية فكانت دائماً تبزّ رفيقاتها في كيل الإهانات وصب اللعنات على غولدشتاين مع أنها لم يكن لديها أدنى فكرة عمن يكون غولدشتاين هذا أو عن معتقداته وما يمثّل. لقد أدركت الحياة في عهد الثورة، أما قبل الثورة فكانت صغيرة ولا يمكنها أن تتذكر شيئاً عن المعارك الأيديولوجية التي دارت رحاها في الخمسينات والستينات.
وكان وجود شيء مثل الحركة السياسية المستقلة أمراً لا يمكن تصوّره

وكانت تؤمن بأن الحزب قوة لا تقهر، وأنه سيظل قائماً كما هو أبد الدهر. وكل ما في استطاعة المرء فعله هو أن يتمرد عليه بالعصيان سراً أو على الأكثر بأعمال عنف متفرقة كقتل شخص أو نسف بناية ما.

وكانت جوليا أَحَدُّ ذهناً من ونستون وأقل تأثراً بدعاية الحزب. فذات مرة، عندما عرّج في حديثه معها على الحرب ضد أوراسيا، هاله قولها بأنها تعتقد أنه لم يكن هنالك من حرب، وأن القذائف الصاروخية التي تتساقط يومياً فوق لندن ربما كانت تطلقها حكومة أوقيانيا بنفسها لا لشيء إلا «لإبقاء الشعب في حالة من الفزع»، وهذه فكرة لم تكن قد خطرت ببال ونستون إطلاقاً، كما أنها أثارت في نفسه شيئاً من الحسد عندما أخبرته بأن العقبة الكبرى التي كانت تواجهها خلال دقيقتي الكراهية هي تحاشي الضحك عالياً. وكانت تتشكك في تعاليم الحزب، خاصة حينما تمس هذه التعاليم بطريقة ما حياتها الخاصة، وقد كانت في غالب الأحوال على استعداد لقبول الأساطير المؤسسة للحزب وذلك لأن الفرق بين الحقيقة والزيف أمر لم يكن يهمها من بعيد أو قريب، فمثلاً كانت تصدق ما تعلمته في المدرسة من أن الحزب هو الذي اخترع الطائرات. أما ونستون فكان يذكر أنه في أيام دراسته في أواخر الخمسينات تعلّم أن الحزب اخترع طائرات الهليكوبتر فقط. ولكن بعد مرور اثني عشر عاماً، عندما كانت جوليا في المدرسة، ادّعى الحزب أنه اخترع الطائرة، ولا بد أنه بعد مرور جيل آخر سيدّعي اختراعه للمحرك البخاري. وعندما أخبرها أن الطائرات كانت موجودة قبل أن يولد، بل وقبل أن تقوم الثورة بوقت طويل، وجد أنها لا تعير هذه الحقائق انتباهاً، فمهما يكن، ما هي أهمية أن نعرف من الذي اخترع الطائرات؟ بل وراعته الصدمة أكثر حينما اكتشف من ملاحظة عابرة وردت في حديثها أنها لا تذكر أن أوقيانيا كانت في حرب ضد شرقاسيا وفي سلام مع أوراسيا منذ أربع سنوات. صحيح أنها كانت تعتبر مسألة الحرب برمتها ادعاء زائفاً، ولكن من الواضح أنها لم تنتبه إلى أن اسم العدو قد تغير،

إذ قالت بغموض: «كنت أظن دائماً أننا في حرب مع أوراسيا». وقد أخافه ذلك. فاختراع الطائرات يعود إلى ما قبل مولدها بزمن طويل، ولكن التحول في الحرب لم يحدث إلا قبل أربعة أعوام أي بعد أن كانت قد نضجت ووعت الحياة. ودخلا في حجاج حول ذلك الموضوع زهاء ربع الساعة، وفي النهاية نجح ونستون في إرجاع ذاكرتها إلى الوراء حتى تذكرت على نحو غير واضح أنه في وقت من الأوقات كانت شرقاسيا لا أوراسيا هي العدو. ولكنها ظلت ترى أن هذه المسألة عديمة الأهمية. وقالت بصبر نافد: «وماذا يهم؟ إنها دائماً حرب دموية تتلوها حرب دموية أخرى، والكل يعرف أن هذا كلّه محض أكاذيب».

أحياناً كان يحدثها عن قسم السجلات وعن التزويرات الوقحة التي تتم. وقد أدهشه أن معرفتها بمثل هذه الأشياء لم تفزعها، ولم تكن تشعر بالهوة السحيقة والرّعب عندما علمت أن الأكاذيب هناك تتزيا بزي الحقائق. وقص عليها ما كان من أمر جونز وآرونسون ورازرفورد وقصاصة الورق الخطيرة التي حدث ووقعت بين يديه ذات مرة. إلا أنها لم تتأثر كثيراً بذلك، بل ولم تفطن في بداية الأمر إلى مغزى ما يورده من شواهد في القصة فسألته:

- هل كانوا أصدقاءك؟

- كلا، فأنا لم أعرفهم أبداً، لقد كانوا أعضاء في الحزب الداخلي، فضلاً عن أنهم كانوا أكبر مني سناً وكانوا من بقايا الأيام الغابرة التي سبقت الثورة، ولا أكاد أميزهم بالنظر.

- إذن ما الذي يقلقك؟ فالناس دائماً يلقون حتفهم ويُقتلون، أليس كذلك؟

حاول أن يجعلها تفهم استثنائية الوضع، وأن الأمر ليس مجرد قتل شخص، فسألها: «هل تعلمين أن الماضي، ابتداء من الأمس، قد تم محوه محواً تاماً؟ وحتى إذا كان له أي وجود فقد يكون في أشياء قليلة مصمتة لا كلمات عليها مثل ذلك الثقل الزجاجي. إننا نكاد لا نعرف

شيئاً محدداً عن الثورة والسنوات التي سبقتها، فكل السجلات تم إتلافها أو تحريفها، وكل كتاب أعيدت كتابته، وكل صورة أعيد رسمها، واسم كل تمثال وشارع وبناية جرى استبداله، وكل تاريخ جرى تحريفه، وما زالت هذه العملية متواصلة يوماً بيوم ودقيقة بدقيقة. لقد وصلنا إلى نهاية التاريخ، وانتفت صفة الوجود عن كل شيء عدا الحاضر الذي لا نهاية له والذي ينطق بأن الحزب دائماً على حق. إنني أعلم بالطبع أن الماضي يزيف ولكن لن يكون بمستطاعي إطلاقا أن آتي ببرهان على ذلك حتى لو كنت أنا الذي قمت بالتزييف. فبمجرد الانتهاء من التزييف يجري إحراق كل دليل حي. والدليل الوحيد هو ذلك الذي يبقى داخل عقلي ولا أعرف يقيناً إن كان هنالك إنسان آخر يشاركني في ما أحمل في ذاكرتي أم لا. وطوال حياتي لم أعثر على دليل مادي وملموس إلا مرة واحدة وبعد أن كان الحدث قد مضى عليه سنوات».

- لكن وما النفع من ذلك؟

- لم يكن ذا نفع، لأنني ألقيت به في المحرقة بعد بضع دقائق. لكن لو أن ذلك حدث اليوم لكنت احتفظت به.

فقالت جوليا: «أما أنا فلم أكن لأحتفظ به! إنني على أتم الأهبة للمجازفة ولكن فقط من أجل شيء جدير بهذه المجازفة لا من أجل قصاصة من صحيفة قديمة. ماذا كان باستطاعتك أن تفعل لو أنك احتفظت بها؟»

أجاب قائلاً: «ربما لم أكن لأفعل الكثير، ولكنه كان دليلاً على أي حال، دليلاً قد يزرع بعض الشك هنا و هناك على افتراض أنني كنت سأتجرّأ على إطلاع البعض عليه. إنني لا أتخيل أنه سيكون بمقدورنا أن نغير أي شيء في حياتنا الراهنة، ولكن بوسع المرء أن يتخيل إمكانية ظهور جيوب صغيرة للمقاومة تظهر هنا وهناك، في شكل جماعات صغيرة من الأفراد يشد بعضها إزر بعض، وتأخذ في التكاثر تاركة وراءها ولو بضعة سجلات حتى يتسنى للجيل التالي أن يبدأ من حيث انتهينا».

فقالت: «إنني لست مهتمة بالجيل التالي يا عزيزي. ما يهمني هو نحن».

فقال لها: «إنك ثائرة من خصرك فما دونه فحسب».

رأت في ذلك دعابة لطيفة منه فعانقته ضاحكة وهي في غاية البهجة.

لم تكن جوليا لتعير أدنى اهتمام لعقيدة الحزب وتفرعاتها. وحالما كان ونستون يبدأ الحديث عن مبادئ الاشتراكية الإنجليزية والتفكير المزدوج وسيرورة الماضي وإنكار الواقع الموضوعي ويأخذ في استخدام كلمات من اللغة الجديدة، كان يبدو عليها الملل والارتباك وتقول إنها لم يسبق أن أبدت اهتماماً بمثل هذه الأمور. فالمرء يعلم أنها كلها محض سخافات، فعلام يقلق نفسه بها؟ كانت تعلم متى يجب عليها الهتاف ومتى يجب السباب، وذلك هو كل ما كان يحتاج إليه المرء. وإذا ما أصر ونستون على الحديث عن مثل هذه الموضوعات كانت تستسلم للنوم، فقد كانت من النوع الذي يستطيع أن ينام في أي ساعة وفي أي وضعية. ومن حديثه معها أدرك أنه من السهل أن يتظاهر المرء بالولاء للحزب وهو لا يدرك حتى معنى الولاء. وبطريقة ما، فرضت نظرة الحزب نفسها على أناس لا يقدرون حتى على فهمها، فجعلتهم يقبلون انتهاكاته الفاضحة للحقيقة لأنهم لم يستطيعوا أبداً أن يفهموا ذلك، كما أنهم لم يكونوا يبدون القدر الكافي من الاهتمام بما يحدث حتى يمكنهم فهم التزوير لوقائع الحياة. ولقد كان لافتقادهم للفهم فضل في جعلهم بمأمن من الجنون. لقد كانوا ببساطة يبتلعون كل شيء ولم يكن ما يبتلعونه ليصيبهم بأي أذى لأنه لا يترك أي رواسب، بل يمر كما تمر حبة القمح في جوف طائر دون أن يهضمها.

الفصل السادس

وأخيراً حدث ما كان ونستون يترقبه، لقد جاءته الرسالة المرتقبة والتي خيل إليه أنه أمضى كل حياته منتظراً مجيئها.

فبينما كان يسير عبر الممر الطويل بالوزارة قرب النقطة التي وضعت فيها جوليا رسالتها خلسة في يده، شعر بأن شخصاً يفوقه في الحجم يسير وراءه مباشرة. وقد سعل هذا الشخص سعلة خافتة توطئة لبدء حديثه. فما كان من ونستون إلا أن توقف فجأة واستدار، فإذا به أمام أوبراين.

وأخيراً أصبح ونستون وجهاً لوجه مع أوبراين، وبدا لونستون أن حافزاً واحداً يحركه الآن، وهو أن يلوذ بالفرار. وأخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا، وانعقد لسانه عن الكلام، ولكن أوبراين واصل سيره في الاتجاه نفسه وربت على كتف ونستون بلطف حتى يتسنى لهما أن يسيرا جنباً إلى جنب. ثم استهل كلامه بأسلوب ينم عن وقار واحترام فريدين كانا يميزانه عن غالبية أعضاء الحزب الداخلي.

وقال: «لقد كنت أتحين فرصة للحديث معك، فقد قرأت بالأمس إحدى مقالاتك باللغة الجديدة في صحيفة التايمز، وبدا لي أنك تولي هذه اللغة اهتماماً علمياً أكاديمياً، أليس كذلك؟»

كان ونستون قد استعاد بعضاً من رباطة جأشه، فقال: «لا أستطيع أن أقول إنه اهتمام علمي، فأنا هاو لها فقط، كما أنها ليست موضوع

اختصاصي، ناهيك عن أنني لم أشارك من قريب أو بعيد من يدرسون تركيباتها الفعلية».

فقال أوبراين: «ولكنك تكتبها ببراعة وأسلوب واضح، وهذا ليس رأيي وحدي، فقد كنت أتحدث مؤخراً مع أحد أصدقائك وهو لا شك من الخبراء بها. ولكن لا تسعفني ذاكرتي باسمه في هذه اللحظة.»

عاد قلب ونستون يخفق بشدة من جديد، إذ لم يكن ذلك إلا إشارة إلى سايم، وسايم لم يكن قد مات فحسب، وإنما امّحى وكأنه لم يكن له وجود. وباتت أي إشارة محددة إليه تنطوي على خطر قاتل. ولذلك ظن ونستون أن ملاحظة أوبراين هي بمثابة إشارة أو شيفرة، وكونه يشترك معه في جريمة من جرائم الفكر مهما صغرت، فإن ذلك يجعلهما شريكين. وتابعا السير ببطء عبر الممر إلى أن توقف أوبراين لبرهة، وبحركته المعهودة الغريبة والمفعمة بود تأتلف له القلوب أعاد تثبيت نظارته فوق عينيه. ثم استطرد:

«إن ما أردت فعلاً قوله هو أنني لاحظت أنك قد استخدمت في مقالك كلمتين بطل استعمالهما، إلا أن ذلك لم يحدث إلا مؤخراً جداً. ترى هل اطّلعت على الطبعة العاشرة من معجم اللغة الجديدة؟»

قال ونستون: «كلا، أظن أن هذه الطبعة لم تصدر بعد، فنحن ما زلنا نستخدم الطبعة التاسعة في قسم السجلات».

فقال أوبراين: «أعتقد أن الطبعة العاشرة لن تظهر قبل عدة شهور إلا أن بضعة نسخ تجريبية قد وزعت ولديّ واحدة منها. ولعله يهمك أن تطّلع عليها؟»

وعلى الفور أجاب ونستون وقد تراءى له أنه أدرك ما يرمي إليه أوبراين: «نعم يهمني جداً».

فقال أوبراين: «إن بعض التحسينات الأخيرة التي أجريت على اللغة الجديدة تدل على إبداع حقيقي، فتخفيض عدد الأفعال مثلاً هو إحدى

النقاط الجديدة التي ستحوز إعجابك على ما أظن. هل أرسل لك المعجم مع أحد السعاة؟ ولكني أخشى أن أنسى شيئاً مثل هذا كعادتي، ولعله من الأفضل أن تأتي إلى شقتي في وقت يناسبك لتأخذه؟ انتظر ريثما أعطيك عنواني».

كانا يقفان أمام إحدى شاشات الرصد، وبحركة عفويّة تحسس أوبراين جيوبه ثم أخرج مفكرة مبطنة بالجلد وقلم حبر مذهّب، ووقف أسفل شاشة الرصد مباشرة يكتب العنوان في وضعية تتيح لمن يراقب على الطرف الآخر من الشاشة أن يقرأ ما يكتبه، ثم نزع الورقة التي كتب عليها وسلمها لونستون.

وقال: «إنني في العادة أكون في المنزل مساء. فإن لم تجدني، فسيعطيك خادمي المعجم».

ومضى أوبراين تاركاً ونستون ممسكاً بقصاصة الورق التي لم يكن بحاجة إلى إخفائها هذه المرة. ومع ذلك فقد حفظ بعناية ما كان مكتوباً فيها. وبعد بضع ساعات ألقى بها في مقبرة ثقب الذاكرة مع مجموعة من الأوراق الأخرى.

استغرق حديثهما دقيقتين على الأكثر، ولم يكن لهذا الحدث غير مغزى واحد محتمل. لقد حاكه أوبراين بطريقة تجعل ونستون يتعرف على عنوانه. ولم يكن من ذلك بدّ، فبدون الاستعلام المباشر يستحيل أن يتعرف المرء على عنوان سُكنى أي شخص آخر. فما من دليل لذلك من أي نوع. «إذا ما أردت مقابلتي، فهذا هو العنوان الذي يمكنك أن تجدني فيه». كان هذا هو ما قاله أوبراين لونستون. وقال ونستون في نفسه ربما تكون هناك رسالة مخبأة بين صفحات المعجم. ولكن مهما يكن من أمر، هناك شيء واحد بات مؤكداً، وهو أن المؤامرة التي كان يحلم بها جارية بالفعل وأنه يقف على أعتابها.

كان يعلم أنه سيلبي دعوة أوبراين إن عاجلاً أو آجلاً. ربما كان ذلك غداً، أو بعد زمن أطول، فذلك ما لم يكن يعرفه على وجه الدقّة.

لكن الذي حدث في هذا اليوم لم يكن سوى حصاد لعملية بدأها منذ سنوات. فالخطوة الأولى التي خطاها كانت مجرد فكرة سرية لاإرادية، وأما الثانية فكانت المفكرة وكتابة المذكرات. لقد انتقل من الأفكار إلى الأقوال، والآن ها هو ينتقل من الأقوال إلى الأفعال. وأما الخطوة الأخيرة فهي شيء ما سيحدث في وزارة الحب وعليه أن يتقبلها. فالنهاية توجد في طيات البداية، ولكنها نهاية مخيفة أو بعبارة أدق، هي أشبه بتذوق مسبق لطعم الموت قبل أن يجيء، وأشبه بكونك حياً ولكن لا معنى لحياتك. وحتى عندما كان يتحدث مع أوبراين ويفطن لمعاني كلماته، كانت تعتريه رعدة يرتجف لها جسمه، وينتابه إحساس بأن قدميه تهويان به نحو رطوبة القبر، ولم يكن هذا الإحساس جديداً عليه لأنه كان يدرك دائماً أن القبر هنالك في انتظاره.

الفصل السابع

استيقظ ونستون وعيناه مغرورقتان بالدموع، وكانت جوليا تتقلب بجواره وهي شبه نائمة، وغمغمت بكلمات ربما كانت «ما الخطب؟»

فقال: «لقد كنت أحلم أن . . .»، ثم انعقد لسانه ولم يكمل القول، فقد كان الأمر معقداً إلى حد تعجز الكلمات عن وصفه. لقد بقي الحلم نفسه والذكرى المرتبطة به عالقين في باله لبضع لحظات عقب استيقاظه.

بقي ونستون مضطجعاً، مغمضاً عينيه اللتين كان ما زال يخيم عليهما أجواء الحلم. لقد كان حلماً ممتداً صافياً بدت له حياته كلها فيه وقد انبسطت أمامه كمنظر طبيعي لا يحده إلا الأفق على جبل وقد غُسِل بماء المطر في عصر يوم صيفي. لقد حدث كل ذلك في جوف الثقل الزجاجي والذي كان سطحه بمثابة قبة السماء التي كان ما بداخلها مغموراً بضياء صافٍ ناعم يمكن للمرء أن يرى خلاله مسافات لامتناهية. وفي الحلم تراءت له حركة ذراع أمه وهي تحتضن أخته الصغيرة، والتي تكررت ثانية بعد ثلاثين سنة ولكن من امرأة يهودية شاهدها في إحدى الفقرات الإخبارية وهي تحاول عبثاً أن تقي صغيرها من طلقات الرصاص، قبل أن تنقض عليهما الهليكوبتر فتحولهما إلى أشلاء.

فقال لها: «هل تعلمين أنني كنت حتى هذه اللحظة أعتقد أنني قتلت أمي؟»

فسألته جوليا والنعاس يغالبها: «ولماذا قتلتها؟»

فأجابها: «أنا لم أقتلها. لم أقتلها بالمعنى العادي للكلمة».

وكان ونستون قد استحضر في الحلم تلك النظرة الأخيرة التي ألقاها على أمه، وما هي إلا لحظات بعد استيقاظه حتى تداعت إلى ذهنه كافة التفاصيل التي اقترنت بالمشهد. إنها الذكرى التي حاول عن عمد طوال سنوات أن يدفعها خارج دائرة وعيه، وإن كان ونستون لا يذكر متى حدث ذلك على وجه التحديد، فإنه يذكر أن عمره آنذاك لم يكن يقل عن عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة.

كان أبوه قد اختفى قبل وقت من وقوع الحادثة. كم من الوقت تحديداً، لا يذكر أيضاً. بيد أنه كان يتذكر الأجواء المشحونة بالقلق والصخب التي كانت تخيم على تلك الفترة: فقد كان يذكر دوي الغارات الجوية وما يسببه من نوبات هلع يهرع الناس على أثرها إلى محطات قطارات الأنفاق، ويذكر أكوام الأنقاض التي ملأت كل الأماكن وسدت كل المنافذ، والإعلانات غير المفهومة والتي كانت تعلق في كل زاوية من زوايا الشوارع وجماعات الشبيبة ذوي القمصان الموحدة اللون والأرتال الهائلة من الناس يصطفون أمام الأفران والأصوات المتقطعة لطلقات المدافع الرشاشة وهي تسمع من بعيد، وإضافة إلى كل ذلك يذكر أن الناس لم يكن لديهم ما يكفيهم من الطعام. كما يذكر الساعات الطوال التي كان يمضيها مع غيره من الصبية وهم يحومون حول أكوام القمامة بحثاً عن عروق أوراق الملفوف وقشور البطاطس بل وحتى أحياناً يبحثون عن كسر الخبز العفنة التي يمسحون عنها الرماد بعناية، أو يمضونها في انتظار الشاحنات التي تنقل علف المواشي عند طرقات يعرفونها على أمل أن يتساقط بعضه على الأرض فيتناولونه.

وعندما اختفى أبوه لم تُظهِر أمه أي أمارة من أمارات الذهول أو الحزن الفاجع على اختفائه، لكن ثمة تغييراً فجائياً آخر قد طرأ عليها، إذ بدت وكأن روحها قد أزهقت تماماً. لقد أصبح جلياً حتى لونستون آنذاك

أنها باتت تنتظر شيئاً تدرك أنه لا بد آت، فقد كانت تقوم بكل واجبات المنزل، فتطهو وتغسل الملابس وترتقها وترتب الفراش وتكنس الغرفة وتمسح الغبار، وكانت تؤدي كل تلك الواجبات ببطء قاتل وبسأم شديد حتى لكأنها تمثال يتحرك من تلقاء ذاته. وكان بنيانها الضخم حسن الشكل يبدو كأنه يرتد إلى حالة من السكون. فكانت تمضي الساعات جالسة فوق السرير جامدة لا تحرك ساكناً اللهم إلا العناية بأخته الصغيرة، تلك الطفلة التي تبلغ من العمر سنتين أو ثلاث سنوات ضئيلة الجسم معتلّة الصحة ساكنة الحركة والتي رَقّ وجهها حتى أصبح شبيهاً بوجه قرد. وفي أحيان كثيرة كانت أمه تأخذه بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها فترة طويلة من الوقت دون أن تنبس بكلمة. ورغم صغر سنه وأنانيته كان ونستون يعي أن تصرفات أمه ترتبط بطريقة ما بذلك الشيء وشيك الحدوث والذي لم تشر إليه أبداً.

وتذكّر ونستون تلك الغرفة التي كانوا يعيشون فيها رغم عتمتها ورائحتها العفنة وضيق مساحتها، والتي يشغل نصفها سرير ذو غطاء أبيض. كان هنالك موقد للطهي ورف لحفظ الطعام، وخارج الغرفة كان يوجد حوض بُنّي لغسل الأواني والذي كانت تشترك فيه أكثر من غرفة. وكذلك تذكّر ونستون أمه بجسمها الممشوق كالتمثال وهي تنحني على الموقد لتقلب شيئاً كانت تضعه في القدر. وإضافة إلى كل ذلك تذكّر إحساسه الدائم بالجوع والمعارك الشرسة التي كانت تندلع كلما حان وقت الطعام حينما كان يسائل أمه مراراً وتكراراً وبلهجة متذمرة عن سبب عدم وجود المزيد من الطعام، وحينما كان يصرخ ويثور عليها، بل وحتى تذكّر نبرة صوته حينما كان يتحايل عليها ببكاء يستدر العطف والشفقة من أجل الحصول على نصيب أكبر من حقه. وكانت أمه مستعدة دائماً لأن تعطيه أكثر من حصته فقد كانت تسلم بذلك، فهو «الولد» وينبغي أن يحظى بأكبر الحصص. ومع ذلك فقد كان كلما أعطي يطلب المزيد. وكانت أمه ترجوه عند كل وجبة ألا يكون أنانيا وأن يتذكر

أن أخته الصغيرة مريضة وبحاجة إلى الطعام أيضاً. إلاّ أن رجاءها كان يذهب عبثاً. بل وكان يصرخ غاضباً إذا توقفت عن سكب الطعام له، وكثيرا ما كان ينتزع القدر والملعقة من بين يديها أو يغتصب بعض القطع من طبق أخته. ومع أنه كان يدرك أن أمه وأخته قد تموتان جوعاً بسببه، فإنه لم يكن يستطيع منع نفسه عن ذلك، بل كان يرى أن من حقه أن يفعل ذلك، فقد كانت عضات الجوع التي تنهش أحشاءه تسوِّغ له ذلك. وبين الوجبات كان من دأبه أن يسرق ما تطاله يداه من مخزون الطعام الموضوع فوق الرف إذا سهت أمّه عن حراسته.

وذات يوم وزعت عليهم مخصصاتهم من الشوكولاتة والتي كان قد مضى على انقطاعها أسابيع أو شهور. وكان ونستون لا يزال يذكر بوضوح تلك القطعة الصغيرة والثمينة من الشكولاتة التي أعطيت لثلاثتهم وكانت تزن أوقيتين (كانت الأوقية لم تزل مستخدمة في تلك الأيام). وكان بديهياً أن تقسم إلى ثلاثة أقسام متساوية، فراح ونستون فجأة يصرخ بأعلى صوته طالبا الاستئثار بقطعة الشوكولاتة برمتها، ولكن أمه نهرته وطلبت منه ألا يكون شرهاً، ودار بينهما جدال طويل مزعج لم يخلُ من الصياح والنحيب والدموع والاحتجاجات والمساومات، ووسط كل ذلك كانت أخته الصغيرة تتشبث بكلتا يديها بأمها، تماماً مثلما تفعل صغار القردة، وهي تنظر إليه بعينين شاخصتين يملأهما الحزن. وفي النهاية اقتطعت أمه من الشوكولاتة ثلاثة أرباعها وأعطتها لونستون فيما أعطت الربع الباقي لأخته. وأمسكت الطفلة الصغيرة بقطعة الشوكولاتة وراحت تحملق فيها ربما لأنها لم تكن تعرف ما هي، أما ونستون فقد راقبها للحظة ثم وبقفزة سريعة ومباغتة انتزع قطعة الشوكولاتة من يدها ولاذ بالفرار.

وصاحت به أمه: «ونستون، ونستون، ارجع! أعد قطعة الشوكولاتة لأختك!»

فتوقف ونستون عن الركض لكنه لم يرجع، وكانت عينا أمه

القلقتين تحملقان فيه. وحتى في تلك اللحظة كان يفكر في ذلك الشيء الوشيك والذي لا يعرف كنهه. وأما أخته فما كادت تفطن إلى أن شيئاً ما قد سُلب منها حتى انخرطت في ولولة واهنة، فراحت الأم تحيطها بذراعيها وتضمها إلى صدرها، وكان في هذه الحركة ما يوحي لونستون بأن أخته تلفظ أنفاسها الأخيرة، لكنه استدار غير آبه بشيء وولى هارباً في حين كانت قطعة الشوكولاتة تذوب في يده.

ولم يقدّر له أن يرى أمه ثانية، فما إن فرغ من التهام قطعة الشوكولاتة حتى تملّكه شعور بالخزي من نفسه وراح يهيم لساعات على وجهه في الشوارع لا يعرف له مقصداً حتى إذا شعر بالجوع ينهشه قفل راجعاً إلى البيت. لكنّه لم يجد أمه فقد اختفت، وكانت عمليات الاختفاء أمراً مألوفاً في تلك الآونة. وجد ونستون كل شيء في الغرفة على حاله لم يمسسه أحد عدا أمه وأخته اللتين لم تأخذا شيئاً من ثيابهما وحتى معطف أمه كان في مكانه. وحتى اليوم هذا لا يعرف على وجه اليقين إن كانت أمه قد لقيت حتفها أم لا، فمن الجائز جداً أن تكون قد أرسلت إلى أحد معسكرات الأشغال الشاقة، أما أخته فربما نُقِلَت، مثلما حدث معه هو، إلى إحدى مستعمرات الأطفال المشردين التي كان يطلق عليها «مراكز الإصلاح» والتي كانت أعدادها قد ازدادت نتيجة للحرب الأهلية. أو لعلها في معسكر الأشغال برفقة أمها، أو تُرِكت وحيدة في مكان ما لتموت جوعاً أو إهمالاً.

كان الحلم ما يزال حياً في ذاكرته، خصوصاً حركة ذراعي أمه الحانية وهي تطوق بهما طفلتها وهي حركة كانت تنطوي على معان كثيرة. وعادت به ذاكرته إلى حلم آخر كان قد حلم به قبل شهرين، عندما ظهرت له أمه في سفينة تغرق والطفلة تتشبث بها، تماماً كما كانت جالسة على حافة السرير القذر في البيت، وهو يراهما من علو شاهق تغرقان وتغرقان إلى أعماق سحيقة لكنها ما تزال تنظر إليه بعينين شاخصتين عبر المياه المظلمة.

وروى ونستون لجوليا قصة اختفاء أمه، ودون أن تفتح عينيها راحت تتحرك على الفراش حتى باتت في وضع أكثر راحة.

وقالت على نحو غامض: «أظنك كنت وغداً صغيراً في هاتيك الأيام، ولا بأس فكل الأطفال أوغاد».

فقال لها: «أجل، ولكن النقطة الهامة في القصة هي...».

لكنه أمسك عن الكلام حينما لاحظ من إيقاع أنفاسها أنها عادت إلى النوم ثانية. وكان يود الاستمرار في حديثه عن أمه. فمن كل ما يذكره عنها لم يكن يرى فيها امرأة غير عادية أو ذكية، لكنها مع ذلك ظلت تتسم بالنبل وتتصف بالطهارة كونها كانت تتصرّف وفق معايير أخلاقية خاصة بها. فمشاعرها كانت تنبع من داخلها ولا يمكن لأي قوى خارجية أن تؤثر عليها. ولم تعتقد أبداً أن أي عمل مهما بدا غير مؤثّر يمكن أن يكون عديم المعنى والجدوى. وكانت تؤمن بأن المرء إذا أحب شخصاً فيجب أن يخلص له الحب، حتى إذا لم يبقَ لديه شيء يمنحه إياه، بقي لديه ذلك الحب. لذلك عندما انتزع ونستون قطعة الشوكولاتة الأخيرة من يد أخته احتضنت الطفلة بين ذراعيها لتعوضها عنها حناناً وحباً. وبالرغم من أن ذلك كان عديم الجدوى ولم يغير من الأمر شيئاً ولم يُعِد للطفلة قطعة الشكولاته، كما لم يحل دون موتها أو موت الطفلة، إلا أنها كانت ترى أن من الطبيعي أن تقوم بتلك الحركة وتحتضنها. وهكذا فعلت المرأة التي في مركب اللاجئين، أحاطت صغيرها بذراعيها رغم علمها أن ذلك لن يحميه من طلقات الرصاص إلا بقدر ما تقيه قصاصة من ورق. وربما كان أشنع ما قام به الحزب أنه كان يحاول إقناع الناس بأن مجرّد الدوافع والمشاعر لم تكن بذات قيمة، وفي الوقت نفسه كان يسعى لأن يجرد المرء من كل سلطة له على العالم المادي. وحينما كان المرء يقع في قبضة الحزب فإن كل ما يشعر به أو لا يشعر به وما يقدم عليه أو يحجم عنه يصبح بلا جدوى على الإطلاق. فمهما حدث سيختفي ويزول هو وكل ما قام به ولن يسمع بذكره أحد

حينما يتم رفعه من مجرى التاريخ. بيد أن الناس قبل جيلين لم يكونوا يولون ذلك اهتماماً، لأنهم لم يكونوا يسعون إلى تغيير التاريخ. فقد كانت لهم ولاءات خاصة. وكانت العلاقات الفردية هي ما يهمّهم، فكل حركة مهما كانت عاجزة مثل عناق أو دمعة أو كلمة يواسي بها رجل على فراش الموت يمكن أن تنطوي على قيمة كبرى. وفجأة تنبه إلى أن العامة ما زالوا يعيشون على هذه الحال؛ فولاؤهم ليس لحزب أو دولة أو فكرة وإنما لبعضهم البعض. وكانت هذه هي المرة الأولى التي لا ينظر فيها ونستون إلى العامة نظرة ازدراء أو يعتبرهم مجرد قوة هامدة بل قوّة يمكنها أن تبعث إلى الحياة في يوم من الأيام فتنفخ في هذا العالم روحاً جديدة. لقد ظل العامة بشراً ولم تتحجر أفئدتهم. إنهم يتمسكون بعواطف فطرية كان عليه حتى يكتسبها أن يبذل جهوداً كبيرة. وفيما كانت هذه الأفكار تجول بخاطره إذا به يتذكر وعلى نحو غير ذي صلة بالموضوع كيف أنه رأى منذ بضعة أسابيع يداً مبتورة على الرصيف فأزاحها بقدمه كما لو كانت عرق ورقة ملفوف.

وقال بصوت عال: «إن العامة هم البشر أما نحن فلسنا من البشر في شيء.»

وقالت جوليا التي استيقظت على صوته: «ولماذا لسنا ببشر؟»

ففكر ونستون لبرهة من الزمن ثم أجابها: «ألم يخطر لك أن خير ما نفعل هو أن نغادر هذه الغرفة قبل فوات الأوان ودون رجعة وألا يرى أحدنا الآخر بعد اليوم؟»

فأجابت: «بلى يا عزيزي، لقد خطر لي ذلك مرات عديدة، ولكني مع ذلك لن أقدم على شيء من هذا القبيل.»

فقال: «لقد كان الحظ حليفنا، لكنه لن يظل هكذا، وأنت ما زلت شابة وتبدين غضة وبريئة، وإذا ما نأيت بنفسك عن أمثالي من الناس فقد يكتب لك أن تعيشين خمسين سنة أخرى.»

فقالت: «لا، لقد قلبت الأمر على كافة أوجهه وقرّ قراري على أنني سأفعل ما ستفعله أنت، فلا تبتئس، أنا أعرف جيداً سبل البقاء على قيد الحياة.»

فقال: «ربما نظل معاً لستة أشهر أخرى أو لسنة، فلا أحد يعلم، لكننا في النهاية سنفترق بكل تأكيد. هل تدركين كم ستكون الوحدة موحشة؟ فعندما نقع في قبضتهم لن يكون بمقدور أي منا مساعدة الآخر بأي شيء على الإطلاق. وإذا اعترفت أنا فسوف يعدمونك رمياً بالرصاص، وإذا رفضت الاعتراف ستلاقين المصير نفسه وستموتين بالطريقة نفسها. وما من شيء باستطاعتي فعله أو قوله أو الامتناع عن قوله يمكن أن يؤخر موتك ولو خمس دقائق، ولن يكون بمقدور أحدنا أن يعرف على الإطلاق ما إذا كان الآخر حياً أو ميتاً، إذ سنسلب آنذاك كل حول أو قوة. ولن يعنينا سوى أمر واحد وهو ألا يخون أحدنا الآخر رغم أن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً.»

فقالت جوليا: «إذا كنت تعني الاعتراف فهذا أمر لا مناص لنا منه، فالكل لا بد أن يعترف ولا مناص لأحد من ذلك، وإلا ذاق أشد صنوف العذاب.»

فقال: «لم أقصد هذا الاعتراف، فالاعتراف في حد ذاته ليس خيانة، وما يقوله المرء أو يفعله لا أهمية له أبداً، فمشاعره فقط هي التي تهم. فإذا تمكنوا من جعلي أكف عن حبي لك فإن هذه هي الخيانة الحقيقية التي أقصدها.»

وفكرت جوليا في كلامه ثم قالت بشكل قاطع: «لا يمكنهم أن يبلغوا ذلك، فذلك هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيعونه، إذ بوسعهم أن يكرهوك على قول أي شيء يريدونه، ولكنهم لا يستطيعون إكراهك على أن تؤمن بما تقول، فليس لهم سلطة ينفذون بها إلى كيانك.»

فقال وقد لمع على وجهه شعاع من الأمل: «لا، ليس لديهم. صحيح تماماً. إنهم لا يستطيعون النفاذ إلى قلبك. وإذا استطاع المرء أن

يشعر بأن بقاءه إنساناً هو أمر يستحق التضحية من أجله، حتى لو لم يؤدِّ ذلك إلى نتيجة، فإنه يكون قد ألحق بهم الهزيمة.»

وفكّر ونستون في شاشة الرصد التي لا تنام لها عين أو تصمّ لها أذن، فهم يتجسسون عليك ليل نهار ولكنك إذا احتفظت بوعيك يمكنك أن تخدعهم. ورغم كل ما لديهم من مهارات فإنهم لم يتمكنوا من فك رموز السر الذي يفتح لهم نافذة على ما يجول بخاطر الإنسان. وربما تقلّ صدقية هذا القول حينما يقع المرء في قبضتهم، فلا أحد يعلم ما الذي يجري داخل أقبية وزارة الحب، وإن ظل بوسع المرء أن يتكهن بذلك: صنوف من العذاب وعقاقير هلوسة وأجهزة دقيقة تحصي عليك ردود فعلك العصبية وإنهاك تدريجي لقواك بالحرمان من النوم والوحدة والاستنطاق المتواصل. وفي كل الأحوال لا يمكن إخفاء الحقائق عنهم لأنهم يستطيعون استخلاصها بالتحقيق معك أو انتزاعها منك بالتعذيب. ولكن إذا كان هدفك ليس أن تظل على قيد الحياة وإنما أن تظل إنساناً فإن البون يصبح شاسعاً، فهم لا يستطيعون تبديل مشاعرك، ولا غرو فأنت نفسك حتى إذا أردت لا تستطيع ذلك. فبإمكانهم كشف أدق التفاصيل وفضح كل أقوالك وأفعالك وأفكارك، ولكن يظل قلبك المكنون والذي لا يمكنك أنت نفسك سبر أغواره حصناً منيعاً عليهم.

الفصل الثامن

وأخيراً وقع المحظور.

فقد وجد ونستون وجوليا نفسيهما يقفان في غرفة مستطيلة مضاءة بأنوار خفيفة، وكانت شاشة الرصد تبث بصوت خافت أشبه بالتمتمة، وكانت نعومة السجادة ذات الزرقة الداكنة، تُشعِر المرء عندما يدوس عليها بأنه إنما يطأ مخملاً. وفي أقصى الغرفة كان أوبراين يجلس إلى مكتب منكبّاً على القراءة وفوق رأسه مصباح يلقي عليه ظلال خضراء، وقد رُصّت على جانبي المكتب مجموعة من الأوراق. وعندما أدخلهما الخادم إلى الغرفة ظل أوبراين على حاله ولم يكلف نفسه عناء النظر إليهما.

شعر ونستون بقلبه يخفق خفقاناً شديداً حتى أن شكّاً ساوره حول قدرته على الكلام، وانصبّ تفكيره على حقيقة كونه وجوليا قد فعلاها أخيراً ووقعا في المحظور. لقد كان نَزَقاً وتَهوُّراً من كليهما أن يأتيا إلى هذا المكان، إنها حماقة مستحكمة أن يجيئا معاً، رغم أنهما سلكا طريقين متباينين ولم يلتقيا إلا عند باب منزل أوبراين. ولكن يبقى أن مجرد ولوجهما مثل هذا المكان يحتاج إلى أعصاب فولاذية . فقد كان من النادر أن يتاح للمرء الدخول إلى منازل أعضاء الحزب الداخلي أو التجوّل في أحياء سكناهم. وكانت أجواء أماكن سكنهم بضخامتها إضافة إلى الرحابة والفخامة اللتين تطغيان على كل شيء والروائح غير المألوفة

لما لذ وطاب من طعام، والتبغ الجيد والمصاعد السريعة التي تتحرك صعودا ونزولاً في هدوء تام، والخدم ببزاتهم البيضاء يروحون ويجيئون مسرعين. . . ، باختصار كان كل شيء مما يزيد من رهبة المكان ويلقي بالروع في النفس. وبالرغم من أن ونستون كانت لديه حجة قويّة تبرر مجيئه إلى هنا، فقد كان شعور بالرعب ينتابه مع كل خطوة يخطوها مخافة أن يبرز له بغتة، من وراء حجاب، حارس ذو ثياب سوداء يطلب منه أوراقه قبل أن يأمره بمغادرة المكان، لكن خادم أوبراين لم يعترض سبيلهما وسمح لهما بالدخول. كان رجلاً ضئيل الجسم، أسود الشعر يرتدي سترة بيضاء وله وجه جامد الملامح يشبه الألماس يبدو منه كأنه صيني الأصل. تقدمهما في ردهة كانت أرضيتها مغطاة بسجاد وثير وجدرانها موشاة بورق حليبي اللون وكل ما فيها رائع النظافة. وكان في ذلك أيضاً ما يزيد الروع في النفس، إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ونستون ردهة لا تعلو جدرانها آثار القذارة والسخام الناتج عن احتكاك الأجسام البشرية التي تعبر الردهات.

كان أوبراين يمسك بقصاصة من الورق بين أصابعه يقرأها بإمعان، وقد بدا أن وجهه الضخم الذي انكبّ به على الورقة، حتى ليستطيع المرء أن يرى منه خط الأنف، يشع ذكاء ورهبة. مضى زهاء عشرين ثانية جلس فيها دون أن يحرك ساكناً، ثم جذب جهاز آلة التسجيل نحوه وأملى رسالة بلغة مختزلة تستخدم في الوزارات:

«تم التصديق على البنود الأول والخامس والسابع. أما الاقتراح الوارد في البند السادس فغاية في السخرية ويوشك أن يكون جريمة فكر. يجب رفع عدد المكائن . . . انتهت الرسالة».

ثم نهض عن كرسيه بتثاقل وتقدم نحو الضيفين عبر السجادة التي لا يُسمع صوت وقع الأقدام عليها، وبدا أن بعضا من هيئته الرسمية المهيبة قد زالت عنه بعدما انتهى من إملاء رسالته باللغة الجديدة، إلا أن ملامح وجهه كانت متجهمة أكثر من العادة كما لو أن زيارتهما لم تسره. وكان

الرعب الذي شعر به ونستون بالفعل قد خالطه ارتباك وحيرة، إذ بدا له أن من الجائز تماماً أنه قد ارتكب خطأ ينم عن حماقة خطيرة، فأي دليل ملموس لديه على أن أوبراين متآمر سياسي؟ ليس لديه سوى وميض العينين وملاحظة وحيدة وغامضة، أما عدا ذلك فأوهام مبنية على حلم تراءى له، كما أنه لا يستطيع اللجوء إلى الادعاء بأنه جاء لاستعارة المعجم لأنه في هذه الحالة سيتعذر عليه تفسير سبب مرافقة جوليا له. وعندما مر أوبراين بشاشة الرصد تصرّف وكأنما خطرت له فكرة، فتوقف ثم استدار وضغط زراً في الحائط، وفي الحال سُمِعَت طقة حادة وتوقف الصوت الصادر عن الشاشة.

وهنا صدر عن جوليا صوت خافت إذ كبتت شهقة ذهول، ولم يكن ونستون أقل هلعاً ودهشة، وقد عجز، من شدة دهشته، أن يمسك لسانه عن الكلام.

فسأل: «هل تستطيع إقفال الجهاز؟»

فقال أوبراين: «نعم يمكنني ذلك، فنحن نتمتع بهذا الامتياز».

كان أوبراين يقف قبالتهما الآن، وبدا كأن قوامه المتين قد جثم على كل منهما، وكان التعبير الذي ارتسم على وجهه مستعصياً على التفسير. لقد كان ينتظر بتجهّم أن يبدأ ونستون الكلام، ولكن عن ماذا؟ فحتى هذه اللحظة كان يبدو كأنه رجل أعمال منهمك في شواغله ويضيق بمن يقاطعه. وبعدما أوقفت شاشة الرصد وخيم جوّ من الصمت الرهيب على الغرفة، وتتالت الثواني ثقيلة، وبصعوبة بالغة ظل ونستون مثبتاً عينيه على وجه أوبراين. بعدئذ، وعلى نحو مفاجئ، افترّ وجه أوبراين المتجهّم عما يمكن أن يكون شروعاً في ابتسامة، وبحركته المعهودة قام أوبراين بإعادة تثبيت نظارته.

وقال: «هل أبدأ بالكلام أم تبدأ أنت؟»

فسارع ونستون بقوله: «بل سأبدأ أنا .. لكن قل لي هل أوقفت هذا الجهاز حقاً؟»

قال: «نعم، لقد تم إيقاف كل شيء وها نحن الآن قد أصبحنا وحدنا».

قال ونستون: «لقد جئنا إلى هنا لأننا...».

ثم توقف عن الكلام بعدما أدرك وللمرة الأولى غموض دوافعه. ولأنه لم يكن يعلم حقاً نوع المساعدة التي يتوقعها من أوبراين، فقد كان من العسير عليه أن يفسر سبب قدومه إلى منزله، لكنه مع ذلك راح يكمل ما انقطع من كلامه وهو مدرك أن ما سيقوله كان يبدو زعماً واهياً:

«إننا نعتقد بأن مؤامرة ما تحاك خيوطها، وبأن ثمة نوعاً من التنظيمات السرية تعمل ضد الحزب، وبأنك شريك فيها. ونحن نريد الانضمام إليها لأننا نضمر العداء للحزب ولا نؤمن بمبادئ الاشتراكية الانجليزية، إننا مجرمو فكر وفاسقون. إنني لم أبح لك بهذا إلا لأننا نريد أن نضع أنفسنا رهن تصرفك، فإذا أردت منا أن نجرِّم أنفسنا بأي شكل من الأشكال فنحن على أتم الاستعداد لذلك».

وتوقف ونستون عن الكلام ونظر من فوق كتف أوبراين حينما أحس بأن الباب قد فتح، فإذا بخادم ضئيل الجسم أصفر الوجه يدلف إلى الغرفة دون أن يطرق الباب حاملاً صينية عليها قنينة وبعض الكؤوس.

فقال أوبراين وهو جامد الملامح: «إن مارتن واحد منا».

ثم راح يوجه كلامه للخادم: «هات الشراب إلى هنا يا مارتن، وضعه على المائدة المستديرة. هل لدينا ما يكفي من المقاعد؟ إذن يمكننا أن نجلس معاً ونتحدث في هدوء، ولتجلب لنفسك مقعدا يا مارتن فنحن مقبلين على عمل الآن، ويمكنك ألا تعتبر نفسك خادماً خلال الدقائق العشر القادمة».

فجلس الخادم مسترخياً وإن ظلت مسحة الخادم ملازمة له، إنها مسحة خادم حظي بامتياز ما. نظر إليه ونستون بطرف عينه وهاله أن حياة

الرجل برمتها ما هي إلا دور يؤديه وأنه يشعر بخطورة تخلّيه عن الشخصية التي يتقمّصها ولو للحظة. أما أوبراين فأمسك بالقنينة وراح يصب في الكؤوس شراباً حمرته داكنة، حتى أُترِعَت. وقد حرك ذلك في ونستون ذكريات غامضة عن شيء رآه منذ زمن بعيد مرسوم فوق جدار أو على لوحة إعلانات - قنينة ضخمة تتكون من أضواء كهربائية بدا أنها تتحرك لأعلى ولأسفل وتصب محتوياتها في كأس - وكان السائل يبدو أسود اللون إذا نظر إليه المرء من أعلى، ولكنه في القنينة يتلألأ مثل الياقوت وتنبعث منه رائحة حمضية حلوة، فيما رأى جوليا وقد رفعت كأسها وراحت تشمّه باستغراب واضح.

فقال أوبراين وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خافتة عندما رأى ذلك: «يسمّونه نبيذاً، لابد أنكما قرأتما عنه في الكتب. ويؤسفني أن أعضاء الحزب الخارجي لا يحظون بالكثير منه». ثم انطبعت على وجهه ملامح الجد والمهابة مرة أخرى ورفع كأسه وقال:

«أعتقد أنه من الأنسب أن نبدأ بشرب نخب زعيمنا إيمانويل غولدشتاين».

رفع ونستون كأسه متلهفاً فقد كان النبيذ شيئاً قرأ عنه وحلم به، وكان يرى أن مثله مثل الثقل الزجاجي وقصائد السيد شارنغتون شبه المنسية تنتمي إلى «الأيام الغابرة»، كما كان يروق له تسميتها في خواطره السرية. ولسبب ما كان يحسب دائماً أن للنبيذ طعماً شديد الحلاوة مثل مربى العليق وأن له تأثيراً مسكراً على الفور. لكنه في واقع الأمر حينما رفع الكأس وتجرع ما فيها أحس بخيبة أمل واضحة، فالسنوات التي ظل فيها يعاقر الجن أفسدت حاسة التذوق لديه وجعلته لا يكاد يستسيغ شراباً آخر، فوضع الكأس مكانها فارغة ثم قال:

- إذن فهنالك شخص حقيقي اسمه غولدشتاين؟

- نعم، هنالك شخص حقيقي، وهو حي يرزق. أما عن مكانه، فلا أعلم أين هو.

فسأل ونستون: «وماذا عن المؤامرة المنظّمة؟ أهي حقيقة؟ أم تراها مجرد اختلاق من شرطة الفكر؟»

فأجاب أوبراين: «كلا، إنها موجودة فعلاً ونحن نطلق عليها حركة «الأخوة». لكن لن يتسنى لك أبداً أن تعرف عنها أكثر من كونها موجودة وأنك تنتمي إليها، ولسوف أتطرق للكلام عن ذلك لاحقاً». وتطلع إلى ساعته، وأردف قائلاً: «ليس من الحكمة حتى لأعضاء الحزب الداخلي أن يوقفوا شاشة الرصد لأكثر من نصف ساعة، وما كان ينبغي أن تأتيا معاً إلى هنا، وسيتعين عليكما أن تنصرفا كلّ على حدة». ثم أشار برأسه نحو جوليا وقال: «أنت أيتها الرفيقة ستغادرين أولاً، لكن ما زال لدينا عشرون دقيقة يمكننا التصرف فيها كيفما نشاء وسأسألكما بعض الأسئلة:

بصفة عامة ما الذي أنتما على استعداد للقيام به؟»

فأجاب ونستون: «إننا على استعداد لعمل كل شيء».

استدار أوبراين قليلاً في كرسيه حتى أصبح في مواجهة ونستون تماماً متجاهلاً بذلك جوليا تقريباً، وكأنه أدرك بداهة أن ونستون يمكنه التحدث بالنيابة عنها. وللحظة خفق جفنا عينيه ثم أخذ يلقي أسئلته بصوت منخفض تخلو نبراته من أي انفعال وكأن ذلك روتين اعتاده أو نوع من الاستجوابات التي يعرف إجاباتها مسبقا:

- هل أنتما مستعدان لبذل حياتكما؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعداد لاقتراف جريمة قتل؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعداد للقيام بأعمال تخريبية قد تودي بحياة مئات الأرواح البريئة؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعداد لخيانة وطنكما لحساب قوى أجنبية؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعداد لاقتراف جرائم الغش والتزييف والابتزاز وإفساد عقول الأطفال وتوزيع العقاقير المسببة للإدمان، وتشجيع البغاء ونشر الأمراض الجنسية والإقدام على كل ما من شأنه أن يحطم معنويات الحزب ويوهن من سلطانه؟

- أجل.

- وإذا افترضنا أن المصلحة تقتضي أن تلقيا بحمض الكبريت على وجه طفل، فهل لديكما الاستعداد لاقتراف مثل ذلك العمل؟

- أجل.

- وهل أنتما مستعدان لأن تتنكرا وتمضيا بقية حياتكما كخادمين أو عاملين في أحواض بناء السفن؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعداد للانتحار متى وإذا ما طلبنا منكما ذلك؟

- أجل.

- وهل أنتما مستعدان، كلاكما، لأن تنفصلا بحيث لا يرى أحدكما الآخر مرة ثانية وإلى الأبد؟

وهنا صرخت جوليا مقاطعة: «كلا».

أما ونستون فقد احتاج إلى وقت أطول ليجيب، بل شعر أنه فقد القدرة على النطق. فقد كان يقلقل لسانه فلا يلفظ سوى حروف غير مفهومة، مجرد مقاطع مبتسرة ومتداخلة، وظل يحاول حتى لفظها في النهاية، فقال: «لا».

فقال أوبراين: «لقد أحسنتما صنعاً بإخباري ذلك، فمن الضروري لنا أن نعرف كل شيء».

واستدار ناحية جوليا ثم أضاف بصوت أكثر إيحائية:

- هل تعلمين أنه حتى لو كتب له البقاء حياً فإنه قد يصبح شخصاً

مختلفاً غير الذي تعرفينه؟ إذ قد نضطر إلى إعطائه شخصية جديدة وذلك بتغيير وجهه وحركاته وشكل يديه ولون شعره بل وحتى صوته. وأنت نفسك ربما تصبحين شخصاً مختلفاً، ففي مقدور جراحينا أن يغيروا الأشخاص حتى ليتعذر معرفتهم، بل وقد نلجأ مضطرين أحيانا إلى بتر عضو من أعضاء الجسم.

لم يستطع ونستون أن يمنع نفسه من النظر بطرف عينيه نظرة خاطفة إلى وجه مارتن ذي القسمات المنغولية، والذي لم يكن يحمل أي ندبات ظاهرة. أما جوليا فقد ازداد وجهها شحوباً وظهر ما فيه من نمش، لكنها ظلت ترمق أوبراين بنظرة جسورة وتمتمت بكلمات فُهم منها أنها موافقة.

فقال أوبراين: «حسناً، لقد اتفقنا إذن».

وكانت فوق المائدة علبة سجائر فضية اللون دفعها أوبراين نحوهما وهو شارد الذهن بعدما استل سيجارة لنفسه، ثم نهض من مكانه وأخذ يذرع أرض الغرفة كما لو أنه يفكر بشكل أفضل حينما يكون واقفاً. وكانت السجائر من النوع الفاخر جداً، غليظة وملفوفة بشكل جيد بورق ناعم الملمس كالحرير.

تطلع أوبراين مرة ثانية إلى ساعته، ثم قال: «يحسن بك أن تعود إلى المطبخ يا مارتن، سأعيد تشغيل الشاشة. انظر ملياً إلى وجهَي هذين الرفيقين قبل أن تنصرف فسوف تراهما مرة ثانية، أما أنا فربما لن أراهما أبداً».

ارتعشت عينا مارتن الضيقتين وهو يحدق بوجهيهما، تماماً مثلما فعل عندما استقبلهما لدى الباب، ولم تكن في طريقته هذه أي علامة على الود والصداقة، وكان يحاول أن يرسخ في ذاكرته ملامحهما وإن كان لم يشعر بأي اهتمام بهما أو بدا كأنه لا يشعر بذلك، وتنبه ونستون إلى أن وجهاً آلياً كهذا ربما لا يقدر على تغيير تعبيراته. ثم انصرف مارتن دون أن ينبس بكلمة أو يلقي تحية وداع عليهم وأوصد الباب خلفه بهدوء. وكان أوبراين لا يزال يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وقد دفن إحدى

يديه في جيب ثوبه الأسود بينما كان يحمل في اليد الأخرى سيجارة، وأخيرا قال:

«يجب أن تفهما جيداً أنكما ستقاتلان في الظلام، وستظلان دائما في الظلام. ستتلقيان أوامر وما عليكما إلا السمع والطاعة ودونما أن تسألا لماذا. وبعد فترة سوف أرسل لكما بكتاب يمكنكما من خلاله أن تفهما الطبيعة الحقة للمجتمع الذي نعيش فيه والاستراتيجية التي نتبناها من أجل تقويض أركانه، وبعد أن تقرآ الكتاب ستصبحان عضوين كاملي العضوية في تنظيم الأخوة. ولكن ما عدا الأهداف العامة التي نناضل من أجلها ومهام اللحظة الآنية التي تسند إليكما، لن تعرفا أي شيء على الإطلاق. وما أود تأكيده لكما هو أن حركة الأخوة موجودة، لكنني لا أستطيع أن أؤكد لكما ما إذا كانت تضم المئات أو الملايين من الأعضاء. وأما أنتما فمن خلال معلوماتكما الشخصية فلن تقدِّرا عددها بأكثر من عشرة أعضاء، إذ ستقتصر اتصالاتكم على ثلاثة أعضاء أو أربعة يتغيرون من حين لآخر ثم لا يلبثون أن يختفوا ليحل محلهم آخرون. أما وإنني أول اتصال لكما فإن هذا سيظل قائماً لا يتغير، وعندما تتلقيان أوامر فستكون صادرة عني، وإذا ما تبين لي أن من الضروري الاتصال بكما فسيكون ذلك عبر مارتن. وإذا ما ألقي القبض عليكما في نهاية الأمر فسوف تعترفان إذ لن يكون ممكناً تجنّب ذلك، بيد أن ما ستعترفان به لن يتجاوز أعمالكما التي اقترفتماها، ولن يكون في مقدوركما أن تشيا بأكثر من حفنة من الأشخاص الذين لا قيمة لهم. بل وربما لا تستطيعان حتى أن تشيا بي لأنني وقتذاك ربما أكون في عداد الموتى وربما أصبح شخصاً آخر بوجه آخر».

وظلّ أوبراين يذرع الغرفة جيئة وذهاباً فوق السجادة الناعمة. وبالرغم من ضخامة جسمه فقد كانت حركاته رشيقة، تلك الرشاقة التي بدت في حركة يده وهو يدسها في جيبه أو ينقل بها السيجارة بين أصابعه. وكان أوبراين قد ترك في نفسيهما انطباعاً يوحي بثقة بالنفس

وإدراك للأمور مفعم بالسخرية فضلاً عن القوّة. ورغم مظهره الذي يوحي بالجديّة، لم تكن عقليته تتسم بأي تعصّب أحادي الاتجاه أو تعالٍ. وحينما كان يأخذ في الحديث عن الاغتيال والانتحار والأمراض الجنسية والأطراف المبتورة والوجوه المغيرة، كان يشوب لهجته شيءمن التهكم، فكان يقول من بين ما يقول: «هذه أمور لا بد منها، إنها أمور يتعين علينا أن نؤديها دون أن تَطْرِفَ لنا عين، ولكن ليس هذا هو ما سنقوم به حينما تصبح الحياة خليقة بأن تُعاش». وشعر ونستون بموجة إعجاب، يُقارب العبادة، تجاه أوبراين، وفي هذه اللحظة كان قد تلاشى من مخيلته شبح غولدشتاين. وكان المرء حينما ينظر إلى أوبراين ببنيانه القوي ووجهه ذي الملامح القاسية، الذي كان يبدو قبيحاً ومهذباً في آن معاً، لا يمكن أن يتصوّر أن مثل هذا الشخص تمكن هزيمته، فهو كُفْء لمواجهة كل مشكلة، وليس ثمة خطر لا يمكنه التنبؤ به، حتى جوليا أَسَرَتْها شخصيته، إذ تركت سيجارتها تنطفئ وهي تصغي إليه بجميع جوارحها، بينما كان أوبراين مستطرداً في حديثه:

«لا بد أنكما سمعتما شائعات حول حركة «الأخوة» ووجودها، ولا ريب في أنكما رسمتما لها صورة في مخيلتكما، وقد تكونان خلتماها عالماً سرياً هائلاً من المتآمرين، يعقدون الاجتماعات خفية في الأقبية، وينقشون رسائلهم على الجدران ويتعارفون بكلمات سرية أو بإشارات متفق عليها باليدين. لكن اعلموا أن شيئاً من هذا ليس له وجود، فأعضاء الحركة ليس لديهم أي وسيلة للتعارف ومن المستحيل على أي عضو أن يكشف هوية أكثر من بضعة أعضاء آخرين، وحتى غولدشتاين نفسه لو وقع في قبضة شرطة الفكر فلن يكون بمقدوره أن يعطيهم قائمة كاملة بالأعضاء أو أي معلومات تقودهم إلى القائمة الكاملة، فليس لمثل هذه القائمة وجود، ولتعلما أن منظمة الأخوة لا يمكن استئصال شأفتها أبداً وذلك لأنها ليست منظمة بالمعنى المعروف للكلمة ولا يجمع بين أعضائها سوى فكرة تستعصي على التدمير، ولن تجدا شيئاً يشد من

أزركما غير تلك الفكرة، كما لن تجدا تشجيعاً أو مواساة رفاقية من أحد، وحتى عندما تُعتقلان في النهاية فلن يمد لكما أحد يد العون، فنحن لا نقدم على ذلك أبداً مع الأعضاء. وحينما يتبين لنا أن ضرورة قصوى تستوجب إسكات شخص ما من الذين ألقي القبض عليهم، فإننا في العادة نقوم بتهريب شفرة حلاقة إلى زنزانة السجين. ويتوجب عليكما أن تعتادا على العيش بلا أمل ودون انتظار لجني النتائج لأنكما ستناضلان لحين من الزمن، ثم يلقى القبض عليكما فتعترفان وتقادان إلى الموت. تلك هي النتائج الوحيدة التي ستلمسونها لأنه لا يُتوقّع أن تحدث أي تغييرات محسوسة في المستقبل القريب، وفي ظل هذه الحال نحن أموات ولا حياة لنا إلا في المستقبل الذي سوف نسهم في بنائه كذرّات غبار أو كشظايا عظام، ولكن كم يبعد هذا المستقبل عن حاضرنا؟ لا أحد يعلم، فربما يأتي بعد آلاف السنين، وما علينا في وقتنا الراهن إلا أن نوسع دائرة انتشار فكرتنا شيئاً فشيئاً. ولأننا لن نستطيع العمل بصورة جماعية، فلا سبيل أمامنا إلا أن ننشر أفكارنا من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل، وما من سبيل غير هذا يمكن أن نسلكه في مواجهة شرطة الفكر».

عند هذا الحد توقف أوبراين وتطلّع إلى ساعته للمرة الثالثة، ثم قال مخاطباً جوليا:

- لقد حان وقت انصرافك أيتها الرفيقة، لكن مهلا، فما زالت القنينة ملآنة حتى نصفها.

ثم أترع الكؤوس ورفع كأسه قائلاً:

«نخب من سنشرب هذه المرة؟» قالها بنبرة مفعمة بالتهكم والسخرية. «هل نشرب نخب الفوضى التي ستعم شرطة الفكر؟ أم نخب موت الأخ الكبير؟ أم نخب الإنسانية؟ أم نخب المستقبل؟»

فقال ونستون: «بل نخب الماضي».

فأقرّه أوبراين برزانة على هذا قائلاً: «نعم إن الماضي أهم».

وعندما انتهوا من احتساء كؤوسهم نهضت جوليا استعداداً للانصراف، فأخذ أوبراين علبة من أعلى الخزانة وناولها قرصاً أبيض لتضعه في فمها قائلاً: «من المهم ألا يخرج المرء ورائحة الخمر تفوح من فمه فلدى عمال المصاعد قوة ملاحظة فائقة». وما إن أوصدت الباب خلفها حتى بدا على أوبراين وكأنه نسي أمرها. وعاد يذرع الغرفة مرة أو مرتين ثم لم يلبث أن توقف مخاطباً ونستون:

- ما زالت هنالك بعض التفاصيل التي يجب الاتفاق بشأنها، أعتقد بأن لديك مخبأ في مكان ما، أليس كذلك؟

فشرح له ونستون كل شيء عن غرفته التي استأجرها فوق حانوت السيد شارنغتون.

فقال أوبراين: «لا بأس بها حتى حين. وسوف نتدبر لكما مكاناً آخر فيما بعد، فمن المهم أن يغير المرء مخبأه من حين لآخر، ولسوف أرسل لك بنسخة من الكتاب، كتاب غولدشتاين حالما يتيسر لي ذلك». هنا لاحظ ونستون أن أوبراين نفسه يلفظ كلمة كتاب بنبرة مميزة. «وقد لا أتمكن من الحصول على نسخة منه إلا بعد أيام، فالنسخ المتوفرة ليست بالكثرة التي تتصورها، فشرطة الفكر تتعقب النسخ وتتلفها فوراً، لكن ذلك لن يؤثر فينا، فالكتاب لا يمكن أن يفنى، فحتى إذا ما أتلفت النسخة الأخيرة منه فإن في وسعنا أن نعيد كتابته حرفاً حرفاً»، ثم أضاف: «هل تحمل حقيبة يد معك عادة إلى العمل؟»

أجاب ونستون: «نعم . . . في العادة».

- وما شكلها؟

- سوداء وقديمة جداً وذات حزامين.

- حسناً . . . ذات صباح في المستقبل القريب، إذ لا يمكنني التحديد، ستجد بين رسائل عملك الصباحي رسالة تحتوي على أخطاء مطبعية، وعليك أن تطلب إعادة إرسالها، وفي اليوم التالي سيتعين عليك

أن تتوجه إلى عملك دون أن تحمل حقيبتك معك، وفي وقت ما من النهار وأثناء سيرك في الطريق، سيستوقفك رجل وهو يقول: «أظن أن حقيبتك قد سقطت منك» وسيعطيك محفظة، تحتوي على نسخة من كتاب غولدشتاين يتعين عليك قراءتها وردّها في غضون أسبوعين.

وساد الصمت لحظة قبل أن يكسره أوبراين بقوله:

- أمامك دقيقتان ويحين موعد انصرافك، سوف نلتقي ثانية إذا قُدِّرَ لنا أن نلتقي . . .

ونظر ونستون إليه قائلاً بنبرة تودّد: «في المكان الذي لا ظلام فيه».

فأومأ أوبراين برأسه دون أن يبدو عليه أي أثر للدهشة. وقال كما لو أنه أدرك ما يلمّح إليه ونستون: «نعم في المكان الذي لا ظلام فيه». ثم أردف قائلاً: «والآن هل لديك ما تود قوله قبل انصرافك؟ أي رسالة؟ أي تساؤل؟»

أطرق ونستون هنيهة. لم تكن لديه أي تساؤلات أخرى، كما لم يكن لديه أدنى رغبة في أن يتحدث عن شؤون عامة. وبدلاً من أن يخطر بباله شيء ذو صلة بأوبراين أو بحركة الأخوة، طرقت ذهنه صورة مركبة من كل من الغرفة المعتمة التي أمضت فيها أمه أيامها الأخيرة والغرفة الضيقة الكائنة فوق حانوت السيد شارنغتون والثقل الزجاجي وصورة القضبان المحفورة في إطار اللوحة المصنوع من خشب الورد، فقال بصورة عفوية:

- هل سبق أن تناهى إلى سمعك قصيدة قديمة يقول مطلعها: «تقول أجراس سانت كليمنت: برتقال وليمون؟»

فأومأ أوبراين برأسه ثانية، وقال بنبرة رزينة مكملاً المقطع:

«تقول أجراس سانت كليمنت، برتقال وليمون

فتقول أجراس سانت مارتن، أنت مدينة لي بثلاث فارذن

فتقول أجراس أولد بايلي، متى ستدفع لي؟
فتقول أجراس شورديتش، حينما أصبح ثريا»
فقال ونستون متعجباً: «إنك تعرف البيت الأخير!»
- نعم أعرفه، والآن حان وقت انصرافك. ولكن مهلاً حتى أعطيك قرصاً لتزيل رائحة الفم.

وعندما نهض ونستون مدّ له أوبراين يده مصافحاً بقوة حتى كادت قبضته القوية تسحق عظام كف ونستون. وعند الباب تطلع ونستون وراءه ليلقي نظرة أخيرة، لكن بدا له أن أوبراين كان قد وضعه بالفعل خارج دائرة تفكيره، إذ كان أوبراين ينتظر انصرافه ويده فوق الزر الذي يتحكم في تشغيل شاشة الرصد. ونظر ونستون وراء أوبراين فوجد طاولة الكتابة وفوقها المصباح ذو الظلال الخضراء وآلة التسجيل والأوراق. وانتهى اللقاء. وخطر لونستون أنه في غضون ثوان معدودات سيعود أوبراين إلى عمله الهام الذي يقوم به لصالح الحزب والذي قطعته الزيارة.

الفصل التاسع

أصبح ونستون أشبه بجسم هلامي جراء ما أصابه من كلل، ويبدو أن كلمة «هلامي» هي الأبلغ والأدق وصفاً لحاله حتى أنها خطرت بباله تلقائياً، بل لقد خيّل إليه أن جسمه ليس بضعف الهلام فحسب بل بشفافيته أيضاً، وتملّكه إحساس بأنه إذا ما رفع راحته أمام عينيه ونظر فيها لأمكنه رؤية الضوء من خلالها لرقتها. كما بدا وكأن كل ما في عروقه من دماء قد استنزف وخلاياه اللمفاوية قد ضمرت في حمأة الأعمال الضخمة التي احتملها والتي لم تخلف وراءها منه غير هيكل هش من عظام وأعصاب وجلد. وبدا له أن كل شيء بات ينتج أثراً أضخم مما هو عليه في الواقع حتى أن رداءه صار يقرّح كتفيه والرصيف يؤلم قدميه، بل إن مجرد بسط قبضة يده وطيها قد غدا أمراً يحتاج منه إلى جهد جهيد تكاد مفاصله تئن له أنيناً.

ظل ونستون يعمل لأكثر من تسع عشرة ساعة في اليوم وعلى امتداد خمسة أيام وكان هذا شأن كل فرد آخر في الوزارة. والآن تم كل شيء ولم يعد لديه أي مهام من أي نوع، حزبية أو غير حزبية حتى صباح الغد، ومن ثم يمكنه أن يمضي ست ساعات في ملاذه الآمن وتسعاً في فراشه. تحت شمس الأصيل اللطيفة مشى ونستون على مهل في شارع قذر باتجاه حانوت السيد شارنتون وكان ينظر بعينين، عين يترقب بها ظهور الدوريات وعين ينظر بها أمامه رغم أنه كان يثق ثقة عمياء في أنه

لن يتعرض لأي خطر في هذا اليوم. وكانت الحقيبة الثقيلة التي يحملها ترتطم بركبته مع كل خطوة يخطوها فتسبب له ألماً تسري وخزاته في كل ساقه؛ كانت تضم بداخلها الكتاب الذي أصبح في حوزته منذ ستة أيام ولم يفتحه بعد أو حتى يلقي عليه نظرة.

وفي اليوم السادس من أسبوع الكراهية وبعد كل ما أقيم من فعاليات تمثّلت في المواكب والخطب والهتافات والأناشيد والرايات والملصقات والأفلام وتماثيل الشمع ودق الطبول ونفخ الأبواق ووقع أقدام الجنود وضجيج جنازير الدبابات وأزيز أسراب الطائرات ودوي المدافع - بعد ستة أيام حافلة بهذه المشاهد، وبعد أن كانت نشوة الكراهية قد بلغت ذروتها والكراهية العامة لأوراسيا قد بلغت بالجماهير المحتشدة درجة الغليان والاهتياج حتى أنهم لو ظفروا بالألفي أوراسي من مجرمي الحرب الذين كان سيجري إعدامهم شنقاً على الملأ في اليوم السابع والأخير من الاحتفالات، لمزقوهم إرباً إرباً، في هذه اللحظة من الهيجان أُعلِن أن أوقيانيا لم تكن بأي حال في حرب مع أوراسيا بل كانت في حرب مع إيستاسيا، أما أوراسيا فكانت حليفتها.

وطبعاً لم يعتبر الحزب أن تغييراً ما قد حدث، فكل ما هنالك أنه تم الإعلان على نحو مفاجئ وفي كل صقع من أصقاع البلاد بأن إيستاسيا لا أوراسيا هي العدو. وكان ونستون، في تلك اللحظة التي أعلن فيها هذا البيان، يشارك في تظاهرة بإحدى ساحات وسط لندن، كان ذلك خلال الليل ما جعل الوجوه البيضاء والرايات القرمزية تتلألأ في الأنوار المضيئة وكانت الساحة تعج بآلاف من الناس، بينهم ألف من أطفال المدارس يلبسون زي الجواسيس، وعلى منصة موشاة باللون القرمزي وقف عضو من الحزب الداخلي يخطب ويهيّج الجماهير: رجل نحيل ضئيل الجسم ذو ذراعين طويلتين لا تتناسبان مع جسمه، وجمجمة صلعاء تنتشر فوقها بصورة مبعثرة بضع خصلات هزيلة من الشعر، وقف بقامته القصيرة وهو يقبض على عنق الميكروفون بكف فيما بكفه

الأخرى، التي تنتهي بها ذراعه ذات العظام الناتئة، يلوّح في الهواء مهدداً ومتوعداً. كان صوته يبدو رنانا بفعل المكبر وهو يدوي منددأ بالفظائع والمذابح وأعمال الترحيل والإبعاد والسلب والنهب والاغتصاب وتعذيب الأسرى وقصف المدنيين العزل وإلقاء المنشورات والدعايات الزائفة والاعتداءات وخرق المعاهدات، ولم يكن باستطاعة المرء وهو يصغي إليه إلا أن يصدقه أو يقتنع بكلامه أو ينتابه سعار من الغضب من هول ما يسمع. كانت الصرخات الغاضبة تتعالى هادرة بين الفينة والأخرى من آلاف الحناجر بلا قدرة على كبحها حتى تغدو مثل زئير الوحوش فتطغى على صوت الخطيب، وعن أطفال المدارس كانت تصدر أعلى الصيحات وأكثرها وحشية. كان قد مضى زهاء عشرين دقيقة من الخطاب عندما شوهد رسول يشق طريقه إلى المنصة ويدس قصاصة من الورق في يد الخطيب الذي قرأها بدوره على الفور، ودون أن يتوقف عن الخطابة، ورغم أنه لم يطرأ أدنى تغيير على نبرة صوته أو طريقة إلقائه أو على مضمون خطابه، فقد وقع تغيير مفاجئ في المسميات، وسرعان ما فطنت الجماهير وأدركت حقيقة ما جرى؛ وهي حقيقة مفادها أن أوقيانيا إنما كانت في حرب مع إيستاسيا! وفي اللحظة التالية ساد المكان حالة من الهرج والمرج بعدما أدركوا أن كل الرايات والملصقات التي زينت بها الساحة كانت خاطئة! وكان نصفها يحمل صوراً مغلوطة. وصاح بعضهم بأن ذلك ضرب من ضروب التخريب! وبأن عملاء غولدشتاين هم الذين يقفون وراء هذا العمل! وإثر ذلك ساد جو من الفوضى والشغب حيث نزعت الملصقات عن الجدران ومزقت الرايات وديست بالأقدام، وبذل الجواسيس جهداً مضنياً لتسلّق أسطح المنازل لتقطيع الأعلام التي كانت ترفرف فوق الأسطح متدلية من المداخن. ولكن في غضون دقيقتين أو ثلاث كان كل شيء قد انتهى، وراح الخطيب يواصل خطابه وهو لم يزل يقبض على عنق الميكروفون وكتفاه محدودبتان إلى الأمام ويده الخالية تلوّح في الهواء. وبعد دقيقة أخرى

كانت الجماهير قد انخرطت من جديد في صرخات غاضبة وحشية، وتواصل سعار الكراهية تماماً كما كان، عدا أن شيئاً واحداً تغير وهو الهدف الذي يصبّون عليه جام كراهيتهم.

لكن الأمر الذي ترك أثراً واضحاً في ونستون هو أن الخطيب كان ينتقل من سطر إلى آخر دون أن يكمل جمل خطبته، وليس هذا فحسب بل ودون توقف أو حتى خرق قواعد النحو. ولكنه تنبه إلى أن لديه أموراً أخرى تشغله في هذه اللحظة، ففي اللحظة التي عم فيها الاضطراب وبينما كانت الجماهير تمزق الملصقات إذا برجل لم ير ونستون وجهه يربت على كتفه قائلاً: «عفوا، أظن أن حقيبتك قد سقطت منك»، فتناول ونستون الحقيبة منه وهو شارد الذهن من دون أن ينبس ببنت شفة، وكان يدرك أنه سوف تنقضي أيام قبل أن تتاح له فرصة النظر إلى ما في داخلها. وما إن انتهت التظاهرة حتى عاد رأساً إلى وزارة الحقيقة رغم أن الساعة كانت قد قاربت الحادية عشرة ليلاً، وكذلك فعل جميع موظفي الوزارة امتثالاً للأوامر الصادرة من شاشة الرصد رغم أن مثل هذه الأوامر لم تكن ضرورية.

كان السبب الذي استُدعي من أجله جميع الموظفين في هذه الساعة المتأخرة من الليل هو أن أوقيانيا قد باتت في حالة حرب مع إيستاسيا، بل إن أوقيانيا كانت دائماً، ولم تزل، في حرب مع إيستاسيا. وكان ذلك يعني أن جزءاً هائلاً من الأدبيات السياسية التي صدرت على مدى خمس سنوات قد أصبحت باطلة ويتعين القيام بعملية تنقيح سريعة لكل التقارير والسجلات على اختلاف أنواعها، والجرائد والكتب والكتيبات والأفلام والأشرطة الصوتية والصور. ورغم أنه لم تصدر أي توجيهات، فقد كان معلوماً أن رؤساء الأقسام يعتزمون عدم الإبقاء على أي إشارة إلى الحرب مع أوراسيا أو التحالف مع إيستاسيا في غضون أسبوع واحد. لقد كانت المهمة جسيمة للغاية، لكن ما زاد الطين بلة هو أن هذه العمليات لم تكن تسمى بأسمائها الحقيقية، وكان كل شخص في قسم السجلات

يعمل على مدار ثماني عشرة ساعة في اليوم والليلة، ولا ينعم سوى بساعتي نوم أو ثلاث. وقد جيء بالأغطية والفُرش من الأقبية وبسطت في جميع الممرات كما أعدت وجبات سريعة تتألف من سندويشات وقهوة النصر يدور بها الخدم على عربات لتقديمها إلى الموظفين دون أن يبرحوا مكاتبهم. كان ونستون قبل كل مرة يذهب فيها لأخذ نوبة نوم يحاول جاهداً أن ينتهي من العمل المكدّس فوق مكتبه، لكنه كان في كل مرة يعود مجهد الجسد والعينين ليجد مكتبه وقد تكدس مرة أخرى بلفافات الورق التي كانت تغطي مكتبه مثل ندف الثلج وتطمر جهاز الحاكي الكاتب حتى نصفه وتفيض على الأرض، مما يجعل مهمته الأولى رصّها في كومة مرتبة حتى يعطي لنفسه حيزاً ليعمل. إلا أن أسوأ ما في الأمر هو أن العمل كان ميكانيكياً محضاً إذ غالباً ما كان يكفي أن تستبدل اسماً باسم آخر، أما حينما يتعلق الأمر بتقارير مفصلة للأحداث فإنه كان يتطلب عناية وخيالاً، وحتى المعلومات الجغرافية التي يحتاج إليها المرء لنقل الحرب من جزء من العالم إلى جزء آخر تتطلب جهداً جباراً.

في اليوم الثالث راحت عيناه تؤلمانه أشد الألم، وبات مضطرا لمسح نظارته كل بضع دقائق، لقد كان العمل أشبه بصراع مضن لا بد أن يحسمه. وحسبما يتذكر ونستون، لم يكن يؤرقه أن كل كلمة يمليها إلى الحاكي الكاتب، وكل حرف يخطه كان بمثابة كذبة متعمدة، بل كان همه منصباً، شأنه شأن بقية الموظفين، على أن تخرج عمليات التزوير متقنة. وفي صبيحة اليوم السادس انخفض تدفق الأوراق إليه وأصبح يفصل بين كل لفافة وأخرى من الورق حوالى النصف ساعة. وكانت حدة العمل قد خفّت في كل مكان في التوقيت نفسه وتنفس جميع موظفي القسم الصعداء خفية، لما لا وقد تم إنجاز عمل جبار لم يكن أحد يتصوره، وأصبح في حكم المستحيل على أي إنسان أن يأتي بدليل وثائقي يثبت أن حرباً ما وقعت بين أوقيانيا وأوراسيا. وفي الساعة الثانية

عشرة أعلن على نحو مفاجئ أن جميع الموظفين في الوزارة في حِلّ من أمرهم حتى صباح اليوم التالي.

كان ونستون، الذي ما يزال يحمل الحقيبة المحتوية على الكتاب فيضعها بين قدميه أثناء ساعات العمل وتحت جسمه أثناء نومه، قد مضى إلى البيت، وهناك حلق ذقنه وكاد ينام في الحمام رغم أن الماء لم يكن ساخناً، وقرر الذهاب إلى المخبأ.

بشيء من الصرير المثير للرغبة في مفاصله راح ونستون يصعد السلم المؤدي إلى غرفتة الكائنة فوق حانوت السيد شارنغتون. وحينما دلف إلى الغرفة أحس بإعياء شديد ولكنه لم يشعر بأية رغبة في النوم. فتح النافذة وأشعل موقد الزيت ووضع غلاية الماء على النار وراح ينتظر قدوم جوليا. وفي أثناء ذلك تذكّر الكتاب فجلس في مقعد بائس ذي ذراعين وفك حزامي الحقيبة.

أخرج منها مجلداً أسود ثقيلاً، ملفوفاً بعناية، ولا يحمل اسماً أو عنواناً، وبدت طباعته أيضاً غير عادية. وكانت الصفحات مهترئة عند أطرافها لكن تقليبها لم يكن يحتاج إلى عناء كما لو أن أيد كثيرة قد تداولته. وكان عنوان الصفحة الأولى يقول ما يلي:

حكم الأقلية الطاغية

نظرية وتطبيقا

بقلم إيمانويل غولدشتاين

وراح ونستون يقرأ:

الفصل الأول

الجهل هو القوة

عبر التاريخ المعروف للإنسان، بل وربما منذ نهاية العصر الحجري، كان هنالك ثلاث فئات من البشر أو بالأحرى ثلاث طبقات

في العالم: العليا والوسطى والدنيا، وقد قسمت هذه الطبقات فيما بينها طبقات أخرى فرعية، وحملت أسماء مختلفة لا حصر لها ولا عد، أما النسب التي تمثلها وكذا مواقفها إزاء بعضها البعض فقد تباينت من عصر لآخر، غير أن التركيبة الأساسية للمجتمع ظلت كما هي لم تتغير أبداً، بل حتى بعد اندلاع الثورات العارمة وما أحدثته من تغييرات تبدو لا رجعة عنها، فإن ذلك النموذج يعود فيؤكد نفسه مثلما تفعل مروحة السفينة التي تعاود توازنها سواء أدرتها في هذا الاتجاه أو ذاك. وأما أهداف هذه الطبقات فكانت متضاربة ولا يمكن التوفيق بينها على الإطلاق ...

وتوقف ونستون عن القراءة ريثما يستوعب حقيقة أنه أضحى يقرأ مرتاح البال وآمنا على نفسه، وأن خصوصيته محفوظة، فليس هنالك شاشة رصد مسلطة عليه ولا أذن تسترق السمع من وراء حجاب، ولا هاجس عصبي يجعله ينظر وراءه ويغطي بيده صفحة يقرأها. كانت نسمات الصيف العليلة تداعب وجنتيه، ومن مكان بعيد كانت تتناهى لسمعه أصوات خافتة لأطفال في الشوارع، وأما في الغرفة نفسها فلم يكن هنالك غير صوت دقات الساعة، ولذا فقد استرخى في مقعده واضعاً رجله على حاجز المدفأة وأحس كما لو أنه في جنة الخلد. وفجأة وكما يفعل المرء بكتاب يدرك أنه لا بد أن يقرأه مرات ومرات، فقد راح ونستون يتصفح الكتاب سريعاً حتى بلغ الفصل الثالث منه فأخذ يقرأ:

الفصل الثالث

الحرب هي السلام

إن انقسام العالم إلى ثلاث دول عظمى حدثٌ كان يمكن التكهن به قبل منتصف القرن العشرين؛ فمع ابتلاع روسيا لأوروبا، وابتلاع الولايات المتحدة للإمبراطورية البريطانية، فإن اثنتين من القوى العظمى الثلاث، هما أوراسيا وأوقيانيا، قد برزتا فعلياً إلى الوجود،

أما القوة الثالثة وهي إيستاسيا فلم تظهر كوحدة مستقلة واضحة المعالم إلا بعد عقد من الزمن تخلله اقتتال فوضوي، وكانت الحدود الفاصلة بين الدول العظمى الثلاث في بعض البقاع عشوائية بينما كانت في البعض الآخر تتباين حسب رجحان كفة كل دولة أثناء التحارب، وإن كانت في أغلب الاحيان تتبع خطوطاً جغرافية. وتتألف أوراسيا من تلك الأراضي الشاسعة شمال أوروبا وآسيا والتي تمتد من البرتغال إلى مضيق بيرينغ، أما أوقيانيا فتضم الأمريكتين وجزر المحيط الأطلنطي بما فيها الجزر البريطانية وأستراليا والجزء الجنوبي من أفريقيا، في حين كانت إيستاسيا أصغر مساحة من الدولتين الأخريين وذات حدود غربية أقل تحديداً، وتتألف من الصين والأقطار الواقعة جنوبها ومن الجزر اليابانية وشطر كبير من منشوريا ومنغوليا وهضبة التبت وكانت تتغيّر مساحتها حسب سير العمليات الحربية.

وكانت هذه الدول العظمى الثلاث في حالة حرب مستمرة مع تغيّر في التحالفات والعداءات، وعلى مدى الخمس والعشرين سنة الماضية لم تتوقف رحى الحرب التي لم تعد ذلك الصراع المتهور الذي يهدد بقاء الجنس البشري كما كان عليه الحال في العقود الأولى من القرن العشرين، وإنما كانت حرباً ذات أهداف محدودة بين دولتين متحاربتين لا تملك أي منهما القدرة على تدمير غريمتها ودون أن يكون لدى أي منهما سبب واضح للاقتتال، كما لم تكن بينهما خلافات أيديولوجية حقيقية. لكن هذا لا يعني أن سير الحرب أو الموقف منها قد أصبح أقل تعطشاً للدماء أو أكثر شهامة ونبلاً، بل على النقيض من ذلك، أصبحت الحرب أشبه بهستيريا متواصلة استشرت في جميع البلاد، وأصبح الشعب ينظر إلى جرائم الاغتصاب والسلب والنهب وذبح الأطفال وتحويل سكان الطرف المهزوم عن بكرة أبيهم إلى عبيد، والانتقام من الأسرى بشتى الوسائل التي قد تبلغ حد حرقهم أحياء أو غليهم في الماء، باعتبارها

حقاً طبيعياً ويستحق الثناء ما دام مرتكبوها هم الطرف الذي يؤيده الشعب وليس العدو. ولكن الحرب من ناحية أخرى لم تعد تشمل غير أعداد محدودة للغاية من قوات خاصة جيدة التدريب لا تتسبب في خسائر فادحة مقارنة بالحروب السابقة. وكانت رحى الحرب حينما تدور فإنها تدور في مناطق حدودية غامضة لا يعرف المواطن العادي عنها غير تكهنات وتخمينات، أو حول القلاع العائمة التي تحرس نقاطاً استراتيجية في المضائق والموانئ البحرية. أما في المدن الكبرى فالحرب لا تعني أكثر من تناقص مستمر في السلع الاستهلاكية وسقوط القذائف الصاروخية التي قد تودي بحياة العشرات من الأشخاص من حين لآخر. وفي واقع الأمر يمكن القول إن طبيعة الحرب قد تغيرت، أو إذا شئنا الدقة فإن الأسباب التي من أجلها تُشن الحروب قد تغير ترتيبها على سلم الأولويات، فالدوافع التي كانت حاضرة حضوراً خافتاً في الحروب العظمى التي اندلعت في أوائل القرن العشرين باتت اليوم هي الدوافع الأبرز والمحركة لرحى الحروب.

ولكي نفهم طبيعة حروب اليوم - والتي ورغم أن خريطة التحالفات لا تفتأ تتغير كل بضع سنوات، فإنها جميعاً متشابهة - فعلى المرء أن يقرّ أولاً بأن الحرب لم تعد تحسم أي صراع، فما من دولة من بين هذه الدول العظمى الثلاث يمكن قهرها تماماً حتى لو اجتمعت الدولتان الأخريان معاً، فهنالك توازن قوى بين ثلاثتهم فضلاً عن أن لكل واحدة منها دفاعاتها المنيعة؛ فبينما تحتمي أوراسيا بأراضيها البرية الشاسعة وتحتمي أوقيانيا بالمحيطين الأطلنطي والهادئ، فإن إيستاسيا تحتمي بكثرة سكانها وتفانيهم في العمل، ثم ثانياً لم يعد هنالك ذلك الشيء المحسوس الذي يستحق الاقتتال حوله. وفي ظل اقتصادات الاكتفاء الذاتي والتي يتوازن فيها الإنتاج والاستهلاك، فقد توقف التسابق على الأسواق والذي كان سبباً أساسياً في نشوب الحروب في الماضي كما لم يعد التنافس

على المواد الخام مسألة حياة أو موت، فكل دولة من هذه الدول العظمى الثلاث هي من الاتساع بحيث يمكنها تدبير احتياجاتها من هذه المواد من أراضيها ذاتها. وإذا كان لا بد للحرب من دوافع اقتصادية مباشرة، فقد أضحى ذلك ينحصر في الصراع من أجل الحصول على الأيدي العاملة. وفيما بين هذه الدول هنالك تخوم لا تخضع لسيطرة واحدة منها دون الأخريين بشكل دائم وهي بمثابة مناطق بينية رباعية الأضلاع تنتهي زواياها عند طنجة وبرازافيل وداروين وهونغ كونغ والتي تضم فيما بينها خمس سكان الأرض، وتدور رحى صراع لا يتوقف بين القوى الثلاث من أجل السيطرة على هذه المناطق ذات الكثافة السكانية إضافة إلى منطقة القطب الشمالي. ولم تستطع أي من هذه القوى فرض سيطرتها على كامل المنطقة المتنازع عليها، إذ تتقاسمها الدول فيما بينها على نحو مستمر، وكانت فرصة اقتطاع هذا الشطر أو ذاك لصالح دولة ما، لا تسنح إلا بلجوء هذه الدولة لاستخدام الهجمات الخاطفة والمباغتة وهو الأمر الذي يفرض التغيرات الدائمة في التحالفات بين هذه الدول.

وتعتبر جميع المناطق المتنازع عليها غنية بالثروات، فمنها ما هو غني بالثروة المعدنية ومنها ما هو غني بالمنتجات الزراعية الهامة كالمطاط والذي تضطر الدول ذات المناخات الباردة إلى إنتاجه صناعياً بطرق باهظة التكاليف. وفضلاً عن ذلك كله فإن هذه المناطق تمتلك احتياطياً لا ينفد من العمالة الرخيصة، ومن ثم فإن أي قوة تسيطر على أفريقيا الاستوائية أو بلدان الشرق الأوسط أو الأرخبيل الأندونيسي، تمتلك أيضاً حق التصرف في مئات الملايين من العمالة الماهرة الرخيصة، وكان الحال يسوء بسكان هذه المناطق بحيث يصبحون أقرب إلى العبيد، إذ كانوا ينتقلون على نحو دائم من يد قوة غازية ليد قوة أخرى، كما كانوا يُستنفدون كالفحم والزيت في سباقات التسلح وفي التنافس من أجل حيازة المزيد من الأراضي وامتلاك المزيد من الأيدي العاملة وإنتاج المزيد من السلاح وهكذا

دواليك. وجدير بالملاحظة أن الاقتتال لم يكن يتعدى أطراف المناطق المتنازع عليها، ولذلك كانت حدود أوراسيا تمتد وتنحسر فيما بين حوض نهر الكونغو والساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط. وأما جزر المحيط الهندي فهي محور نزاع دائم ما بين أوقيانيا وإيستاسيا، تارة تؤول لهذه وتارة تؤول لتلك. وفي منغوليا لم يكن خط التقسيم بين أوراسيا وإيستاسيا مستقراً أبداً، كما كانت القوى الثلاث تدّعي ملكية أراض شاسعة في المنطقة القطبية والتي هي في واقع الأمر غير مأهولة ولم تستكشف بعد، ومع ذلك كله فقد كانت موازين القوى تظل متعادلة دائماً كما تظل الأراضي التي تشكل قلب كل من القوى الثلاث حرماً لا ينتهك. وعلاوة على ذلك فإن الأيدي العاملة للشعوب المستغلة حول خط الاستواء ليست ضرورية حقاً في الاقتصاد العالمي وذلك لأنها لا تضيف شيئاً إلى ثروة العالم طالما أن كل ما تنتجه تبتلعه آلة الحرب، وما دام الهدف من وراء كل حرب أن تصبح الدولة في وضعية أفضل لشن حرب أخرى. ويعتبر ما ينتجه هؤلاء السكان المغلوبون على أمرهم بمثابة الوقود للحرب. غير أنه لو فرض عدم وجود هذه الأيدي العاملة، فإن ذلك لن يحدث تغييراً جوهرياً في تركيبة المجتمع الدولي ومسألة حفاظه على وجوده.

إن الهدف الأساسي للحرب الحديثة (وفقاً لمبادئ ازدواجية التفكير، وهو هدف تعترف به الأدمغة الموجهّة في الحزب الداخلي وتنكره في آن واحد) هو الإفادة مما تنتجه الآلة دون رفع المستوى العام للمعيشة. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ظل التخلص من فائض السلع الاستهلاكية يمثل مشكلة كامنة في المجتمعات الصناعية، أما في الوقت الحاضر حيث لا ينال إلا قلة من الناس كفايتهم من الغذاء، فإن هذه المشكلة تصبح غير ملحّة وربما لم تكن لتصبح ملحّة حتى لو لم تكن عمليات التدمير العمدي قائمة على قدم وساق. إن عالم اليوم عالم متهاوٍ جائع عارٍ مقارنة بعالم ما قبل 1914، بل وتصبح

صورته أكثر قتامة إذا ما قورنت بصورة المستقبل الذي كانت تصبو إليه الشعوب في تلك الحقبة. ففي مطلع القرن العشرين كانت رؤية ومخيلة كل مثقف لمجتمع المستقبل تشيران إلى أن العالم سيبلغ مستوى لا يصدق من الترف والثراء والنظام والكفاءة – عالم متلألئ من الزجاج والفولاذ والأسمنت الأبيض ذي المناعة ضد الجراثيم. كان العلم والتكنولوجيا يتقدمان بسرعة مذهلة وكان من الطبيعي أن يظن الناس أن ذلك التقدم سيتواصل، ولكن خابت ظنونهم بسبب حالة الإفقار التي جلبتها على العالم سلسلة طويلة من الحروب والثورات من ناحية، ولأن التقدم العلمي والتقني يعتمد على الفكر التجريبي والذي لا مجال في مجتمع يسير وفق نسق صارم لأن يخرج عنه. وبصفة عامة يمكن القول بأن عالم اليوم أكثر بدائية مما كان عليه قبل خمسين سنة. صحيح أن تقدماً قد حصل في بعض المجالات المتأخرة وأنه قد جرى اختراع بعض الآلات التي كانت دائماً ذات صلة بالحروب وبعمليات التجسس، لكن الصحيح أيضاً أن التجارب والاختراعات قد أوقفت على نطاق واسع، كما أن العالم لم يبرأ بعد من الويلات التي خلفتها الحرب الذرية التي نشبت في خمسينيات القرن العشرين، وما زالت المخاطر التي رافقت ظهور الآلة قائمة. فمنذ اللحظة التي ظهرت فيها الآلة للمرة الأولى بدا جلياً لكل ذي عقل أنه لم تعد ثمة حاجة إلى استعباد الناس ومن ثم إلى فرض نظام طبقي لا يساوي بينهم. ولو أن الآلة كانت قد وُظفت بعناية لإنجاز هذه الغاية، لأمكن استئصال شافة الفقر والجهل والمرض خلال أجيال قليلة. وفي الواقع إن الآلة ورغم أنها لم تستخدم لهذه الغاية وإنما استخدمت في إنتاج ثروات يستحيل عدم توزيعها، قد أدت إلى رفع المستويات المعيشية لدى الإنسان العادي بدرجات هائلة على مدى خمسين سنة تمتد من أواخر القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين.

بيد أنه كان من الجلي أيضاً أن هذه الزيادة الهائلة في الثروة

تمثل تهديداً، أو بالأحرى تؤدّي إلى تقويض المجتمع الطبقي، وفي عالم أصبح كل فرد فيه يعمل سويعات قلائل ولديه ما يكفيه من الطعام ويسكن بيتاً مجهزاً بالسخان والثلاجة ويملك سيارة فارهة أو حتى طائرة، فإن أوضح بل وربما أهم أشكال عدم المساواة بين الناس تزول وتختفي. وإذا ما عمت تلك الثروة بين الناس فإنها لن تصبح وسيلة للتمييز بين الناس. ومما لا شك فيه أنه بالإمكان تخيل مجتمع تكون فيه الثروة، المتمثّلة في حيازة الممتلكات الشخصية والكماليات، موزعة توزيعاً عادلاً، بينما تظل السلطة محصورة في أيدي طبقة قليلة صغيرة العدد تحظى بامتيازات. ولكن مجتمعاً مثل هذا المجتمع لا يُكتب له أن ينعم بالاستقرار طويلاً على أرض الواقع، ذلك أنه إذا حظي جميع أفراد المجتمع وعلى السواء بالأمن والرفاه فإن العدد الأكبر من البشر الذين يخدرهم الفقر سيغدون مثقفين وسيتعلمون أن يفكروا لذواتهم، وعندما يتم لهم ذلك فإنهم، إن عاجلاً أو آجلاً، سيفطنون إلى أنه لا فائدة ترجى من الأقلية صاحبة الامتيازات وسيعملون على إزاحتها عن سدة السلطة. وبالتالي فإن المجتمع الطبقي لا يمكن أن يستمر إلا مع الفقر والجهل. وأما العودة إلى المجتمع الزراعي، حسبما حلم به بعض المفكرين في بدايات القرن العشرين، فليس حلاً يمكن تطبيقه، إذ يتعارض ذلك مع الاتجاه نحو الاستخدام واسع النطاق للآلة والذي أصبح أمراً شبه غريزي في جميع أنحاء العالم تقريباً، وفضلاً عن ذلك فإن أي بلد يتخلف من الناحية الصناعية يصبح بالتالي عاجزاً من الناحية العسكرية وعرضة لعمليات الهيمنة المباشرة أو غير المباشرة من قبل منافسيه الأكثر تقدماً.

كما أنه لم يكن بالحل المرضي أن نبقي الجماهير تحت وطأة الفقر بتقليص ما ينتج من السلع، وهو ما حدث بصورة واضحة في آخر أطوار الرأسمالية ما بين 1920 و1940، حيث انهارت اقتصادات العديد من البلدان كما تركت مساحات من الأرض بغير استغلال، ولم

يتراكم رأس المال وحيل بين أعداد غفيرة من الناس وبين العمل وتركوا ليعتمدوا على معونات الدولة التي كانت بالكاد تقيم أودهم، ولكن ذلك أيضاً قد أفضى إلى حالة من الوهن العسكري، ولأن حالة العوز التي نزلت بهم إثر ذلك لم يكن لها ما يبررها مما جعل ظهور المعارضة أمراً محتوماً. وكانت المشكلة تكمن في كيفية جعل عجلة الصناعة تدور دون أن ينعكس ذلك زيادة على الثروة الحقيقية للعالم، ما يعني أنه يتعين الاستمرار في إنتاج السلع ولكن دون توزيعها، ولا سبيل لتحقيق هذه المعادلة على أرض الواقع إلا بالحرب المستمرة.

إن هدف الحرب الأساسي هو إنزال الدمار، ليس بالضرورة بحياة الناس، بل بنتاج العمل الإنساني، فالحرب هي السبيل لتبديد وإهدار موارد كان من شأنها لو استخدمت في ما ينفع الجماهير العريضة أن ترتد عليهم بالخير والرفاهية، وأن تجعلهم على المدى الطويل أكثر وعياً وإدراكاً للأمور من حولهم. وحتى إذا لم يتم تدمير ما أنتج من أسلحة في حرب فعلية، فإن عملية تصنيعها تبقى في حد ذاتها طريقة لاستنفاد الجهد البشري دون إنتاج أي شيء يمكن أن يعود بالنفع على الناس؛ فبناء قلعة عائمة مثلا يستلزم عملاً كان يكفي لبناء المئات من سفن الشحن، وفي نهاية المطاف تتمّ إحالة القلعة إلى التقاعد وتصبح غير صالحة للاستعمال دون أن تعود بأي نفع مادي على الإنسان، فيتم تجنيد طاقات هائلة أخرى لبناء قلعة أخرى. ومن حيث المبدأ فإن المجهود الحربي يتم التخطيط له دائماً بحيث تلتهم الحرب كل فائض قد يتبقى بعد تلبية الاحتياجات الأولية للسكان. وفي واقع الأمر فإن هذه الاحتياجات يتم تقديرها بأقل مما هي عليه، الأمر الذي يؤدي إلى وجود نقص حاد في ضروريات الحياة، ومع ذلك يُنظر إلى هذا الأمر على أنه ذو فائدة كبيرة. ومن السياسات المرسومة بعناية أيضاً سياسة الإبقاء حتى على الفئات المُرضى عنها على شفا العوز والحاجة، ذلك أن ندرة السلع بصفة عامة تزيد من أهمية الامتيازات الصغيرة التي يحظى بها هؤلاء

وبالتالي توسع الفروق بين فئة وأخرى. ومقارنة بالمعايير التي كانت سائدة في أوائل القرن العشرين فإنه يتبين أن حياة عضو الحزب الداخلي قد أصبحت حياة شظف وعناء، ومع ذلك فإن القليل من كماليات الحياة التي يتمتع بها مثل الشقة الفاخرة والنوعية الجيدة لثيابه وطعامه وتبغه فضلاً عن خدمه وسيارته الخاصة أو الطائرة الموضوعة تحت تصرفه، كل هذا يجعله وكأنه يعيش في عالم مختلف عن العالم الذي يعيش فيه أعضاء الحزب الخارجي، والذين يتبين أنهم يتمتعون بامتيازات إذا ما قورنوا بالجماهير المسحوقة التي نطلق عليها اسم «العامة». ومن ثم يغدو الجو الاجتماعي أشبه بجو مدينة ضُرب عليها حصار جعل حيازة قطعة من لحم الخيل بمثابة الخط الفاصل بين الثراء والفقر. وفي الوقت نفسه فإن إدراك المرء لكونه في حالة حرب ومن ثم تتهدّده الأخطار يجعل من تسليم كل السلطات لحفنة صغيرة من الناس أمراً طبيعياً وشرطاً محتوماً للبقاء على قيد الحياة.

كذلك سنرى أن الحرب لا تُحدث الدمار المطلوب فحسب، بل تحدثه مصحوباً بأثر نفسي. فمن حيث المبدأ يمكن بسهولة استنفاد الفائض في العالم ببناء المعابد والأهرامات أو بحفر خنادق ثم ردمها مرة ثانية، أو حتى بإنتاج كميات هائلة من السلع ثم إضرام النار فيها، ولكن هذه الطريقة يمكن أن توفر الأساس الاقتصادي دون العاطفي للمجتمع الطبقي. وما يهمّ هنا ليست الحالة المعنوية للجماهير المهمَّشة التي لا وزن لمواقفها ما دامت تعمل بلا انقطاع، وإنما الحالة المعنوية للحزب نفسه، إذ من المفترض أن يكون أدنى أعضاء الحزب مرتبة كفؤاً ومجداً في العمل ويتمتع بقدر محدود من الوعي، ولكن من اللازم أيضاً أن يكون شخصاً سريع التصديق ومتعصباً عن جهل لعقيدته وتتملكه مشاعر الخوف والكراهية والتملق والانتصارات الزائفة، وبعبارة أخرى يتعين أن تتوفر له عقلية تتلاءم مع حالة الحرب، وليس مهمّاً أن تكون ثمة حرب تدور رحاها فعلاً.

ولأن تحقيق النصر الحاسم هو من باب المستحيل، فلا يهم أيضاً ما إذا كانت العمليات الحربية تسير على ما يرام أم لا، فالمهم هو أن تظل حالة الحرب قائمة وحسب. إن عملية إجهاد العقل التي يطالب الحزب أعضاءه بها والتي يمكن أن تتحقق بسهولة في أجواء الحرب قد أصبحت الآن سمة عالمية، وكلما ارتفع المرء مرتبة في الحزب غدت هذه الصفة أكثر وضوحاً. ومما لا شك فيه أن هستيريا الحرب وكراهية العدو ومقته هي أمور تغدو أكثر قوّة لدى أعضاء الحزب الداخلي منها لدى الآخرين، وبصفته يضطلع بمسؤوليات إدارية فإنه يتعين على عضو الحزب الداخلي أن يكون على بينة دائماً مما إذا كان هذا النبأ أو ذاك من أنباء الحرب كاذباً أم حقيقياً، كما انه غالباً ما يدرك ما إذا كانت الحرب برمتها زائفة أو أنها غير قائمة أصلاً أو أنها تشن لغايات تختلف جذرياً عن الأهداف المعلنة: ولكن هذه المعرفة تغدو عديمة الأثر بتطبيق منهج التفكير المزدوج. وفي الوقت نفسه لا يمكن لعضو الحزب الداخلي أن يتزعزع إيمانه الغامض ولو للحظة بأن الحرب حقيقية وأنها ستنتهي حتماً بانتصار أوقيانيا التي ستغدو سيدة العالم أجمع وبلا منازع.

إن أعضاء الحزب الداخلي جميعهم يؤمنون بهذا الفتح المنتظر إيماناً راسخاً لا يتزعزع، ويعتقدون بأن تلك الغاية ستتحقق إما تدريجاً باحتلال المزيد من الأقطار، وما ينتج عنه من تراكم القوة وزيادة النفوذ، أو باكتشاف سلاح جديد لا رادع له. ولذلك يتواصل السباق نحو حيازة أسلحة جديدة دون هوادة، وهو ما يعتبر واحداً من النشاطات القليلة التي يمكن أن يجد فيها صاحب العقل المبدع متنفساً لطاقته. وفي الوقت الراهن لم يعد للعلم بمعناه القديم وجود في أوقيانيا، فمثلاً لا تتضمن اللغة الجديدة كلمة «العلم»، ناهيك عن أن منهج التفكير التجريبي الذي ارتكزت عليه كل المنجزات العلمية في الماضي يتعارض مع أهم مبادئ الاشتراكية الإنجليزية. بل حتى إن التقدم التقني لا يحدث إلا حينما يمكن توظيف منجزاته بطريقة أو

أخرى لتقليص مساحة الحرية الإنسانية. أما فيما يخص المجالات الأخرى المفيدة، فالعالم إما أنه لا يزال يراوح مكانه وإما أنه يتراجع، فما زالت الحقول تُحرث بمحاريث تجرها الماشية والكتب تؤلّف بواسطة الآلة. أما في المجالات الحيوية ذات الأهمية مثل شؤون الحرب وشرطة التجسس، فإن المنهج التجريبي ما زال يلقى تشجيعاً أو على الأقل ما زال مقبولاً. وهنالك هدفان يضعهما الحزب نصب عينيه هما الهيمنة على العالم كله بغزوه، والقضاء قضاء مبرماً على كل إمكانية للتفكير المستقل، ولذلك هنالك مسألتان هامتان يوجه الحزب جل اهتمامه لحلهما: الأولى هي كيف يمكنه اكتشاف ما يدور من أفكار في ذهن الفرد رغماً عنه، والثانية كيف يمكنه إبادة مئات الملايين من الناس في غضون ثوان ودون سابق إنذار. وفي هاتين المسألتين ينحصر نطاق البحث العلمي ولا يتعداهما. وفي هذه الأيام نجد العالِم إما أن يكون مزيجاً من الباحث المحقق وعالم النفس الذي يدرس بدقة لامتناهية معنى تعابير الوجه والإيماءات ونبرات الصوت كما يفحص آثار العقاقير التي تستل الحقيقة من أفواه المجرمين والعلاج بالصدمة والتنويم المغناطيسي والتعذيب الجسدي، أو أنه كيميائي أو فيزيائي أو بيولوجي يعنى فقط بفروع العلم ذات الصلة بإزهاق حياة الإنسان. ففي المختبرات الضخمة بوزارة السلام وفي محطات التجارب السرية في مجاهل أدغال الغابات البرازيلية وفي صحراء أستراليا، وفي الجزر المجهولة في منطقة القطب الجنوبي هنالك فِرَق من الخبراء يعملون دون كلل أو ملل. ففريق منهم يعنى فقط بوضع خطط تمويل حروب المستقبل وفريق آخر يعمل على تصميم قذائف صاروخية أكبر حجماً ومتفجرات أقوى ودروعاً لا يمكن للقنابل اختراقها، بينما الفريق الثالث يعمل على إنتاج غازات جديدة أشد فتكاً أو سموم قابلة للذوبان في ماء الأنهار ويمكن إنتاجها بكميات تكفي للقضاء على الحياة النباتية في كل القارات، أو سلالات من جراثيم لديها مناعة ضد كافة الأجسام المضادة، وفريق

آخر يسعى إلى صنع مركبة تشق لها نفقا تحت الأرض مثلما تشق الغواصة لها طريقاً تحت الماء، أو طائرة لا تحتاج إلى قاعدة كسفينة شراعية. وفريق يستكشف إمكانيات أبعد مثل تجميع أشعة الشمس عبر عدسات ضخمة معلقة على بعد آلاف الكيلومترات في الفضاء، أو إحداث هزات أرضية اصطناعية، أو رفع درجات مد البحر بزيادة درجة حرارة مركز الأرض.

ولكن ما من مشروع من هذه المشاريع قد أصبح وشيك التحقق، كما أن أياً من القوى العظمى الثلاث لم تحرز تقدما ملحوظا على القوتين الأخريين في مضمار التسلح. إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن كلا من القوى الثلاث بحيازتها القنبلة الذرية قد أصبحت تمتلك سلاحاً أشد فتكاً من أي سلاح آخر يمكن اختراعه من خلال الأبحاث الجارية. وبالرغم من أن الحزب يدّعي، كعادته، أن الفضل في صنع القنبلة الذرية يرجع إليه، فإن القنابل الذرية كانت قد سجلت أول ظهور لها في أربعينات القرن العشرين واستخدمت على نطاق واسع بعد عشر سنين من ذلك تقريباً. وفي ذلك الوقت ألقيت مئات القنابل على المدن الصناعية الواقعة في كل من الجزء الأوروبي من روسيا وأوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. وكان القصد من وراء ذلك إقناع الفئات الحاكمة في جميع البلدان بأن إلقاء بضع قنابل أخرى يعني نهاية المجتمع المنظم ومن ثم زوال سلطانهم. ولذلك ورغم أنه لم تبرم أي اتفاقيات رسمية، أو حتى يُلمَّح إلى هذا الأمر، فقد أحجمت هذه القوى عن استخدام هذه القنابل. بيد أن هذه القوى الثلاث تابعت إنتاجها للقنابل الذرية وتخزينها انتظاراً للحظة الحاسمة التي يؤمن الجميع بأنها آتية إن عاجلاً أو آجلاً. وفي الوقت نفسه ظلت فنون الحرب لمدة ما بين ثلاثين وأربعين سنة تراوح مكانها، فكل ما هنالك هو أنه أصبح يعول على الحوامات أكثر مما سبق، كما أن الطائرات القاذفة تم استبدالها بقذائف ذاتية التوجيه (ذكية)، كما حلت القلاع العائمة غير القابلة للغرق محل البوارج الحربية الضعيفة، وعدا ذلك لا

يوجد تطور يذكر، فما زالت الدبابات والغواصات والزوارق والمدافع الرشاشة بل وحتى البندقية العادية والقنابل اليدوية قيد الاستخدام. لكن وعلى الرغم مما كانت تشهده الحروب القديمة من معارك طاحنة لا نهاية لها تزهق فيها أرواح مئات الألوف أو الملايين من الأشخاص خلال بضعة أسابيع وهو ما كانت تتناقله الصحف وتعرضه شاشات الرصد، فإن مثل هذه المعارك اليائسة لم تعد تتكرر إطلاقاً.

ولم يحدث أبداً أن أقدمت أي من الدول العظمى الثلاث على الدخول في مغامرة عسكرية قد تجلب عليها هزيمة ماحقة. وحينما تُشن أي عمليات حربية واسعة النطاق فإن ذلك لا يأتي إلا على شكل هجمات مباغتة تشن ضد الدولة الحليفة، فالاستراتيجية التي تتبعها القوى الثلاث أو تدّعي أنها تتبعها، واحدة. إذ ترتكز الخطة على مزيج من القتال والمساومة لشن ضربات غادرة في الوقت المناسب من أجل السيطرة على مجموعة من القواعد الاستراتيجية التي تحيط بواحدة أو أخرى من الدولتين المتنافستين، ثم توقيع معاهدة صداقة مع تلك الدولة والالتزام بالسلام معها لسنوات عديدة تكفي لإزالة ما لديها من شك وريبة. وخلال هذه السنوات يتم تحميل الصواريخ بالرؤوس النووية وتوجيهها نحو جميع القواعد الاستراتيجية حتى إذا ما سنحت الفرصة المنتظرة يتم إطلاقها جميعاً في آن واحد بحيث تترك آثاراً تدميرية هائلة تجعل الرد الانتقامي أمراً مستحيلاً، وبُعيد ذلك يحين الوقت لعقد معاهدة صداقة مع الدولة الأخرى استعداداً لشن هجوم مماثل عليها. ولسنا في حاجة للقول بأن هذا المخطط ما هو إلا حلم يقظة يتعذر تحقيقه على أرض الواقع، ناهيك عن أن القتال لم يكن يقع إلا في المناطق المتنازع عليها حول خط الاستواء والقطب: ولم تجرؤ أي من الدول الثلاث على غزو أراضي الدولتين الأخريين. وهذا ما يفسر لنا السبب في أن الحدود بين الدول العظمى تكون في بعض الأماكن عشوائية تعسفية، فأوراسيا على سبيل المثال تستطيع بسهولة غزو الجزر البريطانية التي تعتبر جغرافياً جزءاً من

أوروبا، كما أن أوقيانيا تستطيع من ناحية أخرى زحزحة حدودها ناحية نهر الراين أو حتى الفستولا. بيد أن مثل هذا العمل سيعتبر انتهاكاً للمبدأ الذي تسير عليه جميع الأطراف، وإن كان مبدأً غير مكتوب، وهو مبدأ الوحدة الثقافية. وإذا فرضنا أن أوقيانيا قد استولت على تلك المناطق التي كانت تُعرف في وقت من الأوقات بفرنسا وألمانيا، لاستوجب ذلك منها إما أن تبيد سكان هذه المناطق، وهي مهمة تعترضها صعاب جمة، أو أن تستوعب هؤلاء السكان البالغ تعدادهم مائة مليون نسمة والذين يقفون في نفس مستوى التطور التقني تقريباً، وهذه هي المشكلة التي تواجه الدول العظمى الثلاث. ومن الضروري للغاية بالنسبة لهذه الدول ألا يوجد أي اتصال ما بين سكانها وبين الأجانب، فيما عدا، وإلى حد معين، أسرى الحرب والعبيد الملونين، ولم تكن حتى الدولة الحليف الرسمي في اللحظة الراهنة، تنجو من نظرة الشك والريبة القاتمتين. وباستثناء أسرى الحرب فإن المواطن العادي من مواطني أوقيانيا لا يرى مطلقاً أياً من مواطني أوراسيا أو إيستاسيا، كما يحظر عليه تعلّم اللغات الأجنبية، فلو أنه سمح له بالاتصال بالأجانب لتبين له أنهم مخلوقات بشرية مثله وأن معظم ما قيل له عنهم لا يعدو كونه أكاذيب وافتراءات. وحينئذ ينكسر طوق العالم المغلق الذي يعيش فيه، ويتبدد جو الخوف والكراهية والتعصب للذات وهي ما ترتكز عليها روحه المعنوية، ولذلك اتفقت الأطراف الثلاثة على أنه مهما تناوبت القوى بلاداً مثل إيران أو مصر أو جاوه أو سيلان، فإن الحدود الرئيسية يجب الا يخترقها شيء غير القنابل.

لكن وراء كل هذا تكمن حقيقة لم يجهر بها أحد وإن كانت مفهومة ضمناً ويُعمل بموجبها: وهي أن ظروف الحياة في الدول العظمى الثلاث متشابهة إلى حد كبير، ففي أوقيانيا تسمى الفلسفة السائدة «الاشتراكية الإنجليزية»، وفي أوراسيا تسمى «البلشفية الجديدة»، وفي إيستاسيا تسمى باسم صيني يترجم عادة بمعنى

«عبادة الموت»، وربما كان من الأفضل ترجمته بعبارة «محو الذات»، ومن غير المسموح به لمواطني أوقيانيا أن يعرفوا أي شيء عن عقائد الفلسفتين الأخريين، غير أنهم يلقنون أن هاتين الفلسفتين ليستا إلا عدواناً وحشياً على الأخلاق والذوق العام. والواقع أن هذه الفلسفات الثلاث تتمايز نظرياً فقط أما النظم الاجتماعية القائمة عليها فهي متماثلة لا يمكن التمييز بينها على الإطلاق، ففي كل منها يوجد البناء الهرمي ذاته وعبادة الزعيم الملهم والاقتصاد الذي يقوم على الحرب ومن أجل الحرب. ومن ثم يتبين أن الدول العظمى الثلاث لا تستطيع أن تقهر بعضها بعضاً فحسب، وإنما إن فعلت ذلك فلن تجني أي نتيجة أو ربح. بل بالعكس فما دامت هذه الدول في حالة صراع، فإن بعضها يشد إزر بعض مثل ثلاث حزم من القمح، وكما هي العادة فإن الفئات الحاكمة في كل من القوى الثلاث تدرك ولا تدرك في الوقت نفسه، حقيقة ما تفعله، فحياتهم مكرسة للاستيلاء على العالم، لكن هؤلاء يعلمون أيضاً أن من الضروري أن يظل أوار الحرب مشتعلاً إلى أجل غير مسمى دون أن تضع أوزارها ودون أن تحرز إحدى الدول نصراً على دولة أخرى. وفي الوقت ذاته وبما أنه ليس ثمة خطر من استيلاء دولة على أخرى، فإنه يمكن إنكار وجود أية حقيقة وهو عين ما ترتكز عليه النظم الفكرية للاشتراكية الإنجليزية وغريمتيها الأخريين. وهنا يتعين علينا أن نكرر ما قلناه آنفاً من أن الحرب بعدما أصبحت مستمرة، فقد طرأت عليها تغيّرات جوهرية.

ففي العصور الماضية كانت الحرب حدثاً لا بد أن ينتهي إن عاجلاً أو آجلاً وبنصر حاسم أو بهزيمة واندحار، وكانت الحرب إحدى القنوات الرئيسية التي تظل المجتمعات الإنسانية من خلالها على صلة بالواقع الخارجي. وفي جميع العصور كان الحكام يسعون إلى فرض رؤية زائفة عن العالم على رعاياهم، إلا أنهم لم يشجعوا أية أوهام يمكن أن تضعف الكفاءة العسكرية. وما دامت الهزيمة تعني فقدان الاستقلال أو تفضي إلى نتيجة غير مرغوب فيها، فيجب

الاحتراز احترازاً جدياً من الوقوع في شراك الهزيمة. ومن الثابت أن الحقائق المادية لا يمكن تجاهلها، ففي الفلسفة أو الدين أو علم الأخلاق أو علم السياسة يمكن أن يكون حاصل اثنين واثنين هو خمسة ولكن حينما يتعلق الامر بتصميم مدفع أو طائرة فلا بد أن يكون حاصل اثنين واثنين أربعة. ولقد كانت الأمم التي تفتقر إلى الكفاءة دائماً تلحق بها الهزيمة إن عاجلاً أو آجلاً، وكان النضال لبلوغ هذه الكفاءة غاية تتعارض مع وجود الأوهام. وفضلاً عن ذلك، فلكي تبلغ هذه الكفاءة من الضروري أن تكون قادراً على الاستفادة من الماضي والتعلم منه، وهذا يعني أن تكون لديك فكرة دقيقة عما حدث في الماضي. صحيح أن الصحف وكتب التاريخ عرضة للتحريف وتفتقد المصداقية عبر التاريخ، إلا أن التزوير الذي يمارس اليوم كان يستحيل وقوعه في الماضي. فقد غدت الحرب ضماناً أكيداً للسلامة، وهي بالنسبة للفئات الحاكمة أهم الضمانات على الإطلاق. ولأن الحرب عرضة للخسارة والمكسب، فلا يمكن أن تظل فئة حاكمة في حِلّ من أي مسؤولية.

أما عندما تصبح الحرب سجالاً مستمراً، فإن خطورتها تنعدم، فاستمرار الحرب يقضي على ما يسمى بالضرورة الحربية. ويمكن أن تتوقف عجلة التقدم التقني كما يمكن نكران أكثر الحقائق وضوحاً أو تجاهلها. وكما رأينا فإن الأبحاث التي يمكن نعتها بأنها علمية ما زالت تجرى خدمة لأغراض الحرب وهي نوع من أحلام اليقظة، والإخفاق في تحقيق نتائجها ليس أمراً ذا أهمية. بل وحتى ما يسمى بالكفاءة العسكرية لم تعد الحاجة ماسة إليها، ففي أوقيانيا لا يتصف بالكفاءة والفاعلية غير شرطة الفكر. ولما كان اندحار أي من الدول العظمى الثلاث أمراً عزيز المنال، فقد غدت كل دولة في واقع الأمر بمثابة عالم قائم بذاته يمكن أن ينمو فيه الفكر المشوه والفاسد في أمان. وأما الواقع فإنه يمارس ضغوطاته من خلال متطلبات الحياة اليومية كالحاجة إلى المأكل والمشرب والمأوى والملبس، والحاجة

إلى حفظ الحياة عن طريق اجتناب ابتلاع السم أو القفز من النوافذ العالية وما شابه ذلك من حاجات. وبين الحياة والموت، وبين اللذة والألم، ما زالت هنالك فروقات، لكن هذه الفروقات هي كل شيء. إن حالة الانعزال عن العالم والقطيعة مع الماضي التي يعيشها المواطن في أوقيانيا تجعله أشبه برجل معلق في الفضاء بين النجوم وقد سُلب القدرة على تمييز الاتجاهات. أما الحكام في مثل هذه الدول فإنهم يتمتعون بسلطات مطلقة لم يبلغها أكثر الفراعنة أو القياصرة استبداداً. وهم وإن كانوا يسعون مضطرين إلى الحيلولة دون موت رعاياهم بأعداد كبيرة تنذر بالخطر، كما أنهم مضطرين إلى البقاء على المستوى نفسه من التقنية العسكرية لمنافسيهم، فإنهم ما إن يبلغوا الحد الأدنى من أهدافهم حتى يشرعوا في لَيّ عنق الحقيقة وصوغها في القالب الذي يشاؤونه.

لذلك فإن الحرب، إذا ما قيست بمعايير الحروب القديمة، هي مجرد خداع ودجل، بل هي أشبه بالمعارك التي تنشب بين حيوانين من الحيوانات المجترة تأخذ قرونهما أثناء نطاحهما زاوية تجعل واحدهما عاجزاً عن إلحاق الأذى بالآخر. لكن بالرغم من هذا الزيف فإنها ليست خلواً من المغزى، فهي تلتهم الفائض من السلع الاستهلاكية كما تسهم في الحفاظ على المناخ الفكري الخاص الذي يحتاج إليه المجتمع الطبقي. وكما سيتضح فيما بعد فإن الحرب قد أصبحت شأناً داخلياً محضاً، ففي الماضي كانت الفئات الحاكمة في جميع الأقطار، ورغم إدراكهم لمصالحهم المشتركة ومن ثم سعيهم إلى تحجيم مدى الخراب الذي تسببه الحروب، يقاتل بعضهم بعضاً وكان الغالب دائماً ينهب المغلوب، أما في وقتنا الراهن فلم يعد الاقتتال ينشب بينهم مطلقاً، وإنما أصبحت كل فئة حاكمة تشن الحرب على رعاياها ولم يعد هدف الحرب هو الاستيلاء على الأراضي أو الحيلولة دون ذلك، وإنما الحفاظ على بنية المجتمع سليمة على ما هي عليه. ومن ثم فإن كلمة «الحرب» ذاتها باتت

مضللة ولا تؤدي المعنى، وإذا شئنا الدقة يمكننا القول بأن الحرب لم تعد حرباً بعدما صارت إليه من ديمومة واستمرار. أما ذلك التأثير الذي ظلت تمارسه على البشرية فيما بين العصر الحجري وأوائل القرن العشرين فقد تلاشى ليحل محله شيء مختلف تماماً، ولو أن الدول العظمى الثلاث كانت قد تواضعت، بدلاً من التناحر فيما بينها، على العيش في ظل سلام دائم وحدود آمنة لا تتعرض لخروقات من هذه أو تلك لتحققت الغاية والمراد نفسيهما من حرب هذه الأيام، ففي هذه الحالة، كان كل طرف من الأطراف المتحاربة سيغدو عالماً مكتفياً بذاته ومتحرراً إلى الأبد من التأثير القوي للأخطار الخارجية، ولكان للسلام الحقيقي الدائم الأثر نفسه الذي تنتجه الحرب الدائمة. وهذا هو المعنى الحقيقي لشعار الحزب: الحرب هي السلام، بالرغم من أن الأغلبية الساحقة من أعضاء الحزب لا يفهمونه إلا فهماً سطحياً.

وقد توقف ونستون عن القراءة حينما تناهى إلى سمعه دوي قذيفة صاروخية أشبه بالرعد وقد سقطت في مكان بعيد. بيد أن شعور ونستون البهيج بأن الكتاب المحظور بين يديه يؤنس وحدته وفي غرفة لا يوجد فيها شاشة رصد، ظل كما هو ولم يتأثر بذلك. حيث امتزج لديه الإحساس بالعزلة والأمان، وهي إحساسات جسدية، مع التعب الذي أصاب جسمه النحيل ونعومة الكرسي الذي يجلس عليه والنسيم الخفيف القادم من النافذة الذي كان يداعب وجنتيه. وأما الكتاب نفسه فقد خلب لبه، أو بعبارة أدق أعاد إليه الطمأنينة المفقودة. وبالرغم من أن الكتاب لم يأت بجديد وهو ما يعتبر جزءاً من جاذبيته، فقد قال الكتاب ما كان ونستون سيقوله لو تسنى له أن ينظِم شتات أفكاره معاً، إنه نتاج لعقل شبيه بعقله وإن كان يفوق عقله قوة وتنظيماً ولا يسيطر عليه الخوف. وكان ونستون يتصور أن أفضل الكتب هي تلك التي تقول لك ما تعرفه

بالفعل. ولم يكد ونستون يعود إلى الفصل الأول حتى تناهى إلى سمعه وقع خطى جوليا على درجات السلم فهبّ من مقعده واقفاً لاستقبالها. وما إن دلفت إلى الغرفة حتى ألقت بحقيبتها البنّية فوق الأرض وألقت بنفسها بين ذراعيه، إذ كان قد انقضى على آخر لقاء ضمّهما أسبوع أو أكثر.

وقال ونستون بعدما انفكّا من العناق: «لقد حصلت على الكتاب».

فقالت دون أن تبدي كثير اهتمام: «آه هل حصلت عليه فعلاً؟» ثم جثت على ركبتيها بجانب الموقد لتعدّ القهوة.

ولم يعودا لموضوع الكتاب إلا بعد أن أمضيا نصف ساعة في الفراش معاً. كان المساء بارداً مما دفعهما لسحب الغطاء عليهما وكانت تُسمع أصوات غناء مألوفة وأصوات احتكاك الأحذية بحجارة الرصيف فيما كانت المرأة ذات الذراعين المفتولين والتي رآها ونستون هناك في أول زيارة له للغرفة واقفة متسمرة في الباحة. إذ لا تمر ساعة دون أن يراها المرء تغدو وتجيء بين حوض الغسيل وحبل الغسيل، وتعض أحياناً على مشاجب الغسيل حتى إذا انتهت منها انخرطت في أغنيتها المفعمة بالحيوية. وتمددت جوليا على جنبها وبدت على وشك الاستغراق في النوم، أما ونستون فقد مد يده لالتقاط الكتاب الملقى فوق أرض الغرفة ثم جلس متكئاً إلى رأس السرير.

وقال: «يجب أن نقرأه، وأنت أيضاً، بل يجب أن يقرأه جميع أعضاء «الأخوة»».

فقالت وهي مغمضة عينيها: «اقرأه أنت، اقرأه بصوت عال، فهذه أفضل طريقة، ثم اشرح لي ما تقرأه».

كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة مساء، وهكذا كان لا يزال لديهما ثلاث أو أربع ساعات، ولذا فقد وضع الكتاب فوق ركبتيه وراح يقرأ:

الفصل الأول

الجهل هو القوة

عبر التاريخ المعروف للإنسان، وربما منذ نهاية العصر الحجري، كان هنالك ثلاث فئات من البشر أو ثلاث طبقات في العالم: الطبقة العليا والوسطى والدنيا، وقد قسمت هذه الطبقات فيما بينها طبقات أخرى فرعية، وحملت أسماء مختلفة لا حصر لها ولا عد، أما النسب التي تمثلها وكذا مواقفها إزاء بعضها بعضاً فقد تباينت من عصر لآخر، غير أن التركيبة الأساسية للمجتمع ظلت كما هي لم تتغير أبداً. بل حتى بعد اندلاع الثورات العارمة وما أحدثته من تغييرات لا رجعة عنها، فإن ذلك النموذج يعود فيؤكد نفسه تماماً مثلما تفعل مروحة السفينة التي تعاود توازنها سواء أدرتها في هذا الاتجاه أو ذاك.

التفت ونستون وهو يقول: «هل أنت مستيقظة يا جوليا؟»

فأجابت جوليا: «نعم يا حبيبي، إني مصغية لما تقول. استمر، إنه رائع».

فعاد إلى القراءة:

وأما أهداف هذه الطبقات فكانت متضاربة ولا يمكن التوفيق بينها على الإطلاق، فهدف الطبقة العليا هو البقاء حيث هي، وهدف الطبقة الوسطى هو الحلول محل الطبقة العليا، أما هدف الطبقة الدنيا، إن كان لها هدف، ذلك أن من الخصائص الثابتة لدى هذه الطبقة هي أنها تعيش مسحوقة تحت وطأة مطالب الحياة اليومية فلا تعي شيئاً خارجها، هو إزالة كل الفوارق الطبقية وإنشاء مجتمع يكون فيه جميع الناس سواسية. وهكذا يتكرر عبر التاريخ ذلك النضال الذي يتشابه في خطوطه العريضة الرئيسية. ولآجال طويلة كانت الطبقة العليا تبدو ممسكة بزمام السلطة، ولكن إن عاجلاً أو آجلاً كان لا بد أن

تأتي عليهم لحظة يفقدون فيها إما إيمانهم بأنفسهم وإما قدرتهم على الحكم بكفاءة أو الاثنين معاً. وحينئذ كان يطاح بهم من قبل الطبقة الوسطى التي تأخذ الطبقة الدنيا إلى صفها تحت دعاوى النضال من أجل تحقيق الحرية والعدل. ولكن ما إن تبلغ الطبقة الوسطى هدفها وهو السلطة، فإنها تزج بالطبقة الدنيا إلى وضعها القديم حيث الاسترقاق، وتصبح هي الطبقة العليا. وتتكون طبقة وسطى جديدة من إحدى الطبقتين الأخريين أو كليهما معاً ليبدأ الصراع من جديد. ومن بين الطبقات الثلاث فإن الطبقة الدنيا هي الوحيدة التي لا تفلح أبداً ولو مؤقتاً في بلوغ أهدافها، ولعله من قبيل المبالغة أن نقول إنه عبر التاريخ لم يحدث لها أي تقدم مادي يذكر. وحتى في أيامنا هذه، في فترة الانحطاط فإن الإنسان العادي يعتبر من الناحية المادية أحسن حالاً مما كان عليه قبل بضعة قرون مضت. غير أنه لا ازدياد الثروة ولا رقي السلوكيات ولا حركة الإصلاح أو الثورة حملت حلم المساواة بين بني الإنسان إلى الأمام ولو قيد أنملة، ومن وجهة نظر الطبقة الدنيا فإن أي تغيير تاريخي لا يعدو أن يكون مجرد تغيير في أسماء سادتها.

وفي أواخر القرن التاسع عشر بات تكرار هذا النهج جلياً لكثير من المراقبين، حتى أنه ظهرت مدارس فكرية تفسر التاريخ كمسارات دائرية، وحاولت الترويج لفكرة أن انعدام المساواة هو قانون من قوانين الحياة البشرية الذي لا يقبل التغيير. وبالطبع كان لهذا المذهب دائماً أنصاره عبر التاريخ، وإن كان ثمة تغيير ملموس قد طرأ على الطريقة التي يقدم بها للناس في هذه الأيام، ففي الماضي كانت الحاجة إلى مجتمع طبقي معتقداً محصوراً في الطبقة العليا حيث كان يروّج لها الملوك والنبلاء والكهنة والمحامون ومن شاكلهم ممن يعيشون عالة عليهم، وكانوا، للتخفيف من وطأة هذا المعتقد، يطلقون وعوداً بالتعويض عن مآسي الحياة الدنيا في عالم خيالي يأتي بعد الموت. أما الطبقة الوسطى فكانت، إبان نضالها لبلوغ سدة الحكم،

دائماً ترفع شعارات مثل الحرية والعدل والإخاء طالما أنها لم تنته من نضالها في سبيل بلوغ السلطة. وأما الآن فإن مفهوم الأخوة الإنسانية يتعرض لهجمات من قبل أناس لم يبلغوا بعد سدة الحكم ولكنهم يأملون بلوغه في عهد قريب. وفي الماضي كانت الطبقة الوسطى تشعل الثورات تحت ستار المساواة، لكنها لم تلبث بعد بلوغ مأربها أن دشنت لطغيان جديد تقيمه على أنقاض الطغيان القديم الذي أطاحت به، ولذلك كانت المجموعات الجديدة التي ستحل محل الطبقة الوسطى تعلن سلفاً عن طغيانها. وأما الاشتراكية وهي نظرية ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر، والتي كانت بمثابة الحلقة الأخيرة من سلسلة فكرية تعود بتاريخها إلى ثورات العبيد في العصور القديمة، فقد كانت لا تزال مخدوعة إلى حد بعيد بطوباوية العصور الغابرة. ولكن في كل شكل من أشكال الاشتراكية التي بدأت تظهر للوجود منذ 1900 وحتى وقتنا الراهن كان يتم التنكر صراحة لهدف إرساء دعائم مجتمع الحرية والمساواة أكثر فأكثر. وأما الحركات الجديدة التي ظهرت في منتصف القرن، كالانجسوك في أوقيانيا، والبلشفية الجديدة في أوراسيا، وعبادة الموت كما كانت تسمى في إيستاسيا، فكانت تستهدف ترسيخ حالة اللاحرية واللامساواة. وهذه الحركات الجديدة خرجت من عباءة حركات قديمة واحتفظت بأسمائها وادعت زيفاً اعتناقها لأيديولوجيتها. وقد اجتمعت هذه الحركات على غاية واحدة وهي وقف كل تقدم وتجميد التاريخ عند لحظة تختارها، وهكذا أرادوا لبندول الساعة أن يهتز اهتزازته المألوفة مرة أخرى ليتوقف بعدها للأبد. وكالعادة كان على الطبقة الوسطى أن تزيح الطبقة العليا وتحل محلها ولكن هذه المرة باستراتيجية واعية بحيث تتمكن الطبقة العليا الجديدة من الاحتفاظ بمركزها بصفة دائمة.

ويرجع ظهور هذه المذاهب الجديدة إلى تراكم المعرفة التاريخية ونمو الحس التاريخي وهما أمران لم يكن لهما وجود

تقريباً قبل القرن التاسع عشر، وهو ما جعل الحركة الدائرية للتاريخ مفهومة في الوقت الحاضر، أو بدا أنها كذلك، وبما أنها قد باتت مفهومة فهذا يعني أنه بات بالإمكان تغييرها. ولكن السبب الرئيس الكامن وراء ظهور هذه المذاهب هو أنه منذ أوائل القرن العشرين غدت المساواة بين الناس أمراً ممكناً من الناحية العملية. صحيح أن الناس لم يكونوا متساوين في مواهبهم الطبيعية وصحيح أن المهام يجب توزيعها بطريقة يحابى فيها بعض الأفراد على حساب البعض، لكنه لم تعد ثمة حاجة فعلية إلى وجود الفروق الطبقية أو التفاوتات الكبيرة من ناحية الثروة. وفي العصور الأولى لم تكن الفوارق الطبقية أمراً محتوماً فحسب، بل مرغوباً فيه أيضاً، ذلك أن عدم المساواة كان هو ما تكبده الناس ثمنا للمدنية. ولكن مع تطور الإنتاج الآلي تبدلت الحال، إذ حتى لو أنه ما زال من الضروري للبشر أن يؤدوا أنواعاً متباينة من الأعمال، فإنه لم يعد من الضروري لهم أن يعيشوا عند مستويات اجتماعية واقتصادية متباينة، ومن ثم فإنه ومن وجهة نظر الطبقات الجديدة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من القبض على زمام السلطة، فإن المساواة بين البشر لم تعد غاية سامية تستحق النضال من أجلها، وإنما خطراً يجب تفاديه. وفي العصور الأكثر بدائية حينما كانت إقامة مجتمع العدل والسلام أمراً غير ممكن، كان من اليسير على المرء أن يصدق مثل هذه الأفكار. إن فكرة الفردوس الأرضي الذي يعيش فيه كل الناس معاً كإخوة دون اللجوء إلى قوانين أو دون حاجة إلى التعب والمشقة، كانت تشغل الخيال البشري منذ آلاف السنين، وكان لهذه الرؤية الخيالية سلطان حتى على تلك الفئات التي كانت تفيد فعلاً من كل تغير تاريخي. ومن هذا أن أبناء الثورات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية كانوا يؤمنون إلى حد ما بما صاغوه من شعارات عن حقوق الإنسان وحرية التعبير والمساواة أمام القانون وما شابه ذلك، بل وكانت ذات تأثير على سلوكهم، ولكن لم يكد العقد الرابع من القرن العشرين يحل حتى

كانت كل التيارات الرئيسية للفكر السياسي قد أضحت سلطوية المنحى أو فاشية، كما أصبح الفردوس الأرضي عرضة لحملات التشويه بمجرد أن أصبح من الممكن تحقيقه. وباتت كل نظرية سياسية جديدة، أياً كان الاسم الذي يطلق عليها، ترتد بالناس نحو التمييز والتصنيف إلى مراتب ودرجات. وفي ظل أجواء التشدد العام التي سيطرت على وجهات النظر في ثلاثينيات القرن العشرين، عادت الممارسات التي هُجرت منذ مئات السنين مثل السجن بغير محاكمة، واسترقاق أسرى الحرب، وتنفيذ أحكام الإعدام علناً، والتعذيب لانتزاع الاعترافات، واستخدام الرهائن، والتهجير القسري لشعوب بكاملها. ولم تغدُ كل هذه الممارسات شائعة الحدوث مرة أخرى فحسب، بل أصبحت أموراً جائزة يدافع عنها من يدّعون أنهم تنويريين وتقدميين.

ولم تظهر الانجسوك وما ينافسها من نظم أيديولوجية كنظريات سياسية مكتملة النضج إلا بعد عقد من الزمان سادته حروب خارجية وحروب أهلية، وثورات وثورات مضادة في جميع أرجاء العالم. ولكن هذه المذاهب سبقتها أنظمة متنوعة يطلق عليها في مجملها اسم الأنظمة الكليانية التي ظهرت في أوائل القرن العشرين، وكانت الخطوط العريضة للعالم الذي سينبثق من الفوضى السائدة واضحة وجليّة منذ وقت طويل. وبالوضوح نفسه كان معروفاً أي نوع من الناس سيحكمون قبضتهم على العالم. ولم يعد خافياً أن الارستقراطية الجديدة تتألف في أغلبها من بيروقراطيين وعلماء وفنيين وقادة نقابات عمالية وخبراء دعاية وعلماء اجتماع ومعلمين وصحافيين وسياسيين محترفين، وهؤلاء الناس الذين يعودون بأصولهم إلى الطبقة الوسطى التي يعتمد أفرادها على الرواتب، وكذلك إلى الفئة العليا من الطبقة العاملة، قد صهرهم معاً ووحّدهم عالم الصناعة والحكومة المركزية، وهؤلاء إذا ما قورنوا بنظرائهم في العصور الغابرة لوجدناهم أقل جشعاً وأقل ميلاً للترف، وأكثر تعطشاً لبلوغ السلطة المطلقة، ولكن فوق كل ذلك أكثر إدراكاً لما يقومون به

وأشد تصميما على سحق معارضيهم وهذا الفرق الأخير كان أساسياً. ذلك أنه بالمقارنة مع ما يوجد اليوم، فإن أنظمة الطغيان في الماضي كانت أقل كفاءة في استبدادها وتفتقر إلى التصميم على الفتك بالخصوم، كما أن الفئات الحاكمة كانت دائما واقعة تحت تأثير أفكار ليبرالية وتترك عن طيب خاطر هوامش للحرية في كل مكان، ولا تهتم إلا بالعمل الظاهر غير مبالية بما يدور في خواطر رعاياها. بل حتى الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى تعتبر متسامحة إذا ما قورنت بمعايير هذه الأيام، ومن بين أسباب ذلك أنه لم يكن تتوفر لأية حكومة في الماضي سلطة تمكنها من إبقاء مواطنيها تحت مراقبة دائمة. ولكن مع اختراع الطباعة أصبح من الأيسر التلاعب بالرأي العام، كما أن ظهور السينما والراديو قد دفعا بهذه العملية قدماً، ومع اختراع التلفزيون وحصول ذلك التقدم التقني الذي جعل من الممكن الإرسال والاستقبال في آن واحد وعلى جهاز واحد فإن ذلك كان إيذانا بنهاية ما يسمى بالحياة الخاصة، حيث بات بإمكان كل حكومة أن تضع كل مواطن، أو على الأقل كل مواطن له من الأهمية ما يجعله جديراً بالملاحظة، تحت عين الشرطة لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم وتحت طائلة الدعاية الرسمية الموجهة مع عزله عن جميع قنوات الاتصال الاخرى. وللمرّة الأولى في التاريخ يصبح بالإمكان فرض حالة من الإذعان المطلق لإرادة الدولة ومن الاتساق التام في الرأي حول جميع الموضوعات.

وعقب المد الثوري الذي شهدته الخمسينات والستينات من القرن العشرين، أعاد المجتمع تشكيل نفسه كما هي العادة في طبقات ثلاث هي العليا و الوسطى والدنيا. لكن الطبقة العليا الجديدة وخلافاً لكل نظيراتها السابقات لم تعد تعمل بوحي من الغريزة بعدما عرفت ماذا يتعين عليها القيام به لحماية مركزها، كما أنها أدركت أن الركيزة الوحيدة الآمنة لحكم الأقلية هي فكرة الجماعية، فمثلاً يسهل الدفاع عن كل من الثروة والامتيازات حينما تكون ملكيتهما مشاعاً، وما

سمي بإلغاء الملكية الخاصة الذي حدث في منتصف القرن العشرين لم يكن يعني في واقع الأمر إلا تركيز الملكية وتجميعها في أيدي عدد أقل من ذي قبل، ولكن مع وجود فارق واحد بسيط ألا وهو أن المالكين الجدد قد أصبحوا مجموعة موحدة لا أفرادا متفرقين، فعلى الصعيد الفردي لا يمتلك أي من أعضاء الحزب شيئاً، ما عدا بعض الممتلكات الشخصية التافهة. أما على الصعيد الجماعي فإن الحزب يملك كل شيء في أوقيانيا لأنه يهيمن على كل شيء ويتصرف في الإنتاج حسبما يراه مناسباً لمصلحته. وقد تمكن الحزب في السنوات التي تلت الثورة من القفز إلى هذا المركز القيادي، وأصبح بلا منازع تقريباً، وذلك لأن العملية برمتها قد قدمت باعتبارها عمل جماعي. لقد كان يفترض دائماً أنه إذا انتزعت أملاك الرأسماليين فإن الاشتراكية ستعقب ذلك: وقد حدث فعلاً أن جُرِّد الرأسماليون من ممتلكاتهم، فانتُزِعت منهم المصانع والمناجم والأراضي الزراعية والعقارات ووسائل النقل، ولأن هذه الأشياء لم تعد ممتلكات فردية، فقد كان من الواجب أن تصبح ممتلكات عامة. أما الانجسوك والتي خرجت من عباءة الحركة الاشتراكية القديمة وورثت عنها خطابها الأيديولوجي، فإنها نفذت في الواقع جوهر البرنامج الاشتراكي وهو ما أدى إلى ما خطط له الحزب مسبقاً ألا وهو أن انعدام المساواة أصبح واقعاً مكرساً.

لكن مشكلة تكريس المجتمع الطبقي تظل أعمق وأشد تعقيدا، إذ ليس هنالك غير أربع طرق لإزاحة فئة حاكمة عن سدة الحكم، فإما أن يتم قهرها من قبل عدو خارجي، أو أن تحكم بطريقة تعوزها الكفاءة وهو ما يدفع الجماهير للثورة، أو تسمح لمجموعة من الطبقة الوسطى القوية والساخطة بالتشكل والظهور، أو تتزعزع ثقتها بذاتها وتفقد الإرادة في الحكم. ولا تعمل هذه الأسباب منفصلة بعضها عن بعض، فغالباً ما تجتمع معاً بدرجة أو أخرى. ومن ثم فإن الطبقة الحاكمة التي تستطيع حماية نفسها من هذه الأسباب جميعها فإنها

تضمن التربع على سدة الحكم مدى الحياة. ولذلك يظل العامل الحاسم في نهاية المطاف هو الحالة الفكرية والعقلية وكيفية تصرّف الطبقة الحاكمة ذاتها.

وبعد منتصف القرن العشرين زال الخطر وبات يتعذر قهر أي من القوى الثلاث التي تتقاسم العالم الآن والتي لم يعد بالإمكان قهرها إلا عبر ما يسمى بالتغيرات الديموغرافية والتي بوسع أي حكومة تتمتع بسلطات واسعة أن تتلافاها بسهولة. أما الخطر الثاني فهو نظري فقط، فالجماهير لا تثور من تلقاء ذاتها مطلقاً، كما أنها لا تثور لمجرد تعرضها للاضطهاد، وما لم تتح لها إمكانية المقارنة بين أوضاعها الراهنة وبين أوضاع أخرى، فإنها لن تدرك أبداً حقيقة كونها مضطهدة. إن الأزمات الاقتصادية التي كانت تتكرر في العصور القديمة لم يكن لها ما يبررها على الإطلاق، أما في أيامنا هذه فلا يسمح لها بالحدوث أصلاً، بيد أن هنالك أشكال خلل أخرى لا تقل عن ذلك خطراً وإن كانت لا تصحبها نتائج سياسية وذلك لأنه لا سبيل أمام الناس للتعبير عن استيائهم. أما فيما يخص مشكلة فائض الإنتاج التي ظهرت في مجتمعنا منذ اختراع الآلة فقد أمكن علاجها من خلال الحروب الدائمة (انظر الفصل الثالث)، والتي تفيد أيضاً في الإبقاء على الروح المعنوية العامة عند الحد المطلوب.

وهكذا فإن الخطر الحقيقي والوحيد من وجهة نظر حكامنا الحاليين يكمن في إمكانية انشطار فئة جديدة من أناس لديهم الكفاءة اللازمة وطاقة فائضة ومتعطشين إلى السلطة وانتشار روح ليبرالية تحررية ونمو نوازع شكوكية بين صفوفهم، ومن هنا يتبين أن الإشكالية إشكالية تثقيفية الطابع. إنها مشكلة صياغة وعي كل من الفئة المسيطرة والفئة الأخرى الأكبر التي تليها مباشرة في الأهمية والتي تتولى تنفيذ ما تعهد إليه بها الفئة المسيطرة. أما وعي الجماهير فيجب التأثير عليه بشكل سلبي.

ومما تقدّم يستطيع المرء أن يستكنه، إن لم يكن يعرف بالفعل،

التركيبة العامة لمجتمع أوقيانيا، فعلى قمة الهرم يأتي الأخ الكبير وهو معصوم عن الخطأ ويتمتع بقدرة مطلقة، وكل نجاح وكل إنجاز وكل انتصار وكل اكتشاف علمي ينسب إليه، كما أن كل معرفة وكل حكمة وكل سعادة وفضيلة إنما يعزى الفضل فيها مباشرة إلى قيادته الرشيدة الملهمة. ولم يحدث أن رأى أحد الأخ الكبير، فهو وجه مطبوع على لوحة أو صوت يصدر عن شاشة الرصد، ويمكننا أن نكون على درجة قوية من اليقين بانه لن يموت كما أن هنالك حالة من الشك تحوم بالفعل حول تاريخ مولده، إنه الشكل الذي اختار الحزب أن يظهر به أمام أعين العالم. وأما دوره فهو أن يكون جماع الحب والخوف والتبجيل، وهي مشاعر يسهل على الفرد أن يحسها نحو فرد آخر لا نحو منظمة ما. وبعد الأخ الكبير يأتي الحزب الداخلي الذي لا يزيد عدد أعضائه على ستة ملايين أو أقل من 2% من سكان أوقيانيا. ثم بعد ذلك يأتي الحزب الخارجي والذي إذا جاز لنا وصف الحزب الداخلي بأنه العقل المفكر للدولة، فإن الحزب الخارجي هو الأيدي العاملة فيها. وفي أسفل الهرم تأتي الجماهير الصماء التي ألفنا أن نسميها «البروليتاريا» والتي تمثل ما نسبته 85% من مجموع سكان أوقيانيا. وحسب تصنيفاتنا السابقة، فإن العامة هم الطبقة الدنيا لأن سكان المناطق الاستوائية المستعبدين، الذين تتداولهم أيدي الغزاة، لا يمثلون مكوناً أساسياً أو ضرورياً في تركيبة المجتمع.

وبصفة عامة فإن عضوية هذه الطبقات الثلاث ليست وراثية، فالطفل الذي يولد لأبوين من أعضاء الحزب الداخلي لا يكتسب هذه العضوية تلقائياً، ذلك أن القبول في أي من أجنحة الحزب الثلاثة يتحدد عبر اختبار يُجرى للمرء وهو في السادسة عشرة، كما أنه لا يسمح بحصول أي تمييز عنصري أو بهيمنة مقاطعة على أخرى، ولذلك ترى اليهود والزنوج وسكان أمريكا الجنوبية ذوي الأصول الهندية يشغلون أرفع المناصب بالحزب، ومن بين هؤلاء يجري دائماً

اختيار حكام الاقاليم. ولا يشعر سكان أي إقليم في أوقيانيا بأنهم مستعمَرون أو أن شؤونهم تدار من قبل عاصمة بعيدة، فأوقيانيا بلا عاصمة، ورئيسها الفخري لا يعرف أحد مكانه. وليس في أوقيانيا أي شكل من أشكال المركزية باستثناء أن الإنجليزية هي اللغة الرئيسية واللغة الجديدة هي اللغة الرسمية. أما حكامها فلا تجمعهم آصرة دم بل يجمعهم الولاء لعقيدة مشتركة. نعم إن مجتمعنا ينتظم طبقة فوق طبقة بشكل صارم فيما يبدو للوهلة الأولى وكأنه يرتكز على أسس وراثية، وأضحى نادراً في مجتمعنا أن يحدث حراك بين الطبقات مثلما كان الحال في ظل الرأسمالية أو حتى في عصر ما قبل التصنيع. وفيما بين جناحي الحزب يوجد قدر معين من تبادل المقاعد بين الأعضاء ولكن بما يضمن استبعاد العناصر الضعيفة من الحزب الداخلي واستقطاب الطموحين من أعضاء الحزب الخارجي بترفيعهم إلى الحزب الداخلي. أما أفراد طبقة العامة فلا يسمح لهم في الواقع بنيل عضوية الحزب، وإذا خرج من بينهم أشخاص من ذوي المواهب الفذة والذين يمكن أن يكونوا نواة لإثارة القلاقل، فإن شرطة الفكر تترصدهم تمهيداً لاستئصال شأفتهم. ولكن هذه الحالة ليست بالضرورة دائمة كما أنها ليست مسألة مبدأ، فالحزب ليس طبقة بالمعنى القديم لهذه الكلمة، ولا يهدف إلى نقل السلطة إلى أبنائه، وإذا تعذر عليه إبقاء الأشخاص الأقدر فوق قمة الهرم فإنه يصبح على أتم الاستعداد لأن يجند جيلاً كاملاً وجديداً من بين صفوف العامة. وفي السنوات العصيبة التي مر بها الحزب كان لفكرة أن الحزب ليس بهيئة وراثية دور كبير في إبطال حجج المعارضة، فالاشتراكي القديم الذي درب على النضال ضد كل ما تفوح منه رائحة «التمايز الطبقي» كان يظن أن كل ما ليس وراثياً لا دوام له، كما لم يفطن هذا الصنف من الاشتراكيين إلى أن استمرار حكم الأقلية لا يستلزم أن يكون مادياً، ولا هو استوقف نفسه للتفكير في أن الأرستقراطيات الوراثية كانت دائماً قصيرة العمر، بينما بقيت منظمات رعوية مثل الكنيسة

الكاثوليكية مثلاً لمئات أو آلاف السنين. إن جوهر حكم القلة ليس وراثة الابن لأبيه، وإنما هو استمرارية رؤية للعالم وأسلوب حياة يفرضهما الموتى على الأحياء، وتظل الفئة الحاكمة حاكمة ما دامت قادرة على تعيين خلفائها. ولا يهتم الحزب بإبقاء سلالة بعينها وإنما يهتم بتخليد مبادئه، فليس مهمّاً مَنْ يتولى السلطة طالما أن التركيب الهرمي للمجتمع لن يمس وسيظل على ما هو عليه.

ومن هنا فإن جميع المعتقدات والعادات والأذواق والاتجاهات العقلية التي تميز عصرنا الحاضر قد حيكت بطريقة تبقي على هالة الغموض التي تظلل الحزب، كما تحول دون انكشاف الطبيعة الحقيقية لمجتمع اليوم، وهو ما يجعل التمرد أو أي خطوات تمهد له في الوقت الراهن أمراً مستحيلاً. وأما عن البروليتاريا فلا خوف من ناحيتهم، فأفرادها، إذا ما تُركوا وشأنهم، فإنهم سيستمرون من جيل إلى جيل ومن قرن إلى قرن يعملون ويتناسلون ويموتون، ليس دون أن يكون لديهم أدنى دافع للتمرد فحسب، بل ودون أن تكون لديهم القدرة على إدراك أن العالم يمكن أن يكون على غير ما هو عليه الآن. وهم لا يصبحون مصدر خطر إلا إذا بات التقدم الصناعي مرهوناً بتثقيفهم ثقافة عالية، ولكن لأن التنافس العسكري والاقتصادي لم يعد ذا أهمية، فإن مستوى التثقيف الشعبي آخذ فعلاً في التدهور، بل لقد أصبح الحزب ينظر نظرة لامبالية إلى ما تعتنقه أو ترفضه العامة من أفكار، ولا يمانع في منحهم حرية فكرية طالما أنهم مجرّدون من القدرة على التفكير. وأما عضو الحزب فلا يمكن التسامح حيال أبسط الانحرافات في رأيه حول أتفه الموضوعات.

إن عضو الحزب يعيش من يوم مولده حتى يوم مماته تحت بصر وسمع شرطة الفكر، فحتى حينما يكون في خلوة مع نفسه لا يستطيع الجزم بأنه كذلك، فأينما يكون: نائما أو مستيقظا، في عمله أو استراحته، في حمامه أو فراشه، فإنه موضوع تحت المراقبة دون أن ينبهه أحد إلى ذلك ودون أن يفطن إلى أنه تحت رقابة دقيقة. فلا

شيء مما يفعل غير هام لدى شرطة الفكر التي يرقبه عملاؤها ليل نهار، فيراقبون سلوكه إزاء زوجته وأطفاله، ويرصدون حتى الكلمات التي يتلفَّظ بها في نومه، وتعبيرات وجهه حينما يكون بمفرده، وحركاته المعهودة، بل ولا يفوتهم أن يفحصوا صداقاته ويراقبوه في أوقات نومه. وليس بوسع شرطة الفكر أن تكتشف أعماله السيئة فحسب، بل يمكنها أن تكشف عن أي غرابة في أطواره مهما كانت بسيطة، أو تغير في عاداته، أو أي لازمة عصبية قد تكون عرضاً من أعراض صراع داخلي. كما أنه لا يملك حرية الاختيار في أي شيء، ومن ناحية أخرى فإن تصرفاته ليست محكومة بقانون أو بأي قواعد سلوكية محددة المعالم، فليس هنالك قانون في أوقيانيا، فالأفكار والتصرفات التي، حينما تكتشف، تعني موتاً محققاً لفاعلها ليست ممنوعة رسمياً، وليست كل التصفيات الجسدية، والاعتقالات والتعذيب وأحكام السجن وعمليات التبخير عقاباً على جرائم ارتكبت فعلاً، بل هي مجرد استئصال لأشخاص قد يقترفون جرماً في المستقبل. ولا يكفي أن يكون عضو الحزب ذا رأي سليم فحسب، بل يجب أن تكون غرائزه سليمة أيضاً. وكثير من المعتقدات التي يطلب منه أن يعتنقها والمواقف التي يتبناها ليست معلنة بوضوح، ولا يمكن إعلانها بغير فضح للمتناقضات الكامنة في الاشتراكية الإنجليزية. وإذا كان الشخص بالفعل مخلصاً للحزب، ويسمى في اللغة الحديثة «حسن التفكير»، فإنه يعرف، في شتى الظروف وبدون حاجة إلى التفكير، ما هو المعتقد الصحيح أو ما هي العاطفة المرغوبة. وعلى أي حال فإن التدريب الذهني المدروس الذي يخضع له العضو في طفولته والذي يمكن اختصاره في مفردات اللغة الجديدة «إيقاف الجريمة، بياض السواد، ازدواجية التفكير»، يجعله يعزف بل ويعجز عن إمعان التفكير في أي موضوع.

ويفترض في عضو الحزب ألا يكون صاحب عواطف خاصة وألا يعتري حماسه أي فتور، كما يفترض أن تستحوذ عليه كراهية لا

يفتر لها سعار إزاء أعداء الخارج وعملاء الداخل، وأن يشعر بنشوة النصر وأن يحقِّر ذاته أمام سلطان الحزب وحكمته. وأما ما يعتمل داخله من مشاعر استياء تتولد لديه بسبب حياة الشظف والعناء التي يعيشها فيتم توجيهها عمداً نحو الخارج وتبديدها بتلك الحيل المبتكرة خلال «دقيقتي الكراهية»، كما أن التأملات التي ربما تولِّد لدى العضو موقفاً ينزع للشك أو التمرد يتم وأدها سلفاً بنظام الانضباط الداخلي الذي اكتسبه في طفولته وتسمى أولى مراحل هذا الانضباط وأبسطها، والتي يمكن حتى تلقينها لصغار الأطفال، في اللغة الجديدة، بـ «إيقاف الجريمة». وهي تعني القدرة على وأد، كما لو كان بالغريزة، أي فكرة تنطوي على خطر، وتتضمن أيضاً عدم القدرة على فهم المتشابهات، وعدم القدرة على إدراك الأغلاط المنطقية، وإساءة فهم أبسط الحجج إذا كانت مناوئة للاشتراكية الإنجليزية، والتبرّم والانزعاج من أي أفكار قد تؤدي إلى اتجاهات انحرافية عن مبادئ الحزب. جملة القول، إن كلمة «إيقاف الجريمة» تعني غباءً وقائياً، وإن كانت كلمة غباء غير كافية في هذا الصدد. وعلى النقيض فإن الولاء للحزب بكل ما تحمل الكلمة من معان يتطلب من المرء إن يتحكم تحكماً تاماً في العمليات الفكرية التي تدور في ذهنه تماماً مثلما يتحكم لاعب الأكروبات في جسمه. ويتفق المجتمع الأوقياني في نهاية الأمر على الإيمان بأن الأخ الكبير قادر على كل شيء وأن الحزب معصوم عن الخطأ، ولكن لمّا كان واقع الأمر يقول إن الأخ الكبير ليس قادراً على كل شيء وأن الحزب ليس معصوماً عن الخطأ، فإن ثمة حاجة إلى مرونة دائمة في معالجة الحقائق. والكلمة الرئيسية في هذا الصدد هي «بياض السواد»، وهي مثلها مثل كثير من كلمات اللغة الجديدة ذات معنيين متناقضين، فإذا استعملت لوصف خصم، فإنها تعني عادةً الادعاء في صفاقة بأن الأسود أبيض بما يتناقض مع أبسط الحقائق، أما إذا استعملت مع عضو الحزب فهي تعني الرغبة الصادقة للقول بأن الأسود أبيض حينما يتطلب

نظام الحزب ذلك. لكنها تعني أيضاً القدرة على الاعتقاد بأن الأسود أبيض، وأكثر من ذلك أن يعرف المرء أن الأسود أبيض وينسى تماماً أنه كان يعتقد عكس ذلك من قبل، وهذا يتطلب تغييراً مستمراً للماضي من خلال نهج في التفكير يحتوي الضدين معاً والذي يطلق عليه في اللغة الجديدة «ازدواجية التفكير».

إن تغيير الماضي ضروري لسببين، أولهما وهو ثانوي أو لنقل احترازي، أن عضو الحزب مثله مثل أي فرد من طبقة البروليتاريا يحتمل ظروف حياته الراهنة لأنه لا يملك معايير للمقارنة، إذ يجب أن ينقطع انقطاعاً كلياً عن الماضي تماماً كما يجب أن ينقطع عن الأقطار الأجنبية لأن من الضروري بالنسبة إليه أن يؤمن بأنه أفضل حالاً من أسلافه وأن مستوى معيشته ورفاهيته في ارتفاع دائم، وأما السبب الأكثر أهمية لإعادة رسم الماضي فيكمن في الحاجة إلى حماية فكرة عصمة الحزب. ولا يتوقف ذلك عند مجرد تحديث وتعديل جميع الخطب والإحصائيات والسجلات بصفة دائمة ومتواصلة إثباتاً لأن تنبؤات الحزب كانت في جميع الأحوال صائبة فحسب، وإنما يمتد إلى اعتبار أي تغيير في مبادئ الحزب أو في الولاءات السياسية أمراً غير مقبول إطلاقاً وذلك لأن تغيير المرء لرأيه أو حتى لسياسته هو بمثابة إقرار بالضعف. فإذا كانت أوراسيا أو إيستاسيا مثلاً، حسبما يصادف الأمر، هي عدو اليوم، فإن هذه الدولة يجب أن تظل دائماً هي العدو. أما إذا كانت حقائق الواقع تقول بغير ذلك، فحينئذ يجب تغيير هذه الحقائق، وهكذا تتواصل عملية إعادة كتابة التاريخ مرة بعد مرة وبلا توقف. ولا يقل هذا التزييف المتواصل للماضي، والذي تقوم عليه وزارة الحقيقة أهمية، عن الممارسات القمعية وأعمال الجاسوسية التي تقوم عليها وزارة الحب بالنسبة لاستقرار النظام.

إن قابلية تبديل الماضي هي العقيدة الرئيسية في الاشتراكية الإنجليزية، إذ يعتبر الحزب أن أحداث الماضي ليست بذات وجود

موضوعي لأنها لا تعيش إلا بين صفحات السجلات المكتوبة وفي ذاكرة الإنسان، فالماضي هو ما تتفق عليه كل من السجلات والذاكرات، ولما كان الحزب يسيطر سيطرة تامة على السجلات كما على عقول أعضائه ، فإن الماضي، تبعاً لذلك، هو ما يريده الحزب وما يشاء أن يصنع منه. وتبعاً لذلك أيضاً وبالرغم من قابلية الماضي للتبديل، فإنه لم يتبدل قط في لحظة من اللحظات ذلك أنه عندما تعاد صياغته في القالب الذي تستلزمه متطلبات المرحلة الراهنة، فإن هذه الصياغة الجديدة تصبح هي الماضي ولا ماض سواه قد وُجد. ويظل هذا مقبولاً حتى حينما يتعين تغيير حادث بذاته، وهو غالباً ما يحدث مرات عديدة في غضون سنة واحدة، وفي جميع هذه الأحوال يظل الحزب هو من يملك ناصية الحقيقة المطلقة، والحقيقة المطلقة في نظره لم تختلف يوماً عما هو عليه واقع الحال. ومن الواضح أن السيطرة على الماضي تتوقف قبل كل شيء على تدريب الذاكرة، وعملية التأكد من أن جميع السجلات المكتوبة تتفق مع الاعتقاد الصحيح المعتمد لا تعدو كونها مجرد عمل آلي. لكن من الضروري أن يتذكر المرء أن الأحداث وقعت بالطريقة المرغوبة. ولئن كان ضرورياً للمرء أن يعيد تشكيل ذكرياته أو يعبث بالسجلات المكتوبة، فمن الضروري أيضاً أن ينسى أنه قد فعل هذا. وهذا الاحتيال يمكن أن يتعلمه المرء مثلما يتعلم أي طريقة ذهنية، وهو الأمر الذي يتعلمه غالبية أعضاء الحزب وبالأخص الأذكياء منهم والمخلصين للحزب، وكان يطلق على ذلك في اللغة القديمة «السيطرة على الحقيقة» بينما يطلق عليه في اللغة الجديدة «ازدواجية التفكير» على الرغم من أن ازدواجية التفكير تعني كثيراً من الأشياء الأخرى أيضاً.

فازدواجية التفكير تعني القدرة على اعتناق معتقدين متناقضين في آن واحد وقبولهما معاً. فالمفكر الحزبي يعرف الوجهة التي يجب أن تأخذها ذكرياته عند تغييرها، ويعرف بناء على ذلك أنه يتلاعب بالحقيقة، ولكنه بممارسة ازدواجية التفكير يُقنع نفسه بأنه لم يدنّس

الحقيقة. ويتعين أن تجري هذه العملية عن وعي وإدراك وإلا تعذّر تنفيذها بالدقة المطلوبة، كما ينبغي أن تتم بدون وعي أيضاً وإلا فإنها ستولّد شعوراً بالزيف ومن ثم بالإثم. إن ازدواجية التفكير تقع في صميم مبادئ الاشتراكية الإنجليزية باعتبار أن المنهج الرئيسي للحزب هو استخدام الخداع الواعي مع الاحتفاظ بثبات الغاية التي تظل محاطة بالصدق. ولذلك لا بد لعضو الحزب أن يكذب متعمّداً وهو يؤمن في قرارة نفسه بكذبه، وأن ينسى أي حقيقة باتت غير ملائمة، ثم عندما تمس الحاجة إليها مرة ثانية فإنهم يستدعونها من غياهب النسيان، وأن ينكروا وجود الحقيقة الموضوعية وأن يأخذوا بالحسبان ذلك الواقع الذي أنكروه. بل وحتى عند استعمال عبارة ازدواجية التفكير من الضروري أن يمارس المرء ازدواجية التفكير، ذلك أن المرء باستعماله هذه العبارة إنما يعترف بأنه إنما يتلاعب بالحقائق، فمع كل مرة يلجأ فيها المرء لازدواجية التفكير فإنه يطمس معرفة ما وهكذا دواليك حتى تتراكم الأكاذيب وتجثم فوق الحقيقة. وفي النهاية فقد استطاع الحزب من خلال ازدواجية التفكير أن يظل وربما سيظل لآلاف السنين ممسكاً بناصية التاريخ.

لقد هوت جميع الأقليات الحاكمة إما لأنها تحجرت أو لأنها باتت هشّة. فإما أنها أصيبت بالبلادة والغطرسة وعجزت عن مواكبة الظروف المتغيرة مما أفضى بها إلى السقوط، أو أنها أصبحت ليبرالية جبانة وقدمت تنازلات عندما كان ينبغي عليها اللجوء للقوة ومن ثم سقطت أيضاً. بعبارة أخرى، لقد سقطت هذه الأقليات إما بوعي أو بدون وعي. وإنه لمما يُسَجَّل للحزب أنه أوجد نظاماً فكرياً يمكن لهاتين الحالتين أن تتواجدا معاً في آن واحد. ولا يمكن أن تدوم للحزب هيمنة على أي أساس فكري غير هذا الأساس، فإذا أراد المرء أن يحكم وأن يستمر في الحكم فعليه أن يكون قادراً على زعزعة الإحساس بالواقع. وذلك لأن سر أسرار الحكم هو جمع المرء بين إيمانه بأنه لا يخطئ وقدرته على التعلم من أخطاء الماضي.

وليست هنالك حاجة تدعو للقول بأن أكثر ممارسي ازدواجية التفكير دهاء هم أولئك الذين ابتدعوه ويدركون أنه منظومة فعالة للخداع العقلي. وفي مجتمعنا فإن أولئك الأكثر إدراكاً لما يحدث هم نفسهم الأكثر عجزاً عن رؤية العالم كما هو فعلاً. مجمل القول إنه كلما ازداد المرء فهماً اتسعت هوة الوهم، وكلما اتقد ذكاؤه كان أقل حكمة. والمثال الأوضح على ذلك هو حقيقة أن هستيريا الحرب تتأجج كلما ارتقى المرء في السلم الاجتماعي، إذ لا يقف من الحرب موقفاً عقلانياً إلا رعايا الأراضي المتنازع عليها، فالحرب لدى هؤلاء ما هي إلا إعصار يجتاحهم جيئة وذهاباً، وهم لا يبالون البتة بأي الأطراف سينتصر في الحرب لأنهم يدركون أن تغيير سادتهم لا يعني أكثر من أنهم سيؤدون نفس فروض الطاعة للسادة الجدد والذين سيسومونهم العذاب ذاته الذي كان سادتهم القدامى يسومونهم إياه. وأما العمال الأفضل حالاً من هؤلاء بقليل والذين نطلق عليهم «العامة» فلا يشعرون بالحرب إلا على نحو متقطع. ويمكن لهؤلاء حينما تدعو الضرورة أن ينخرطوا في نوبات من الخوف وسعار الكراهية، غير أنهم إذا تُركوا وشأنهم فإنهم يصبحون قادرين على النسيان ولفترات طويلة أن ثمة حرباً تدور رحاها. أما الحماس الحقيقي للحرب فلا يوجد إلا في صفوف الحزب، وبالأخص في صفوف الحزب الداخلي حيث توجد تلك الفئة الأرسخ إيماناً بغزو العالم واحتلاله رغم معرفتهم أن تحقق ذلك إن هو إلا وهم. ويعتبر مثل هذا الجمع الغريب بين الأضداد - المعرفة مع الجهل، والسخرية مع التعصب - هو من أخص الخصائص المميزة للمجتمع الأوقياني. وتزخر الأيديولوجية الرسمية بالمتناقضات حتى حينما لا يكون ثمة سبب فعلي يستدعي ذلك، وهكذا فإن الحزب يرفض كل مبدأ أيدته الحركة الاشتراكية في الأصل، بل ويحط من قدره وهو حينما يفعل ذلك فإنما يفعله باسم الاشتراكية، ويدعو الحزب لازدراء الطبقة العاملة ازدراء لم يسبق له مثيل في القرون الماضية وفي الوقت

نفسه يلبس أعضاءه زياً موحداً كان في يوم من الأيام يميز العمال اليدويين، ولهذا السبب اختاره الحزب. ويعمل الحزب بصورة منهجية على تقويض دعائم التماسك الأسري، ويطلق على زعيمه اسم «الأخ الكبير» وهو رمز مباشر للولاء الأسري، بل وحتى أسماء الوزارات الأربع التي تحكمنا تبدي شيئاً من الصفاقة فيما تمارسه من قلب متعمد للحقائق، فوزارة السلام تعنى بشؤون الحرب، ووزارة الحقيقة مهمّتها التزوير وخلق الأكاذيب، ووزارة الحب تسوم الناس العذاب، أما وزارة الوفرة فتعنى بتجويع الناس حتى الموت. وليست مثل هذه المتناقضات عرضية كما أنها ليست نتاجاً لرياء عادي، بل هي ممارسات مدروسة ومخططة لازدواجية التفكير، ذلك أنه لا يمكن الاحتفاظ بالسلطة إلى الأبد إلا عبر التوفيق بين المتناقضات، وليس ثمة طريق آخر لكسر الحلقة القديمة. وإذا كان ينبغي تجنب المساواة بين البشر إلى الأبد، أي إذا كان على الطبقة العليا كما أسميناها أن تحتفظ بموقعها بصفة دائمة، فإن عليها السيطرة على الحالة الفكرية السائدة التي هي الجنون.

ولكن ثمة سؤال واحد تغاضينا عنه حتى الآن وهو: لماذا يجب تجنب المساواة بين البشر؟ وإذا افترضنا أن آليات العملية قد وصفت وصفاً دقيقاً، فما هو الدافع وراء هذا الجهد الضخم والمنظم بدقة وعناية من أجل تجميد التاريخ عند لحظة معينة في الزمن؟

وهنا نصل إلى سر الأسرار، فكما رأينا فإن هالة الغموض التي تحيط بالحزب وعلى الأخص بالحزب الداخلي تعتمد على ازدواجية التفكير، ولكن الأعمق من ذلك هو الدافع الأصلي والغريزة التي لم تكن مثار شك أبداً والتي كانت الحافز الاول للقفز على السلطة وجاءت بازدواجية التفكير ثم شرطة الفكر وحالة الحرب الدائمة وجميع المظاهر الأخرى الضرورية التي ظهرت للوجود فيما بعد. ويتضمن هذا الدافع فعلاً من ....

وهنا أصبح ونستون يشعر بالصمت كما يشعر المرء بصوت جديد انبعث حوله، وخيل إليه أن جوليا كانت ساكنة الحركة لفترة طويلة، وكانت ترقد على جنبها وعارية من الخصر فما فوق وقد توسدت راحة يدها وتدلت خصلة شعر بين عينيها بينما كان صدرها يعلو ويهبط على نحو بطيء ومنتظم، فناداها:

- جوليا.

فلم تحر جوابا.

- جوليا هل أنت مستيقظة؟

ولكنها لم تجب أيضاً لأنها كانت قد راحت في نومٍ عميق، فأغلق الكتاب ثم وضعه بعناية على الأرض، ثم اضطجع ساحباً الغطاء ليغطي جوليا ويندس إلى جانبها.

لكنه راح يفكر في أنه لم يعرف بعد السر النهائي، لقد فهم «كيف» ولكنه لم يفهم «لماذا»، فالفصل الأول شأنه شأن الفصل الثالث لم يأت بجديد لم يكن يعرفه من قبل، فكل ما فعله هو أنه رتب له ما كان يعرفه بالفعل. لكنه بعد قراءته للفصلين بات واثقاً أكثر من ذي قبل أنه لم يكن مجنوناً، وأن وجود المرء بين أقلية حتى لو كانت هذه الأقلية تتألف من فرد واحد فحسب لا يجعله مجنوناً، إذ هنالك حقيقة وكذب وإذا ما تمسكت بالحقيقة حتى لو كان في ذلك مواجهة للعالم أجمع، فإن هذا يعني أنك لست مجنوناً. وكانت صفرة الشمس الغاربة تنسل عبر النافذة وتسقط على الوسادة، فأغمض ونستون عينيه، وكان شعاع الشمس على وجهه فضلا عن جسد الفتاة الناعم الذي يلامس جسده قد ولّدا لديه إحساساً بالثقة ورغبة في النوم. كان يشعر بالأمان وبأن كل شيء على ما يرام، ولذلك فقد راح في نوم عميق وهو يتمتم بعبارة «سلامة العقل ليست مسألة إحصائية» والتي كان يشعر بأنها تنطوي على حكمة بالغة وعميقة.

وحينما استيقظ كان يحس وكأنه قد نام وقتاً طويلاً، ولكن نظرة

واحدة ألقاها على الساعة عتيقة الطراز أكدت له أن الساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف بعد. ولذلك فقد أخذته سنة من النوم ثم أفاق على ذاك الغناء المألوف المنبعث من الساحة التي تطل عليها الغرفة:

كان حلماً مقطوع الرجاء

مرّ كيوم من نيسان

ولكن بنظرة وكلمة وأحلام أثاروها

استُلب مني فؤادي

كان يبدو أن هذه الأغنية التافهة قد حافظت على شعبيتها وانتشارها، لقد كان المرء أينما ذهب يسمعها، بل لقد فاقت أغنية الكراهية نفسها. استيقظت جوليا على الصوت وتمطت بتلذذ ثم نهضت من الفراش.

وقالت: «إنني جائعة، دعنا نعدّ بعض القهوة. يا للعنة! لقد انطفأ الموقد وبرد الماء». ورفعت الموقد وهزته بيدها وقالت: «لقد نفد منه الزيت».

- أظن أنه يمكننا الحصول على بعض الزيت من شارنغتون العجوز.

ثم أضافت قائلة: «الشيء المضحك أنني تأكدت من أنه كان ملآن، سألبس ثيابي، إذ يبدو أن الطقس قد ازداد برودة».

ونهض ونستون أيضا ولبس ثيابه، وكان ذلك الصوت الذي لا يلحق به الكلل أو الملل يواصل الغناء:

يقولون إن الزمن يداوي كل الجراح

يقولون إن المرء بوسعه أن ينسى دائماً

بيد أن الابتسامات والدموع عبر السنين

ما تزال إلى الآن تقطع نياط قلبي!

اتجه ونستون نحو النافذة بينما كان يشد حزامه. لا بد أن الشمس قد توارت خلف البيوت إذ كان ضوؤها قد انحسر عن الساحة، وكانت الحجارة مبتلة كما لو كانت قد غُسلت لتوها، بل لقد خامره شعور بأن السماء نفسها قد غُسلت أيضاً فقد كانت زرقتها التي بين أعمدة المداخن نضرة وشاحبة. وكانت المرأة صاحبة هذا الصوت تذرع الساحة جيئة وذهاباً بلا كلل أو ملل، فتارة تغني وأخرى تلزم الصمت لكنها كانت دائماً تعلق مزيداً من حفاضات الأطفال. وتساءل ونستون في نفسه عما إذا كانت تزاول الغسيل كمهنة من أجل كسب قوتها، أو أنها كانت مجرد خادمة لعشرين أو ثلاثين حفيداً. كانت جوليا قد جاءت لتقف إلى جانبه، وراحا معاً يحملقان إلى الأسفل وقد خلب لبهما القوام القوي لهذه المرأة. وعندما تطلع إلى المرأة بهيئتها المميزة وذراعيها الغليظتين وهما تمتدان حتى تطالا حبل الغسيل، وردفيها البارزين ككفل حصان، أدرك وللمرّة الولى أن هذه المرأة جميلة. ولم يكن قد خطر بباله من قبل أن امراة في الخمسين أخذ جسمها أبعادا هائلة جراء حمل الأطفال، ثم تصلّب بعدئذ واخشوشن بالعمل حتى قسى مثل لفتة شائخة، يمكن أن تكون جميلة. لكنها كانت جميلة. ولم لا؟ إن بين جسمها الصلب الذي ضاعت خطوطه مثل صخرة من الجرانيت وجلدها الأحمر الخشن، علاقة تشبه تلك التي بين تاج الوردة وكأسها. فلماذا ينبغي أن تكون الثمرة في مرتبة أدنى من مرتبة الزهرة؟

وحينئذ غمغم ونستون: «إنها جميلة».

وأضافت جوليا: «إن عرض ردفيها يبلغ متراً كاملاً».

فقال ونستون: «هذا هو سر جمالها».

وأمسك بخصر جوليا اللدن ثم أحاطه بذراعه، والتصق به جسمها من ردفيها حتى ركبتيها. لكن ونستون كان يعلم أن ما يقومان به لا يمكن أن يثمر طفلاً، فهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنهما فعله. ولم يكن بإمكانهما الإفصاح عن هذا السر لأحد إلا بكلمة يتلفظ بها من عقل إلى

عقل. أما المرأة التي كانت في الساحة فلا عقل لها، فهي لا تملك سوى ذراعين مفتولتين وقلب حار ورحم خصب. وتساءل ونستون عن عدد الأطفال الذين أنجبتهم، ربما أنجبت خمسة عشر طفلاً، لا شك أنها مرّت بازدهار عابر وسريع، ربما لسنة من الزمن، ازدهار وجمال وردة برية، ثم انتفخت فجأة مثل ثمرة جيدة فأصبحت صلبة حمراء خشنة، بعدئذ غدت حياتها عبارة عن أشواط متواصلة من الغسيل والتنظيف والرتق والطهو والكنس والتلميع لأطفالها أولاً ثم لأحفادها فيما بعد وعلى مدى ثلاثين سنة متصلة ومع ذلك فهي لا تزال تغني. ولقد امتزجت مشاعر التبجيل الغامض التي أحسها ونستون نحوها مع المشهد الشاحب للسماء الخالية من الغيوم والممتدة لما وراء أعمدة المداخن إلى مسافات لا نهاية لها. وقد لفت نظره أن السماء التي تظلل الجميع واحدة سواء كان ذلك في أوراسيا أو إيستاسيا أو حتى هنا في أوقيانيا، كما أن الناس الذين تظلّلهم السماء يتشابهون إلى حد كبير أينما كانوا، ففي جميع أنحاء العالم يعيش مئات ألوف من ملايين الأشخاص على هذا المنوال، حيث يجهل بعضهم وجود بعض، وتفصل بينهم جدران من الكراهية والأكاذيب ومع ذلك فإنهم متماثلين. أناس لم يتعلموا أبداً كيف يفكرون ولكنهم يختزنون في قلوبهم وبطونهم وعضلاتهم القدرة التي يمكن في يوم من الأيام أن تقلب نظام العالم. فإذا كان هناك أمل فإنه يكمن في العامة! ومن دون أن يكمل قراءة الكتاب أدرك أن تلك لا بد أن تكون رسالة غولدشتاين الأخيرة. إن المستقبل ملك العامة، وتساءل ونستون: هل يمكنني أن أضمن أنهم عندما يحين وقتهم ويمسكون بزمام أمور العالم فإن العالم الذي سينشئونه لن يكون غريباً عليّ كهذا العالم الذي يهيمن عليه الحزب؟ أجل سيكون كذلك لأنه، على الأقل، سيكون عالم العقل. فحيثما توجد المساواة يوجد العقل، ولسوف يحدث ذلك إن عاجلاً أو آجلاً. سوف تتحول القوة إلى وعي. إن العامة خالدون، وهذه حقيقة لا يمكن أن يرقى إليها شك حينما ينظر المرء إلى

القوام الراسخ للمرأة التي في الساحة. لا بد أنهم سيستيقظون في نهاية الأمر، وإلى أن يحدث ذلك، وبالرغم من أنه قد لا يحدث إلا بعد مضي ألف سنة، فإنهم سيبقون أحياء رغم كل الظروف مثل الطيور تنقل الحيوية من جسم إلى جسم دون أن يتمكن الحزب من تقاسمها معهم أو حتى قتلها.

وقال ونستون: «هل تذكرين العصفور الذي كان يغنّي لنا يوم التقينا عند طرف الغابة؟»

فقالت جوليا: «إنه لم يكن يغني لنا بل كان يغنّ لنفسه، وربما ليس لهذا السبب أيضاً، بل لقد كان يغني لمجرد الغناء».

إن الطيور تغني والعامة تغني بيد أن الحزب لم يغنّي. وفي جميع أنحاء العالم، في لندن ونيويورك وأفريقيا والبرازيل وفي الأراضي المحرمة الواقعة وراء الحدود والتي يلفها الغموض وفي شوارع باريس وبرلين وفي قرى السهول الروسية الشاسعة وفي أسواق اليابان والصين- في كل مكان تنتصب شبيهات هذه المرأة ذات القوام الصلب الذي لا يكل أو يمل واللائي تضخمت أجسامهن من جراء العمل وإنجاب الأطفال والكدح من المهد إلى اللحد ومع ذلك يغنين. ومن أصلاب هؤلاء سيخرج حتماً جيل واعٍ. فإذا كنا من الأموات، فإن المستقبل لهم، إلاّ أنه من الممكن لنا المشاركة في ذلك المستقبل إذا استطعنا إبقاء العقل منّا حياً كما يبقون هم أجسادهم حية، ونقلنا العقيدة السرية التي مفادها أن اثنين واثنين يساويان أربعة إلى القادم من الأجيال.

وقال ونستون: «إننا نحن الأموات».

فردت جوليا بصوت كأنه الصدى: «إننا نحن الأموات».

فقال صوت حديدي ينبعث من خلفهما: «إنكما أنتما لميّتان!»

فانتفضا وانفصل واحدهما عن الآخر، وشعر ونستون أن الدم تجمد في عروقه، ورأى البياض حول حدقتي عيني جوليا وشحب وجهها كله

حتى أن بقايا الصباغ الأحمر التي على وجنتيها قد برزتا وكأنهما غير متصلتين بالبشرة التي تحتهما.

وكرر الصوت الحديدي: «إنكما لميّتان».

وهمست جوليا: «إن الصوت يأتي من وراء اللوحة».

فقال الصوت: «أجل إنه يأتي من وراء اللوحة، اثبتا مكانكما ولا تتحركا حتى يصدر لكما أمر آخر».

إنها بداية النهاية، إنها بداية النهاية! لم يكن باستطاعتهما أن يفعلا أي شيء غير أن يحدق أحدهما في الآخر، ولم تخطر ببالهما فكرة أن ينجوا بحياتهما ويغادرا المنزل قبل فوات الأوان، فلا يعقل أن يتصورا أن بوسعهما عصيان الصوت الحديدي الصادر من الجدار. ثم سمعا صوت فرقعة تلاه صوت زجاج يتهشم، لقد سقطت اللوحة على الأرض كاشفة شاشة الرصد المخبأة وراءها.

قالت جوليا: «إنهم يروننا الآن».

فقال الصوت: «إننا نراكما الآن. قفا في منتصف الغرفة وليدر كل منكما ظهره للآخر، وليضع يديه خلف رأسه ولا يمسس أحدكما الآخر».

ولم يمسس أحدهما الآخر ومع ذلك ظل ونستون يشعر وكأن جسد جوليا يرتجف أو ربما كان جسده هو الذي يرتجف. وقد استطاع بشق الأنفس أن يمنع أسنانه من أن تصر صريراً، لكن ركبتيه كانتا خارجتين عن سيطرته، ثم سمعا وقع أقدام قوية في داخل المنزل وخارجه، وبدا أن الساحة قد اكتظت بالرجال وأن شيئاً ما يتم جره على الأحجار وتوقفت المرأة عن الغناء فجأة. وسمع صوت طقطقة وكأن حوض الغسيل قد قذف به عبر الساحة وأعقب ذلك جلبة من الهتافات الغاضبة التي انتهت بصرخات ألم.

وقال ونستون: «إن البيت محاصر».

فقال الصوت: «إن البيت محاصر».

وسمع ونستون جوليا تصر على أسنانها وتقول: «أعتقد أنه يحسن بنا أن يودع كل منا الآخر».

فقال الصوت: «يحسن بكما أن يودع كل منكما الآخر».

ثم سمعا صوتاً آخر يختلف تماماً عن الصوت الحديدي، وكان صوتاً رقيقاً مهذباً وبدا لونستون أنه سمعه من قبل هو يقول: «وبالمناسبة، وما دمنا بصدد هذا الموضوع، فها هي شمعة تستنير بها في الطريق إلى الفراش، وها هي مقصلة تحزّ عنقك!»

وسمع ونستون صوت شيء يتهشم خلفه ويقع على الفراش، لقد برز رأس سلم من النافذة وبدا أن شخصاً ما يتسلقه للدخول عبر النافذة. وارتفع وقع أقدام على درج المنزل ولم تمر لحظات حتى أصبحت الغرفة غاصة برجال أشداء يرتدون بزات سوداء وأحذية ذات نعال حديدية ويلوحون بهراوات في أيديهم.

ولم يعد ونستون يرتجف، بل حتى لم يكن يحرك عينيه. كان الشيء الوحيد الذي يهمه هو أن يحتفظ بسكونه لئلا يعطي أحدهم حجة لضربه! وتوقف قبالته رجل ذو فكٍّ يشبه فكّ مصارع حيث كان فمه كشق مفتوح، وراح يلوح بهراوته واضعا إياها بين إبهامه وسبابته. والتقت عينا ونستون عيني هذا الرجل وكان شعور ونستون بالعري، وبيديه المرفوعتين خلف رأسه وبوجهه وجسده المكشوفين شعوراً لا يحتمل. ولعق الرجل شفتيه بلسانه ثم سمع صوت فرقعة آخر، لقد تناول أحدهم الثقل الزجاجي من فوق المنضدة ثم ألقى به فوق حجر المدفأة فتهشم.

وتدحرجت قطعة المرجان على الأرض، وكانت ضئيلة جداً. بعدئذ سمع شهقة وخبطة خلفه، ثم وعلى الفور تلقى ضربة عنيفة على كاحله كادت تُفقده توازنه، بينما كان رجل آخر يلكم جوليا في بطنها فارتمت على الأرض وهي تلهث محاولة تنشق للهواء، لكن ونستون لم يجسر على الالتفات قيد أنملة، وإن كان وجهها المزرق الشاحب

واللاهث يأتي أحياناً في نطاق رؤيته. ورغم حالة الذعر التي استولت عليه فقد كان الألم الذي يشعر به أقل حدة من ذلك الذي كانت تحسه وهي تحاول استعادة أنفاسها. كان يدرك مدى الألم المضني الذي تتعرض له ولكنه ذلك الألم الذي لا يشعر به المرء ما دام عاجزا عن التقاط أنفاسه. بعدئذ انكب رجلان على جوليا ثم رفعاها من ركبتيها وكتفيها وحملاها خارج الغرفة كأنها كيس من الخيش. واستطاع ونستون أن يرى وجهها بلمحة خاطفة، كان وجهها منكفئا شاحب اللون مغلق العينين بينما كانت آثار الصباغ الأحمر لا زالت عالقة بوجنتيها وكان هذا هو آخر ما رآه منها. أما هو فقد بقي واقفاً وكأن على رأسه الطير، ولم يكن قد ضربه أحد بعد. لكن ثمة أفكار أخرى كانت تنبجس بسرعة في خاطره، فتساءل عما إذا كانوا قد ألقوا القبض على السيد شارنغتون، وعما فعلوه بالمرأة التي كانت في الساحة. ودهش لإحساسه بالحاجة الماسة إلى التبول مع أنه لم يكن قد انقضى غير ساعتين أو ثلاث على تبوله آخر مرة، كما هاله أن الساعة كانت تشير إلى التاسعة مساء بينما كانت الأنوار ما زالت مضاءة على غير العادة في ذلك الوقت من أغسطس، وتساءل عما إذا كان هو وجوليا قد أخطآ تقدير الوقت وناما حتى التاسعة من صباح اليوم التالي، لكنه لم يتابع هذه الفكرة لأنها لم تكن ذات فائدة.

وبعدئذ سمع ونستون وقع خطى أخف على الأرض، إنه السيد شارنغتون وقد دلف إلى الغرفة، وللتو بدت علامات الخضوع على وجوه الرجال ذوي الزي الأسود، كما بدا أن ثمة تغيراً قد طرأ على هيئة السيد شارنغتون الذي وقعت عيناه على شظايا الثقل الزجاجي، فقال بحدة:

- اجمعوا هذه الشظايا.

وانحنى أحد الرجال منفذاً الأمر. وكانت لهجة أحياء لندن الفقيرة قد اختفت لديه، وفي الحال أدرك ونستون من هو صاحب الصوت الذي

كان يصدر عن الشاشة منذ دقائق. كان السيد شارنغتون لا يزال يرتدي معطفه المخملي العتيق ولكن شعره الأبيض كان قد صار أسود، كما لم يكن يرتدي نظارته. وحدج ونستون بنظرة حادة كما لو أنه يتحقق من هويته، ثم لم يعره بالاً بعد ذلك. وفطن ونستون إلى أن ثمة تغييرا قد طرأ على السيد شارنغتون، فقد غدا منتصب القامة وبدا أن جسمه قد أصبح أكثر امتلاء. أما وجهه فلم تطرأ عليه غير تغييرات طفيفية لكنها مع ذلك غيرت ملامحه تغييرا كاملا، فقد بدا حاجباه أقل كثافة، واختفت التجاعيد من وجهه، لقد تغيرت كل تقاسيم وجهه بل حتى أنفه قد بدا أقصر مما كان عليه. إنه وجه بارد يوحي بأن صاحبه لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، وسرعان ما تنبه ونستون أنه ولأول مرة في حياته يرى رأي العين عنصرا من عناصر شرطة الفكر.

الجزء الثالث

الفصل الأول

لم يكن ونستون يدري أين هو! كان يُفترض أنه في وزارة الحب، لكن كيف السبيل للتحقق من ذلك.

كان قابعاً في زنزانة عالية السقف لا نوافذ لها، وكانت جدرانها مغطاة بالخزف الأبيض اللامع، وكانت كانت مصابيح مخفية تغمرها بفيض من الضوء الباهر، كما كان هناك طنين مستمر ظن ونستون أن له علاقة بفتحات التهوئة بالزنزانة. وبمحاذاة جدران الزنزانة امتد مقعد خشبي مستطيل لا يتسع عرضه للجلوس عليه إلا بصعوبة، وفي الجانب المقابل للباب كان هنالك مرحاض بلا كرسي يستعمل لقضاء الحاجة، وفي كل جدار من جدران الزنزانة الأربعة ثبتت شاشة رصد.

وكان ونستون يشعر بألم مبرح ومتواصل في بطنه رافقه منذ أن اقتادوه وقذفوا به في الشاحنة المغلقة التي نقلته. ولكنه كان يشعر أيضا بجوع قارص وشديد، فلربما مضى على آخر مرة ذاق فيها طعاماً أربع وعشرون أو ست وثلاثون ساعة. ولم يستطع، كما لن يتسنى له، أن يعرف إن كانوا قد ألقوا القبض عليه في الصباح أو المساء.

جلس ونستون فوق المقعد لا يحرك ساكناً وقد عقد ذراعيه حول ركبتيه، وكان قد تعلّم أن يجلس بلا حراك بعدما أدرك أن أي حركة غير متوقعة يأتي بها تجعل صوتاً ينبعث من شاشة الرصد ينهره عن ذلك. واشتدت وطأة الجوع عليه، ومع ذلك لم يشته أكثر من كسرة خبز تذكر

أن لديه بعضاً منها في جيب معطفه كان يشعر بها من حين لآخر تخز ساقه. وبعد طول تردد، تغلب إحساسه بالجوع على خوفه فدس يده في جيبه.

ولم يكد يفعل حتى استوقفه صوت صارخ من شاشة الرصد: «سميث! سميث ونستون رقم 6079، أخرج يدك من جيبك، هذا غير مسموح به في الزنزانة!»

فعاد إلى سكونه الذي كان عليه وعقد ذراعيه حول ركبتيه. وتذكر كيف أنهم قبل أن يجيئوا به إلى هنا قد ذهبوا به إلى مكان آخر يرجح أنه سجن عادي أو مركز توقيف تستخدمه الدوريات، لكنه لم يستطع أن يعرف كم من الوقت أمضى هناك فقد كان يتعذر عليه قياس الوقت، كان مكانا صاخبا تتصاعد منه روائح كريهة. كانت زنزانة أشبه بتلك التي يقبع فيها الآن وإن كانت أشد قذارة وتكتظ بعشرة أو خمسة عشر سجيناً أغلبهم من المجرمين العاديين وقليلهم من السجناء السياسيين. وهناك جلس صامتاً وقد أسند ظهره للحائط فيما كانت تزاحمه أجساد قذره، ورغم أن الخوف والألم قد استحوذا عليه وصرفاه عن كل ما حوله، فقد استطاع ملاحظة الفارق الواضح بين تصرفات السجناء من أعضاء الحزب وتصرفات السجناء العاديين، فالسجناء الحزبيون كانوا دائماً يلزمون الصمت وتبدو عليهم علامات الخوف والرعب، أما المجرمون العاديون فكانوا لا يأبهون ولا يبالون بأحد حتى أنهم كانوا يكيلون السباب للحراس، ويدافعون عن أمتعتهم بشراسة ويكتبون الكلمات البذيئة على الأرض ويأكلون الطعام المهرب من خارج السجن بل وكانوا يصرخون في وجه شاشة الرصد حينما توجه إليهم عبرها الأوامر بالتزام الهدوء. ومن جهة أخرى كان بعضهم يبدو وكأنه على علاقة تفاهم مع الحراس فينادونهم بأسمائهم رافعين الكلفة فيما بينهم ويحصلون على السجائر عبر ثقوب التجسس التي في الباب، كما كان الحراس يعاملون المجرمين العاديين بشيء من الصبر والأناة حتى حينما كانت الظروف تقتضي الغلظة

معهم. وكانت تدور بينهم أحاديث كثيرة حول معسكرات الأشغال الشاقة وهي المكان الذي يساق إليه غالبية السجناء، ومن هذه الأحاديث استشف ونستون أن الحياة في هذه المعسكرات لا بأس بها إذا استطاع السجين أن يكوّن علاقات جيدة وأن يعرف كيف يصرّف أموره داخل المعسكر. وكانت ممارسات مثل الرشوة والمحاباة والعربدة بكل ألوانها، والشذوذ الجنسي والدعارة تتفشى داخل هذه المعسكرات، بل كان يتم الحصول على المشروبات الروحية عبر تقطيرها من البطاطس. ولم يكن أحد يحظى بثقة الحراس إلا المجرمون العاديون وبالأخص القتلة وأفراد العصابات منهم والذين كانوا يمثلون شكلا من أشكال الأرستقراطية. وأما المجرمون السياسيون فقد كان يعهد إليهم بجميع الأعمال القذرة.

ورأى ونستون أن سجناء من شتى الألوان يفدون إلى السجن أو يخرجون منه في حركة لا تتوقف، فمنهم تجار المخدرات واللصوص وقطاع الطرق وتجار السوق السوداء ومدمنو الخمر والعاهرات. وكان بعض مدمني الخمر يصلون إلى حالة من الانفلات تضطر بقية زملائهم للتكتل ضدهم والسيطرة على هذا العنف، كما يذكر أن أربعة حراس قد جاؤوا بامرأة ضخمة الجسم يناهز عمرها الستين وذات شعر أشيب ونهدين كبيرين وكانت تقاومهم بعنف وتصرخ فيهم وهم يجرونها إلى الزنزانة من أطرافها الأربعة، وفي النهاية جردوها من حذائها الذي كانت تركلهم به ثم دفعوها بعنف فسقطت فوق حجر ونستون وكادت تكسر عظامه، لكنها نهضت واندفعت نحو باب الزنزانة وهي تلعن الحراس وتسبهم بأقذع الكلمات، وحينما انتبهت إلى أنها كانت تجلس على شيء غير مستو انزلقت عن ركبة ونستون إلى المقعد قائلة:

«معذرة يا عزيزي، ما كان يجب أن أجلس فوق ركبتيك، ولكن هؤلاء الأوغاد هم الذين دفعوني. إنهم لا يعرفون كيف ينبغي أن يعاملوا سيدة»، ثم توقفت عن الكلام وضربت بيدها على صدرها وهي تقول: «معذرة فلست في حالة طبيعية».

وانحنت إلى الأمام وتقيأت على الأرض.

وبعد ذلك أسندت ظهرها إلى الحائط مغمضة عينيها وقالت: «هذا أفضل، إياك أن تبقيه في معدتك، يحسن بك أن تتخلص منه وهو طرياً».

وحينما هدأت قليلاً، التفتت لتلقي نظرة أخرى على ونستون، وبدا أن آصرة من نوع ما قد جعلتها تميل إليه فأحاطت كتفيه بذراعيها وجذبته نحوها وهي تنفث في وجهه بأنفاس مشبعة برائحة الجعة وحموضة القيء.

وسألته: «ما اسمك عزيزي؟»

فأجاب: «سميث».

فقالت: «سميث؟ هذا أمر عجيب، إن اسمي سميث أيضاً»، ثم أضافت بنبرة حانية: «ربما كنت أمك!»

وجال بخاطر ونستون أنه من المحتمل فعلاً أن تكون أمه، فقد كانت في مثل عمرها وجسمها وإن كان من الوارد أن بعض التغيير قد طرأ عليها بعد عشرين سنة أمضتها في معسكر الأشغال الشاقة.

وما من أحد آخر تحدث مع ونستون، إذ كان المجرمون العاديون يتجاهلون السجناء السياسيين تجاهلاً يثير الدهشة، بل وينظرون إليهم نظرة ازدراء. وأما السجناء السياسيون فكانوا دائمي الصمت فهم يخشون الكلام مع أي من المجرمين العاديين، كما أنهم أشد خشية من الكلام بعضهم مع بعض. ولم يحدث سوى مرة واحدة أن استرق السمع لحديث هامس دار بين سجينتين من سجينات الحزب ولم يفهم منه سوى أنه كان يدور حول ما يدعى بالغرفة (101) لكنه لم يدرك المغزى.

لعلهم قد جاؤوا به إلى هنا قبل ساعتين أو ثلاث ومع ذلك لم يفارقه ألم معدته لحظة من الزمن، وإن اشتد عليه حيناً وخف حيناً آخر، وكان نطاق تفكيره يتسع أو يضيق تبعاً لذلك، فحينما كان يشتد عليه

الألم كان لا يفكر إلا في الألم ذاته وفي رغبته في الطعام، أما حينما يخف فكان الرعب يمسك بتلابيبه، كما مرت به لحظات كان يتراءى له خلالها المصير الذي ينتظره وهو ما كان يرتجف له قلبه وتتوقف أنفاسه. فقد كان يتخيل وطأة الهراوات وهي تحطم مرفقيه والأحذية ذات النعال الحديدية وهي تهشم ساقيه، كما تراءى له وهو يُسحل فوق الأرض ويصرخ طلباً للرحمة بعد أن تهشمت أسنانه. وقلما كانت ترد جوليا على خاطره لأنه كان لا يستطيع أن يركز تفكيره عليها، نعم لقد أحبها ولن يخونها، (ولكن هذا الحب كان مجرد حقيقة يعرفها معرفته لمبادئ الرياضيات) ولذلك لم يعد الآن يجد أثراً لأي حب نحوها، بل لم يعد حتى يشغل باله بما عساه ألمَّ بها. ولكن أوبراين كان هو الذي يخطر بباله كثيراً فيعيد إليه بصيصاً من الأمل، فيقول لنفسه لا بد أن أوبراين قد علم بأمر اعتقاله، لكنه تذكر أن حركة «الأخوة» لا تحاول أبداً إنقاذ أعضائها، إلا أنه تبقى أمامهم دائماً شفرة الحلاقة التي يمكنهم أن يهربوها إليه ليضع بها حداً لآلامه. وتصور أن خمس ثوان تكفي لأن يمزق نفسه بالشفرة وببرودة حارقة، بل إن الأصابع الممسكة بالشفرة ستتقطع حتى العظام هي الأخرى قبل أن يندفع إليه الحراس لمنعه من ذلك. وكان كل شيء يرتد على جسمه العليل الذي كان يرتجف من أقلّ ألم، ومع ذلك لم يكن واثقاً بأنه سيستخدم الشفرة حتى إذا أتيحت له الفرصة، فقد كان من الطبيعي لديه أن يعيش لحظة بلحظة مفضلاً الحياة على الموت حتى لو كان على يقين من أن تلك الحياة لن تتجاوز عشر دقائق وستكون كلها عذاباً في عذاب.

وكان ينصرف أحياناً إلى إحصاء عدد بلاطات الخزف الأبيض على جدران الزنزانة، ومع أن الأمر كان يبدو هيناً فإنه لم يوفق إلى ذلك. وكثيراً ما كان يتساءل عن مكان وجوده وعن الوقت أهو ليل أم نهار. فتارة يشعر بأنه من المؤكد أن ضوء النهار يملأ الكون خارج الزنزانة، وتارة أخرى وفي الوقت نفسه تقريباً يشعر أن ظلاماً دامساً يخيم على

العالم بالخارج. كان ونستون يعلم بالغريزة أن الأنوار في هذا المكان لا يمكن أن تطفأ، إنه ذلك المكان الذي لا ظلمة فيه، الآن فطن إلى السبب الذي جعله يظن أن أوبراين فهم إشارته عندما حدثه عن المكان الذي لا ظلام فيه، ففي وزارة الحب ليس ثمة نوافذ وزنزانته ربما تكون في قلب البناية أو عند الحائط الخارجي، وقد تكون في الطابق العاشر تحت الأرض أو في الطابق الثلاثين فوق الأرض. وقد راح ونستون ينتقل بمخيلته من مكان لآخر محاولاً أن يقرر بحسه العام ما إذا كانت زنزانته معلقة في الهواء أم مدفونة في أعماق سحيقة.

سمع ونستون وقع أقدام خارج الزنزانة، بعدئذ فُتح الباب الفولاذي محدثاً صريراً عالياً ودخل منه ضابط شاب يرتدي بزة سوداء يلمع جلدها المصقول وكان ذا وجه شاحب يشبه قناعاً من الشمع، وما إن دخل الزنزانة حتى أشار إلى الحرس أن يُدخِلوا السجين الذي كانوا يقتادونه والذي لم يكن غير الشاعر أمبلفورث. أدخلوه الزنزانة وهو يجرجر قدميه ثم غادروا وأغلقوا الباب خلفهم.

راح أمبلفورث يتحرك داخل الزنزانة من طرف إلى طرف كما لو أنه يبحث عن باب للخروج، وبعدئذ أخذ يذرع الزنزانة جيئة وذهاباً، ولم يكن قد انتبه إلى وجود ونستون بعد رغم أن عينيه الزائغتين كانتا تحدقان في الجدار الذي يتكئ إليه ونستون. كان أمبلفورث حافي القدمين وكانت أصابع رجليه الكبيرة القذرة تبرز من ثقوب جوربه المهترئ ولحيته الكثة تغطي وجهه حتى عظم وجنتيه مضفية عليه هيئة وحشية كانت تتلاءم على نحو غريب مع هيكله الضخم وحركاته العصبية.

حرّك ونستون نفسه من سباته عازماً على الحديث مع أمبلفورث مهما كانت العواقب، فربّما كان هو من يحمل شفرة الحلاقة إليه.

فناداه: «أمبلفورث».

لم يصدر أي صوت عن شاشة الرصد، في حين توقف أمبلفورث وقد جفل جفلة خفيفة، ثم ركز عينيه على ونستون وقال:

- آه ! ونستون! أأنت هنا أيضاً؟

- لماذا جيء بك إلى هنا؟

- الحق أقول لك . . . ، قال ذلك وهو يجلس قلقاً على المقعد قبالة ونستون، إنه جرم واحد لا غير.

- لكن هل اقترفته فعلاً؟

- يبدو لي أنني فعلت ذلك.

وفرك أمبلفورث جبينه بيده وضغط عليها للحظة كأنما يحاول أن يتذكر شيئاً ما.

ثم قال على نحو غامض: «إن مثل هذه الأشياء ممكنة الحدوث، فيمكنني أن أحدد لك حادثاً لعله هو السبب في مجيئي إلى هنا، إنه ولا ريب حماقة من جانبي. فقد كنا نعمل في إنتاج طبعة من قصائد كبلنج وأبقيت على كلمة «الله» في نهاية أحد الأبيات وكان لا بد من الإبقاء عليها لملاءمة القافية». وأضاف وقد علت علامات السخط على وجهه: «لقد كان من المستحيل تغيير البيت الشعري، وقد حاولت على مدى أيام التفكير في بديل لكن دون جدوى».

وتغيرت أسارير وجهه وذهب عنه الغضب وبدا للحظة راضياً حيث شاع في وجهه شيء من دفء الثقافة، إنه ابتهاج المتحذلق الذي اكتشف حقيقة لا قيمة لها.

وأردف قائلاً: «هل خطر ببالك أن تاريخ الشعر الإنجليزي كان محكوما بحقيقة أن اللغة الإنجليزية فقيرة في الأوزان؟»

ولم يكن ذلك السؤال قد خطر ببال ونستون مطلقا، فضلا عن أن مَنْ في مثل ظروفه لا يأبه أو يهتم بذلك.

فسأله ونستون: «هل تعرف في أي وقت من اليوم نحن الآن؟»

وبدا أن أمبلفورث جفل ثانية وقال: «قلّما فكرت في ذلك، إنني حتى لا أذكر مذ كم يوم أُلقي القبض عليّ؟ مذ يومين أم ثلاثة؟» وراح

يقلب عينيه في جوانب الغرفه كمن يأمل أن يجد نافذة، ثم أضاف: «في هذا المكان لا فرق بين الليل والنهار ولست أدري كيف يمكن للمرء أن يقدر الزمن فيه».

واستمر حديثهما الهائم بضع دقائق ثم ومن دون سبب واضح صدر صوت عن شاشة الرصد يأمرهم بالتزام الصمت. فعاد ونستون لسكونه وقد عقد ذراعيه حول ركبتيه. أما أمبلفورث فقد حال بنيانه الضخم بينه وبين الجلوس مرتاحاً على المقعد الضيق، وراح يتململ في جلسته ناقلاً يده من ركبته هذه إلى تلك. إلا أن صوتاً انبعث ثانية من شاشة الرصد يأمره بالسكون. ومرَّ وقت وهما على هذه الحال، ربما عشرون دقيقة أو ساعة، ثم سمعا ثانية وقع أقدام خارج الزنزانة، فتجمد الدم في عروقه، وجال بخاطره أن وقع الأقدام تعني أن دوره قد حان، ربما حالا وربما خلال دقائق.

وفُتح الباب ليدخل منه الضابط الشاب ذو الوجه المتجهم. وبحركة خاطفة من يده قال للحراس وهو يشير إلى أمبلفورث: الغرفة 101.

نهض أمبلفورث ومشى مهرولاً بين يدي الحراس، وقد بدا وجهه مضطرباً رغم أنه لم يفهم ماذا يراد به.

ثم مضى وقت بدا لونستون طويلاً، وعاوده ألم معدته. وراحت أفكاره تدور في حلقة مفرغة مثل كرة تدور وتسقط في المجموعة نفسها من الفتحات، إذ لم يكن يفكر إلا في ستة أمور هي: ألم معدته، وكسرة الخبز التي في جيبه، والدم والصراخ، وأوبراين، وجوليا، وشفرة الحلاقة. ثم اعترته نوبة تشنج جديدة في أحشائه لدى سماعه وقع أقدام الحراس وهم يقتربون نحو الزنزانة. وما إن فتح الباب حتى هبت موجة باردة من العرق كانت تتقدم بارصون الذي أدخله الحراس إلى الزنزانة، والذي كان مرتدياً قميصاً رياضياً وسروالاً قصيراً.

وهنا جفل ونستون حتى أنه نسي نفسه وقال مشدوها: «حتى أنت هنا؟»

ورمق بارصون ونستون بنظرة خلت من أي اهتمام أو دهشة لكنها كانت مفعمة بالبؤس، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بخطى غير منتظمة وبصورة توحي بأن زمام نفسه قد أفلت منه. وكان كلما حاول مد ساقيه القصيرتين أصابتهما رعشة، وعيناه كانتا جاحظتين تنظران باندهاش وكأنهما تحدقان في شيء بعيد.

فسأله ونستون: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

فأجاب بارصون منتحباً: «جريمة فكر». كانت نبرة صوته توحي بإقرار كامل منه باقتراف الجريمة وبرعب يعتمل بداخله كلما تذكر أنه يقع تحت طائلة هذا الاتهام، ثم وقف قبالة ونستون وكأنما يحتكم إليه، فقال: «أتظن أنهم سيعدمونني رمياً بالرصاص؟ إنهم لا يرمون المرء بالرصاص إذا لم يقترف إثماً ملموساً، أما مجرّد الأفكار فهذا ما لا سلطة للمرء عليه، أليس كذلك؟ أعلم أنهم يمنحون المرء فرصة كافية للإدلاء بأقواله، إنني أثق بهم فيما يخص ذلك. إنهم يعرفون سجلّي، أليس كذلك؟ لعلك تعرف أي نوع من الرجال كنت، لم أكن رجلاً سيئاً بأي شكل، صحيح أنني لم أكن متقد الذكاء ولكنني كنت متحمساً وبذلت كل ما في وسعي لخدمة الحزب، أليس كذلك؟ ألا تظن أنني سأفلت من عقوبة الموت وأنال خمس أو حتى عشر سنوات أمضيها في معسكر من المعسكرات؟ إن من هو مثلي يمكنه أن يؤدي أعمالا مفيدة في معسرات الأشغال الشاقة، إنني لا أظنهم سيعدمونني رمياً بالرصاص لخروجي عن الطريق القويم مرة واحدة».

وسأله ونستون: «هل أنت مذنب؟»

فأجابه بارصون باكياً وهو ينظر إلى الشاشة نظرة خنوع:

«بالطبع إنني مذنب. وهل تظن أن الحزب يمكن أن يعتقل شخصاً بريئاً؟» وهنا بدا وجهه الشبيه بالضفدع أكثر هدوءاً، بل وارتسمت عليه علامات الاستقامة الزائفة، ثم استطرد قائلاً وعلامات التأثر بادية عليه:

«إن جريمة الفكر جريمة فظيعة، إنها جريمة غادرة، تتلبسك دون

أن تتنبه. أتدري كيف تلبستني؟ أثناء نومي! نعم، أثناء نومي. لقد كنت أؤدي عملي بنشاط ولم يخطر ببالي البتة أن مثل هذه الأفكار السوداء تختبئ في عقلي الباطن. ثم بدأت بعد ذلك أتكلم وأنا نائم. أوَتدري ماذا سمعوني أقول؟»

وخفض صوته كشخص مضطر لدواعٍ طبية أن يتلفظ بكلمات بذيئة.

«لقد سمعوني أقول: ليسقط الأخ الكبير! نعم هذا هو ما قلته. ويبدو أنني أخذت في ترديده المرة تلو الأخرى، ولا أخفي عليك أنني مسرور من أنهم قد قبضوا عليّ قبل أن أذهب لأبعد من ذلك. هل تعلم ماذا أنوي قوله حينما أمثل بين يدي المحكمة؟ سأقول لهم: شكراً، شكراً لأنكم أنقذتموني قبل فوات الأوان».

فسأله ونستون: «لكن من الذي وشى بك؟»

فأجاب بارصون بنبرة حزينة مفعمة بالفخر: «إنها ابنتي الصغيرة، لقد كانت تسترق السمع من ثقب الباب وسمعت ما كنت أهذي به، وفي اليوم التالي بادرت لإبلاغ الدورية. إنها طفلة متقدة الذكاء رغم أنها لم تتجاوز السابعة. إنني لا أكنّ لها أي ضغينة جراء ذلك، بل على العكس إنني فخور بها لأن ذلك يعني أنني قد ربيتها تربية قويمة وغرست فيها روح الولاء».

ثم صدرت عنه بعض الاختلاجات المضطربة، فتارة يقف وأخرى يجلس وهو يمد بصره نحو المرحاض، ثم فجأة خلع سرواله وهو يقول:

- معذرة أيها العجوز إذ لم أعد أحتمل الانتظار أكثر من ذلك!

وألقى بمؤخرته الكبيرة فوق قاعدة المرحاض، فغطى ونستون وجهه بيديه إلا أن صوتاً عالياً انبعث من شاشة الرصد: سميث، ونستون سميث 6079، اكشف عن وجهك، فذلك غير مسموح به في الزنزانة.

فكشف ونستون عن وجهه، لكنه تبين بعدما انتهى بارصون من استعمال المرحاض وبصورة فجة تثير الاشمئزاز أن سدادة البالوعة لا تعمل ما جعل الزنزانة تغص برائحة بغيضة ونتنة لساعات.

وأخيراً ذهب بارصون، فكثير من السجناء يجيئون ويذهبون دون أن يعلم أحد بما آل إليه مصيرهم، ومنهم امرأة ارتعدت فرائسها وامتقع لونها بمجرد أن سمعت الضابط يأمرها أن تذهب إلى الغرفة 101. وكان ونستون قد فقد الإحساس بالوقت ولم يعد يميز الليل من النهار. أما عن السجناء الآخرين فكانت الزنزانة تضم ستة موقوفين من الرجال والنساء، يجلسون بلا حراك وقد خيم عليهم جميعاً صمت مطبق. وقبالة ونستون كان يجلس رجل أشبه بحيوان مجتر ذي أسنان بارزة وذقن جرداء، كما كانت له أوداج منتفخة تبعث على الاعتقاد بأنه يختزن بعض الطعام في فمه، وكان ينتقل بعينيه خلسة من سجين إلى آخر حتى إذا ما التقت عيناه بعيني أحدهم أشاح بوجهه سريعاً.

وفُتح الباب مرة أخرى ليزج بسجين آخر إلى الزنزانة. وكانت هيئته تقشعر لها الأبدان. كان رجلاً عادياً ذا هيئة مزرية ولعله كان مهندساً أو فنياً من نوع ما، لكن الشيء الذي راع ونستون فيه هو وجهه الناحل الذي كان أشبه بالجمجمة . وبسبب نحافته كان فمه وعيناه يبدوان أوسع مما هما في الواقع وبصورة مشوهة، كما كانت نظراته تنطوي على غدر وكراهية متأججة يضمرها لشخص أو شيء ما.

جلس الرجل فوق المقعد على مقربة من ونستون، لكن ونستون لم يتطلع إلى وجهه ثانية وإن كان وجهه المعذب الأشبه بالجمجمة قد انطبع في مخيلته وكأنه يقف أمام عينيه مباشرة. وفجأة أدرك ونستون السر وراء هذا النحول، لقد كان الرجل يتضور جوعاً. ويبدو أن جميع سجناء الزنزانة قد فطنوا إلى ذلك في الوقت نفسه. وبدت علامات التململ على كل الجالسين فوق المقعد الخشبي، وظل الرجل ذو الذقن الجرداء يحملق في صاحب الوجه الأشبه بالجمجمة ثم لا يلبث أن يجفل مبتعداً

عنه ثم يقترب منه ثانية تحت تأثير جاذبية لا تقاوم ثم يبتعد عنه مرة أخرى وقد تلبسه شعور بالذنب ولذلك فقد راح يتململ في جلسته. وأخيراً هبّ واقفاً وراح يمشي داخل الزنزانة بخطى مضطربة، ودس يده في جيبه ليخرج كسرة خبز قدمها على الفور إلى الرجل ذي الوجه الأشبه بالجمجمة وعلامات الارتباك واضحة عليه.

وعلى الفور انطلق زئير غاضب من شاشة الرصد يصمّ الآذان، فقفز الرجل ذو الأوداج المنتفخة والذقن الجرداء عائداً إلى مكانه في حين كان الرجل ذو الوجه الأشبه بالجمجمة قد سحب يده وراء ظهره وكأنه يريد أن يُري العالم كله أنه قد رفض الهدية.

فزأرالصوت: «بامستيدا! بامستيد رقم 2713 دع كسرة الخبز تسقط على الأرض».

فأذعن الرجل للأمر وترك كسرة الخبز تسقط على الأرض.

وصاح الصوت من الشاشة ثانية: «اثبت مكانك، وانظر نحو الباب ولا تأتِ بحركة».

وانصاع الرجل للأمر ثانية فيما كانت أوداجه ترتجف من الفزع. وفتح الباب وما إن دخل الضابط الشاب وانتحى جانباً حتى ظهر من ورائه حارس مكتنز القامة مفتول الذراعين عريض المنكبين. ووقف الحارس قبالة السجين ذي الوجه الأشبه بالجمجمة وما إن صدرت له الإشارة من الضابط حتى سدد لكمة، جمع فيها كل ما أوتي من عزم، لفم السجين، وكانت اللكمة من القوة بحيث طرحته أرضاً فسقط عند قاعدة المرحاض. وظل ممدداً لبضع لحظات فاقداً الوعي بينما كان فمه وأنفه ينزفان دماً داكناً. ولم يصدر عنه غير أنين أو صرير خافت بدا أنه لا يشعر بهما. ثم تدحرج حتى رفع نفسه عن الأرض وهو يترنح مستعيناً بيديه وركبتيه. ووسط دمه النازف ولعابه السائل رأى ونستون فكّي الرجل يرتطمان بالأرض.

وتسمّر السجناء الآخرون في الأرض وقد عقدوا أيديهم فوق

ركبهم، وعاد الرجل ذو الأوداج المنتفخة إلى مكانه وقد تورم والتهب أحد صدغيه حتى أصبح أشبه بكتلة هلامية بلون الكرز مع فتحة سوداء في منتصفها. ومن حين لآخر كان الدم يقطر فوق سترته، بينما ظل ينقل عينيه الرماديتين بين وجوه السجناء يخامره شعور بالذنب أقوى من ذي قبل وكأنما كان يحاول أن يستشف مدى ازدراء الآخرين له بعد ما لحق به من إذلال جزاء فعلته.

وفُتح الباب من جديد، وأشار الضابط الشاب إشارة صغيرة إلى السجين ذي الوجه الأشبه بالجمجمة قائلاً:

- إلى الغرفة 101»

وصدرت عن ونستون شهقة وبدا عليه الاضطراب. وكان السجين قد خرّ راكعاً على ركبتيه ويداه مضمومتان إلى صدره وراح يصرخ متضرعا:

أيها الرفيق! أيها الضابط! أضرع إليك ألا تأخذني إلى ذلك المكان. لقد اعترفت لكم بكل شيء، ماذا تريدون بعد؟ لم يعد لدي ما أعترف به. قل لي بماذا تريدونني أن أعترف وأنا مستعد للاعتراف فوراً، أو اكتب الاعتراف وسأوقع عليه في الحال! على أي شيء. لكن لا تذهبوا بي إلى الغرفة 101.

فعاد الضابط يكرر: «جرّوه إلى الغرفة 101».

ولاحظ ونستون أن وجه الرجل الذي كان شاحباً بالفعل قد انقلب وعلى نحو لا يصدق إلى اللون الأخضر.

وراح السجين يصيح متضرعاً: «افعلوا بي ما شئتم! لقد جوعتموني لأسابيع طويلة، اقتلوني. أطلقوا عليّ الرصاص. اشنقوني. اقضوا عليّ بالسجن خمساً وعشرين سنة. هل من أحد تريدون أن أشي به؟ فقط أشيروا لي من يكون ، فأنا لا أبالي بمن سيكون هذا الشخص ولا بما ستفعلون به. إن لي زوجة وثلاثة أطفال أكبرهم لم يتجاوز السادسة،

فلتذبحوهم أمام عيني وسأقف متفرجاً على ذلك، لكن لا تذهبوا بي إلى الغرفة 101!

فعاد الضابط يقول: «إلى الغرفة 101».

وتطلّع الرجل حواليه في جنون إلى بقية السجناء، وكأنه يود أن يختار ضحية أخرى بدلاً منه، واستقرت عيناه على الرجل ذي الأوداج المنتفخة ومد ذراعه المنحولة صائحاً:

«هذا هو الرجل الذي ينبغي أن تأخذوه! إنكم لم تسمعوا ما كان يقوله بعدما هشمت اللكمة أسنانه. امنحوني الفرصة وسأخبركم بكل كلمة نطق بها. إنه هو من يعادي الحزب ولست أنا». وتقدم الحارسان نحوه فتعالى صوته حتى صار أشبه بالعويل: «إنكم لم تسمعوا ما قاله، لقد لحق الصمم بشاشة الرصد آنذاك. إنه الرجل الذي يهمّكم، خذوه هو، ودعوني أنا!»

انحنى الحارسان ليجراه من ذراعيه، ولكنه كان في تلك اللحظة قد انبطح أرضاً وقبض بيديه على أحد القوائم الحديدية التي يرتكز عليها مقعد الزنزانة وراح يعوي كحيوان. أمسك به الحارسان لفك قبضته عن القائم الحديدي، لكنه كان يتشبث بقوة مذهلة. أما السجناء الآخرون فكانوا يجلسون في صمت وذعر وقد عقدوا أيديهم حول ركبهم وهم ينظرون شاخصين أمامهم. وتوقف العواء والعويل، ولم يعد لديه طاقة إلا على التشبث بالقائم الحديدي. وحينئذ دوت صرخة من نوع مختلف، لقد حطمت ضربة من حذاء أحد الحارسين أصابع إحدى يديه وبعدئذ أوقفاه على قدميه وراحا يجرجرانه إلى الخارج.

فقال الضابط: «إلى الغرفة 101».

وسار الرجل معهم وهو يترنح منكفئ الرأس ويمسك بيده المسحوقة وقد خارت جميع قواه.

مرّ وقت طويل، فإذا كان الوقت ليلاً حينما أخذوا صاحب الوجه

الأشبه بالجمجمة، فقد غدا الوقت صباحا، ولو أنه كان صباحاً، لأضحى ظهراً. وبات ونستون وحيداً لساعات بعدما كان جميع السجناء قد غادروا الزنزانة. وكان الجلوس على المقعد الضيق يسبب له ألماً فكان ينهض من مكانه فيروح ويجيء في الزنزانة دون أن يسمع نهياً عن ذلك من الشاشة.

وكانت كسرة الخبز ما زالت حيث رمى بها الرجل ذو الأوداج المنتفخة. في البداية راودته نفسه أن يلتقطها لكنه كان يقاوم ذلك، أما الآن فقد عافها بعد أن اشتد عليه العطش وصار فمه لزجاً ونتن الرائحة. وكان صوت الطنين المستمر والضوء الأبيض الذي لا ينطفئ قد أصاباه بدوار نجم عن إحساسه بأن رأسه قد أصبح مجوفاً. وكان ينهض على قدميه كلما اشتد عليه ألم عظامه ثم لا يلبث أن يعاود الجلوس في الحال لأن الدوار كان يجعله غير واثق مما إذا كانت قدماه ستحملانه أم لا. وكان الذعر يستحوذ عليه كلما أمكنه السيطرة على إحساساته الجسدية، أما حينما يفكر في أوبراين وفي شفرة الحلاقة فكان يداعبه بصيص من الأمل. كان يعتقد أن الشفرة ربما تُهرّب إليه مخبأة في الطعام إن كانوا سيقدمون له طعاماً. ولم يكن يفكر في جوليا إلا عرضاً، فلا بد أنها تتعذب في مكان ما، وربما كان عذابها يفوق عذابه، بل لعلها تصرخ من الألم المبرح الذي يحيق بها في هذه اللحظة. وقال في نفسه: ترى لو أن مضاعفة ألمي كان فيها إنقاذا لجوليا، هل كنت أقبل بذلك؟ أجل كنت أقبل. لكن ذلك كان مجرد قرار صوري اتخذه لعلمه أن عليه أن يتخذه. لكنه لم يكن يحس به في قرارة نفسه. ففي هذا المقام لا يملك المرء أن يشعر بشيء سوى الألم أو انتظار الألم. ثم هل من الممكن حينما يكون المرء يتعذب فعلا أن يرغب، لأي سبب من الأسباب، في أن يزاد له في ألمه؟ لكنه لم يكن قد توصل إلى إجابة عن هذا السؤال بعد.

ومرة أخرى تناهت إلى سمعه وقع أقدام الحرس تقترب من الزنزانة. وفتح الباب، ودخل أوبراين.

وما إن رآه ونستون حتى هبّ واقفاً على قدميه. وكان وقع المفاجأة شديدا حتى أنه نسي كل حذر من شاشة الرصد بل نسي وجودها بالمرة وصاح:

- حتى أنت وقعت في قبضتهم أيضاً!

فقال أوبراين بشيء من التهكم: «لقد وقعت في قبضتهم منذ أمد طويل». وانتحى جانباً ليظهر خلفه حارس عريض المنكبين يمسك بهراوة طويلة سوداء في يده.

وقال أوبراين: «لقد كنت تعرف ما سيؤول إليه أمرك، فلا تخدع نفسك. لقد كنت دائماً تعرف ذلك».

لقد أدرك ونستون كل شيء الآن. لكن لم يعد ثمة فائدة ترجى من التفكير في ذلك. وفي هذه اللحظات لم يكن يرى من العالم إلا الهراوة التي بيد الحارس الذي قد يهوي بها على أي مكان في جسمه، على رأسه، أو صوان أذنه، أو على ذراعه، أو على مرفقه.

لكنه هوى بها على المرفق! فخر ونستون أرضاً على ركبتيه وكاد يفقد صوابه، وقد أمسك مرفقه بيده الأخرى، وتحول كل شيء في عينيه إلى اللون الأصفر. ولم يصدق أن ضربة واحدة يمكن أن تسبب له كل هذا الألم المبرح. أفاق قليلاً من الضربة فلاحظ أن الرجلين ينظران إليه بازدراء، وكان الحارس يضحك من جسده المتلوي. وهنا حضره الجواب عن ذلك السؤال وهو أن المرء لا يمكن أبداً ومهما كانت الأسباب أن يرغب في زيادة ألمه. فإزاء الألم لا يمكن للإنسان إلا أن يرغب في توقفه. فليس في العالم ما هو أسوأ من الألم الجسدي، وحيال الألم ليس هناك أبطال، ليس هناك أبطال. وظلت هذه الفكرة تدور في رأسه بينما كان يسقط أرضاً وهو يتلوى ألماً ويشدّ على ذراعه اليسرى التي جعلتها الضربة عاجزةً.

الفصل الثاني

وجد ونستون نفسه ممدداً فوق سرير يشبه أسرة المعسكرات، عدا أنه كان أكثر ارتفاعاً عن الأرض وكان مقيّد الأطراف بحيث لا يستطيع حراكاً، والضوء الأكثر سطوعاً من المعتاد يسقط على وجهه مباشرة. وكان أوبراين يقف إلى جانبه متفرّساً في وجهه، وإلى الجانب الآخر كان يقف رجل يرتدي معطفاً أبيض اللون ويحمل في يده محقنة.

وحتى بعد أن فتح ونستون عينيه لم يعي ما حوله إلا تدريجياً. كان يحس وكأنه يسبح صاعداً إلى فضاء هذه الغرفة قادما من عالم آخر، من أعماق مياه سحيقة تحتها، أما كم من الوقت مرّ عليه فذلك أمر يجهله تماماً، فمذ ألقوا القبض عليه لم يعد يرى ظلمة الليل ولا ضوء النهار. وفوق ذلك كله كان انسياب ذاكرته متقطعاً، فقد مرت عليه أوقات كان وعيه يصاب بالشلل التام، بما في ذلك الوعي الذي قد ينتاب المرء في نومه، ثم يدب فيه الوعي من جديد بعد فاصل زمني ما. ولكن هل كان هذا الفاصل يمتد لأيام أم لأسابيع أم لمجرد ثوان فهذا أمر لم يكن من سبيل لمعرفته.

كانت تلك الضربة التي تلقاها فوق مرفقه إيذاناً ببداية الكابوس الذي سيخوض غماره، وقد أدرك فيما بعد أن كل ما مرّ به حتى تلك الضربة لم يكن إلا استجواباً اعتيادياً وتمهيدياً يخضع له كل السجناء تقريباً، إذ هنالك سلسلة طويلة من جرائم التجسس والتخريب وما

شاكلها لا يمكن لأحد إلاّ أن يعترف بها كأمر واقع. ورغم أن هذه الاعترافات لم تكن إلا إجراء شكلياً، فإن التعذيب الذي كان يترافق معها كان أمراً لا يدمنه، ولم يكن ونستون بمقدوره أن يتذكر كم مرة تعرّض للضرب ولا كم من الزمن استغرقت هذه العملية، فكل ما يذكره هو أنه كان هنالك دائماً خمسة أو ستة رجال يلبسون زياً أسود اللون ويحيطون به. أحيانا ينهالون عليه ضرباً بقبضات أيديهم أو بهراوات غليظة وأحياناً أخرى بعصي فولاذية أو ركلاً بأحذيتهم الثقيلة.

وكانت تمر عليه أوقات يتدحرج فيها على الأرض وكأنه حيوان مخز، يتلوى بجسده محاولاً دون جدوى تجنّب الضربات، لكن ذلك كان يدفعهم لمزيد من الضرب على ضلوعه وبطنه ومرفقيه وساقيه وخصيتيه وعموده الفقري، وفي بعض الأحيان كانت هذه العملية تتواصل حتى يخيل إليه أن ما يؤلمه ليس ضربات الحراس وإنما عجزه عن أن يفقد وعيه. أما في أحيان أخرى فكانت شجاعته تخذله فينخرط في البكاء طالباً الرحمة، حتى قبل أن يبدأ الضرب، حيث كانت مجرد رؤيته لقبضة أحد الحراس وهي تتأهب للكمه كفيلة بأن تجعله يعترف بجرائم حقيقية وأخرى خيالية، كما مرت عليه أوقات كان يعقد العزم على عدم الاعتراف بشيء، وحينئذ كانت كل كلمة تنتزع منه ممزوجة بالألم والضنى، وفي أوقات أخرى كان يتخلى تحت تأثير الضربات عن عزمه ذلك وهو يقول في نفسه: لسوف أعترف ولكن ليس الآن، يجب أن أصمد في وجه الألم حتى يبلغ درجة لا تطاق، ثلاث ضربات أخرى، ضربتان أخريان وسوف أعترف لهم بكل ما يريدون. وأحياناً كان يُضرب حتى تعجز ساقاه عن حمله، فيرتمي فوق أرضية الزنزانة ككيس من البطاطس، ثم يُترك لبضع ساعات حتى يتعافى من آثار الضرب، ليعودوا إلى تعذيبه من جديد. وكان هنالك أيضاً فترات نقاهة أطول، لكنه لم يكن يذكرها إلا على نحو غامض لأنه كان يمضي جلها إما نائما وإما فاقداً للوعي، فهو يذكر زنزانة لا تضم سوى سرير خشبي ورف بارز من

أحد حوائطها وحوض غسيل من القصدير ووجبات من الحساء والخبز مصحوبة أحياناً بالقهوة، ويذكر أن حلاقاً فظاً قد جيء به ليحلق له شعره وذقنه، وأن رجالاً بثياب بيضٍ غلاظ القلوب كانوا يجسون نبضه ويفحصون أعصابه ويفتحون عينيه ويمررون أصابعهم الخشنة فوق جسده بحثا عن كسور في عظامه ثم يغرزون بعض الإبر في جلده لينام.

وبعد ذلك قلّت وتيرة عمليات التعذيب التي يخضع لها حتى باتت مصدر تهديد أو رعب يتوعده المحققون بإعادته إليه في أي لحظة لا تروقهم أجوبته. ولم يعد المحققون هؤلاء الرجال المتوحشين بثيابهم السوداء، وإنما أصبحوا رجالاً من مثقفي الحزب، وهم رجال ضئيلو الأجسام سريعو الحركة وذوو نظارات لامعة كانوا يتناوبون العمل عليه فيمتد استجوابهم لهم في النوبة الواحدة عشر أو اثنتي عشرة ساعة. وكان هؤلاء المحققون الأخيرون يعرّضونه لألم خفيف متواصل لأنهم لم يكونوا يعتمدون الألم وسيلة رئيسية لانتزاع الاعترافات. فكانوا يصفعونه على وجهه ويلوون أذنيه ويشدون شعره ويرغمونه على الوقوف على ساق واحدة ولا يسمحون له بقضاء حاجته ويسلطون أضواء قوية على عينيه حتى تجري بالدموع، لكن هدفهم من كل ذلك لم يكن إلا إذلاله وتحطيم قدرته على الحجاج والجدال. وكان سلاحهم الفعلي الاستجواب المتواصل الذي لا رحمة فيه ولا هوادة حيث كانوا يبدلون أقواله عن مواضعها ويحورونها تحويراً وينصبون له الشراك في كل سؤال ويمسكون عليه كل ما يظهر أنه أكاذيب أو تناقضات في أقواله حتى أنه كان يجهش بالبكاء من شعوره بالخزي كما من شعوره بالإجهاد العصبي. وأحياناً كان يبكي عشرات المرات في جلسة التحقيق الواحدة، وفي معظم الأوقات كانوا يشتمونه بأقذع الكلمات ويهددونه في كل مرة تبدو عليه علامات التلكؤ في الإجابة، بأنهم سيسلمونه إلى الحراس مرة ثانية، لكنهم كانوا في أحيان أخرى يغيرون لهجتهم فجأة وينادونه بالرفيق ويناشدونه باسم الاشتراكية الإنجليزية والأخ الكبير ويسألونه والأسف باد

على وجوههم عما إذا كان لديه من الولاء للحزب ما يكفي لجعله يتوب عما بدر عنه من آثام إزاء الحزب. وحينما كانت أعصابه تنهار وتصبح كخرقة بالية إثر ساعات طويلة من التحقيق، كان مجرد مناشدتهم له بمثل هذه الكلمات تجعله يجهش ببكاء حار تمتزج فيه دموعه بمخاط أنفه. وفي النهاية كانت هذه الأصوات المناكدة تفضي به إلى انهيار تام لا يبلغه تحت تأثير ركل أحذية الحراس وقبضاتهم، فكانت تخور كل قواه ويصبح مجرد فم ينطق ويد توقّع على أي شيء يطلب منه، وغدا همه الوحيد آنذاك أن يكتشف ما يريدون منه أن يعترف به حتى يبادر إلى الاعتراف قبل أن يلجأ المحققون لحمله على ذلك، وقد اعترف باغتيال عدد من أعضاء الحزب البارزين وتوزيع منشورات تحرض على الفتنة واختلاس أموال عامة وبيع أسرار عسكرية واعترف بالاشتراك في عمليات التخريب بشتى أنواعها، وبأنه كان عميلاً مأجوراً لحكومة إستاسيا منذ عام 1968، وبأنه كان مؤمناً بالله ومعجباً بالرأسمالية وبأنه قد انزلق إلى الشذوذ الجنسي، وأقر كذلك بقتل زوجته، بالرغم من أنه يعرف، مثلما يعرف المحققون، أن زوجته لا تزال على قيد الحياة. واعترف أيضاً بأنه ظل لسنوات على اتصال شخصي مع غولدشتاين وبأنه كان عضواً بمنظمة سرية تضم كل الأشخاص الذين يعرفهم. لقد كان من الأسهل عليه أن يعترف بكل شيء وأن يورط كل شخص يعرفه، أضف إلى ذلك أن ما قاله كان صحيحاً من زاوية ما، فقد كان معادياً للحزب ومن وجهة نظر الحزب لا فرق بين التفكير في الإثم وبين اقترافه.

وكانت لديه كذلك ذكريات من لون آخر تبرز أمام مخيلته بشكل متقطع كصور يجللها السواد من كل ناحية، فيذكر أنه كان قابعاً في زنزانة لا يعرف إن كانت مظلمة أو مضيئة لأنه لم يكن يستطيع أن يميز فيها شيئاً غير زوجين من العيون وعلى مقربة منه كانت هنالك آلة تدق دقات بطيئة ومنتظمة وكانت العينان تتسعان وتزدادان بريقاً، وفجأة أحس بأنه طار من مقعده وغطس في هاتين العينين اللتين ابتلعتاه.

ثم أحس أنه شُدّ إلى مقعد تحيط به ساعات وتسلط عليه أضواء باهرة تزيغ الأبصار، وإلى جواره كان يقف رجل يرتدي معطفاً أبيض اللون ويقرأ ما تشير إليه الساعات، ثم سمع وقع أقدام ثقيلة خارج الغرفة، وفتح الباب ليدخل منه ضابط ذو وجه كالح يتبعه حارسان.

وقال الضابط: «إلى الغرفة رقم 101».

لم يلتفت الرجل ذو المعطف الأبيض، كما لم يعر ونستون اهتماماً إذ كان كل اهتمامه منصباً على النظر إلى الساعات.

ومن ذكرياته أيضاً أنه كان يتدحرج عبر ممر طويل فسيح تغمره أضواء باهرة وتتعالى فيه الضحكات، وكان أثناء التعذيب يصيح بأعلى صوته معترفاً بكل شيء بما في ذلك الأشياء التي كان نجح في إخفائها، كما راح يروي قصة حياته بكاملها أمام مستمعين كانوا يعرفونها بالفعل، وكان يحيط به الحراس والمحققون والرجال ذوو المعاطف البيضاء وأوبراين وجوليا والسيد شارنغتون، وجميعاً يرافقونه عبر الممر وهم يقهقهون. لقد كان ثمة شيء مخيف يحمله له المستقبل، لكن ذلك الشيء لم يعد له وجود ومن ثم لن يحدث، إذ أصبح كل شيء على ما يرام فلم يعد هناك مزيد من الألم بعد أن كشف لهم كل تفاصيل ودقائق حياته التي فهموها فصفحوا عنه.

وكان يحاول النهوض في سريره الخشبي وهو شبه متيقن من أنه سمع صوت أوبراين، ومع أنه لم ير أوبراين مطلقاً طوال عملية استجوابه فقد كان يشعر أن أوبراين قريب جداً منه وإن كان لا يراه. وبالفعل كان أوبراين هو الذي يوجه كل شيء، كان هو الذي يعين الحراس على ونستون وهو الذي منعهم من قتله، لقد كان هو صاحب الكلمة في ما يتعلق بمتى يجب أن يصرخ ونستون من فرط الألم ومتى يجب أن يمنح فترة راحة، ومتى يجب أن يُقدّم له طعام ومتى يجب أن ينام، ومتى يجب أن يُحْقَن بالعقاقير المخدرة، كان هو من يوجه له الأسئلة وهو من يوحي له بالإجابات، كان المعذب والحامي والمحقق والصديق معاً. وذات مرة

سمع ونستون صوتاً، لا يذكر هل كان أتاه تحت تأثير المخدر أو أثناء نومه الطبيعي أو حتى في لحظة يقظة كاملة، صوتاً يهمس في أذنه قائلاً: لا تخف يا ونستون فأنت تحت رعايتي، منذ سبع سنوات وأنا أحيطك برعايتي، والآن حانت اللحظة الحاسمة، سوف أنقذك وسأجعلك نموذجاً يقتدى به. لم يكن ونستون على يقين من أن صاحب هذا الصوت هو أوبراين، لكن هذا الصوت هو نفسه الذي سمعه في الحلم منذ سبع سنوات يقول له: سوف نلتقي في مكان لا يحل فيه ظلام.

لم يكن ونستون يستطيع أن يحدد متى تنتهي جلسة التعذيب أو متى تبدأ، فكل ما يذكره هو أنه كان يمر بفترات من الظلام الدامس يجد نفسه بعدها في الزنزانة أو في الغرفة حيث يمدد الآن على السرير. كان مستلقياً على ظهره فوق السرير لا يستطيع حراكاً، وكان جسده مثبتاً عند كل مفصل من مفاصله، بل حتى رأسه كان مثبتاً. وكان أوبراين يحدّق فيه بنظرة كلها جدية وأسى، فيما كان وجهه الذي رآه ونستون من أسفل يبدو خشناً وترتسم عليه علامات الإرهاق وتحت عينيه توجد انتفاخات وفيما بين الأنف والذقن تمتد تجاعيد توحي بالإعياء. كان أوبراين أكبر سناً مما ظنه ونستون، ربما كان في الثامنة والأربعين أو الخمسين. وتحت يده ذلك القرص الذي يتصل به ذراع وحوله أرقام.

قال أوبراين: «لقد قلت لك إننا إذا ما التقينا ثانية فسيكون لقاؤنا هنا».

فأجاب ونستون: «أجل».

ودونما أي إنذار مسبق، وبحركة خفيفية من يد أوبراين، غمرت موجة من الألم جسد ونستون، كان ألماً مريعاً لأنه لم يكن يفهم ماذا يجري له ومع ذلك كان يشعر أنه يتعرض لأذى مميت، ولم يكن ونستون يعلم إن كان ذلك الذي يحدث له حقيقياً أم غير حقيقي، إلا أن جسده كان يتلوّى ليخرج عن شكله المعهود ومفاصله كانت تتمزق ببطء. ومع أن العرق كان يتفصد من جبينه، فإن أخشى ما كان يخشاه

هو أن ينقصم عموده الفقري، كما كان يصر على أسنانه ويتنفس من أنفه بصعوبة محاولا التزام الصمت قدر المستطاع.

قال أوبراين وهو يراقب وجهه: «لعلك تخشى أن يتحطم جزء من جسمك بعد لحظات، ولا بد أن خوفك الأول يتركز على عمودك الفقري وتتصوّر الفقرات وهي تتفكك وينسكب منها النخاع، إن هذا هو ما تظنه واقعاً، أليس كذلك يا ونستون؟»

فلم يجب ونستون، لكن أوبراين كان قد سحب الذراع المتصلة بالقرص للخلف، فانحسرت موجة الألم سريعاً مثلما داهمته سريعا.

قال أوبراين: «تلك كانت أربعين، وفي استطاعتك أن ترى أن أرقام هذا القرص تصل إلى المئة، ولذلك أرجو منك ألا تنسى أثناء حديثنا أن بمقدوري أن أنزل بك الألم في اللحظة التي أشاء وبالدرجة التي أشاء، فإذا لجأت إلى الكذب أو حاولت المراوغة بأي طريقة أو حتى انخفضت درجة ذكائك عن مستواك المعهود فسوف تصرخ من الألم لحظة يحدث ذلك. هل تفهم ما أقول؟»

فأجاب ونستون: «أجل».

وهنا تغيرت هيئة أوبراين وأصبحت أقل قسوة، وأعاد تثبيت نظارته بعناية، وخطا خطوة أو خطوتين. وعندما تكلم كان صوته لطيفاً متأنياً، وكانت هيئته مزيجاً من هيئة الطبيب والمعلم بل ورجل الدين، كان تواقاً للشرح والإقناع أكثر منه للعقاب.

وقال: «إنني أتجشم مشقة وجهداً معك يا ونستون لأنك تستحق ذلك. لا بد أنك تعرف تمام المعرفة ما هو نوع علتك، لقد توصلت إلى هذه المعرفة منذ سنوات ولكنك قاومتها، إنك مشوش الذهن، وتعاني من ضعف بالذاكرة، ولا تستطيع تذكر الأحداث الحقيقية ومع ذلك توهم نفسك أنك تذكر أحداثاً أخرى رغم أنها لم تقع البتة. ولحسن حظك فإن هذا المرض يمكن شفاؤه، فأنت لم تحاول شفاء نفسك منه أبداً لأنك لم تشأ ذلك، بل ولم تبدِ استعداداً لبذل أي جهد في ذلك السبيل، وإنني

على يقين بأنك حتى هذه اللحظة تتشبث بعلتك هذه معتبراً إياها فضيلة. وسأضرب لك الآن مثلاً: في اللحظة الراهنة مع أي دولة تتحارب أوقيانيا؟»

فأجاب ونستون: «عندما ألقوا القبض عليّ كانت أوقيانيا في حالة حرب مع إستاسيا».

- مع إستاسيا، حسناً. وقد كانت أوقيانيا في حالة حرب دائمة مع إستاسيا، أليس كذلك؟

أخذ ونستون نفساً طويلاً، وفتح فمه ليتكلم لكنه لم ينطق بشيء. فلم يستطع أن يرفع عينيه عن القرص.

- الحقيقة من فضلك يا ونستون، الحقيقة التي تؤمن بها، قل لي ما تظن أنك تذكره.

- أذكر أنه قبل أسبوع واحد من القبض عليّ، لم نكن في حالة حرب مع إستاسيا على الإطلاق وإنما كنا في تحالف معها، وأن رحى الحرب كانت تدور بيننا وبين أوراسيا، وقد دام ذلك أربع سنوات. لكن قبل ذلك . . .

وهنا استوقفه أوبراين عن متابعة كلامه بإشارة من يده.

- وإليك مثل آخر، لقد كنت تعيش لسنوات في ظل وهم جد خطير، لقد كنت تؤمن بأن الرجال الثلاثة وهم جونز وآرنسون ورادرفورد، الذين كانوا فيما مضى أعضاء بالحزب ثم جرى إعدامهم جزاء الخيانة والأعمال التخريبية التي اقترفوها بعد إدلائهم باعترافات كاملة، لم يقترفوا أياً من الجرائم التي أدينوا بها، وكنت تؤمن بأنك وقعت على دليل وثائقي دامغ يثبت أن كل اعترافاتهم كانت غير حقيقية، وهنالك صورة فوتوغرافية في ذهنك توهمت أنك قد أمسكت بها في يدك. إنها صورة تشبه هذه.

وأبرز أوبراين بين أصابعه قصاصة جريدة أمام عيني ونستون لثوان.

لقد كانت صورة ولم يساوره أدنى شك حول ماهيتها، كانت نسخة أخرى من صورة جونز وآرنسون ورازدفورد وهم في فرع الحزب بنيويورك والتي تصادف أن وقعت بين يديه منذ إحدى عشرة سنة وقام بإحراقها على الفور آنذاك. للحظة واحدة ظلت هذه الصورة أمام ناظريه، ثم غابت عنه، ولكنه كان قد رآها، رآها لا ريب في ذلك! وقد حاول يائساً وبجهد مضن أن يرفع النصف الأعلى من جسده، إلا أنه كان أمراً مستحيلاً أن يتحرك سنتمتراً واحداً في أي اتجاه، وكان قد نسي القرص في تلك اللحظة، وتملكته رغبة أكيدة في أن يمسك بالصورة بين أصابعه مرة ثانية أو يراها على الأقل.

وصاح بملء صوته: «إنها موجودة!»

فقال أوبراين: «كلا، ليست موجودة».

ثم خطا بضع خطوات وصولاً إلى محرقة الذكريات التي كانت في الجدار المقابل، ورفع الغطاء ورمى بها من فتحة المحرقة لتبتلعها ألسنة اللهب فتتلاشى، ثم التفت أوبراين إلى ونستون وقال:

- الآن استحالت رماداً، بل حتى ليست رماداً، لقد أصبحت ذرات غبار. إنها لم تعد موجودة الآن ولم يحدث أن كان لها وجود على الإطلاق.

فقال ونستون: «لكنها كانت موجودة! بل لا تزال موجودة! إنها موجودة في الذاكرة، وأنا أذكرها كما أنك تذكرها».

فقال أوبراين: «إنني لا أذكرها».

وغاص قلب ونستون بين ضلوعه، لقد كانت تلك هي ازدواجية التفكير التي قرأ عنها، وسرعان ما تملّكه شعور باليأس القاتل، فلو أنه استطاع أن يستوثق من أن أوبراين يكذب فإنه لم يكن ليكترث بذلك الأمر، بيد أنه كان من الجائز تماماً أن أوبراين قد نسي الصورة حقيقة. وإذا صح ذلك، فإنه يكون قد نسي نكرانه لتذكرها، بل ونسي أنه نسي،

فكيف إذن يتسنى للمرء التأكّد من أن الامر لا يعدو كونه مجرد خداع من جانبه؟ ربما يمكن لمثل هذا التشويش أن يحدث حقيقة في العقل، وكانت هذه الفكرة هي التي قهرته.

كان أوبراين ينظر إليه بإمعان، وكان قد أخذ، وأكثر من أي وقت مضى، هيئة معلم يتجشم مشقة وهو يعلم طفلاً معانداً لكنه واعد وذكي.

وقال أوبراين: «يوجد للحزب شعار يتعلق بالتحكم في الماضي، هل يمكنك أن تقوله من فضلك؟»

فأذعن ونستون وقال ممتثلاً: «إن من يتحكم في الماضي يتحكم في المستقبل، ومن يتحكم في الحاضر يتحكم في الماضي».

فأومأ أوبراين برأسه مؤمنا وقال: «إن من يتحكم في الحاضر يتحكم في الماضي، هل ترى أن للماضي وجوداً فعلياً؟»

ومرة أخرى شعر ونستون بالعجز يغمره من رأسه إلى أخمص قدميه، ومد عينيه إلى القرص ولم يكن يدري إن كانت الإجابة بنعم أو لا هي التي ستخلصه من هذا الألم، بل إنه لم يدر ما هي الإجابة التي يعتقد أنها صحيحة.

ابتسم أوبراين ابتسامة خفيفة وقال: «إنك لست من علماء الميتافيزيقا يا ونستون، كما أنك حتى هذه اللحظة لم تفكر فيما تعنيه كلمة الوجود، وحتى أكون أكثر دقة سأقول: هل الماضي موجود كشيء محسوس ويشغل حيزا في الفراغ؟ هل يوجد في مكان ما، عالم يتألف من أجسام صلبة مثلاً، لا يزال الماضي يحدث فيه؟»

- كلا.

- إذن أين يوجد الماضي إن كان له وجود في الأصل؟

- في السجلات حيث يدوّن.

- في السجلات وفي .....؟

- في العقل وفي ذكريات البشر.

- في الذاكرة، حسناً جداً، إننا، أقصد الحزب، نسيطر على جميع السجلات ونسيطر على جميع الذاكرات، ومن ثم فإننا نتحكم في الماضي، أليس كذلك؟

وصرخ ونستون مرة أخرى بصوت عال وقد نسي القرص: «ولكن كيف تستطيعون منع الناس من تذكر الأشياء؟ إنه عمل لاإرادي حتى أن أحداً لا يمكنه أن يسيطر على ذاكرته، فكيف تستطيعون أنتم السيطرة على الذاكرة؟ إنكم لم تستطيعوا السيطرة على ذاكرتي».

وبدت علامات التجهم على وجه أوبراين مرة أخرى ووضع يده على القرص وقال:

- بل على العكس، إنك أنت الذي عجزت عن السيطرة عليها، وهذا هو ما جاء بك إلى هنا، إنك هنا لأنك فشلت في الانصياع وفي فرض الانضباط الذاتي على نفسك، إنك لم تتقن عملية الخضوع التي هي ثمن التعقل، وإنما فضلت أن تكون مجنوناً ووضعت نفسك ضمن أقلية مؤلفة من فرد واحد هو أنت. إن الواقع لا يراه إلا العقل المنضبط يا ونستون، إنك تؤمن بأن الواقع شيء موضوعي خارجي قائم بذاته، كما تؤمن بأن طبيعة الواقع طبيعة بديهية بذاتها، وعندما تضلل ذاتك وتوهمها أنك ترى شيئاً ما، فإنك تفترض أن كل الآخرين يرون الشيء ذاته، ولكني أقول لك يا ونستون إن الواقع ليس له وجود خارجي، إن الواقع موجود في العقل البشري ولا يوجد في مكان سواه. إنه ليس موجوداً في العقل الفردي الذي هو عرضة للوقوع في الأخطاء، كما أنه يفنى بفناء صاحبه، إنه لا يوجد إلا في عقل الحزب الذي يتسم بأنه جماعي وخالد. وما يعتبره الحزب حقيقة فهو الحقيقة التي لا مراء فيها، ومن المستحيل أن ترى الحقيقة إلا بالنظر من خلال عيني الحزب. تلك هي الحقيقة التي يجب أن تتعلمها من جديد يا ونستون، وهذا يحتاج منك أن تدمر ذاتك وهو أمر يتطلب قوة الإرادة، يجب أن تذلّ نفسك وتقهرها حتى يمكنك أن تكون عاقلاً.

وتوقف هنيهة عن الكلام وكأنه يتيح لكلماته وقتاً كافياً لتستقر في ذهن ونستون.

ثم أردف: «هل تذكر يا ونستون حينما كتبت في مذكراتك تقول: إن الحرية هي أن تكون حرا في أن تقول إن اثنين واثنين يساويان أربعة؟»

- فأجاب ونستون: «نعم».

ورفع أوبراين يده اليسرى جاعلاً ظهرها إلى ونستون ومخفيا الإبهام خلف الأصابع الأربع المرفوعة، وسأل:

- كم إصبعاً ترى يا ونستون؟

- أربعاً.

- وإذا قال الحزب إنها ليست أربعاً بل خمسة فكم يكون عددها حينئذ؟

- أربعاً.

ولم يكد ونستون يتم هذه الكلمة حتى صرخ من شدة الألم الذي سرى في أوصاله، وأشارت الإبرة إلى خمس وخمسين، وبدأ العرق يتفصد من كل أجزاء جسمه وأخذ الهواء يتدفق إلى رئتيه فيخرج أنيناً لم يمنعه حتى اصطكاك أسنانه، وكان أوبراين يراقبه بينما لا تزال الأصابع الأربع مرفوعة، ثم سحب أوبراين الذراع فخفّت حدة الألم بعض الشيء.

وسأل: «كم إصبعاً ترى يا ونستون؟»

- أربعاً.

فارتفعت الإبرة إلى الستين.

- كم إصبعاً ترى يا ونستون؟

- أربعاً! أربعاً! ماذا أقول غير ذلك؟ أربعاً.

لا بد أن الإبرة قد ارتفعت مرة أخرى ولكنها لم تسترع انتباه ونستون الذي كان يستأثر به ذلك الوجه الغليظ الصارم والأصابع الأربع،

كانت الأصابع تنتصب أمام عينيه وكأنها أعمدة ضخمة تهتز وسط جو غائم، لكنها مع ذلك كانت أربعاً ولا ريب.

- كم إصبعاً يا ونستون؟

- أربعاً! أوقف عني هذا الألم! لماذا تستمر في تعذيبي؟ أربعاً! أربعاً!

- كم إصبعاً يا ونستون؟

- إذن خمساً! خمساً! خمساً!

- لا يا ونستون هذا لن يفيدك، إنك تكذب لأنك ما زلت تعتقد أنها أربع. كم إصبعاً ترى من فضلك؟

- أربعاً! خمساً! أربعاً! الرقم الذي تريده. كل ما أرجوه هو أن توقف الألم.

وفجأة وجد ونستون نفسه جالساً وقد أحاطت ذراع أوبراين بكتفيه، ربما كان قد فقد الوعي لبضع ثوان، وأما الأحزمة التي تشد جسمه إلى السرير فقد حلت وشعر بموجة برد قارس تسري في جسده حتى أن أوصاله كانت ترتجف وأسنانه تصطك ودموعه تنهمر على خديه، فتشبث بأوبراين وكأنه طفل رضيع وقد أراحته كل الراحة وعلى نحو مستغرب تلك الذراع الثقيلة الملتفة حول كتفيه. كان يخامره شعور بأن أوبراين هو حاميه، وأن الألم يأتيه من الخارج ومن مصدر آخر غير أوبراين، وأن أوبراين هو الذي سيخلصه من الألم.

وقال أوبراين بلطف: «إنك بطيء التعلم يا ونستون».

فقال ونستون وهو ينتحب: «وماذا عساي أن أفعل؟ كيف يمكنني أن أتجنب رؤية ما هو أمام عيني؟ إن اثنين واثنين يساويان أربعة».

فقال أوبراين: «أحياناً يساويان أربعة يا ونستون، وأحياناً أخرى يساويان خمسة وقد يساويان ثلاثة أيضاً، وفي أحيان أخرى يساويان أربعة

وخمسة وثلاثة في آن معاً. يجب أن تحاول بمزيد من الجدية والجهد، فليس من السهل أن تصبح سليم العقل».

ومُدد ونستون ثانية على السرير وشُدَّ وثاقه من جديد، إلا أن الألم كان قد انحسر وذهبت عنه تلك القشعريرة التي سرت في جسده لتتركه خائراً ضعيفاً، وأشار أوبراين برأسه إلى الرجل ذي المعطف الأبيض الذي كان واقفاً لا يحرك ساكناً طوال تلك العملية، فتقدم ذلك الرجل ومال على ونستون يفحص عينيه ويجس نبضه ووضع أذنه على صدره وطرق على عظامه هنا وهناك ثم أومأ برأسه إلى أوبراين.

فقال أوبراين: «مرة أخرى».

وتدفق الألم في جسد ونستون من جديد، وكانت الإبرة قد بلغت الدرجة السبعين أو الخامسة والسبعين، لكنه أغلق عينيه هذه المرة، إذ كان يشعر أن الأصابع لا تزال منتصبة وأنها لا تزال أربعاً، فقد كان كل همه هو أن يظل على قيد الحياة إلى أن تنقشع هذه النوبة من الألم، فلم يعد يعرف إن كان يصرخ من الألم أو أنه يتألم في صمت، وفتح ونستون عينيه بعدما خفّت حدة الألم مرة أخرى، حيث كان أوبراين قد سحب الذراع للخلف.

- كم إصبعاً ترى يا ونستون؟

- أربعاً، أظن أنها أربعاً، سأحاول أن أراها خمساً إن استطعت، إنني أحاول فعلا أن أراها خمساً.

- أترغب يا ونستون أن تقنعني بأنك تراها خمساً أم أنك تراها فعلاً خمساً؟

- أرغب أن أراها فعلا خمساً.

فقال أوبراين: «إذن مرة أخرى».

ولعل الإبرة أشارت في هذه المرة إلى الثمانين أو التسعين درجة، ولم يعد في مستطاع ونستون أن يتذكر سبب هذا الألم. وخيل إليه أن

غابة من الأصابع تتراقص أمام عينيه المشدوهتين ويتداخل بعضها في بعض ويتوارى بعضها وراء بعض ثم يعود فيظهر، وكان يحاول أن يحصيها دون أن يعرف لماذا، لكنه كان يعرف أن من المستحيل عليه أن يحصيها، وذلك بسبب الطبيعة الغامضة التي تتلبس الخمسة والأربعة. وزال عنه الألم مرة أخرى، وما إن فتح عينيه حتى تبين له أنه لا يزال يرى الشيء نفسه، أصابع لا حصر لها ولا عد مثل أشجار متحركة يسير بعضها وراء بعض في وجهتين متداخلتين، فسارع بإغلاق عينيه مرة أخرى.

- كم إصبعاً ترى يا ونستون؟

- لست أدري، لست أدري. أخاف أن تقتلني إن فعلت ذلك مرة أخرى. أربعاً، خمساً، ستاً، أقسم لك إنني لست أدري.

فقال أوبراين: «هذا أفضل».

وغُرست إبرة في ذراع ونستون فشعر معها بدفء مريح يدب في أوصاله حتى كاد ينسى الألم، ففتح عينيه ونظر بعين الرضا والامتنان إلى أوبراين. وما إن رأى ذلك الوجه الغليظ القميء شديد الذكاء الذي يمتلئ بالتغضّنات حتى شعر بقلبه يخفق، ولو كان في مستطاعه أن يتحرك لمد يده وتشبث بذراع أوبراين. لقد أحبه في هذه اللحظة كما لم يحبّه من قبل، ولم يكن ذلك لأنه أوقف الألم فحسب، وإنما لأن مشاعره القديمة، التي كان يكنها لأوبراين بقطع النظر عما إذا كان صديقاً أو عدواً، قد جاشت في صدره من جديد، فأوبراين هو الشخص الذي يمكنه أن يتكلم إليه، ولعل المرء لا يهمه أن يحبه الناس بقدر ما يهمه أن يفهموه، نعم إن أوبراين قد ذهب في تعذيبه إلى حد الجنون ، بل ومنذ لحظات كان موقناً بأن أوبراين سيرسله إلى مثواه الأخير، لكن كل ذلك لا يهم، فقد كان يجمع بينهما ما هو أعمق من الصداقة، إنها الحميمية، وبالرغم من أنهما لا يمكنهما تبادل الحديث معاً، فلا بد أن يأتي يوم يلتقيان فيه ويتحدثان معا كما يشاءان، ولاحظ ونستون أن أوبراين ينظر

إليه نظرة استوحى منها أن الأفكار نفسها تدور بخاطره، وعندما تكلم أوبراين كانت نبرة حديثه يسيرة ومفعمة بروح الحوار، فقال:

- أتدري أين أنت يا ونستون الآن؟

- لست أدري، لكن يمكنني التخمين، لعلي في وزارة الحب.

- هل تعلم كم من الوقت مضى عليك ها هنا؟

- لست أدري، قد تكون أياماً أو أسابيع أو شهوراً، لكنني أعتقد أنني أمضيت شهوراً.

- ولماذا نأتي بالناس إلى هذا المكان حسب تصورك؟

- كي تجعلوهم يعترفون.

- كلا، ليس هذا هو السبب، حاول مرة ثانية.

- كي تعاقبوهم.

فصرخ فيه أوبراين: «كلا!» وتغيرت نبرة صوته تماماً وارتسمت على وجهه علامات التجهم والشدة ثم قال:

- كلا، إننا لا نأتي بأحد إلى هنا كي ننتزع منه اعترافاً أو ننزل به عقاباً. هل تود أن تعرف لماذا أتينا بك إلى هنا؟ لمداواة علتك! لنجعلك سليم العقل! هلا فهمت يا ونستون، فما من أحد نأتي به إلى هنا ويخرج قبل أن يبرأ من علته؟ إننا لا نكترث للجرائم الحمقاء التي اقترفتها، فالحزب لا يهمّه ما تأتيه من أفعال مكشوفة، إنّما يهمّه أكثر ما يدور في رأسك من أفكار، نحن لا نحطم أعداءنا فحسب، وإنما نغير ما بأنفسهم. هل تفهم ماذا أقصد بذلك؟

كان أوبراين منكفئاً فوق ونستون وقد بدا وجهه ضخماً لشدة قربه منه، وبشعاً قبيحاً لأن ونستون يتطلع إليه من أسفل، كما أنه كان يبدو مفعماً بالنشاط والتوتر الطائش. ومرة أخرى خفق قلب ونستون، ولو أن الأمر بيده لكان قد غاص في السرير أكثر، فقد تأكد له أن أوبراين يوشك أن يدير القرص مدفوعاً بوحشية مفرطة، إلا أن أوبراين استدار مبتعداً في

هذه اللحظة وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً مرة أو مرتين. ثم تابع حديثه وقد فتر حماسه:

- إن أول ما يتوجب عليك فهمه هو أننا لا نسمح لأحد بأن يخرج من هذا المكان شهيداً، لا بد أنك قرأت عن الاضطهاد الديني في الماضي والذي مورس في العصور الوسطى تحت ما يسمى بمحاكم التفتيش التي فشلت فشلاً ذريعاً، لقد أنشئت تلك المحاكم لاستئصال شأفة الهرطقة، لكنها على العكس كرست وجودها. ففي مقابل كل هرطوقي يُحرق بعد شدّه على الخازوق كان يظهر الآلاف غيره. فما السبب يا ترى؟ السبب هو أن محاكم التفتيش كانت تقتل أعداءها جهاراً نهاراً وتجهز عليهم قبل أن يتوبوا، وفي الواقع لقد كانوا يحرقون لأنهم لم يظهروا ندامتهم أو يعلنوا توبتهم، ومن ثم كان الناس يُحرقون لأنهم يرفضون التخلي عن معتقداتهم الصحيحة، وبالطبع كان المجد كله يؤول إلى الضحية، بينما يبقى كل الخزي من نصيب المحقق. وفيما بعد في القرن العشرين، ظهر ما يسمى بالحكم الاستبدادي، فكان هناك النازيون الألمان والشيوعيون الروس الذين كان سجلهم في اضطهاد مناوئيهم حافلاً بقسوة تفوق ما اقترفته محاكم التفتيش. ومع ذلك كانوا يظنون أنهم تعلموا من أخطاء الماضي، فقد كانوا على أي حال يدركون أنه ينبغي عليهم ألا يجعلوا من خصومهم شهداء. ولذلك كانوا لا يقدمون ضحاياهم للمحاكمات العلنية إلا بعد أن يستوثقوا من تحطيم كرامتهم وإذلالهم، إذ كانوا ينهكون قواهم بالتعذيب ويعزلونهم عن العالم حتى يتحولوا إلى مسوخ ذليلة وحقيرة ويعترفون بكل ما يوضع على ألسنتهم ويصمون أنفسهم بالخزي والعار، ويتهم بعضهم بعضاً ويتضرعون طلبا للرحمة. ومع كل ذلك لم تكن تمر سوى بضع سنوات حتى يتكرر الشيء نفسه ثانية، إذ يتحول الموتى إلى شهداء بينما يُنسى ما لحق بهم من ذل وهوان. والسؤال: لماذا حدث هذا؟ والجواب هو: أولاً، لأن الاعترافات التي يدلون بها كانت كاذبة وتنتزع منهم قسراً، أما نحن فلا

نقترف مثل هذه الأخطاء. فكل الاعترافات التي تجري هنا صحيحة، إننا نجعلها كذلك، وفضلاً عن كل ذلك نحن لا نسمح للموتى أن يبعثوا من قبورهم ليناهضونا، ولذلك يجب عليك أن تكف عن التوهم بأن الأجيال القادمة ستبرئ ساحتك وتجعل منك شهيداً، إنهم لن يسمعوا عنك أبداً لأنك ستُزال تماماً من سجل التاريخ، سنحيلك إلى غاز ثم نطلقك في الهواء، سنجعلك نسياً منسياً ولن يبقى منك شيء، لا اسما في سجل ولا أثرا في ذاكرة حية، ستمحى كل علاقة لك بالماضي كما بالمستقبل وستصبح وكأنك لم تكن.

وتساءل ونستون في نفسه بمرارة: إذن علام كل هذا التعذيب؟

وتوقف أوبراين عن السير في الغرفة، وكأنه يسمع تساؤل ونستون، فأصبح وجهه الدميم أكثر قرباً وضاقت عيناه أكثر.

وقال له: لعلك تتساءل لماذا نتجشم مشقة استجوابك؟ ما دمنا ننوي القضاء عليك قضاء مبرماً وما دام لا شيء مما تقوله أو تفعله يمكن أن يغير من الأمر شيئا، إن هذا هو التساؤل الذي يدور بخاطرك، أليس كذلك؟»

فأجاب ونستون: «نعم».

فابتسم أوبراين ابتسامة خفيفة وقال: «إنك العيب الذي شق النموذج العام، إنك الوصمة التي يجب مَحْوها. ألم أقل لك قبل لحظات إننا نختلف عن طغاة الماضي؟ فنحن لا نقبل بالطاعة السلبية أو حتى بالخضوع، وعندما تسلم لنا قيادك في النهاية يجب أن يكون ذلك نابعاً من إرادتك الحرة. إننا لا نحطم الضّال الذي خرج علينا عندما يقاومنا، بل إننا لا نقدم أبداً على تدميره طالما أنه يقاومنا وإنما نسعى لأن نغيره ونقبض على عقله الباطن فنصوغه في قالب جديد. إننا نبدد كل ما يضمره من شرور ونخرج كل ما يحمله من أوهام فنردّه إلى صف الحزب ليس في مظهره فحسب، وإنما أيضاً في جوهره قلباً وقالباً. إننا نجعله واحداً منا قبل أن نقتله، ذلك أنه مما لا يحتمل بالنسبة إلينا هو أن توجد

فكرة خاطئة في أي مكان من العالم مهما كانت خفية ومعدومة القوة، وحتى في لحظة الموت لا نسمح بأي شكل من أشكال الانحراف. ففي الأيام الغابرة كان الهراطقة يسيرون نحو الخوازيق المعدة لهم وهم يجهرون بهرطقاتهم ويتباهون بها، وضحايا حملات التطهير الروسية كانوا يحملون تمرّدهم داخل رؤوسهم حتى وهم يساقون عبر الممر في انتظار الرصاصة القاتلة. لذلك فإننا نجري للدماغ غسيلاً شاملاً قبل أن نعصف به، لقد كان طغاة الماضي يأمرون على النحو التالي: يجب ألا تفعل ذلك، بينما كان الحكام المستبدون يقولون: يجب أن تفعل، أما نحن فأمرنا يأتي على النحو التالي: كن. ولم يسبق أن جئنا بأحد إلى هذا المكان ثم وقف ضدنا وناهضنا لأن كل شخص يخضع لغسيل دماغ، بل حتى هؤلاء الخونة الثلاثة التعساء، جونز وآرونسون وراذرفورد، الذين كنت تؤمن ذات يوم ببراءتهم قد انفرط عقدهم وخرّ عزمهم في النهاية، لقد أشرفت بنفسي على استجوابهم ورأيتهم وهم ينهارون تدريجياً ويتذللون ويتضرعون وينتحبون، وفي النهاية لم يكن كل هذا مبعثه الخوف أو الألم بل شعورهم بالندم والأسف على ما اقترفوا. وعندما انتهينا من تطهيرهم كانوا قد تحولوا إلى هياكل بشرية لم يبق منها إلا الأسى على ما بدر عنها من جرائم في حق الحزب والحب للأخ الكبير. لقد كان من المؤثر فعلاً أن ترى مبلغ ما أصبحوا عليه من حب للأخ الكبير حتى أنهم تضرعوا إلينا كي نطلق عليهم الرصاص ليموتوا قبل أن تعلق بعقولهم التي تطهّرت أي شيء من أدران الماضي».

كان صوت أوبراين قد أصبح هادئاً، ولو أن الاعتداد بالنفس الذي ظهر في شكل حماس جنوني، ظل يرتسم على وجهه. فقال ونستون لنفسه: إن أوبراين لا يتظاهر، كما أنه ليس مرائياً فهو يؤمن بكل كلمة ينطق بها، ولم يحزن ونستون على شيء قدر حزنه حينما أحس بدونيته الفكرية أمام عقل أوبراين المتوقد. وراح ونستون يرقب أوبراين صاحب القوام المهيب وهو يغدو ويروح في الغرفة، فرأى أن أوبراين يفوقه في

كل شيء، فليست هنالك فكرة خطرت على بال ونستون أو حتى راودته إلا وكان أوبراين على علم مسبق بها وعرف كيف يفندها تفنيداً، لقد احتوى بعقله عقل ونستون. وما دام الأمر كذلك كيف يمكن أن يكون أوبراين مجنوناً؟ لا ريب في أنني أنا المجنون. وتوقف أوبراين عن السير وتطلع إلى ونستون وقال له بصوت صارم:

- لا تتصور أنك ستنقذ نفسك يا ونستون مهما كان استسلامك لنا مطلقا، فما من امرئٍ انحرف مرة عن جادة الصواب ثم أبقينا على حياته، وحتى لو اخترنا أن نتركك تعيش إلى أن ينقضي أجلك فتموت ميتة طبيعية، فلن يمكنك أبداً أن تفلت من قبضتنا وما حدث لك هنا سيعيش معك إلى أبد الدهر. فعليك أن تعي ذلك سلفاً. إننا سنسحققك إلى درجة لا يمكنك بعدها أن تعود بحياتك إلى سيرتها الأولى، وستحدث لك أشياء لن يمكنك أن تبرأ من آثارها حتى لو عشت ألف عام. وأبداً لن تقدر ثانية على الشعور بما يشعر به الأحياء. إن كل شيء سيموت داخلك ولن تعود قادراً على الحب أو الصداقة أو الاستمتاع بالحياة أو الضحك أو حب الاستطلاع أو الشجاعة أو الاستقامة. ستكون أجوف لأننا سنعصرك حتى تصبح خواء من كل شيء ثم نملأك بذواتنا.

وتوقف أوبراين وأشار إلى الرجل ذي المعطف الأبيض، وأحس ونستون بأن جهازاً ثقيلاً قد دفع إلى مكان ما خلف رأسه. وجلس أوبراين بجانب السرير حتى يصبح وجهه محاذياً لوجه ونستون. وقال موجها أمره إلى الرجل ذي المعطف الأبيض:

- ثلاثة آلاف.

وفي الحال أحس ونستون بأن ضمادتين ناعمتين مبللتين تضغطان على صدغيه، فارتعد من الخوف حينما شعر أن ألماً يتدفق في جسده، إنه لون جديد من الألم، لكن أوبراين ربت على كتفه مطمئناً إياه:

- لا تخف فلن يؤذيك الألم هذه المرة، ولكن أبقِ عينيك مركزتين في عيني.

وفي تلك اللحظة أحس ونستون بانفجار مدوّ أو ما بدا أنه انفجار، ومع ذلك لم يكن واثقاً إن كان سمع صوتا أم لا، لكن مما لا ريب فيه أنه كان مصحوباً بوميض ضوء تزيغ له الأبصار، لم يصبه ذلك بأذى وإن شعر أنه انبطح على وجهه رغم أنه كان في الأصل مستلقياً على ظهره، وتملّكه شعور غريب بأنه قد قذف به إلى هذا الوضع إثر ضربة مخيفة سحقته سحقاً، وأحس بأن شيئاً ما قد حدث داخل رأسه، وعندما استعادت عيناه قدرتهما على التركيز تذكر من هو وأين هو وعرف الوجه الذي كان يحدق في عينيه. بيد أنه أحس بأن فراغاً واسعاً قد حدث في رأسه وكأنما قطعة من دماغه قد انتزعت انتزاعاً.

وقال أوبراين: «لن يطول بك هذا الحال، لكن انظر إلى عيني، أي دولة تحاربها أوقيانيا الآن؟»

وفكر ونستون ملياً، فأدرك ما يعنيه بكلمة أوقيانيا، وعرف أنه أحد مواطني أوقيانيا، كما تذكر إيستاسيا وأوراسيا، لكنه لم يدر من في حرب مع من، بل إنه لم يكن يعي أن ثمة حرباً قائمة.

فأجاب: «لا أذكر».

فقال أوبراين: «إن أوقيانيا في حالة حرب مع إيستاسيا، هل تذكر ذلك الآن؟»

- نعم.

- لقد كانت أوقيانيا في حرب دائمة مع إيستاسيا، فمنذ بداية حياتك ومنذ نشأة الحزب ومنذ بداية التاريخ وهذه الحرب مشتعله دون توقف، إنها الحرب نفسها. فهل تذكر ذلك؟

- نعم.

- منذ أحد عشر عاماً ابتدعت يا ونستون خرافة عن ثلاثة رجال كانوا قد أدينوا بالموت جزاء خيانتهم، وزعمت أنك رأيت قصاصة من الورق تثبت براءتهم، إن مثل هذه القصاصة لم يكن لها وجود على

الإطلاق، لقد اخترعتها ثم رحت تؤمن بها فيما بعد، هل تذكر اللحظة التي اخترعت فيها هذه الخرافة؟

- نعم.

- منذ فترة قصيرة رفعت يدي إليك فرأيت خمس أصابع، هل تذكر ذلك؟

- نعم.

- ورفع أوبراين أصابع كف يده اليسرى وقد أخفى الإبهام وسأله: إنها خمس أصابع، هل ترى خمس أصابع؟

- نعم

ولقد رآها فعلاً خمساً ولكن للحظة عابرة قبل أن يتغير المشهد أمام ذهنه. لقد رآها خمسة كاملة لا عيب ولا عاهة فيها، ثم لم يلبث أن عاد كل شيء طبيعياً، وراحت تتداعى عليه من جديد مشاعر الخوف والكراهية والحيرة. لكن لفترة لم يدرك مداها، لعلها كانت لحظات من اليقين المشرق كان فيها كل إيحاء جديد من إيحاءات أوبراين يملأ جزءاً من الفراغ الذي في رأسه ويصبح حقيقة مطلقة، لحظات يمكن فيها أن يكون اثنان واثنان يساويان ثلاثة أو خمسة حسبما يتطلب الأمر. وما إن رفع أوبراين يده من فوق رأسه حتى انقشع عنه ذلك الكابوس. ورغم أنه لم يستطع أن يستعيده ثانية، فقد ظل يذكره كما يذكر المرء واقعة حية ألمّت به منذ فترة بعيدة كان فيها شخصاً مختلفاً.

وقال أوبراين: «لعلك ترى الآن أن ما حدثتك به ممكن».

فأجاب ونستون: «نعم».

نهض أوبراين وقد ارتسمت على وجهه علامات الرضا، وعن يساره رأى الرجل ذا المعطف الأبيض يكسر أنبوبة ثم يسحب بمحقنة ما بها من سائل. والتفت أوبراين إلى ونستون وعلى شفتيه ابتسامة وهو يعيد تثبيت نظارته فوق أنفه جريا على عادته القديمة وقال:

- هل تذكر ما دونته في مذكراتك من أنه لا يهمك أن أكون صديقاً أو عدواً ما دمت على الأقل شخصاً يفهمك ويمكنك أن تتحدث إليه؟ لقد كنت على صواب، إنني أجد متعة في الحديث إليك، إن عقلك يستهويني لأنه يشبه عقلي في كل شيء، عدا أنه مصاب بمس من الجنون. لكن قبل أن ننهي هذه الجلسة يمكنك إذا شئت أن تلقي علي بضعة أسئلة.

- أي سؤال أريد؟

- نعم أي سؤال. ولاحظ أوبراين أن عيني ونستون معلقتان بالقرص، فطمأنه أنه قد فصل عنه التيار وقال له: «هات سؤالك الأول».

فقال ونستون: «ماذا فعلتم بجوليا؟»

فابتسم أوبراين ثانية ثم قال: «لقد خانتك يا ونستون بلا إبطاء أو تحفّظ. إنني لم أر في حياتي، إلا نادراً، أحداً يثوب إلى رشده بمثل هذه السرعة، ولو أنك رأيتها الآن لما عرفتها بعد أن اجتثثنا كل ما علق بها من أدران التمرد والخداع والجهالة والميول الجنسية. لقد حدث لها تحول تام وأصبحت نموذجاً يحتذى ويدرس».

- هل عذبتموها؟

ولم يجب أوبراين عن هذا السؤال بل قال: «هات سؤالك الثاني».

- هل للأخ الكبير وجود؟

- لا ريب أنه موجود وكذلك الحزب موجود، ففي الأخ الكبير يتجسد الحزب.

- وهل هو موجود مثلي، كما أنا موجود وبالشكل ذاته؟

فأجابه أوبراين: «إنك غير موجود».

ومرة ثانية أحس ونستون بنوبة من العجز تجتاحه، فقد كان يعرف، أو يمكنه أن يتخيل، أن الحجج التي يُدفع بها للتدليل على عدم وجوده هي مجرد هراء لا معنى له ولا تعدو أن تكون مجرد تلاعب بالكلمات.

ألا تحتوي عبارة «أنك غير موجود» على سخف منطقي؟ ولكن ما الجدوى من أن تقول ذلك؟ وارتعد عقله عندما فكر في الحجج الجنونية القاطعة التي سيفحمه بها أوبراين.

وقال بإعياء: «أعتقد أنني موجود، أنني أعي ذاتي، لقد ولدت وسوف أموت، ولي ذراعان وساقان وأشغل حيزاً في الفضاء ولا يستطيع جسم آخر أن يشغل الحيز نفسه في الوقت نفسه. بهذا المعنى أسأل:

– هل للأخ الكبير وجود؟

– ليس لما تقول أي أهمية، إنه موجود.

– وهل سيموت الأخ الكبير في يوم من الأيام؟

– طبعاً لا، كيف يمكن أن يموت؟ هات سؤالك التالي.

– هل لحركة الأخوة وجود؟

– هذا ما لن تعرفه يا ونستون، ولئن رأينا أن يطلق سراحك بعد أن نفرغ من تطهيرك، ولئن امتد بك الأجل حتى تبلغ التسعين من العمر فلن تعلم ما إذا كان جواب سؤالك هذا نعم أو لا. وما دمت حياً سيظل هذا السؤال هو اللغز المحير الذي لن يجد عقلك حلاً له.

وخيم على ونستون الصمت لبعض الوقت، وراح صدره يعلو ويهبط بسرعة أكثر قليلاً، ولم يكن قد سأل بعد السؤال الذي خطر بباله أولاً، وكان يشعر أن عليه أن يوجه هذا السؤال لكن لسانه لم يكن يطاوعه. أما أوبراين فقد ارتسمت على وجهه مسحة تهكم، بل حتى نظارته أخذت تكتسي بالمسحة نفسها. وفجأة خطر لونستون أن أوبراين يدرك ما يدور بخلده ولا بد أنه على معرفة بالسؤال الذي يعتزم أن يسأله. ولم يكد ينتهي من هذه الفكرة حتى اندفعت الكلمات من بين شفتيه:

– ماذا يوجد في الغرفة 101؟

ولم يتغير التعبير المرتسم على وجه أوبراين وأجاب بجفاء:

- إنك تعرف ماذا يوجد في الغرفة 101 يا ونستون، بل إن كل شخص يعرف ماذا يوجد في هذه الغرفة.

وأشار أوبراين بإصبعه إلى الرجل ذي المعطف الأبيض وبدا جلياً لونستون أن الجلسة قد انتهت، وسرعان ما انغرست إبرة في ذراعه راح على إثرها في نوم عميق.

الفصل الثالث

قال أوبراين: «هنالك مراحل ثلاث لا بد أن تمر بها حتى تتم إعادة تأهيلك وخلقك من جديد وهي التعلم، ثم الفهم، ثم القبول. وقد آن أوان دخولك المرحلة الثانية».

كان ونستون، كالعادة، ممددا على ظهره فوق السرير، وكانت الأربطة التي تشده إليه قد باتت أقل استحكاما، ومع أنها كانت لا تزال تشدّه إلى السرير إلا أنه أصبح في استطاعته أن يحرك ركبتيه قليلاً، وأن يدير رأسه من جانب إلى آخر، وأن يرفع ذراعيه حتى المرفقين. كما لم يعد القرص مدعاة للفزع لديه، فقد بات بمقدوره أن يتجنب نوبات الألم التي يطلقها في جسده طالما كان سريع البديهة، فغالباً كان أوبراين لا يسحب ذراع القرص إلا حينما يبدي ونستون حمقاً أو غباء. وفي بعض الأحيان كانت تنقضي جلسة بطولها لا يلجأ أوبراين فيها لاستخدام القرص. ولم يكن ونستون يتذكر عدد الجلسات التي خضع لها، بل إن العملية برمتها بدت وكأنها قد امتدت وقتاً طويلاً لا حدود له، ربما أسابيع، كما أن الفترات الفاصلة بين جلسة وأخرى كانت أحياناً تمتد أسابيع وأحياناً لا تتجاوز ساعة أو ساعتين.

وقال أوبراين: «لا بد أنك سألت نفسك، بل إنك قد سألتني بالفعل، وأنت ممدد فوق هذا السرير، عن السبب الذي يجعل وزارة الحب تهدر كل هذا الوقت وتتجشم هذه المشقة من أجلك، بل حتى

عندما كنت حراً طليقاً كنت تقف أمام السؤال نفسه حائراً، فقد كان بوسعك أن تفهم آليات المجتمع الذي تعيش فيه ولكنك عجزت عن إدراك الدوافع الكامنة التي تحركه. هل تذكر قولك في مذكراتك «إنني أفهم كيف، لكنني لا أفهم لماذا؟» لقد بدأ الشك يتسرب إلى عقلك الحصيف عندما بدأت تفكر في «الماذا». ولقد قرأت كتاب غولدشتاين أو أجزاء منه على الأقل فهل وجدت فيه شيئاً لم تكن تعرفه بالفعل؟»

فسأله ونستون: «وهل قرأته أنت؟»

فأجاب أوبراين: «بل قل كتبته، أو حتى أكون أكثر دقة، لقد اشتركت في وضعه، فكما تعلم ما من أحد يؤلّف كتاباً بمفرده».

- وهل ما يقوله الكتاب صحيح؟

فأجابه أوبراين: «أما الوصف الذي يقدمه فصحيح، وأما البرنامج الذي يضعه فهراء لا قيمة له، فكل ما يقوله عن التراكم السري للمعرفة والانتشار التدريجي للفكر التنويري اللذين يفضيان في نهاية الأمر إلى ثورة البروليتاريا والإطاحة بالحزب لا يعدو أن يكون هراء ما بعده هراء، لأن البروليتاريا لن تثور ولو بعد ألف أو مليون سنة، إنها لا تستطيع ذلك، ولا أظن أنني بحاجة لأن أخبرك بالسبب لأنك تعرفه بالفعل، وإذا كنت متعلقا ببعض الأحلام التي راودتك عن اندلاع العصيان المسلح فعليك أن تتخلى عنها، فليس ثمة سبيل للإطاحة بالحزب الذي سيظل حكمه قائماً إلى أبد الدهر، ولتجعل ذلك المعتقد هو نقطة لانطلاق أفكارك».

عندئذ اقترب أوبراين من ونستون وراح يردد: «إلى أبد الدهر. والآن يحسن بنا أن نعود إلى سؤال «كيف» و«الماذا». إنك تفهم جيداً كيف يحتفظ الحزب بالسلطة، ولكن قل لي لماذا نتشبث بالسلطة؟ ما هي دوافعنا؟ لماذا نريد السلطة؟ هيا، تكلم». لكن ونستون ظل ملتزماً بالصمت.

مرّت لحظة أو لحظتان ولم ينبس ونستون ببنت شفة، وغمره شعور

بالإعياء واليأس، ولمح من عيني أوبراين أن الحماس المجنون بدأ يعاوده من جديد. كان يعرف سلفاً ماذا سيقول أوبراين، إنه سيقول إن الحزب لم يسع إلى السلطة من أجل مآربه الخاصة وإنما من أجل مصلحة الأغلبية، وأنه ما سعى إلى السلطة إلا لأن جماهير العامة مخلوقات ضعيفة هشة تتسم بالجبن ولا يمكنها احتمال مسؤولية الحرية أو مواجهة الحقيقة، ومن ثم يجب أن يتم تسيير شؤونهم وخداعهم بطريقة منهجية من قبل آخرين أعلى وأعز منهم قوة، وأن على البشرية أن تختار بين خيارين لا ثالث لهما، فإما الحرية وإما السعادة، ودائما تفضل الغالبية العظمى من الجنس البشري السعادة على الحرية. إن الحزب هو الوصي الأبدي على المستضعفين وإنه يضحي بسعادته من أجل سعادة الآخرين. لكن أفظع شيء لدى ونستون هو أن أوبراين كان حينما يسوق مثل هذه الحجج كان يفعل ذلك عن إيمان بها، وفي استطاعتك أن ترى هذا مرتسماً على وجهه. إن أوبراين يعرف كل شيء، بل إنه يعرف أكثر من ونستون ألف مرة عن حقيقة العالم، ويعرف ما تعانيه هذه الجماهير من المخلوقات البشرية من إذلال وانحطاط وبأية أكاذيب وأساليب بربرية يبقيها الحزب على ما هي عليه. كان أوبراين يفهم كل ذلك فهماً جيداً ومع ذلك لم يكن لذلك أهمية، فكل شيء مبرر باسم الغاية النهائية. وتساءل ونستون بينه وبين نفسه: ماذا تستطيع أن تفعل حيال مجنون أحدّ ذكاء منك ويصغي جيداً إلى حججك لكنه يتمسك بجنونه؟

قال ونستون بصوت واهن: «إنكم تحكموننا من أجل مصلحتنا وفي سبيل منفعتنا، فأنتم تؤمنون أن البشر لا يصلحون لحكم أنفسهم بأنفسهم ومن ثم...».

وتوقف ونستون عن الكلام عندما شعر بوخزات ألم مفاجئة تتدفق في جسده حينما دفع أوبراين ذراع القرص إلى خمسة وثلاثين.

وقال أوبراين: «هذا غباء وسخافة يا ونستون، ما كان ينبغي أن تنطق بشيء مثل ذلك».

وسحب ذراع القرص إلى مكانه ثم مضى يقول:

- والآن سأعطيك جواباً عن سؤالي: إن الحزب يسعى إلى بلوغ السلطة لذاتها، وإن مصالح الآخرين لا تعنينا في شيء، فكل همنا محصور في السلطة. نحن لا نسعى وراء الثروة ولا الرفاهية ولا العمر المديد ولا السعادة وإنما نسعى وراء السلطة، والسلطة المطلقة فقط، ولسوف تفهم عما قريب ماذا نعني بالسلطة المطلقة. إننا نختلف عن الأشكال الكثيرة من حكم القلة التي وجدت في الماضي لجهة أننا نعرف ما نفعل. أما الآخرون بمن فيهم هؤلاء الذين كانوا يشبهوننا فكانوا جبناء ومرائين، لقد بلغ النازيون الألمان والشيوعيون الروس حداً جعلهم جد قريبين منا في مناهجهم لكنهم لم يمتلكوا من الشجاعة ما يكفي للاعتراف بدوافعهم. لقد كانوا ادّعوا، بل ربما اعتقدوا، أنهم بلغوا السلطة وهم لها كارهون وأنهم لن يمكثوا فيها إلا لأجل محدود، وأنه لم يعد يفصلهم شيء عن الفردوس الموعود الذي يحيا فيه الناس أحراراً متساوين. إننا لا نشبه هؤلاء. إننا ندرك أنه ما من أحد يمسك بزمام السلطة وهو ينتوي التخلي عنها. إن السلطة ليست وسيلة بل غاية، فالمرء لا يقيم حكماً استبدادياً لحماية الثورة، وإنما يشعل الثورة لإقامة حكم استبدادي. إن الهدف من الاضطهاد هو الاضطهاد، والهدف من التعذيب هو التعذيب وغاية السلطة هي السلطة. هل بدأت تفهم ما أقول الآن؟

وهال ونستون، مثلما هاله من قبل، ما بدا على وجه أوبراين من علامات التعب والإرهاق. كان وجهها قوياً، ممتلئاً، قاسي الملامح، مفعماً بالذكاء ويتقد بعاطفة مكبوتة يعجز المرء إزاءها، إلا أنه ومع كل ذلك كانت علامات التعب بادية عليه، فقد كان هناك الانتفاخان أسفل العينين وتهدل الجلد عند الصدغين. مال أوبراين فوق ونستون متعمدا أن يقترب منه أكثر بوجهه المهترئ، وقال:

- لعلك تفكر في وجهي المتعب الذي زحفت عليه علامات الشيخوخة، وأنني أحدثك عن السلطة بينما لا أستطيع أن أوقف انحلال

جسدي. ألا تستطيع يا ونستون أن تفهم أن المرء إن هو إلا خلية؟ وأن إنهاك الخلية هو تجديد لنشاط الكائن الحي. هل تموت يا ترى عندما تقلم أظافرك؟

واستدار أوبراين مبتعداً عن السرير وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً مرة أخرى وقد وضع يده في جيبه ثم مضى يقول:

- إننا نحن كهنة السلطة، والله هو السلطة، لكن في الوقت الراهن لا تعني لك السلطة إلا مجرد كلمة، وقد آن الأوان لأن تكون لديك فكرة عما تعنيه السلطة، وأول ما يجب عليك أن تدركه هو أن السلطة جماعية وأن الفرد لا يمكن أن يملك سلطة إلا بمقدار ما يتخلص من فرديته، ولعلك تعرف شعار الحزب القائل: «الحرية هي العبودية.» فهل خطر ببالك من قبل أن هذا الشعار يمكن قلبه ليصبح: «العبودية هي الحرية». فالإنسان حينما يكون وحيداً وحراً، دائماً ما يُقهر ويُغلب. ويجب أن يكون الأمر كذلك لأن الموت هو القدر المحتوم على كل إنسان والموت هو أنكى أنواع الفشل التي يمنى بها الإنسان، بيد أنه إذا استطاع أن يخضع خضوعاً تاماً وأن يتخلّص من ذاتيته، وأن يذوب ذوباناً تاماً في الحزب حتى يصبح هو الحزب، فإنه حينئذ يمنح القوة والخلود. وأما الأمر الثاني الذي يجب أن تدركه هو أن السلطة هي سلطان على البشر، على أجسامهم وعلى عقولهم قبل كل شيء. أما أن يكون لك سلطان على المادة، وهي الواقع الخارجي كما تسميه، فليس بالأمر الهام، إذ نحن نسيطر على المادة سيطرة مطلقة.

وتجاهل ونستون للحظة القرص، وحاول جاهداً أن يستوي جالساً فوق السرير لكنه شعر على إثر ذلك بألم يمزق أوصاله بعد هذه المحاولة.

وصاح ونستون قائلاً: «ولكن كيف تسيطرون على المادة؟ إنكم لا تسيطرون حتى على الطقس أو قانون الجاذبية، ناهيك عن المرض والألم والموت».

لكن أوبراين أسكته بإشارة من يده وقال:

- إننا نسيطر على المادة لأننا نسيطر على العقل، والواقع يكمن في جمجمة الإنسان، وتدريجياً ستعلم يا ونستون أن ليس ثمة ما يستعصي علينا، فيمكننا أن نصبح غير مرئيين ويمكننا أن نطير في السماء. هل تعلم أنه بوسعي أن أجعل أرضية هذه الغرفة تطفو كفقاعة صابون إن شئت ذلك، وإذا كنت لا أرغب في ذلك فلأن الحزب لا يريد ذلك. يجب عليك أن تتحرر من أفكار القرن التاسع عشر فيما يتعلق بقوانين الطبيعة، فنحن الذين نضع قوانين الطبيعة.

اعترض ونستون قائلاً: «لا، لستم واضعيها! إنكم لستم حتى سادة كوكبنا هذا، وإلا فما تفسيرك لوجود أوراسيا وإستاسيا؟ إنكم لم تقهروا هاتين الدولتين بعد!»

فأجاب أوبراين: «لا يهمنا ذلك لأننا سوف نقهرهما حين يناسبنا ذلك، وحتى إن لم نفعل، فإن ذلك لا يعنينا في شيء، فبوسعنا أن نقصيهما خارج دائرة الوجود ونطمس كل أثر لهما في الأذهان بحيث تصبح أوقيانيا هي العالم كله».

فقال ونستون: «ولكن العالم ذاته ليس إلا ذرة غبار والإنسان خلق ضعيفاً عاجزاً! منذ متى وهو موجود؟ لقد ظلت الأرض لملايين السنين غير مأهولة!»

فقال أوبراين: «هراء، إن عمر الأرض في مثل عمرنا، فهي ليست أقدم منا، بل كيف يمكن أن تكون أقدم؟ فما من شيء يوجد إلا من خلال الإدراك الإنساني».

- لكن الصخور مملوءة بعظام الحيوانات البائدة، كالفيل المنقرض والزواحف العملاقة التي عاشت على الأرض أمداً طويلاً قبل أن يسمع أحد بالإنسان.

- هل رأيت هذه العظام بعينك يا ونستون؟ بالطبع لا. إن علماء

البيولوجيا في القرن التاسع عشر هم الذين اخترعوها. قبل الإنسان لم يكن هنالك شيء، وبعد نهاية الإنسان، إن كان له نهاية، لن يكون هنالك شيء على هذا الكوكب، فخارج الإنسان لا يوجد شيء.

- ولكن الكون كله موجود خارج الإنسان. انظر إلى النجوم! إن بعضها يبعد عنا ملايين السنين الضوئية، وهي لذلك لن تكون في متناولنا أبداً.

فرد أوبراين بغير اكتراث: «وما هي النجوم؟ إنها قطع من نار لا يفصلنا عنها سوى بضعة كيلومترات ويمكننا الوصول إليها إذا شئنا ذلك، كما بوسعنا أن نجعلها تتسمر في مكانها، فالأرض هي مركز الكون والشمس والنجوم تدور حولها».

وهنا قام ونستون بحركة تنم عن رفضه لما يقال، ولكنه لم يقل شيئاً هذه المرة. وأكمل أوبراين حديثه كمن يردّ على اعتراض:

- لا شك أن ما قلته لا ينسحب على بعض الحالات، فعندما نبحر في عرض المحيطات أو نتنبأ بخسوف للقمر، فإننا غالباً ما نجد أنه من الأنسب أن نفترض أن الأرض تدور حول الشمس وأن النجوم تبعد عنا ملايين الملايين من الكيلومترات، لكن ما أهمية ذلك؟ أتظن أننا نعجز عن وضع نظام مزدوج للفلك؟ فتصبح النجوم قريبة أو بعيدة حسب ما هو مطلوب. أتظن أن علماء الرياضيات لدينا لا يقدرون على ذلك؟ أنسيت ازدواجية التفكير؟

فانكمش ونستون على السرير، إذ مهما قال، فإن الردود السريعة من أوبراين كانت تسحقه كما تسحقه ضربة الهراوة، إلا أنه ومع ذلك كان يدرك أنه على حق. لا بد أن هنالك طريقة يمكن من خلالها إثبات زيف الاعتقاد القائل بأنه لا وجود لشيء خارج إدراك الإنسان. ألم يتضح منذ القدم أنه ينطوي على مغالطة؟ بل لقد كان له اسم ولكنه نسيه. وارتسمت على فم أوبراين ابتسامة خفيفة زمت شفتيه وهو يتأمل في ونستون، ثم قال:

- «لقد قلت لك يا ونستون إن الميتافيزيقا ليست نقطة قوتك. إن الاسم الذي تحاول أن تذكره هو التمركز حول الذات ولكنك مخطئ فهذا ليس تمركزاً حول الذات، وإنما هناك التمركز حول الذات الجماعية إذا أردت. لكن ذلك أمر مختلف. إنه عكس ما تقول». ثم أضاف وقد تغيرت لهجته: «إن كل هذا خروج على الموضوع. إن السلطة الحقيقية، السلطة التي ينبغي علينا أن نقاتل من أجل بلوغها ليل نهار ليست السلطة على الأشياء، بل على الإنسان». ثم توقف عن الكلام واتخذ هيئة المعلم حينما يسأل تلميذاً واعداً: «كيف يؤكد إنسان سلطته على إنسان آخر يا ونستون؟»

وقال ونستون بعد تفكير: «بجعله يقاسي الألم».

فرد أوبراين: «أصبت فيما تقول. بتعريضه للألم، فالطاعة وحدها ليست كافية، وما لم يعانِ الإنسان الألم كيف يمكنك أن تتحقق من أنه ينصاع لإرادتك لا لإرادته هو؟ إن السلطة هي إذلاله وإنزال الألم به، وهي أيضاً تمزيق العقول البشرية إلى أشلاء ثم جمعها ثانية وصياغتها في قوالب جديدة من اختيارنا. هل بدأت تفهم أي نوع من العالم نقوم بخلقه الآن؟ إنه النقيض التام ليوتوبيا المدينة الفاضلة التي تصورها المصلحون الأقدمون، إنه عالم الخوف والغدر والتعذيب، عالم يدوس الناس فيه بعضهم بعضاً، عالم يزداد قسوة كلما ازداد نقاء، إذ التقدم في عالمنا هو التقدم باتجاه المزيد من الألم. لقد زَعَمَت الحضارات الغابرة أنها قامت على الحب والعدالة أما حضارتنا فهي قائمة على الكراهية، ففي عالمنا لا مكان لعواطف غير الخوف والغضب والانتشاء بالنصر وإذلال الذات، وأي شيء خلاف ذلك سندمره تدميراً. إننا بالفعل نعمل على تفكيك العادات الفكرية التي ورثناها من العهد السابق للثورة، لقد فصمنا عرى العلاقة بين الطفل ووالديه، وبين الصديق وصديقه، وبين الرجل والمرأة، ولم يعد أحد يجرؤ على الثقة بزوجته أو طفله أو صديقه، بل إنه في المستقبل لن يكون هنالك زوجات أو أصدقاء، كما

سيؤخذ الأطفال من أمهاتهم لدى ولادتهم مثلما تؤخذ البيضة من تحت الدجاجة، وسوف نقضي على الغريزة الجنسية ونبيدها، أما الإنجاب فسيكون إجراء سنوياً رسمي الطابع مثله مثل تجديد بطاقة الحصص التموينية، وسنجتث ما يعرف بنشوة الجماع اجتثاثاً ويعمل الآن أطباء الأعصاب على تحقيق هذه الغاية، كما سينعدم كل ولاء ليس للحزب، وسيباد كل حب غير حب للأخ الكبير. ولن يكون هنالك ضحك إلا الضحك الذي يصحب نشوة النصر على العدو المقهور، ولن يكون هنالك فن أو أدب أو علم، فحينما تجتمع في أيدينا كل أسباب القوة لن تكون بنا حاجة إلى العلم. كما ستزول الفروق بين الجمال والقبح، ولن يكون هنالك حب الاستطلاع أو التمتع بالحياة ولن يكون هناك ميل نحو مباهج الحياة التي ستدمر تدميراً. ولكن حذار أن تنسى يا ونستون أن الرغبة في السلطة ستظل مشبوبة وستزداد دهاء. وفي كل لحظة ستكون هنالك نشوة النصر ولذة سحق العدو المدحور العاجز. وإذا كنت تريد أن تستشرف صورة المستقبل، تخيل حذاء يدوس ويدمغ وجه إنسان إلى أبد الآبدين».

وهنا توقف أوبراين عن الكلام وكأنه توقع من ونستون أن يتكلم، ولكن ونستون كان قد حاول الانكماش على نفسه ولم يستطع أن يتلفظ بكلمة، وبدا له وكأن قلبه قد تجمد، فاستأنف أوبراين حديثه قائلا:

- ولتتذكر أن ذلك سيكون أبدياً، وأن الوجه سيظل دائماً تحت الحذاء، فدائماً هنالك الهرطوقي، عدو المجتمع، الذي يمكن قهره وإذلاله المرة تلو الأخرى. إن كل ما عانيته منذ وقعت في قبضتنا سيتواصل وسيزداد سوءاً، كما لن تتوقف مطلقاً عمليات التجسس والخيانة والاعتقالات والتعذيب وأحكام الإعدام وحوادث اختفاء الناس. لن يتوقف أي من ذلك، وسيصبح العالم عالم الرعب بقدر ما هو عالم الانتصارات. وكلما ازداد الحزب قوة ومنعة قلّت درجة تسامحه، وكلما ضعف معارضو السلطة اشتدت قبضة الاستبداد والطغيان، أما غولدشتاين

فسيتم قهره ووصمه بالعار والتهكم منه والبصق عليه في كل يوم بل في كل لحظة، ومع ذلك سيبقى موجوداً وستبقى هرطقاته. إن هذه المسرحية الدرامية التي مثلتها معك على مدى سبع سنوات مضت سيعاد تمثيلها مرة تلو مرة، وجيلاً تلو جيل ودائماً بأشكال أكثر دهاء، ولسوف نجعل المهرطق دائما تحت رحمتنا، يئن من الألم، محطماً ومحتقراً وفي النهاية سيأتي من نفسه نادماً بعد أن انتصر على نفسه السيئة ويركع طالباً العفو والصفح. إن ذلك هو العالم الذي نعدّه يا ونستون، عالم يتألف من نصر تلو نصر ونشوة تلو نشوة وهو ما يمثل ضغطاً قوياً على عصب السلطة. إنني أعتقد أنك بدأت تدرك ما سيكون عليه العالم، ولكن في النهاية سيطلب منك ما هو أكثر من الإدراك، سوف يطلب منك أن تقبل هذا العالم وترحب به وتصبح جزءاً منه.

وكان ونستون قد استعاد قدراً من عافيته بحيث أصبح قادراً على الكلام.

فقال بصوت خافت: «إنكم لن تستطيعوا إلى ذلك سبيلاً».

- ماذا تعني بهذا الكلام يا ونستون؟

- إنكم لن تستطيعوا خلق عالم كالذي وصفته فذلك حلم يستحيل تحقيقه.

- ولماذا؟

- لأنه من المستحيل أن تؤسس حضارة على الخوف والكراهية والقسوة، فمثل هذه الحضارة إن وُجدت لا يمكن أن تبقى.

- ولم لا؟

- لأنها ستكون خلواً من أي حيوية ومن ثم ستتفسخ وتنهار من داخلها.

- هذا هراء، إنك واقع تحت تأثير الاعتقاد بأن الكراهية تستنزف طاقات الإنسان أكثر مما يفعل الحب، فلم ذلك؟ وحتى لو افترضنا أن

اعتقادك صحيح فما أهمية ذلك؟ ولنفترض أننا اخترنا أن نفني أنفسنا بشكل أسرع، ولنفترض أننا سرّعنا وتيرة الحياة الإنسانية بحيث يشيخ الناس في الثلاثين من أعمارهم، فما أهمية ذلك؟ ألا تستطيع أن تفهم أن موت الفرد ليس موتاً ما دام الحزب خالداً أبدياً؟

وكالعادة ترك صوت أوبراين ونستون في حالة من العجز واليأس، وفوق ذلك فقد خشي إن هو استمر في مقارعته لأوبراين، أن يدير الأخير قرص التعذيب مرة أخرى، إلا أنه مع كل ذلك لم يحتمل البقاء صامتاً، ولذلك عاود ونستون الهجوم ولكن بصوت خافت وحجة واهية وخوف مما توعده به أوبراين:

- لست أدري ولست أبالي، لكنكم ستفشلون على أية حال، لا بد أن شيئاً ما سيقهركم، إن الحياة نفسها ستهزمكم.

فرد أوبراين: إننا نسيطر على الحياة في جميع مستوياتها يا ونستون، إنك تتخيل أن هنالك شيئاً اسمه الطبيعة الإنسانية سيغضبها ما نفعله، ومن ثم فإنها سوف تنقلب علينا. ولكن ما لا تعرفه هو أننا نعيد خلق الطبيعة الإنسانية، فالإنسان قابل للتحول بشكل غير محدود، أو لعلك عدت إلى فكرتك القديمة التي مفادها أن العامة أو العبيد سيثورون علينا ويطيحون بنا من سدة الحكم. أخرج هذه الفكرة من ذهنك تماماً لأن هؤلاء عاجزون عجز الحيوانات، ولأن البشرية هي الحزب نفسه، وما عدا ذلك فهو معدوم الأهمية وخارج نطاقها».

- إنني لا أبالي بما تقول، ففي النهاية سوف يهزمونكم. سوف يرونكم على حقيقتكم إن عاجلاً أو آجلاً وساعتئذ سيمزقونكم إرباً إرباً.

- هل لديك دليل على أن ذلك سيحدث؟ أو سببٌ يحتم حدوث ذلك؟

- كلا، ولكني أعتقد ذلك، إنني موقن أنكم ستفشلون، ففي هذا العالم شيء لا أدري طبيعته، ربما يكون روحاً أو مبدأ، لن تتغلبوا عليه مطلقاً.

- هل تؤمن بالله يا ونستون؟

- كلا.

- إذن أي مبدأ ذلك الذي ترى أنه سيهزمنا؟

- لست أدري، ربما كانت روح الإنسان.

- وهل تعتبر نفسك إنساناً؟

- أجل.

- إن كنت إنساناً يا ونستون فأنت آخر إنسان، لقد انقرض نوعك، ونحن الوارثون. هل تدرك أنك وحيد في هذا العالم، وأنك أصبحت خارج مجرى التاريخ. إنك لست موجوداً.

ثم تغيرت لهجته وقال بصوت أشد خشونة: «إنك تعتبر نفسك أسمى منا خلقاً لما تعرفه عنا من كذب وقسوة؟»

- أجل إنني أعتبر نفسي كذلك.

وهنا سكت أوبراين عن الكلام، وسُمع صوتان آخران يتكلمان. وبعد لحظة أدرك ونستون أن أحد الصوتين صوته هو، لقد كان شريطاً مسجلاً للحديث الذي دار بينه وبين أوبراين من حوار ليلة انضمام ونستون إلى جماعة الأخوة. وسمع ونستون نفسه وهو يعد بأن يكذب ويسرق ويزور ويقتل ويروج المخدرات ويشجع الدعارة وينشر الأمراض الجنسية ويشوه وجوه الأطفال. وقام أوبراين بإشارة تدل على نفاد صبره وكأنه يقول إن هذا التظاهر الذي يكتنفه لا جدوى منه، ثم ضغط على مفتاح فأوقف الصوت.

وقال: «انهض من ذلك السرير».

وانحلت الأربطة من تلقاء ذاتها، فنزل ونستون عن السرير ووقف مترنحاً.

وقال أوبراين: «إنك آخر إنسان، إنك حارس الروح الإنسانية. سوف ترى نفسك على حقيقتها. انزع عنك ثيابك».

فك ونستون الرباط الذي كان يمسك ثيابه ولم يكن يذكر إن كان قد خلع ثيابه منذ أن ألقي القبض عليه أم لا. وكان المعطف يواري تحته أسمال بالية مصفرة اللون بدا له أنها بقايا ملابسه الداخلية، وما إن طرحها هي الأخرى أرضاً ووقف عارياً حتى رأى مرآة ذات ثلاثة أوجه في الطرف الأقصى من الغرفة، فدنا منها ثم توقف مفزوعاً وانخرط في بكاء حار بلا إرادة منه.

فقال أوبراين: «تقدم وقِفّ بين جناحي المرآة حتى ترى الجانب الآخر من نفسك».

لكن ونستون توقف لهول ما رأى، لقد رأى هيكلاً عظمياً محدودب الظهر رمادي اللون، لقد أفزعته الهيئة التي رآها وأفزعه أكثر إدراكه أن هذه هيئته، ودنا ونستون أكثر من المرآة فرأى وجهاً ناتئة عظامه وخيل إليه أنه يرى وجه طائر بائس محبوس في قفص، وجبهة ضامرة تنتهي برأس صلعاء وأنف معقوف وعظام خدين تبدوان محطمتين وترتكز عليهما عينان تشعان خوفاً وحذراً، وكان الخدان مجعدين والفم مسحوب للداخل. لم يكن لديه ريب في أن ذلك هو وجهه ولكن بدا له أنه تغير أكثر مما تغير هو من داخله، فالانفعالات التي سجلها كانت تختلف عن تلك التي يشعر بها. لقد تساقط شعر رأسه، بل لقد خال للوهلة الأولى أنه شابَ أيضاً، لكنه عرف فيما بعد أن فروة رأسه فحسب هي التي أخذت لوناً رمادياً. وفيما عدا وجهه وكفيه فقد رأى جسمه كله رمادياً وقد اصطبغ بأقذار قديمة علقت به. وكانت تنتشر في كل أنحاء جسمه وتحت هذه الأقذار ندبات جروح ملتهبة، وبالقرب من كاحله كانت دوالي ساقيه ملتهبة وقد تشقق عنها الجلد. لقد أفزعه حقاً الهزال الذي حل بجسمه، لقد ضاق قفص أضلاعه حتى بدا كهيكل عظمي، ونحلت ساقاه حتى بدت ركبتاه أغلظ من فخذيه. وحينئذ أدرك ما كان أوبراين يقصده حينما طلب منه أن يقترب من المرآة حتى يرى الجانب الآخر من نفسه. لقد كان تقوس العمود الفقري شيئاً مريعاً وكانت

الكتفان النحيلتن مشدودتين إلى الأمام في تقعر بحيث تصنعان من قفصه الصدري تجويفاً. وكانت رقبته النحيلة تنوء تحت ثقل جمجمته. ولو أن ونستون سئل أن يخمن من هو صاحب ذلك الجسم لقال أنه جسم رجل في الستين يعاني من مرض عضال.

قال أوبراين: «لقد كنت ترى أحياناً أن وجهي الذي هو بمثابة وجه الحزب الداخلي هرِماً متعباً. فكيف ترى وجهك الآن؟»

وأمسك أوبراين بكتف ونستون وأداره نحوه ثم استطرد قائلاً:

- انظر إلى ما آلت إليه حالك! انظر إلى الأوساخ تكسو جسمك، انظر إلى القذارة تتخلل أصابع قدميك، انظر إلى القيح ينسال من التقرحات التي في ساقيك. هل تعلم أنك أصبحت أنتن من عنزة قذرة؟ أغلب الظن أنك لم تعد تلاحظ ذلك. انظر إلى الهزال الذي ألمّ بك، هل تراه؟ إن في استطاعتي أن أقبض على كتفك بإبهامي وسبابتي، وفي استطاعتي أن أنتزع رقبتك مثل جزرة. هل تعلم أنك فقدت خمسة وعشرين كيلوجراماً من وزنك منذ أن وقعت في قبضتنا؟ حتى شعر رأسك صار يتسقاط بغزارة. انظر ها هي خصلة شعر وأراه إياها بعد ان انتزعها من رأس ونستون. افتح فمك، آه لم يبقَ في فمك إلا أحد عشر سناً. هل تذكر كم كان عددها عندما جئت إلينا؟ بل إن البقية الباقية تتساقط هي الأخرى أيضاً.

وأمسك سناً من أسنان ونستون الباقية وانتزعه بإبهامه وسبابته من جذوره، فشعر ونستون بألم ممض في فكه، ثم رمى أوبراين السنّ فوق أرض الزنزانة.

ومضى أوبراين يقول: «إنك تهترئ وتتآكل. إنك لم تعد إلا كيساً من الأقذار. استدر وانظر إلى المرآة مرة ثانية. هل ترى ذلك الشيء الذي يواجهك؟ إنه آخر إنسان. وإن كنت إنساناً، فهذه هي الإنسانية. والآن ارتد ثيابك».

وبدأ ونستون يرتدي ثيابه بحركات بطيئة متخشبة، ولم يكن حتى

هذه اللحظة قد انتبه إلى ما وصل إليه من الضعف والهزال. ولم يكن يدور بباله غير فكرة واحدة وهي أنه مكث في هذا المكان أكثر مما كان يتصور. وفجأة وبعد أن ارتدى تلك الأسمال مرة ثانية تملّكه شعور بالأسى على جسمه البالي. وقبل أن يعرف ما الذي كان يفعله وجد نفسه يجلس منهاراً على مقعد بجوار السرير ثم راح يذرف الدمع على حاله. لقد أدرك أنه أصبح قبيحاً وبشعاً فجلس كومة من العظام الملفوفة في خرق بالية وراح يبكي حاله تحت الضوء الباهر، ولم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء فوضع أوبراين يده على كتفه بقدر من اللطف وقال له:

- لن تظل على هذه الحال إلى الأبد، يمكنك أن تنجو بنفسك من هذه الحال إذا شئت ذلك. إن كل شيء مرهون بإرادتك.

فقال ونستون بين شهقات بكائه: «أنت فعلت ذلك! إنك أنت الذي أوصلتني إلى هذه الحال».

فرد أوبراين: «كلا يا ونستون، بل أنت الذي أوصلت نفسك إلى هذه الحال حينما نصّبت من نفسك عدواً للحزب. لقد كان كل ذلك نتيجة لجرمك الأول. وما من شيء حدث لك إلا وكنت على بينة من أنه سيحدث».

وتوقف برهة عن الكلام ثم استأنف قائلاً:

- لقد ضربناك يا ونستون وحطمناك. وها أنت قد رأيت ما آل إليه جسمك، إن عقلك قد أصبح في مثل حال جسمك. ولا أظن أنه قد بقي لديك شيء من كبريائك، لقد ركلناك بالأقدام وجلدناك بالسياط وعرّضناك لكل الإهانات حتى كنت تصرخ من شدة الألم وتدحرجت على الأرض مضرجاً بدمائك غارقاً في قيئك. لقد ركعت طالباً الرحمة، وخنت كل شخص، أو شيء، تعرفه. هل تستطيع أن تجد لوناً من الإهانة والإذلال لم تذقه على أيدينا؟

وكفّ ونستون عن النحيب رغم أن الدموع ظلت تنهمر من عينيه وتطلّع إلى أوبراين وهو يقول:

- لكنني لم أخن جوليا.

فنظر إليه أوبراين بإمعان ثم قال: «هذا صحيح، إنك لم تخن جوليا».

وعاد التبجيل الغريب، الذي كان ونستون يكنه لأوبراين، يغمر قلبه من جديد.

وقال محدثاً نفسه: كم هو متوقد الذكاء! إنه لم يخفق مرة واحدة في استكناه ما يقال له. فأي شخص آخر على وجه الأرض في مكانه كان سيجيب عن سؤالي بأنني قد خنت جوليا. فليس هنالك ما عجز أوبراين عن انتزاعه مني تحت وطأة التعذيب. ولا بد أنني أنبأتهم بكل شيء عنها وعن عاداتها وشخصيتها وحياتها الماضية. ولا شك أنني قد اعترفت بتفاصيل كل ما جرى بيننا في لقاءاتنا وكل ما قالته لي وقلته لها، وبالوجبات المهربة من السوق السوداء وبالفاحشة التي اقترفناها معا وبتآمرنا الغامض ضد الحزب. ولكنه قال له إنه لم يخن جوليا لإدراكه أنه لم يزل مقيما على حبها، لقد أدرك أوبراين من كلامه ما كان يعنيه دون شرح أو تفسير.

وسأل ونستون: «أخبرني، متى سيطلقون عليّ الرصاص؟»

فرد أوبراين: «ربما يتعين عليك أن تنتظر طويلاً، فأنت حالة صعبة. لكن لا تقطع حبل الرجاء، فكل شخص لا بد أن نشفيه إن عاجلاً أو آجلاً. ولسوف نطلق عليك الرصاص في نهاية المطاف».

الفصل الرابع

كانت حالة ونستون الصحية تتحسن تحسناً واضحاً، فقد راح جسمه يزداد قوة وامتلاء يوماً بعد يوم، هذا إن صح أن يتحدث المرء عن الأيام.

كان الضوء الباهر وصوت الطنين مستمرين تماماً كما كانا من قبل، غير أن سبل الراحة بالزنزانة أصبحت متوفرة أكثر بقليل عن ذي قبل، فوضعوا له على السرير فراشاً ووسادة، وجاؤوا له بمقعد وسمحوا له بالاستحمام بصورة منتظمة في حوض من الصفيح، بل وأعطوه ماء دافئاً للاغتسال، كما زوّدوه بملابس داخلية وبزة، وعالجوا دوالي ساقيه الملتهبة وقدموا له طقم أسنان صناعية بعد أن خلعوا ما كان قد بقي له من أسنان.

ولا بد أن أسابيع وربما شهوراً قد مرّت وهو على هذه الحال، وقد أصبح بوسعه الآن أن يحصي الأيام والليالي فيما لو شاء ذلك، حيث أصبحت وجبات الطعام تقدم له بصفة منتظمة، وحسب تقديره كان يتناول ثلاث وجبات خلال الأربع والعشرين ساعة، كان يقدم له فيها طعام جيد إلى حد بعيد حيث كانت الوجبة الثالثة دائما تحتوي على لحم، بل وذات مرة أعطوه علبة من السجائر، ولأنه لم يكن لديه ثقاب فقد كان الحارس الصامت دائماً يعطيه ثقاباً، ولدى أول محاولة من جانبه للتدخين انتابته نوبة سعال حادة، لكنه ثابر على ذلك وراح يدخن نصف سيجارة عقب كل وجبة.

وأعطوه لوحاً للكتابة وقلم رصاص لكنه لم يستعملهما أول الأمر، فحتى في فترات استيقاظه كان يشعر وكأنه مخدر، وغالباً ما كان يستلقي بين كل وجبة وأخرى دون أن يتحرك، فكان يستغرق في نوم عميق في بعض الأحيان، بينما يروح في أحيان أخرى في حالة من التأمل والتفكير كان يتعذر عليه خلالها أن يفتح عينيه رغم أنه كان قد أَلِفَ منذ وقت طويل أن ينام والضوء القوي مسلط على وجهه. وكان يتخلل هذه الساعات الطوال أحلام كثيرة كانت سارة في معظمها، فتارة يتراءى له أنه في الريف الذهبي وتارة أخرى يتراءى له أنه جالس وسط أطلال ضخمة تنعكس عليها أشعة الشمس وبصحبته أمه وجوليا وأوبراين ولا يفعلون شيئاً سوى الجلوس تحت أشعة الشمس والحديث عما ترتاح له النفس. ولم تكن أفكاره في معظمها تخرج عن تلك الأحلام التي يراها ويبدو أنه قد فقد كل قدرة على التفكير بعد زوال أسباب الألم عنه. ومع كل ذلك لم يكن يشعر بالملل أو بالرغبة في الحديث إلى أحد، أو حتى في التلهي بأي شيء، فكل ما كان يتطلّع إليه هو أن يبقى وحيداً لا يضربه أو يستجوبه أحد وأن يحصل على كفايته من الطعام وأن يتاح له أن ينظف جسمه.

وعلى نحو تدريجي صار يمضي ساعات أقل في النوم، إلا أنه لم يكن يشعر بأي دافع لمغادرة فراشه، فقد كان كل همه أن يستلقي في هدوء ويستشعر العافية وهي تدب في أوصاله من جديد، فكان يتحسس بأصابعه أنحاء جسمه المختلفة ليتحقق من أن نمو عضلاته واستدارتها واشتداد جلده ليس خداعاً بصرياً، ولم يعد يساوره شك في أن جسمه آخذ في الامتلاء حتى أن فخذيه أصبحا أغلظ من ركبتيه. وبعد فترة بدأ، بشيء من النفور أول الأمر، يمارس بعض التمرينات الرياضية على نحو اعتيادي. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح بمقدوره أن يمشي ثلاثة كيلومترات مقدراً إياها بخطواته التي يقطعها داخل الزنزانة، كما أن كتفيه المقوستين راحتا تستقيمان. وحاول أن يؤدي بعض التمرينات الأعقد

لكنّ شعوراً بالصدمة والمذلّة قد تَمَلَّكه حينما وجد نفسه عاجزاً لا يقوى على ذلك، فلم يستطع أن يحمل المقعد بذراعه، كما لم يستطع أن يقف على ساق واحدة دون أن يسقط أرضاً. وكان إذا جلس على عقبيه لم يستطع النهوض ثانية إلا بألم شديد في فخذه وربلة ساقه، وإذا انبطح على بطنه وحاول أن يرفع جسمه عن الأرض يعجز عن رفع جسمه ولو سنتمتراً واحداً، لكنه بعد بضعة أيام تمكن من ذلك أيضاً. وراح يتباهى بجسمه ممنّياً نفسه بأن وجهه قد أخذ يعود إلى شكله الطبيعي، لكنه حينما يحدث أن يتحسس رأسه الأصلع فإنه يتذكر ذلك الوجه المهشم المملوء بالتجاعيد الذي نظر إليه في المرآة أول مرة.

وازداد ذهنه نشاطاً، فقد كان يجلس في السرير متكئاً بظهره إلى الحائط وواضعاً لوح الكتابة على ركبتيه محاولاً الشروع في إعادة تثقيف نفسه.

لقد قرر الاستسلام، هذه مسألة لا ريب فيها. والواقع أنه كان على استعداد للاستسلام حتى قبل فترة من اتخاذه لهذا القرار. فمنذ اللحظة التي أدخل فيها إلى وزارة الحب، بل منذ أن وقف هو وجوليا متسمرين في مكانهما حينما راح ذلك الصوت المنبعث من شاشة الرصد يملي عليهما ما يفعلانه، أدرك سخف وحماقة سعيه لأن ينصّب من نفسه عدواً للحزب. لقد أدرك الآن أنه وعلى مدى سبع سنوات كانت شرطة الفكر تراقبه مثل خنفساء تحت عدسة مكبرة، وأنه لم يكن يأتي بحركة أو ينطق بكلمة إلا سجلوها عليه، ولم تكن ترد على خاطره فكرة إلا سبروا غورها، بل حتى ذرات الغبار الأبيض التي كان يضعها على غلاف مذكراته كانوا يستبدلونها، كما أنهم أسمعوه أشرطة صوتية مسجلة وأروه صوراً فوتوغرافية بعضها كانت تجمع بينه وبين جوليا. لقد خلص إلى أنه لم يعد يستطيع أن يناصب الحزب العداء فضلاً عن أن الحزب على حق دائماً، ولا بد أنه على حق، إذ كيف يعقل أن يكون العقل الجماعي الخالد على خطأ؟ وبأي معايير خارجية يمكن تقييم أحكامه؟ إن لسلامة

العقل مقاييس إحصائية، والمسألة برمتها لا تقتضي أكثر من مجرد أن تتعلم التفكير بالطريقة التي يفكرون بها.

وحينما شعر بأن القلم بات غليظاً ومزعجاً لأصابعه راح يسجل الأفكار التي كانت تدور برأسه، فكتب وبأحرف كبيرة غير واضحة:

الحرية هي العبودية

ثم ودونما توقف كتب تحتها:

اثنان واثنان يساويان خمسة

وحينئذ أحس بنوع من الجمود وبدا له أن حالة من الجمود قد تملكت عقله حتى بات عاجزاً عن التركيز لتهيّبه من شيء ما. كان يعلم أنه يعرف ما الذي سيعقب ذلك، لكنه لم يكن يستطيع أن يتذكره الآن، وعندما تذكره لم يكن ذلك إلا بفعل قدرته على تقدير ما هو من المفترض أن يكون، أي أنه لم يأت تلقائياً. فكتب يقول:

الله هو السلطة

لقد تقبّل كل شيء، وخلص إلى أن الماضي قابل للتغيير رغم أنه لم يتغير أبداً. كما اقتنع بأن أوقيانيا كانت في حرب مع إيستاسيا وأنها كانت في حرب معها بصفة دائمة وبأن كل من جونز وآرنسون وراذرفورد قد اقترفوا الجرائم التي أدينوا بها وبأنه لم ير أبداً الصورة التي تبرئ ساحتهم، فهذه الصورة لم توجد البتة وإنما هو الذي اخترعها. وتذكر أشياء متناقضة لكنه اعتبرها ذكريات زائفة ناتجة عن خداع الذات. وأدرك كم أن الأمر سهل، فلم يكد يستسلم حتى وجد أن كل شيء أصبح مؤاتياً ويأتي من تلقاء ذاته. إن الأمر أشبه بمن يسبح ضد تيار يجرفه إلى الوراء مهما كان قوياً، ثم فجأة قرر تغيير الاتجاه والسباحة مع التيار بدلاً من معاكسته. وما من شيء تغير في ذلك إلا موقفه: فما كان مقدراً سلفاً كان سيحدث على أي حال، ولم يكن يعرف إلا بالكاد لماذا تمرّد. فكل شيء كان سهلاً ويسيراً ما عدا...!

إن أي شيء يمكن أن يكون صحيحاً، وليس في ما يدعى بقوانين الطبيعة إلا هراء، وقانون الجاذبية ما هو إلا عبث. ألم يقل أوبراين «لو شئت لجعلت أرضية هذه الغرفة تطفو كفقاعة الصابون». وأدرك ونستون الموضوع على النحو التالي: إذا كان أوبراين يظن أن بمقدوره أن يجعل أرضية الغرفة تطفو، وإذا ظننت أنا في الوقت نفسه أنني أراه يفعل ذلك، فإن الأمر يكون قد حدث بالفعل. وفجأة انبجست الفكرة التالية في عقله انبجاس كتلة من حطام سفينة غارقة تطفو فوق سطح الماء: إن ذلك لا يحدث في واقع الأمر وإنما نحن نتوهمه، إنه هذيان، لكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة من مخيلته رغم أن المغالطة جلية وواضحة، إنه يفترض أن ثمة عالماً حقيقياً تقع فيه الحوادث الحقيقية موجود في مكان ما خارج النفس، ولكن كيف يمكن أن يوجد عالم مثل هذا العالم؟ وهل من معرفة لم تردنا عن طريق عقولنا؟ فكل شيء يحدث في العقل وكل ما يحدث في العقل إنما هو ما يحدث حقاً.

لم يجد صعوبة في دحض هذه المغالطة، كما أن خطراً لم يكن يتهدده إن هو لم يذعن لها. لكنه خلص رغم ذلك إلى أنه ما كان ينبغي أن تخطر بباله هذه المغالطة، كما أن العقل ينبغي أن يكون بمثابة بقعة عمياء حينما تخطر له أي من تلك الأفكار الخطرة. وهذه عملية يجب أن تحدث تلقائياً وبوحي من الغريزة، أو كما أسموها في اللغة الجديدة «إيقاف الجريمة».

وشرع يمرن نفسه على إيقاف الجريمة، وأخذ يواجه نفسه بفرضيات مثل: يقول الحزب إن الأرض مستوية، ويقول إن الثلج أثقل من الماء، ثم راح يمرن نفسه على ألا يرى أو يفهم ما يساق من براهين تدحض هذه الفرضيات، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لأنه كان يستلزم قدرات عظيمة على التحكم في العقل والذكاء. ولذلك كانت المسائل الحسابية التي تثيرها مثلاً عبارة مثل «إثنان واثنان يساويان خمسة» أبعد من أن يتفهمها عقله، وهي تتطلب أيضاً شكلاً من أشكال رياضة العقل

وقدرة على استخدام المنطق إلى أقصى الحدود ثم، وفي اللحظة ذاتها، التعامي عن أوضح المغالطات المنطقية، ومن ثم كان الغباء لازماً لزوم الذكاء بل هو أصعب منالاً.

وكان يتساءل طوال تلك الأوقات متى سيطلقون عليه النار. لقد قال أوبراين «إن الأمر كله يتوقف عليك»، ولكنه كان يدرك أنه ليس في استطاعته أن يفعل ما يقرّب هذا الأمر، فقد يحدث ذلك خلال عشر دقائق من الآن أو عشر سنوات، فربما يبقونه في سجن انفرادي لسنوات، وربما يرسلونه إلى معسكر من معسكرات الأشغال الشاقة، أو ربما يطلقون سراحه ردحاً من الزمن كما كان ديدنهم في بعض الأحيان، ومن الجائز تماماً أنهم قبل أن يطلقوا عليه الرصاص يمكن أن يعيدوا تمثيل مسرحية اعتقاله واستجوابه من جديد. أما الشيء الوحيد الذي كان واثقا منه هو أن الموت لن يأتيه إلا بغتة، فقد كان عرفاً غير معلن أن يطلقوا النار على المرء من الخلف، ودائماً في مؤخرة رأسه ومن دون إنذار سابق أثناء سيره من زنزانة إلى أخرى عبر أحد الممرات.

وذات يوم، وإن كانت عبارة «ذات يوم» ليست بالتعبير الصحيح هنا، إذ أغلب الظن أن ذلك حدث في منتصف الليل حينما استغرق في حلم جميل غريب، تراءى له أنه بينما كان يسير عبر الممر مترقباً أن تأتيه الرصاصة في أي لحظة، تناهى إلى علمه أنها ستأتيه في لحظة أخرى. وهنا شعر بارتياح وهدأت شكوكه وزالت مخاوفه وآلامه وسكت عن الجدل. كان جسمه مفعماً بالحيوية والقوة وكان يسير بخفة تحت ضياء الشمس وقد امتلأت خطواته بهجة وفرحاً بذلك، لم يعد يسير عبر ممرات وزارة الحب الضيقة الكالحة وإنما في مرج فسيح تذهّبه أشعة الشمس حتى ظن أنه واقع تحت تأثير جرعة من المخدرات. لقد تراءى له أنه في الريف الذهبي يسير فوق الحشائش الخضراء وأشعة الشمس الرقيقة تداعب وجنتيه، كما كان باستطاعته أن يشعر بالحشائش القصيرة وهو يطأها بقدميه. وعند حافة هذا المرج كانت أغصان أشجار الدردار تتمايل

بينما ينساب من تحتها جدول من الماء يسبح فيه بعض السمك النهري.

وفجأة جفل مفزوعاً، وأخذ العرق يتصبّب من عموده الفقري، ثم سمع نفسه يصرخ بأعلى صوته: جوليا! جوليا! جوليا! حبيبتي جوليا!

وانتابته في ذلك الوقت حالة هذيان جارفة جعلته يعتقد بوجود جوليا أمامه، وبدا له أنها ليست معه فحسب، وإنما تغلغلت في داخله حتى أصبحت جزءاً من كيانه. وفي تلك اللحظة شعر نحوها بحب غامر لم يشعر به حينما كانا طليقين معاً، كما أحس بأنها لا تزال على قيد الحياة وأنها في حاجة إلى أن يمدّ لها يد العون.

اضطجع في فراشه وهو يحاول أن يهدئ من روعه، وتساءل ما الذي دهاه حتى يفعل ما فعل؟ وكم سنة أضاف إلى سنوات عبوديته بسبب لحظة الضعف هذه؟

وتصور أنه سوف يسمع وقع أقدام الحراس بعد لحظات، إذ لا يمكن أن يتركوا مثل هذا العمل يمر دون قصاص، وسوف يدركون الآن، إن لم يكونوا قد أدركوا سلفاً، أنه قد خرق الاتفاق الذي أبرمه معهم. نعم لقد انصاعت إرادته للحزب لكن قلبه لا يزال يضمر له الكراهية. لقد كان فيما مضى يخفي عقلاً ضالاً وراء مظهر من مظاهر الامتثال للحزب، أما الآن فقد ارتد على عقبيه: لقد استسلم بعقله، وكان يأمل أن يظل قلبه المكنون لا يمسسه شيء. كان يدرك أنه على خطأ، ولكنه فضّل أن يتمسك بخطئه، فلا فائدة ترجى من التراجع، ولا بد أنهم سينتبهون إلى ذلك وسينتبه إليه أوبراين بلا ريب، فهو قد اعترف بكل شيء في تلك الصرخة الرعناء حينما راح يصرخ منادياً على جوليا.

وسيتوجب عليه أن يبدأ الطريق الذي قطعه من جديد، وربما استغرق ذلك منه سنوات. وراح ونستون يتحسّس وجهه بيده محاولاً أن يألف الشكل الجديد الذي أخذه، كانت هنالك تجاعيد عميقة في وجنتيه، كما بدت عظامه ناتئة، فيما كان الأنف مفلطحاً، فضلاً عن طقم الأسنان بعد آخر مرة نظر إلى نفسه في المرآة. وأدرك أنه لم يعد من

السهولة بمكان أن يحتفظ المرء بغموض تعبيرات وجهه فيما لا يعرف شكل وجهه. ومع ذلك فإن مجرد السيطرة على تعبيرات الوجه لم تعد تكفي لإخفاء أي سر، فقد استبان له وللمرّة الأولى أنه إذا ما رام المرء أن يخفي سراً فعليه أن يخفيه حتى عن نفسه التي بين جنبيه وألا يدعه يطفو أبداً على سطح الوعي في أي شكل من الأشكال أو تحت أي مسمى من المسميات إلا في اللحظة التي يحتاج إليه فيها. وأدرك ونستون أنه من الآن فصاعداً بات يتوجب عليه ألا يكون تفكيره تفكيراً قويماً فحسب، وإنما أيضاً مشاعره وأحلامه. كما عليه في جميع الأوقات أن يحتفظ بكراهيته في حرز حريز في أعماق نفسه مثل جسم مادي هو جزء من كيانه ولكنه مع ذلك لا يتصل ببقية أعضاء جسمه.

لا شك أنهم يوماً ما سيطلقون عليه الرصاص، لكنه لم يكن يستطيع أن يحدد متى سيحدث ذلك، وإن كان من الجائز أن يتمكن من التكهن بذلك قبيل وقوعه بثوان. إن الرصاصة تأتي دائماً من الخلف أثناء اجتياز السجين أحد ممرات وزارة الحب. إن معرفته المسبقة بوقت إطلاق النار عليه بعشر ثوان كافية، فهذه الثواني العشر كفيلة بأن تقلب عالمه الداخلي رأساً على عقب. إذ فجأة، وبدون سابق إنذار وبدون أن يتوقف عن السير وبدون أن يطرأ تغيير على أي خلجة من خلجات وجهه، يسقط القناع الذي كان يلبسه وتمتلئ نفسه بكراهية أشبه بلهيب مستعر. وفي هذه اللحظة نفسها تقريباً تنطلق الرصاصة إما قبل الأوان أو بعد فواته. سيمزقون عقله إرباً إرباً قبل أن يتمكنوا من إصلاحه، وبذلك يكون التفكير الضال قد أفلت من دون عقاب أو توبة وأصبح بعيداً عن متناولهم. وهم بذلك يكونون قد تسببوا في إحداث ثغرة في نموذجهم تنفي عنهم ما يدّعون من كمال. لقد رأى أن الحرية هي أن يموت وهو يكرههم.

وأغمض ونستون عينيه، فقد كان الأمر في صعوبته يتعدى مجرد قبول نظام فكري، إنه مسألة إذلال النفس والحط من شأنها. إن عليه أن

يغمر نفسه في أقذر الأقذار. وتساءل في نفسه: ترى أي شيء أكثر تقزيزاً للنفس على الإطلاق؟ وهنا خطر على باله الأخ الكبير بوجهه الهائل الضخامة (الذي كان يحسبه لرؤيته على اللوحات الإعلانية يبلغ متراً في عرضه) وشاربيه الأسودين الكثين وعينيه اللتين تلاحقان المرء أينما ذهب. ترى ما هو نوع المشاعر التي كان يكنّها للأخ الكبير؟

وفي هذه اللحظة سمع وقع أقدام ثقيلة في الممر، وفُتح الباب الحديدي محدثاً صوتاً عالياً ليدلف منه أوبراين إلى الزنزانة يتبعه الضابط الشاب ذو الوجه الكالح والحراس ذوو الزي الأسود.

وقال أوبراين: «انهض يا ونستون وتعال إلى هنا!»

ووقف ونستون قبالته فأمسك أوبراين كتفي ونستون بيديه القويتين ونظر إليه متأملاً.

وقال له: «لقد راودتك أفكار تدعوك لخداعي، لقد كان ذلك رعونة منك. قف على قدميك وشدّ قامتك وانظر إلى عينيّ».

وتوقف عن الكلام ثم مضى يقول ولكن بلهجة أرق:

- إن حالتك آخذة في التحسن، فمن الناحية الفكرية لم يعد يعلق بك غير أخطاء طفيفة، أما من الناحية العاطفية فقد أخفقت في إحراز تقدم يذكر. أخبرني يا ونستون، ولكن دون كذب أو خداع. ولعلك تدرك الآن أن باستطاعتي أن أعرف متى تكذب في حديثك ومتى تصدق، أخبرني ما هي مشاعرك الحقيقية إزاء الأخ الكبير؟

فأجاب ونستون: إنني أكرهه.

فقال أوبراين: «تكرهه؟ حسناً. لقد آن الأوان لأن تخطو الخطوة الأخيرة. يجب أن تحب الأخ الكبير فلا يكفي أن تطيعه وأنت لا تحبه».

دفع ونستون دفعة خفيفة نحو الحراس وقال:

- خذوه إلى الغرفة 101.

الفصل الخامس

في كل مرحلة من مراحل سجنه كان ونستون يعرف، أو يبدو كأنه يعرف، أنه موجود داخل أقبية البناية الخالية من النوافذ، فقد كان يحس بتغييرات طفيفة في الضغط الجوي، فالزنزانة التي يضربه فيها الحراس كانت تحت سطح الأرض والغرفة التي استجوبه فيها أوبراين كانت فوق سطح الأرض، وأما الغرفة التي يقبع فيها حالياً فتقع في أعماق سحيقة تحت الأرض حيث أعمق نقطة يمكن بلوغها.

كانت هذه الغرفة أكثر اتساعاً من معظم الزنزانات التي نزل بها. وكل ما لاحظه حوله هو طاولتين صغيرتين موضوعتين أمامه مباشرة وقد وضع على كل منهما غطاء من نسيج أخضر، تبعد إحداهما عنه متراً أو مترين أما الأخرى فأبعد من ذلك وأقرب إلى الباب. وأما هو فكان مشدود الوثاق بإحكام إلى مقعد يجعله عاجزاً عن تحريك أيٍّ من أطرافه فضلاً عن رأسه. كما كان ثمة ما يشبه الكمادة التي تمسك برأسه من الخلف وتحول بينه وبين الالتفات يسرة أو يمنة.

مضت لحظة غمره فيها شعور بالوحدة، ثم فُتح الباب ليدلف منه أوبراين.

قال له: «لقد سألتني ذات مرة ماذا في الغرفة 101 وأجبتك بأنك بالفعل تعرف الجواب عن سؤالك، فما من أحد لا يعرف أن في هذه الغرفة أسوأ ما في العالم».

ثم فُتح الباب ثانية ليدلف منه حارس يحمل شيئاً مصنوعاً من الأسلاك، لعله صندوق أو سلة من نوع ما. وضعه الحارس فوق الطاولة الأبعد عن ونستون. ولأن أوبراين كان واقفاً أمامه فقد حجب عنه رؤية هذا الشيء أو التحقق منه.

وقال أوبراين: «إن أسوأ شيء في العالم يختلف من شخص إلى شخص، فقد يكون لدى البعض هو الدفن حياً، أو الموت حرقاً أو غرقاً أو بواسطة الخازوق أو غير ذلك من ألوان الموت الشنيع، ومع ذلك تظل هنالك حالات يكون فيها أسوأ ما في العالم لدى الشخص هي أشياء تافهة لا تفضي إلى الموت في أغلب الأحوال».

وتنحّى أوبراين جانباً كي يتمكن ونستون من رؤية أفضل لذلك الشيء الموجود فوق الطاولة، لقد كان قفصاً من الأسلاك، مستطيل الشكل وله مقبض من أعلى يمكن حمله منه، وقد ثبت في مقدمته شيء بدا مثل قناع مبارزة. ومع أنه كان يبعد عنه متراً أو مترين فقد استطاع ونستون أن يتبين أن القفص مقسم طولياً إلى قسمين وفي كل قسم منهما جرذ.

وقال أوبراين: «أتعلم أن أسوأ شيء في العالم بالنسبة لحالتك هو الجرذان؟»

وسرعان ما سرت في جسد ونستون قشعريرة وتملّكه خوف لم يعرف سببه بمجرد أن ألقى النظرة الأولى على القفص، ثم لم يكد يفطن إلى ذلك الشيء الأشبه بقناع المبارزة والمثبت في مقدمة القفص حتى أحس بأن قلبه يغوص بين ضلوعه وبأن أحشاءه تتقطع.

فصرخ ونستون بصوت متحشرج: «لا يمكنك أن تفعل ذلك بي! لا يمكنك ذلك! إن هذا لمستحيل».

فقال أوبراين: «هل تذكر نوبة الهلع التي كانت تنتابك أثناء أحلامك؟ حينما كان يتراءى لك جدار من السواد وتسمع زئيراً في أذنيك، لقد كان هنالك شيء شنيع على الجانب الآخر من الجدار، لا بد

أنك كنت تعلم ما هو هذا الشيء ولكنك لم تجسر على الكشف عنه.
إنها الجرذان، هي التي كانت على الجانب الآخر من الجدار».

قال ونستون وهو يحاول جاهداً السيطرة على صوته: «أوبراين لعلك تعلم أن ما من ضرورة تدعوك لذلك. ماذا تريد مني أن أفعل؟»

لكن أوبراين لم يعطه جواباً مباشراً. وعندما تكلم كانت لهجته هي لهجة المعلم التي كان يتحدث بها أحياناً، ثم نظر أمامه متأملاً كما لو أنه يخاطب جمهوراً يجلس خلف ونستون.

وقال: «إن الألم وحده لا يكون دائماً علاجاً كافياً، فهنالك حالات يمكن للإنسان أن يحتمل الألم فيها ولو أدّى ذلك إلى الموت. بيد أن هناك شيئاً لا يمكن لأحد كائناً من كان أن يحتمله بل لا يمكنه حتى التفكير فيه. إنه شيء تستوي فيه الشجاعة والجبن، فإذا كنت تسقط من ارتفاع شاهق فإنه ليس جبناً أن تتعلق بحبل، وإذا أخرجت من أعماق المياه فليس من الجبن أن تملأ رئتيك بالهواء، فهذه الأعمال تتم بالغريزة ومن ثم لا يمكن قمعها. وهذا إنما ينطبق على الجرذان، فهي بالنسبة إليك أمرٌ لا يحتمل، إنها نوع من الضغط الذي لا يمكنك احتماله حتى إن أردت ذلك. وحينئذ ستجد نفسك تفعل ما يطلب منك».

فقال ونستون: «ولكنك لم تقل لي ماذا تريد مني؟ كيف تريدني أن أفعل شيئاً لست أدري ما هو؟»

وحمل أوبراين القفص ووضعه على الطاولة الأقرب. كان بمقدور ونستون أن يسمع خرير الدم وهو يقرقر في أذنيه، وانتابه شعور بوحدة قاتلة وخيل إليه أنه في قلب صحراء شاسعة قاحلة يغمرها ضوء الشمس وتتردد في أرجائها أصداء أصوات الجرذان، كل ذلك رغم أن قفص الجرذان لم يكن يبعد عنه أكثر من مترين. لقد كانا جرذين ضخمين وفي عمر تصبح فيه الجرذان شرسة ويغبرّ لونها.

وقال أوبراين وكأنه لا يزال يخاطب جمهوراً لا يُرى: «إن الجرذان، ورغم أنها من القوارض، هي من آكلات اللحوم أيضاً. عليك

أن تضع ذلك نصب عينيك. لا بد أنك سمعت عن الأحداث المؤسفة التي تقع في الأحياء الفقيرة من هذه المدينة، ففي بعض الشوارع تخشى الأم أن تترك طفلها وحيداً في البيت ولو لخمس دقائق لأن الجرذان حتماً ستنقض عليه وتحيله في غضون دقائق كومةً من العظام، بل إنها أيضا تهاجم المرضى ومن يحتضرون على فراش الموت، وهي في ذلك تُظهر ذكاء مذهلاً في معرفة متى يكون الإنسان عاجزاً ولا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه».

كانت تنبعث من القفص صرخات حادة خيّل لونستون أنها تأتيه من مكان بعيد، لقد كان الجرذان يتقاتلان ويحاولان تقطيع السياج الفاصل بينهما، لقد سمع أيضاً أنات يأس عميق وهي ما بدا له أنها صادرة من خارج نفسه.

وحمل أوبراين القفص ثم ضغط على شيء فيه، فسمع ونستون طقطقة حادة فراح يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يحرر نفسه من القيود التي تشده إلى المقعد ولكن دون جدوى، فقد كان كل جزء من جسمه من رأسه حتى أخمص قدميه مقيّداً بشكل لا يسمح له بالحركة. وقرّب أوبراين القفص إلى ونستون حتى أصبح لا يبعد عنه أكثر من متر واحد.

وقال أوبراين: «لقد ضغطت على المزلاج الأول، لعلك تفهم آلية عمل هذا القفص، إن القناع سينطبق انطباقاً تاماً على رأسك ولن يترك لك أي مخرج، وعندما أضغط على المزلاج الثاني سينفتح باب القفص لينطلق منه هذان الوحشان الضاريان كطلقتين ناريتين. هل سبق لك أن رأيت جرذاً يقفز في الهواء؟ إنه سيقفز في وجهك ويبدأ في نهشه، وهو أحياناً ينقضّ على العينين أولاً، لكنه في أحيان أخرى ينخر لنفسه أخاديد في الوجنتين ليلتهم اللسان أولاً».

وأصبح القفص أكثر قرباً من ونستون، وراح يسمع صرخات حادة متتابعة بدا له أن أصداءها تتردد فوق رأسه، ولكنه قاوم مستميتاً نوبة الهلع التي استولت عليه، وخلص إلى أن التفكير والتفكير وحده، حتى

لو لم يبق أمامه سوى جزء من الثانية، هو الأمل الوحيد. وفجأة نفذت إلى خياشيمه هذه الرائحة العفنة النتنة التي تنبعث من الجرذين، فشعر باشمئزاز شديد وكاد يفقد الوعي وجلل السواد كل شيء حوله، وخيل إليه أن مسّاً من الجنون قد أصابه فراح يصرخ كحيوان يئن. ولكنه خرج من هذه الأجواء حالكة السواد وقد خطرت له فكرة مفادها أن السبيل الوحيد لإنقاذ نفسه هي أن يأتي بشخص آخر ويضعه حائلاً بينه وبين الجرذان.

واقترب القناع من وجه ونستون حتى بات يحجب عنه رؤية أي شيء آخر. وأصبح باب القفص لا يبعد عنه بأكثر من شبرين وكان الجرذان يعرفان ما هما مقدمان عليه، فبينما كان أحدهما يقفز في الهواء لأعلى وأسفل كان الآخر يقف ممسكاً بالقضبان وهو يتشمم الهواء بشيء من الشراسة. كان بمقدور ونستون أن يرى الشعر الطويل للجرذين وأسنانهما الصفراء. وهنا عاد الرعب الأسود يهز أوصاله فعمي عليه كل شيء وتملكه شعور باليأس وجمود في التفكير.

وقال أوبراين بطريقته التعليمية التي اعتادها: «لقد كانت هذه العقوبة شائعة في إمبراطورية الصين القديمة».

واقترب القناع من وجهه حتى لامست الأسلاك وجنتيه، وهنا تبين له أن هناك أملاً أو حتى بصيصاً من الأمل لكنه ربما جاء بعد فوات الأوان، فقد أدرك فجأة أن العالم كله ليس فيه سوى شخص واحد يمكن أن يحيل عليه هذا العقاب، أو جسم واحد يمكنه أن يضعه كحائل بينه وبين الجرذين، وعلى الفور راح يصرخ كالمجنون:

- افعلوا ذلك بجوليا! افعلوا ذلك بجوليا! ليس بي وإنما بجوليا! إنني لا أبالي. مزقوا وجهها، انزعوا لحمها حتى تصبح كومة من العظام ثم كسّروا هذه العظام ولكن لا تفعلوا ذلك بي وإنما بجوليا.

وشعر وكأنه يهوي إلى هوة سحيقة بعيداً عن الجرذين، كان لا يزال مشدوداً إلى المقعد، لكنه كان يشعر أنه يسقط إلى أسفل، عبر الجدران،

عبر المحيطات، عبر الأجواء العليا، ثم شعر أنه يندفع عبر الفضاء الخارجي وعبر المسافات الفاصلة بين النجوم بعيداً بعيداً عن الجرذين حتى بات يفصله عنهما بضع سنوات ضوئية، بيد أن أوبراين كان لا يزال واقفاً بجانبه، وما زال يحس بالأسلاك الباردة تلامس وجنتيه. ووسط هذه الظلمة الحالكة التي أحاطت به سمع طقة معدنية أخرى لكنها هذه المرة كانت لإغلاق باب القفص لا لفتحه.

الفصل السادس

كان مقهى شجرة الكستناء خالياً تقريباً من مرتاديه، وكانت أشعة الشمس المائلة تخترق نوافذه وتسقط على أسطح الطاولات التي يغطيها الغبار، بينما تشير الساعة إلى الثالثة ظهراً وهي ساعة الاستراحة الوحيدة في هذه الفترة، أما شاشة الرصد فراحت تبث مقطوعات موسيقية خفيفة.

جلس ونستون في زاويته المعتادة وهو يحملق في كأسه الفارغة. وكان من حين لآخر يلقي نظرة خاطفة على الوجه الضخم الذي ينظر إليه نظرة ثاقبة من الجدار المقابل، وكانت العبارة المعهودة التي تحت الصورة تقول: الأخ الكبير يراقبك. وجاء الساقي دون أن يطلبه أحد وأترع كأس ونستون بشراب جن النصر وأضاف إليها قطرات من قنينة أخرى كانت تحتوي على سكرين منكّه برائحة القرنفل وتلك كانت ميزة المقهى.

وكان ونستون يصغي إلى شاشة الرصد التي كانت لا تزال تبث مقطوعات موسيقية خفيفة، بيد أنه كان من المحتمل أن تتحول في أية لحظة إلى بث النشرة الخاصة التي تصدرها وزارة السلام، فقد كانت الأنباء الواردة من الجبهة الأفريقية أنباء مقلقة وكانت تشغل بال ونستون ليل نهار، فالجيش الأوراسي (كانت أوقيانيا في حالة حرب مع أوراسيا في ذلك الوقت بل لقد كانت دائماً في حرب معها) يزحف جنوباً بسرعة مذهلة. ولئن كانت نشرة الظهيرة لم تحدد منطقة بعينها، فإن الأرجح أن

مصب نهر الكونغو كان هو مسرح العمليات، ولذلك كانت برازافيل وليوبولدفيل في خطر، ولم يكن المرء بحاجة إلى مطالعة الخريطة حتى يدرك الخطر الذي ينطوي عليه ذلك التطور، لم يكن الأمر يقتصر على فقدان مستعمرات أفريقيا الوسطى فحسب، بل إن أوقيانيا نفسها، وللمرّة الأولى منذ أن دارت رحى الحرب، قد أصبحت مهددة.

وقد أثارت هذه الأنباء عاطفة متقدة في ونستون، لم تكن بالطبع الخوف وإنما نوعاً من الاستثارة اللامبالية التي سرعان ما تبددت. لكن ونستون توقف عن التفكير في الحرب، إذ لم يعد بمقدروه في هذه الأيام أن يركز ذهنه على الموضوع الواحد لأكثر من لحظات معدودة في كل مرة، فرفع الكأس وازدرد كل ما فيها جرعة واحدة وكعادته دائماً بعد الشراب كانت تنتابه رعشة خفيفة ويتقيأ قليلاً، فقد كان شراب الجن هذا من النوع القوي الذي لم يستطع السكرين والقرنفل أن يلطفا من رائحته القوية الممرضة، بل الأنكى أن هذه الرائحة التي ترافقه ليل نهار كانت ممتزجة في ذهنه برائحة هؤلاء . . . . .

لكنه لم يكن يجرؤ على التلفظ باسمهم أو حتى تسميتهم في ذهنه بل لم يحاول أن يتصورهم في مخيلته أبداً. كانوا شيئاً غائماً يحوم حول وجهه وتنفذ رائحته إلى أنفه، ومع تغلغل الشراب في كل أجزاء جسمه راح ونستون يتجشأ من شفتيه الأرجوانيتين. كان جسم ونستون قد ازداد امتلاء منذ أن أطلقوا سراحه كما أنه كان قد استعاد لون بشرته القديم. جاءه الساقي، مرة ثانية ودون أن يطلبه أحد، وهو يحمل رقعة الشطرنج والعدد الأخير من صحيفة التايمز وقد فتحت على صفحة مسائل الشطرنج، وما إن رأى كأس ونستون فارغة حتى ذهب فأحضر القنينة ثم أترع له كأسه، لم يكن الساقي بحاجة إلى انتظار أوامر ونستون لأنه كان قد عرف عاداته، فرقعة الشطرنج في انتظاره دائماً والطاولة في زاوية المقهى كانت محجوزة له، وحتى حينما كان المقهى يمتلئ بالرواد فإنه كان يجلس إليها بمفرده لأنه ما من أحد كان يرغب في مشاطرته طاولته.

ولم يكن ونستون يبالي بعدد الكؤوس التي يحتسيها، وإن كان مسؤولو المقهى يقدمون له بين الحين والحين قصاصة ورق قذرة يقولون إنها فاتورة الحساب، وكان يدفعها وهو يعتقد دائماً أنهم يتساهلون معه في فاتورة حسابه غير أنه لم يكن ليبالي حتى لو غالوا فيها، إذ كان المال لديه وفيراً في هذه الأيام حيث كان يشغل وظيفة فخرية (شرفية) تدرّ عليه دخلاً أكبر بكثير مما كان يتقاضاه لقاء وظيفته القديمة.

توقفت الموسيقى التي كانت تبثها شاشة الرصد وحل محلها صوت اشرأب ونستون ليصغي له، لكن لم يكن ثمة أنباء من الجبهة، لقد كان مجرد بيان موجز من وزارة الوفرة جاء فيه أن الخطة الثلاثية العاشرة قد حققت فائضاً في نصيب الفرد من أربطة الأحذية بنسبة 98%.

وراح ونستون يفكر في حل مسألة الشطرنج ثم صف القطع وبدأ يحركها، لقد كانت نهاية خادعة فيما يتعلق بالفرسين: «الأبيض يتحرك فيميت الشاه بحركتين». نظر ونستون متأملاً في صورة الأخ الكبير وقال في نفسه وقد تملكته نزعة تأملية: إن الأبيض دائماً ينتصر، إنه ينتصر دائماً ودون استثناء وكأن ذلك مُعَدٌّ سلفاً، بل لم يحدث أبداً في تاريخ اللعبة أن فاز الأسود. ألا يرمز هذا لانتصار قوى الخير دائماً وأبداً على قوى الشر؟

وتوقف الصوت الصادر عن شاشة الرصد لحظة ثم قال بنبرة مختلفة وأكثر جدية: نحيطكم علما أننا سنذيع نبأ هاماً في تمام الثالثة والنصف. إنه نبأ في غاية الأهمية، فاحرصوا على ألا يفوتكم سماعه. لا تنسوا الثالثة والنصف. ثم عادت الشاشة لبث الموسيقى مرة ثانية.

وخفق قلب ونستون، إن ذلك تنويه بالبلاغ القادم من الجبهة، واستشعر بغريزته أن الأنباء القادمة لن تكون سارة، ولم يكن هاجس الهزيمة النكراء التي يمنى به جيش أوقيانيا في أفريقيا قد غاب عن ذهنه لحظة واحدة، بل خيل إليه أنه يرى جيش أوراسيا وهو يجتاح حدود أوقيانيا المنيعة بأعداد هائلة متراصّة كالنمل ويزحف متوغلاً داخل أفريقيا

وتساءل: لماذ لم يكن ممكناً تطويق هذا الجيش بطريقة أو بأخرى؟ كان الساحل الغربي لأفريقيا واضحاً في ذهنه، وأمسك بالفرس الأبيض وحرّكه عبر الرقعة، تلك هي النقطة المناسبة. وحتى حينما كان يرى الجحافل السوداء تزحف جنوباً كان يرى قوة أخرى تتجمع على نحو غامض وتباغت هذه الجحافل بالانقضاض على مؤخرتها فتقطع خطوط مواصلاتها براً وبحراً. وشعر بأن مجرد رغبته في حدوث ذلك يمكن أن تأتي بهذه القوة إلى عالم الوجود، ولكن يجب على هذه القوة أن تتحرك سريعاً، فلو استطاع جيش أوراسيا أن يستولي على أفريقيا برمّتها وإذا أصبح لديه مطارات وغواصات في رأس الرجاء الصالح، فإن ذلك سيمكّنه من تقطيع أوصال أوقيانيا، ولربما أدى ذلك إلى اندحار أوقيانيا اندحاراً نهائياً وإعادة ترسيم خريطة العالم والقضاء على الحزب. وأخذ نفساً عميقاً وقد انتابه خليط من المشاعر الغريبة أو بالأحرى طبقات من المشاعر بعضها فوق بعض بحيث لا يمكن للمرء أن يحدد أيها فوق وأيها تحت لكنها كانت تتصارع داخله.

وبعد أن زالت عنه هذه النوبة، أعاد الفرس الأبيض إلى مكانه، لكنه لم يعد قادراً على التركيز في الشطرنج، فقد هامت به أفكاره مرة أخرى ووجد نفسه ودون أن يشعر يخط بإصبعه على الطاولة التي يعتليها الغبار:

2+2=

لقد قالت له جوليا ذات مرة: «إنهم لا يستطيعون التغلغل إلى كيانك»، لكن أوبراين قال له: «إن ما يحدث لك هنا سيلازمك إلى الأبد، وهذا هو القول الصحيح، فما يقترفه المرء من أفعال وما يحدث له من خطوب تظل ملازمة له ولا يمكنه التخلص من آثارها، إن شيئاً قد قتل داخلك وأحرق ثم عولج موضعه بالكي».

ولقد رأى جوليا، بل وتكلم معها بعد أن أطلق سراحهما، فلم يعد ذلك ينطوي على خطورة، فقد أدرك بغريزته أنهم لم يعودوا يعيرون

أفعاله اهتماماً ولذلك كان بوسعه أن يرتب للقاء ثان يجمع بينهما فيما لو شاء أحدهما أو كلاهما ذلك. فلقاؤهما الأول جاء بمحض الصدفة والذي تم في الحديقة في يوم من أيام شهر آذار شديدة البرودة حيث كانت الأرض صلبة كالحديد، وأما الحشائش فكانت شبه ميتة ولم يكن هنالك سوى القليل من براعم الزعفران التي تنتصب في العراء فتفتتها الريح. وكان ونستون يسرع الخطا وقد تجمدت يداه ودمعت عيناه من شدة الريح عندما رآها على مسافة عشرة أمتار، هاله أنها تغيرت على نحو غير محدد، ومر كل منهما بالآخر دونما حتى إشارة، لكنه استدار وتبعها لأنه كان يعرف أن لا خطر في ذلك، وما من أحد عاد يهتم بهما. لكنها ظلت صامتة وتابعت سيرها عبر الحشائش من دون أن تعيره اهتماماً، ثم بدت بعدئذ وكأنها تبطئ من خطوها حتى تتيح له اللحاق بها وكانا قد بلغا آنذاك مجموعة من الأشجار العارية التي لم تكن تصلح للاختفاء أو الاحتماء بها من الريح. وأخيراً توقفا، وكان الجو قارس البرودة والريح تُحدث حفيفاً بين الأغصان وتمزق البراعم الصغيرة، فاقترب منها ونستون وأحاط خصرها بذراعه.

لم يكن ثمة شاشات رصد، بيد أنه كان من المؤكد وجود مكبرات صوت مخفاة كما كان من السهولة أن يراهما أحد المارة ولكنه لم يكن يعير أيا من ذلك أدنى اعتبار، فقد كان في استطاعتهما أن يتخذا من الأرض فراشا إذا رغبا أن يعاودا اتصالهما الجنسي، واقشعر جسده عندما خطر بباله ذلك الشيء. لكن جوليا لم تتجاوب معه حين أحاط خصرها بذراعه كما أنها لم تحاول تخليص نفسها منه وحينئذ أدرك كنه التغير الذي طرأ عليها، كان وجهها قد أصبح أكثر شحوباً وظهرت به ندبة طولية أسدلت شعرها على جزء منها، بيد أن ذلك لم يكن هو كل ما تغير فيها، فقد أصبح خصرها أكثر امتلاء وتيبّساً، وعلى الفور تذكر كيف أنه وعقب إحدى غارات القصف الصاروخي كان قد ساعد في انتشال إحدى الجثث من تحت الأنقاض وهاله ثقلها وتيبسها غير الطبيعيين وهو

الأمر الذي جعلها تبدو أقرب للحجر منها للّحم. وأحس ونستون بأن جسم جوليا الذي يطوقه بذراعه قد أصبح أشبه بتلك الجثة، كما شعر بأن نسيج جلدها قد بات مختلفاً كلية عما كان عليه من قبل.

لم يحاول ونستون تقبيلها، كما لم ينبس أحدهما بكلمة. وعندما عاودا السير فوق العشب الأخضر نظرت إليه مباشرة لأول مرة، وكانت نظرة ملؤها الازدراء والكراهية. لكن ونستون لم يكن يدر هل كانت هذه الكراهية نابعة مما تنوء به من ذكريات ماضية أو كان مبعثها هو وجهه المنتفخ وعيناه الدامعتان بسبب الريح البارد. وجلسا على مقعدين حديديين، جنباً إلى جنب لكن دون أن يقترب أحدهما من الآخر وكانت كلما همّت بالكلام تراجعت وسَحقت، بدلاً من ذلك، بقدمها غصناً يابساً.

وقالت غير مكترثة: «لقد خنتك».

فقال لها: «وأنا أيضا خنتك».

ورمقته بنظرة أخرى مفعمة بالكراهية، ثم قالت:

- إنهم يهددونك أحياناً بشيء لا يمكن احتماله ولا يمكن حتى تخيّله. وحينئذ تقول: لا تفعلوا ذلك بي بل افعلوه بأي شخص آخر. وقد تدّعي فيما بعد بأن ذلك كان مجرد حيلة لجعلهم يكفّون عن تعذيبك وأنك لم تكن تعني ما تقول في واقع الأمر. لكن ذلك لم يكن صحيحاً، ففي ذلك الوقت كنت تعني ما تقول، وكنت تظن أن لا منجى لك إلا بهذا السبيل، وكنت على استعداد لسلوكه ما دامت نجاتك فيه، ولا تأبه بما سيترتب على ذلك من معاناة لغيرك. فكل ما يهمك هو نفسك وحسب.

فقال مردداً وراءها كرجع الصدى: «كل ما يهمك هو نفسك وحسب».

ومضت جوليا تقول: «وبعد ذلك فإنك لا تعود تشعر المشاعر نفسها التي كنت تكنّها من قبل لهذا الشخص الآخر».

فقال مردداً كرجع الصدى: «لا، إنك لا تعود تشعر المشاعر نفسها».

وبدا لهما أنه لم يعد لديهما ما يمكن الكلام عنه. وعادت الريح تعصف بهما، وشعرا بالضيق من جلوسهما صامتين، فضلاً عن أن جلوسهما دون حراك كاد يجمد أطرافهما من فرط البرد، ولذلك نهضت جوليا لتنصرف متعللة بأنها تريد اللحاق بالقطار.

فقال ونستون: «يجب أن نلتقي ثانية».

فقالت: «أجل، يجب أن نلتقي ثانية».

وتبعها متردداً وهو يقدم رِجْلاً ويؤخر أخرى، وسار في أثرها مسافة قليلة، لكنهما لم يتبادلا الحديث مرة أخرى، ومع أنها لم تحاول التخلص منه فإنها أسرعت الخطى حتى لا تمكنه من السير إلى جانبها وكان قد عقد العزم على مرافقتها حتى تصل إلى محطة القطار، ولكن بدا له أن هذا التعقب وسط هذا البرد القارس أمرٌ فيه رعونة وغير محتمل. وعندئذ تملّكته رغبة عارمة في الكف عن متابعة جوليا والعودة إلى مقهى شجرة الكستناء الذي لم يسبق أن شعر نحوه بمثل الانجذاب الذي شعره في تلك اللحظة، لقد أحس بالحنين إلى طاولته التي في الزاوية وفوقها الصحيفة ورقعة الشطرنج وكأس الجن المترعة دائماً. وسرعان ما تلكأ في سيره حتى حال بينه وبينها مجموعة من المارة، غير أنه عاد وبذل محاولة مترددة للحاق بها مرة أخرى، لكنه عدل عن ذلك وارتدّ منطلقاً في الاتجاه المعاكس. وبعد أن صار يفصله عنها خمسون متراً تطلّع خلفه فوجد أنه لم يعد يميزها من المارة رغم أن الشارع لم يكن مزدحماً، وأصبح من المحتمل أن تكون هي أي واحدة من عشرات السائرين في الشارع، حيث بات يتعذر عليه تمييزها من الخلف بعد أن غدا جسمها أكثر امتلاء وتيبّساً.

وتذكر قولها: حينما كانوا يعذبونك كنت تعني ما تقول. ورأى أنها

أصابت القول، فهو لم يكتفِ بقول ذلك وحسب، وإنما تمنى حدوثه أيضاً، فقد تمنى لو أنها هي لا هو التي عُرّضت للجرذان.

وكان قد دلف إلى المقهى في تلك اللحظة وأخذ مقعده المعهود وراح يصغي إلى شاشة الرصد حيث كان ثمة تغيير قد طرأ على الموسيقى التي تبثها تمثّل في نغمة تهكمية هازئة بدأت تتخللها، ثم سمع صوتاً لم يدرِ إن كان من وحي ذاكرته أم من شاشة الرصد، فقد سمع صوتاً يشدو:

تحت شجرة الكستناء ذات الأغصان الوارفة

بعتك وبعتني !!

واغرورقت عيناه بالدموع ولاحظ الساقي أن كأسه فارغه فرجع له بقنينة الجن.

رفع ونستون كأسه وراح يفرغها في جوفه، وكانت رائحتها الكريهة تزداد سوءاً مع كل جرعة ولكنها مع ذلك كانت سلواه الوحيدة، فقد باتت هي حياته ومماته وسلواه، فعليها ينام كل ليلة نومة المخدور وعليها يستيقظ كل صباح. وحينما يستيقظ كل صباح، وقلما يكون ذلك قبل الساعة الحادية عشرة ويجد جفونه ملتصقة ببعضها ويحس بالتهاب في حلقه وألم حاد في ظهره، كان من المستحيل أن يرفع ظهره لولا قنينة الجن والكأس الموضوعتين بجانب سريره. وخلال ساعات النهار كان يجلس وعلى وجهه علامات الوجوم، والقنينة في متناول يده، مصغياً لما تقوله شاشة الرصد. وبدءاً من الساعة الثالثة عصراً حتى ساعة إغلاق المقهى كان ونستون بمثابة قطعة أثاث في مقهى شجرة الكستناء، لم يعد أحد يأبه بوجوده أو يكترث لما يفعل، كما لم يعد دويّ الصافرات يوقظه من سباته، وما عاد يزعجه ما يصدر عن شاشة الرصد من صوت. لكنه كان أحياناً، ربما مرتين في الأسبوع، يتوجه إلى مكتب مغطى بالغبار يكاد يكون منسياً في وزارة الحقيقة حيث يؤدي عملاً قليلاً أو ما كان

يسمى عمل، إذ كان قد عُيِّن في عضوية لجنة فرعية منبثقة عن لجنة فرعية كانت بدورها قد انبثقت عن عدد لا حصر له من لجان شُكِّلت لمعالجة الصعوبات الطفيفة التي تعترض عملية تصنيف الطبعة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة. وكان أعضاء هذه اللجان يعكفون على إعداد ما سمي بـ«التقرير المؤقت»، أما حول أي موضوع كانوا يعدون هذا التقرير، فذلك أمر لم يدركه أحد على وجه التحقيق أبداً، فقد كان شيئاً يتعلق بما إذا كان يجب وضع الفاصلة بداخل الأقواس أو خارجها. وكان يشاركه بهذه اللجنة أربعة أعضاء آخرون حالهم مثل حاله. وكانت تمر أيام يجتمعون فيها ثم ينفضّون ثانية كما اجتمعوا ويفضي بعضهم إلى بعض بكل صراحة بأن ليس هناك ما يمكن عمله، إلاّ أنهم في أيام أخر كانوا ينكبّون على عملهم، وقد اعتراهم حماس وتوقّد، ويتظاهرون بأنهم يُدخلون التعديلات التي تمخضت عنها اجتماعاتهم السابقة ويعدون مسودات لمذكرات مطوّلة لا تنتهي أبداً، ثم يحتدم النقاش فيما بينهم حول ما يفترض أنهم يتناقشون حوله حتى يصبح مبهماً، وتشوب حديثهم مماحكات وخلافات غير واضحة حول التعريفات ويخرجون كثيرا عن الموضوع ثم يتشاجرون ويهدد بعضهم بعضاً برفع الأمر برمته إلى السلطات العليا. ثم فجأة يدخلون في حالة من الصمت بعدما تكون طاقاتهم قد استنفدت، فيتحلقون حول الطاولة وكأنهم أشباح وهم ينظرون إلى بعضهم نظرات شاخصة تتلاشى مع صياح الديكة.

ظلت شاشة الرصد صامتة للحظة، فأرهف ونستون السمع لعله يكون في ذلك إشارة إلى قرب موعد نشرة الأنباء، ولكن خاب رجاؤه، فقد كان ذلك مجرد تغيير للموسيقى. وتراءت أمام ناظريه خريطة أفريقيا، وكانت تحركات الجيوش عليها تأخذ أشكالاً هندسية، فهناك سهم أسود ينطلق رأسياً إلى الجنوب، وآخر أبيض ينطلق أفقياً إلى الشرق ويقطع مؤخرة السهم الأول. وكأنما أراد ونستون أن يبث في نفسه شيئاً من الطمأنينة، فرفع رأسه وتطلّع إلى الوجه رابط الجأش الذي

بالصورة ومضى يتساءل: هل من المعقول ألا يكون للسهم الثاني وجود على الإطلاق؟

لكن اهتمامه بذلك فتر مرة أخرى، فازدرد جرعة أخرى من الجن، والتقط قطعة شطرنج هي الفرس الأبيض وقام بتحريكها حركة ارتجالية ثم أدرك أنها لم تكن حركة صحيحة.

وفجأة ومن دون مبرر جاشت الذكرى في ذهنه مرة أخرى، فرأى غرفة مضاءة بالشموع وفيها سرير ضخم، بينما كان هو في سن التاسعة أو العاشرة يجلس على الأرض ويلعب بحجر النرد ويضحك ضحكا هستيرياً فيما أمه تجلس قبالته وتضحك هي الأخرى.

لا بد أن ذلك كان قد وقع قبل أن تختفي أمه بشهر واحد، لقد كانت لحظة من لحظات الوئام التي ينسى فيها ألم الجوع الذي ينهش أحشاءه ويعاوده فيها حبه لأمه. إنه يذكر ذلك اليوم جيداً، لقد كان يوماً عاصفاً ماطراً حيث كان الماء يجري فوق زجاج النافذة من الخارج بينما كان الضوء داخل الغرفة خافتاً بحيث تتعذر القراءة ، وكانت حالة الضجر التي تملكت الطفلين وهما وسط هذه العتمة قد باتت لا تطاق، فراح ونستون يتأوه وينتحب وهو يطالب بالطعام دون جدوى، ثم أخذ يحور ويدور في الغرفة وهو يركل أسفل الحائط بقدميه حتى ضج الجيران واحتجوا على ذلك الصخب، بينما انخرطت الطفلة الصغيرة في البكاء على نحو متقطع. وأخيراً نطقت أمه قائلة: «كن لطيفاً وسأشتري لك لعبة، لعبة جميلة ستحبها». وعندئذ خرجت من المنزل تحت زخات المطر ومضت إلى حانوت صغير كان لا يزال مفتوحاً بالقرب منهم ثم عادت إليه بعلبة من الكرتون تحتوي على أدوات لعبة السلم والثعبان. وهو لا يزال يذكر رائحة الكرتون الرطب الذي صنعت منه اللعبة، لقد كانت أدوات اللعبة في حالة مزرية، فاللوح مشقق وحَجَرا النرد المصنوعان من الخشب كانا غير منتظمين في تقطيعهما. نظر ونستون إلى اللعبة نظرة عابسة وبلا أدنى اهتمام، وعندئذ أضاءت أمه

شمعة وجلسا على الأرض معاً وراحا يلعبان. وسرعان ما انخرط ونستون في ضحك صاخب حينما رأى الثعبان يتسلق السلم حتى يسقط ثم يعيد الكرة ثانية وهكذا دواليك. وقد لعبا ثمانية أشواط فاز كل منهما بأربعة. وأما أخته الصغيرة فقد جلست تحدق في الوسادة وراحت تضحك، ليس لأنها تفهم ما يجري أمامها وإنما لأن أمها وأخاها يضحكان. وهكذا أمضى أمسية هانئة مثل تلك التي كان يمضيها في طفولته الأولى.

ولكن ونستون أقصى هذه الذكرى عن ذهنه لأنها كانت ذكرى زائفة من تلك الذكريات التي تقضّ مضجعه بين الحين والآخر، فبعضها يتعلق بأشياء وقعت والبعض الآخر يتعلق بأشياء لم تقع على الإطلاق. ثم التفت إلى رقعة الشطرنج والتقط الفرس الأبيض مرة أخرى، ولكنه لم يكد يفعل حتى سقط الفرس من يده محدثاً صوتاً عالياً، أما هو فقد انتفض كما لو أن دبوساً قد غُرزَ في لحمه.

وشق نفيرُ بوقٍ عنان السماء، لقد جاءت النشرة أخيراً. إنه النصر، فقد كان نفير البوق يعني حينما يسبق الأنباء أن نصراً تحقق، وسرى ما يشبه الصدمة الكهربية في جميع رواد المقهى، حتى السقاة تسمروا في أماكنهم وأصاخوا السمع.

كان نفير البوق قد أعقبته جلبة وضجيج من الحضور، كما كان ثمة صوت يدوي من شاشة الرصد، لكن الأصوات الهادرة التي انبعثت من الحناجر طغت عليه. وسرت الأنباء بين الناس من شارع إلى شارع سريان النار في الهشيم، ومع ذلك تناهت إلى سمع ونستون بعض العبارات التي تحقق من خلالها أن الأمور قد سارت تماماً على النحو الذي تصوره، فقد عرف أن أسطولاً ضخماً تم حشده في سرية تامة قد أصاب مؤخرة العدو إصابة قاتلة، لقد قطع السهم الأبيض مؤخرة السهم الأسود. واستطاع ونستون أن يلتقط بعض العبارات من هذا الضجيج:

«كانت مناورة استراتيجية بارعة - تم تحقيق الانسجام التام بين

القنوات- اندحار تام للعدو - نصف مليون أسير - بسط السيطرة على كامل أفريقيا - الحرب قاب قوسين أو أدنى من نهايتها - إنه أعظم نصر عرفه تاريخ البشرية . . . النصر، النصر، النصر!»

وبدأت قدما ونستون تقومان بحركات لاإرادية، ومع أنه لم يقم من مقعده إلا أن عقله كان يركض ويركض بسرعة، لقد تخيل نفسه يركض في الخارج مع الجماهير التي كان هتافها يصمّ الآذان، وتطلّع ونستون مرة أخرى إلى صورة الأخ الكبير الذي كان يقف كالطود الشامخ والعالم تحت قدميه! إنه الصخرة التي ارتطمت بها الجحافل الزاحفة من آسيا فخارت قواها! وراح ونستون يفكر كيف أنه منذ عشر دقائق فقط، كان قلبه لا يزال حائراً حول ما إذا كانت أنباء الجبهة ستأتي بالنصر أم بالهزيمة. لقد تغير كثيراً منذ اليوم الأول الذي وطأت فيه قدماه وزارة الحب، ومع ذلك فإن التغير النهائي الذي لا مناص منه لم يتحقق حتى هذه اللحظة.

كان الصوت الصادر عن شاشة الرصد لا يزال يروي قصة الأسرى والغنائم والمذابح، ولكن كان الهتاف الذي في الخارج قد هدأت حدته، وبدأ السقاة يعودون إلى أعمالهم، واتجه أحدهم صوب ونستون وملأ له كأسه. لكن ونستون لم يتنبه لذلك فقد كان يحلّق في سماء حلم بهيج، لم يكن فيه يركض مع الراكضين أو يهتف مع الهاتفين، وإنما عاد فيه إلى وزارة الحب وقد غفروا له ما تقدم من ذنب وصفت روحه حتى أصبحت كالثلج الأبيض. ثم تصور نفسه ماثلاً في قفص الاتهام أمام الجماهير وهو يعترف بكل صغيرة وكبيرة ويشي بكل شخص يعرفه. وسرعان ما رأى نفسه يجتاز الممر المكسو بالقرميد الأبيض، ويتملكه شعور بأنه يسير في ضوء الشمس فيما كان يسير حارس مسلح خلفه، وحينئذ جاءته تلك الرصاصة، الأمل الذي طال انتظاره، لتمزق دماغه.

حدق ونستون في الوجه الضخم، لقد استغرق الأمر منه أربعين سنة حتى فهم معنى الابتسامة التي كان يخفيها الأخ الكبير تحت شاربيه

الأسودين وقال في نفسه: أي غشاوة قاسية لم يكن لها داع تلك التي رانت على فهمي، وعلام كان العناد والنأي من جانبي عن هذا الصدر الحنون. وانسالت دمعتان سخيّتان على جانبي أنفه. وكان لسان حاله يقول: لكن لا بأس، لا بأس فقد انتهى النضال، وها قد انتصرتُ على نفسي وصرتُ أحب الأخ الكبير.

جورج أورويل

1984

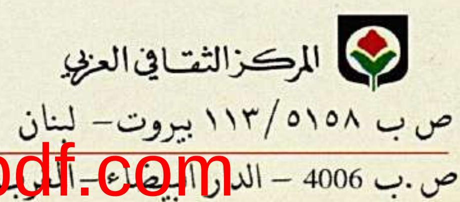
على مدى سنوات طويلة، ظلت رواية «1984» لجورج أورويل تُستعاد. يعود إليها الكتّاب الذين يتحدّثون عن الديكتاتورية والأنظمة الشمولية. وعلى مدى سنوات طويلة، ظلّت هذه الرواية حيّة وتقرأ بسبب جماليتها الأدبية وبسبب الصورة السياسية التي قدّمتها.

اليوم، وفي ترجمة جديدة، نقدّم هذه الرواية التي صوّرت بطريقة تنبؤية، مجتمعاً شمولياً يخضع لديكتاتورية فئة تحكم باسم «الأخ الكبير» الذي يمثّل الحزب الحاكم، ويبني سلطته على القمع والتعذيب وتزوير الوقائع والتاريخ، باسم الدفاع عن الوطن والبروليتاريا. حزب يحصي على الناس أنفاسهم ويحوّل العلاقات الانسانية والحب والزواج والعمل والأسرة إلى علاقات مراقَبَة تجرّد الناس من أي تفرّد وتخضعهم لنظام واحد، لا ينطبق على مسؤولي الحزب.

إنها رواية تُقرأ، ثم تُقرأ من جديد.


ISBN 9953-68-144-9

9789953681443


المركز الثقافي العربي

ص ب ٥١٥٨/١١٣ بيروت – لبنان

ص.ب 4006 – الدار البيضاء – المغرب